نيقولاس أوستلر

إمبراطوريّات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم

ترجمة

د. محمد توفيق البجيرمي

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

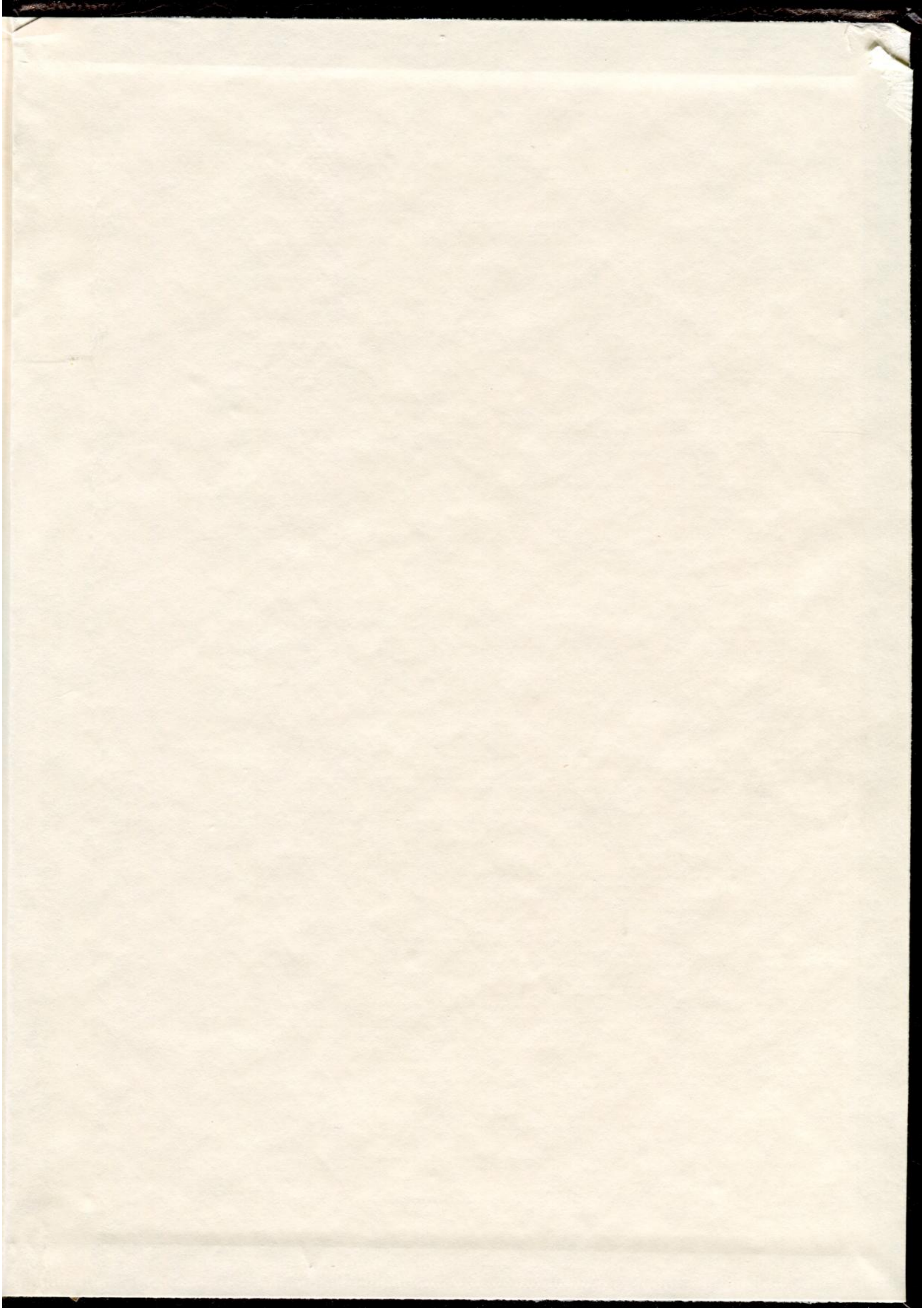
نيقولاس أوستلر

إمبراطوريات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم

ترجمة
د. محمد توفيق البجيرمي

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



إمبراطوريات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم



إمبراطوريات الكلمة

تاريخ للّغات في العالم

ISBN: 978-9953-27-914-5

Authorized Translation from the English Language Edition:

Empire Of The Word

الناشر

DAR AL KITAB AL ARABI — دار الكتاب العربي

Verdun St., Byblos Bank Bldg. — شارع فردان، بناية بنك بيبلوس

P.O. Box 11-5769 — ص. ب. 11-5769

Beirut 1107 2200 Lebanon — بيروت 1107 2200 لبنان

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف

Fax (+961 1) 805478 فاكس

E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني

www.dar-alkitab-alarabi.com

www.kitabalarabi.com
www.academia.com.lb

إلى جاين

التي لا غنى عنها



المحتويات

قائمة الخرائط والجداول والرسوم البيانية

الخرائط

الجداول

الرسوم البيانية

إشادات للاعتراف بالجميل

جاءت البذرة الأولى لهذا الكتاب من جون كوتس، العامل في جمعية باث الثقافية BRLSI؛ فقد دعاني لإلقاء محاضرة عن اللغة، كجزء من سلسلة ألفية عن 'تواريخ المستقبل'. ولم أدرك مدى الاتساع والأهمية في الموضوع الذي يفتحه هذا الأمر إلا بعد أن جلست للتفكير في تواريخ بضع لغات كبرى، ومع ذلك فإنه موضوع محذوف من مجال المعرفة العامة إلى حد كبير.

وقادت لولا بوبوش خطواتي الأولى إلى عالم الوكلاء الأدبيين، وهناك كنت محظوظاً بالعثور على ناتاشا فيروازر التي استطاعت أن ترى أفضل طريقة لتقديم موضوعي للناشرين. وبالإضافة إلى ذلك فقد أشارت علي بأعمال أخرى أغنت فهمي لموضوعي. ويعود الفضل لها ولمحرِّريَّ الواعين والمساعدين، ريتشارد جونسون، وآندرو بروكتر، وتيري كارتن، في جعل غزوتي الأولى لعالم النشر سهلة ومباشرة. وقد أدهشني زملاؤهم أيضاً بطرق مختلفة - ففي دار النشر "واط" Watt قامت ليندا شوناسي ببيع حقوق الترجمة عبر العالم كله حتى قبل أن أكتب كلمة واحدة، وفي دار "هاربر كولنز" تحملت كيت هايد التعامل مع مواد لم يسبق لها مثيل جاءت من جميع الجوانب، ومع مصممي الغلاف في المملكة المتحدة والولايات المتحدة دومينيك فوربس وروبرتو دي فيك. وقدّم آخرون من أماكن أقرب إلى موطني نقداً صارماً ولكنه مساعد للمسوّدات الأولى، ومنهم ابنتي صوفيا، وحَمَاي ديفيد ثيسن، والأهم من الجميع زوجتي، ومستشارتي الأدبية الأولى، جين دن. وقد جعلهم حسن ظنهم بي يرون أن الأخطاء التي عثروا عليها ليست نتيجة كوني أعمق من اللازم، بل فقط نتيجة كوني معتماً أكثر من اللازم. وعلى أي حال فإن جهودهم قد سهّلت على الآخرين كثيراً أن يروا ما كنت أرمي إليه طوال الوقت.

أما بالنسبة لديوني الفكرية أثناء الكتابة، فهي تشمل مساعدة قدّمها لي باحثون من جميع أنحاء العالم، أعطوني من وقتهم، وأوضحوا لي بكرمهم تفاصيل عن لغات يعرفونها أكثر مني بكثير: ومنهم جلعاد زوكرمان، وجوفري خان (الأكادية والآرامية)، ورشاد أحمد عزمي (العربية)، وحسن عوزات، وسالم مزهود (البربرية) وعبده الإمام (البونية)، وكريستوفر تشايلد (السواحيلية)، وأ. بروس بروكس (الصينية)، وهاركريشنا ساتباثي، ورادا مدهاف داش، وسانغامترا موهانتي، وبراتيفا مانجاري رالت (السنسكرتية)، وإيثر سوسيليا (الجورجية)، وماريا ستيلا غونزاليز دي بيريز (الإسبانية والبرتغالية)، وفرانسيس كارتونين (الناحواتل)، وأورولين لينكس (القيتشوا)، وإيما فولودارسكايا (الروسية)، وديفيد كريستال (الإنكليزية). وقام آندي باولي وداريل ترايون بشحذ معرفتي بلغات المحيط الهادئ، وقام كل من إيفن هوفداغن وفرانسواز دواي بتعريفي بالدراسات اللغوية في أوروبا والشرق الأوسط. وفوق كل شيء فإن بيتر ت. دانيلز، بعد أن أفادني من خبرته العميقة بالآرامية ولغات الشرق الأوسط، استمر في تحسين نص هذا الكتاب كله بطرق متنوعة باعتباره قارئاً متنبهاً ومنضّد حروف شديد التدقيق، حتى في الخط المسماري. ومن بين القراء الآخرين الذين صححوا الأخطاء: فرانك آبيت، وغونزالو كامبومور، وبارت هولاند، ودان هيوز، وتيم نو، وحسين روفي، ونوريكو آكيموتو سوجيموري، ومارك تورين، ولنغ لنغ يو، وأكثر من الجميع ستيفن بنهام، وفران كارتونين. فأنا ممتن لهم جميعاً. ولكن لا حاجة للقول بأنني لا أزال مسؤولاً عن الأخطاء التي بقيت.

وقد حمّلتني الرحلة الفكرية لإكمال هذا الكتاب ديوناً أخرى، أحدثها ما أنا مدين به لطوني ماكنري، الذي دبّر لي رحلاتي إلى الهند في عام 2001، ولجين سيمسون وديفيد ناش، اللذين قاما ـ بعد خمسة وعشرين عاماً من مشاطرتي نفاذ البصيرة حول اللغات والنظريات ـ بتمكيني من زيارة أستراليا عام 2002. فهي اليوم أرض فجر الدراسات اللغوية وتحتوي على مخزونات ضخمة من المعلومات والبيانات اللغوية. وهناك استطعت أن أقدم هذه المادة إلى جموع المستمعين المتعلمين والمتحمسين في بيرث، وسيدني، وآرميديل. ومن بينهم

يتعين علي أن أشكر جون هندرسون وَنِكْ ريد أيضاً على دعواتهما وكرم الضيافة الذي لا ينسى.

وبصورة أبعد، ولكنها ليست أقل أهمية، فإن المعرفة بالخلفية التي حصدت ثمارها هنا قد جاءتني من سلسلة طويلة ومتنوعة من مدرّسي اللغات: أذكر منهم على وجه الخصوص موريس بيكمور، وبيلا طومسون، وكين باتربي، وجيمس هوارث، وجيوفري آليبون، وجاك إند، وروبرت أوجيلفي، وجاسبر غريفن، وبيتر بارسونز، وأوليفر غورني، وآنا موربورغو ديفيز، ووابن أونيل، وبول كيبارسكي، وكين هيل، ودانييل إنغولز، وراما ناث شارما، وسوسومو كونو، وبارت ماتياس، وإدوين كرانستون، وروزالند هوارد، ومارتن بريختل، وداميان مكمانوس، وكيم ماكون، وستيوفين أوديرين.

إن هؤلاء الأدلّاء يشبهون الأنبياء. ففي بلدنا كثيراً ما يساء تمثيل تدريس اللغة باعتباره كدحاً متعباً مضللاً، والحقيقة أن تعلم لغة أخرى يمكن أن يبدو غالباً مهمة شبه مستحيلة. فليس هناك طريق سهل إليه. ولكن الذهب يلتمع في أماكن غير متوقعة على طول الممر كله. وبالنسبة لي كان هو أضمن طريق إلى عوالم جديدة تقع وراء خيالي.

تمهيد

قوة الإنسان في عقله ولسانه

(مثل عربي)

إذا كانت اللغة هي التي تجعلنا بشراً، فإنها هي التي تجعلنا بشراً متفوقين.

فالعقل البشري غير قادر على التفكير بدون ملكة اللغة. ولكن اللغة المحضة وغير المتميزة هي خيال فلاسفة. فاللغة الحقيقية موجودة دائماً في شكل محليّ: كالإنكليزية، والنافاجو [لغة قديمة للهنود الحمر في شمال أريزونا]، والصينية، والسواحيلية، والبوروشاسكية، وأي واحدة من عدة آلاف من اللغات الأخرى. وكل واحدة منها تربط متكلميها بتقليد ظل باقياً آلاف السنين. فعند تعلّمها في مجتمع إنساني، فإنها تسمح بالنفاذ إلى حشد كبير من المعارف والمعتقدات، وهي أرصدة تمكننا (عندما نفكر، وعندما نستمع، وعندما نتكلم، أو نقرأ ونكتب) من الوقوف على أكتاف كمية كبيرة من تفكير أسلافنا ومشاعرهم. فلغتنا تضعنا في سياق سلسلة ثقافية متصلة تربطنا بالماضي، وتظهر معانينا أيضاً لزملائنا من الناطقين بها في المستقبل.

وهذا الكتاب أساسي. إنه عن تاريخ تلك التقاليد، أي اللغات. ذلك أن المجموعات اللغوية ـ أكثر من الأمراء، والدول، والنظم الاقتصادية ـ هي التي تشكل الفاعلين الحقيقيين في تاريخ العالم، الباقين عبر العصور، فيفهمها الناطقون بها بوعي ووضوح باعتبارها رموزاً للهوية، ومع ذلك فهي تتغير بالتدريج، وربما تنقسم، بل وحتى تندمج، بحسب استجابة الجماعات للحقائق

الجديدة. وهذا التفاعل المتداخل فيما بين اللغات هو جانب من التاريخ طال إهماله أكثر من اللازم.

وبالإضافة إلى كون اللغات رايات وشارات للمجموعات الإنسانية، فإنها تحفظ ذكرياتنا أيضاً. وحتى عندما تكون اللغات غير مكتوبة، فإنها أقوى أدواتنا للحفاظ على معرفتنا الماضية، فتنقلها بين حين وآخر إلى أجيالنا التالية. إن أي لغة إنسانية تربط جماعة بشرية معاً بإعطائها شبكة تواصل، ولكنها تفرغها أيضاً في قالب مسرحي فتعطي وسائل رواية القصص وتذكرها.

وليس من الممكن رواية كل هذه القصص، حتى في كتاب كبير بحجم هذا الكتاب. إن كتاب "إمبراطوريات الكلمة" يركّز على اللغات التي تنامت ـ لسبب أو لآخر ـ خارج مواطنها، وانتشرت عبر العالم. ولكن حتى مع شرط دخول صارم كهذا، فإن اختصار عدد القصص من ألوف كثيرة إلى بضع عشرات، يبقي تنوعها طاغياً كاسحاً. وبطريقة ما فإن هناك عدداً كبيراً من القصص التي تستحق الرواية إلى درجة أن العمل لا يقتصر على رواية قصة واحدة، بل هو يميل إلى سرد حكاية عن اللغات "كألف ليلة وليلة".

ولسوف نقوم بجولة على نطاق من الابتكارات المذهلة، في التعليم والتربية، والثقافة والدبلوماسية، فكّر فيها الناطقون بالسومرية وما تلاها من اللغات في الشرق الأوسط، وصولاً إلى العربية في يومنا هذا؛ والمرونة الخارقة للغة الصينية وقدرتها على استعادة حيويتها خلال عشرين قرناً من الغزوات؛ والتقدم الرائع للسنسكريتية من شمال الهند إلى جاوة واليابان؛ واحترام الذات الأخّاذ في اللغة الإغريقية؛ والصراعات التي ولّدت لغات أوروبا الحديثة؛ وفي وقت متأخر عن ذلك كثيراً التفاصيل غير المتوقعة لكيفية بروزها عبر العالم.

وبالإضافة إلى هذه الإنجازات الملحمية فإن حالات فشل اللغات لا تقل عن ذلك في إثارة الاهتمام هي الأخرى. فالإمبراطورية الرومانية الغربية تعرضت لاجتياح كامل على أيدي الناطقين بالألمانية في القرن الخامس الميلادي. وقد أرست هذه الغزوات أساس بلدان أوروبا الغربية الحديثة: إذن فلماذا تخلفت

وراءها اللغة الألمانية؟ وفي إفريقيا حافظت اللغة المصرية على بقائها طيلة ثلاثة آلاف عام من الغزوات والسيطرة الأجنبية: فلماذا ذبلت واختفت بعد تدفق عربية محمد؟ وفي العصر الحديث، حكمت هولندا جزر الهند الشرقية فترة تعادل فترة حكم بريطانيا للهند: فلماذا لم تعد الهولندية لغة معروفة في إندونيسيا الحديثة؟ وإلى أن تتم الإجابة على مثل هذه الأسئلة فلن يمكن أبداً فهم الانتشار العالمي للإنكليزية.

وعلى صعيد ثقافي فإن هناك ما يذهل أيضاً في الآراء العالمية التي تمشّت مع اللغات المتقدمة والمتراجعة. وتتكاثر المفارقات الساخرة. فاللاتينية لم تفلح في شق طريق إلى الأمام مع محنكي شرقي الأبيض المتوسط الذين كانوا يتكلمون الإغريقية والآرامية. ولكنها سرعان ما لقيت احتضاناً على أيدي سكان بلاد الغال وإسبانيا الأميّين. وفي الأمريكتين أبطأ المبشّرون الكاثوليك انتشار الإسبانية على مدى قرون، ولكن في آسيا كان دور المبشرين البروتستانت حساساً في تبني الإنكليزية. ولعل من الأفضل أن نعترف منذ البداية أن غوامض الجاذبية اللغوية والتأثيرات اللغوية تجري في العمق: فسرد القصة ليس دائماً يعني فهمها.

ومع ذلك فإنني أعتقد أن الدراسة العالمية لتاريخ اللغات، وهذه هي محاولتها الأولى، هي بؤرة للعلم فيها من الاستنارة والصحة قدر يعادل على الأقل ما هو موجود في الاهتمامات العادية الأكثر انتشاراً للدراسات اللغوية التاريخية. إن أهمية مقارنة التأثيرات اللغوية للغزوات الرومانية والجرمانية لبلاد الغال تعادل أهمية مقارنة تراكيب أنظمة الأفعال اللاتينية والجرمانية - بل إن من الممكن فعلاً أن يلقي أحدهما شيئاً من الضوء على الآخر. فاللغات بطبيعتها تحدد المجتمعات، وبذلك تقدم مجموعات مكتملة من الأبحاث أوضح من معظم الدراسات الاجتماعية التي ينبغي أن تُبنى عليها التحاليل المقارنة. فلم يُعْطَ اهتمام كاف لنمو المجتمعات اللغوية، وتطورها، وانهيارها خلال الزمن، والضوء الذي يمكن أن تلقيه هذه كلها على أنواع المجتمع الذي كان ينطق هذه اللغات. وعلى سبيل المثال فإن من الحقائق المسلّم بها أنه في الإمبراطورية الرومانية

كان الغرب يدار باللاتينية، والشرق يدار باليونانية. وقد استمرت الإدارة اليونانية أطول من اللاتينية بقرون كثيرة. إذن فكم هو مدهش، ولكن كم هو كاشف أنه عندما حان وقت انهيار الدفاعات واجتياح مقاطعات الإمبراطورية، بقيت اللاتينية - ولم يحلَّ محلها شيء أبداً - ولكن اليونانية تبخّرت إلى حد كبير ضمن فترة جيلين فقط.

إن تاريخ لغات العالم يمكن أن يعبّر ببلاغة عن الشخصية الحقيقية للشعوب، وحركاتها الماضية، وتغييراتها. كما أنه يقدّم بعض التلميحات العريضة للمستقبل. فعندما سئل المستشار الألماني السابق بسمارك عام 1898 أن يختار واقعة وحيدة محددة في التاريخ الحديث أجاب:" إن أمريكا الشمالية تتكلم الإنكليزية". وكان على حق، كما أظهر القرن العشرون.

فقد تدخلت القوى العظمى لأمريكا الشمالية مرتين لتحسم نتيجة الصراعات التي بدأت في أوروبا. وكانت في المرتين إلى جانب القوى الناطقة بالإنكليزية. بل أكثر من ذلك، فإن ثورات القرن العشرين التكنولوجية في الاتصالات، والهواتف، والأفلام، وامتلاك السيارات، والتلفزيون، والحوسبة، وشبكة الإنترنت كانت قيادتها الغالبة الساحقة من أمريكا الناطقة بالإنكليزية التي راحت تعرض لغتها عبر العالم، إلى أجزاء لم تمسسها حتى الإمبراطورية البريطانية. ويكاد يبدو كأن هناك ثورة لغوية تتبع ذلك كله، تحملها أجهزة الإعلام الجديدة.

ولكن رغم أن انتشار لغة ما نادراً ما يمكن أن ينقلب على عقبه، فإنه ليس آمناً على الإطلاق. فحتى اللغة ذات القاعدة العريضة كالإنكليزية في القرن الحادي والعشرين لا يمكن أن تكون لها مناعة. فهي لا تزال عرضة لتهديد الأسباب القديمة لتعاقب اللغات: كالتغيّرات في نمو السكان وأنماط التجارة والنفوذ الثقافي. ورغم كل السيطرة التقنية الحديثة للإنكليزية، فلا شيء يضمن لها استمرار بروزها على المدى البعيد في النشر أو الإذاعة أو شبكة الوب العالمية (w.w.w). فالتكنولوجيا محايدة كالغابة.

وتاريخ اللغات بحد ذاته لا يشرح الماضي أو يتنبأ بالمستقبل. فهناك

ألوف من التقاليد اللغوية، وأحجامها النسبية تشهد تغيرات كبيرة ومفاجئة. فقد تبرز ابتكارات تجديدية هامة في أي واحدة منها، وفي الظروف الحديثة على وجه الخصوص فإن الابتكارات قد تنتشر بسرعة. ذلك أن لغات كالمصرية والأكادية، والسنسكريتية والفارسية، واليونانية واللاتينية، كانت كلها في أيامها تبدو غير قابلة لمقاومة سيطرتها ونفوذها. ولكن كما اكتشفت أنها دفعت الثمن غالياً، فإن الناطقين بها يمكن أن لا يتعلقوا بها عاطفياً.

إن مستقبل اللغة، كماضيها عرضة للامتلاء بالمفاجآت. ولكن لكي نكتشف ما حدث في التاريخ عموماً، ونعرف الفائزين والخاسرين الحقيقيين بين المجموعات البشرية، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل محصِّلات الصراع اللغوي.

ليتل سولزبوري هيل، 28 تموز/يوليو، 2004

مقدمة:

صدام اللغات

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1519، التقى هرنان كورتيز وعصبة من ثلاثمئة إسباني لأول مرة بحاكم المكسيك المطلق. وكان المكان ممراً مرتفعاً عبر البحيرة المؤدية إلى العاصمة تينوتشتيتلان. فكان كل ما حولهم ماء. وعلى الجانب الشرقي كان يشاهد بركان آخذ في التفجر. وكان كورتيز على ظهر حصانه، وله لحية، ويرتدي درعاً لمّاعاً يشي بمهنته الحديثة كضابط أمن في بلدة صغيرة ومنقّب هاوٍ عن الذهب. وكان موتيكوهزوما(*)، المولود ليجلس على الوسادة الملكية في المكسيك، والمنتصر في حروب كثيرة، محمولاً على محفة، متألقاً في لباس رأس دائري واسع مزيّن بريشٍ برّاق أخضر من طائر الكِتْسال [طائر من طيور أمريكا الوسطى]، وزخارف تزّين أنفه وأذنيه وشفته السفلى، وخلفه حرس من المحاربين يرتدون جلود نمور أمريكية مرقّطة وريش نسور.

وبعد تبادل الهدايا تم اصطحاب الإسبان إلى المدينة، وأنزلوا في قصر كان مسكناً لوالد موتيكوهزوما. وقدّم لهم عشاء من الديكة الرومية والفواكه، والطامال [طعام مكسيكيّ من دقيق الذرة واللحم المفروم مع الفلفل الأحمر]. ثم إن موتيكوهزوما الذي كان لقبه الرسمي طلاطوني، أي 'المتكلّم' عاد لتحية ضيوفه.

فكانت هذه أول لحظة تشارك فيها الزعيمان مباشرة في فهم هذه المقابلة التي صنعت التاريخ: حاكم أكبر إمبراطورية في الأمريكتين، وهو ما يزال في أوج قوته، يأتي ليتقابل وجهاً لوجه مع رجل عيّن نفسه مبعوثاً لملك إسبانيا، ورغم

(*) المعروف بشكل أفضل بالاسم المحرف مونتيزوما. أما لفظه الدقيق لغوياً فكان موتيوكزوما.

أنه كان تحت الحراسة في مدينة جيدة الحماية وجيدة التنظيم، أكبر من أي مدينة يمكن رؤيتها في أوروبا، فإنه كان - على نحو غريب - لا يشعر بالرهبة. وقد حددت كلماتهما مسار كل ما كان سيأتي لاحقاً، وقبل كل شيء الدبلوماسية المأساوية وعدم فهم الأزتيك، وعدوان الإسبان المدبّر والمحسوب والمخادع والمتواصل. فكان الخطوة الأولى نحو اجتثاث لغة الناحواتل كلغة للإمبراطورية المكسيكية وتقدم الإسبانية لتحل محلها كلغة للحكومة والدين أولاً، ثم لكل شيء آخر في العالم الجديد[1].

وقد افتتح موتيكوهزوما الحديث بخطاب وردي مزخرف بلغة الناحواتل، ترجمه المترجمون الذين جاء بهم كورتيز معه. فقامت مالين - تزين، وهي أمرأة مكسيكية نبيلة، بترجمة الناحواتل إلى لغة يوكاتيك مايا، وقام فراي جيرونيمو دي آغويلار، وهو قسيس إسباني بنقل المعنى من المايا إلى الإسبانية. وبعد ذلك رد كورتيز بالإسبانية، وسارت عملية الترجمة باتجاه معاكس.

*Totēukyoe, ōtikmihiyōwiltih ōtikmoziyawiltih.**

يا مولانا، لا بد أنك قد عانيت الآلام. ولا بد أنك شديد التعب.

كانت هذه تحية تقليدية، رغم أنه لم يكن هناك أشخاص يخاطبهم "المتكلم" المكسيكي بلقب 'مولانا'.

ō tlāltiteč tommahzītīko, ō īteč tommopāčiwiltīko in mātzin in motepētzin, Mešihko, ō īpan tommowetziko in mopetlatzin, in mokpaltzin, in ō ačitzinka nimitzonnopiyalīlih, in ōnimitzonnotlapiyalīlih ...

(*) في كل فصل، تم اعتماد شكل من التهجئة بحروف لاتينيّة، من أجل إنصاف طريقة لفظ أجزاء من لغة غير معروفة، مع عدم الابتعاد أكثر من اللازم عن أفكار غير اللغويين عن كيفية لفظ حروف الأبجدية اللاتينية. وعلى وجه العموم فإن حروف العلة تلفظ بشكل نقي وبسيط كما هي في اللغة الإسبانية. أما الحروف الصامتة والمجتمعة فتلفظ كما هي في الإنكليزية. كما أن اي خصائص غريبة أو غير عادية يعلن عنها في الحاشية الأولى. وهنا، بالنسبة للغة الناحواتل، لم يتم اتباع التهجئة التقليدية (الشبيهة بالإسبانية) في الحروف الهجائية اللاتينية: وبدلاً من ذلك، فإن الحرف č يمثل الصوت ch بالإنكليزية، والحرف š يمثل الصوت sh بالإنكليزية: كما أن الحرف h يستخدم لتمثيل صوت الحاء الحلقي الساكن، مثل حرف الـ t غير المسموع في لفظ الإنكليز والإسكتلنديين لكلمة "سكوتلاند"، وأما الحرف z فهو هنا أقرب إلى الحرف s الإنكليزي منه إلى z. وحروف العلة الطويلة توضع فوقها علامة المد، مثل، ā وē.. ويمكن تبسيط الكلمات الشائعة، مثل كلمة "تلاهتوني" *tlahtoāni*.

> لقد تفضلت بالمجيء إلى الأرض، واقتربت من مياهك، من مكانك العالي في المكسيك، ونزلت إلى وسادتك، إلى عرشك، الذي احتفظت لك به فترة قصيرة، أنا الذي اعتدت المحافظة عليه لك.

كان هذا غريباً. فقد كان موتيكوهزوما يخاطب كورتيز كتابع لسيده. فتابع كلامه بقوله: 'لأن حكامك قد ذهبوا، الملوك التابعون لك، إتزكوتال وموتيكوهزوما العجوز، وآكسيا كاتل، وتيزوك، وآهوتزوتل، الذين صاروا حراساً لمملكتك، لحكم المياه، والمكان العالي في المكسيك، أولئك الذين تبعهم رعاياك وساروا خلفهم'.

كان هذا شيئاً عجيباً وغريباً وشاذاً. إذ بدا وكأن موتيكوهزوما يضع كورتيز في مكانه كملك حاكم مطلق لهذه الأرض نفسها كان مفقوداً منذ زمن طويل ثم رجع. 'ألا يزالون ساكنين فيما تركوه وخلفوه وراءهم؟ آه لو أن واحداً منهم يستطيع أن يرى ويعجب بما حدث لي اليوم، وما أراه الآن في غياب سادتنا دون علمهم. إنه ليس مجرد خيال، ولا مجرد حلم. فأنا لست حالماً، ولا أتخيل، بل لقد رأيتك، ونظرت إليك'. وبذلك زعم موتيكوهزوما أنه يشاهد رؤيا تتحقق. ولا بد أن كورتيز كان عندئذ يفكر بأن الحظ، أو الله، قد جاء له بالزعيم المكسيكي ووضعه تحت سلطته. وتابع مخاطبة كورتيز قائلاً له: 'لقد مضى عليّ وقت طويل (خمسة أيام، عشرة أيام) وأنا أترقّب متطلعاً بقلق إلى المكان البعيد الغامض الذي جئتم منه، في الغيوم وفي الضباب. وهكذا فإن هذا هو تحقيق ما قاله الملوك، بأنك سوف تتفضل بالعودة إلى مياهك، إلى مكانك العالي، وأنك سترجع لتجلس على وسادتك وعرشك، وأنك سوف تأتي'. فمن السهل الاستنتاج بأن الزعيم المكسيكي كان يعتبر كورتيز مسيحاً موعوداً في البلد الذي كان كورتيز يأمل أن يغزوه ويفتحه: 'والآن لقد تحققت هذه الرؤيا، وتفضلت بالوصول وقد عرفت الألم، وعرفت الإرهاق والتعب. والآن، بما أنك جئت إلى الأرض، فاسترح وادخل إلى قصرك، وأرح أطرافك، ويا ليت سادتنا يأتون إلى الأرض'.

ولم يتوان كورتيز في استغلال هذا المظهر المذهل من الإخلاص والولاء الذي أبداه له الحاكم المكسيكي. ولكنه لم يكتف بمجرد قبول الخضوع الذي قدّم

له شخصياً، كما كان بوسعه أن يفعل. فما هو السلوك الإضافي الذي كان يتوقعه منه الأزتيك لو أنه ادعى أنه إله عائد بعد غياب؟ وكيف كان يمكن أن يكون رد فعل رجال كورتيز على ذلك الادعاء؟ وبدلاً من ذلك فإنه قد عزز ذهول موتيكوهزوما أمام أصل بعثته المعجزة، فنسج شيئاً من التملّق المنافق حول المسافة التي لا بد أن تكون قد وصلت إليها سمعة الحاكم المكسيكي. ولكن كورتيز عاد فوراً إلى التركيز على واجباته إزاء إلهه وملكه كما يراها وفرض تلك الواجبات على مُحاوره. بل لقد اختتم كلامه معه بالإشارة إلى موعظة.

وهذه رواية شاهد عيان:

> لقد رد كورتيز عن طريق مترجمينا [أي ألسنتنا الناطقة] الذين كانوا معه دائماً، ولا سيّما السيدة مارينا [مالينتزن] فقال له إنه لا يعرف بماذا يكافئه بنفسه أو عن طريق أي واحد منا، على كل أنواع الفضل العظيم التي يتلقاها منه كل يوم، وأننا بالتأكيد قد جئنا من مكان شروق الشمس، وأننا أتباع وخدم لسيد عظيم يدعى الإمبراطور دون كارلوس العظيم، الذي يخضع له أمراء عظام، وأنه قد سمع أخباراً عن موتيكوهزوما، وكيف أنه سيد عظيم. فأرسلنا لنراه ونطلب منه أن يصبح مسيحياً، مثلما هو إمبراطورنا ونحن جميعاً، وأنه يتعين عليه وعلى أتباعه أن ينقذوا أرواحهم. وتابع يقول إنه سيعلن لهم الآن مزيداً من المعلومات عن طريقة ذلك وكيف يجب أن يتم، وكيف نعبد إلهاً حقيقياً واحداً، ومن هو هذا الإله، مع أشياء كثيرة أخرى ينبغي أن يسمعها، كما أخبر سفراءه..

إن هذا الحوار المتبادل بلغة الناحواتل والإسبانية يسجّل لحظة مصيرية عندما تم وضع نمط اقتحام مجموعة لغوية لمجموعة أخرى. وقد حدث أنه تم توثيق هذا الحوار لدى كل من الطرفين، ولكنه ليس فريداً من نوعه. فهذه اللحظات الريادية من التأثير القاتل كانت تحدث طيلة التاريخ البشري، كما حصل في 11 تموز/ يوليو عام 1770 عندما قام القبطان جيمس كوك من الأسطول الملكي لبريطانيا

العظمى بمقابلة سكان أستراليا الأصليين الناطقين بلغة غوغويمدهير فيما هو الآن شمال مقاطعة كوينزلاند، أو في القرن الأول الميلادي عندما جاء شخص من جنوب الهند اسمه كوندينيا إلى ساحل بنام في كمبوديا، وسرعان ما تزوّج ملكتها المسماة سوما (أو ليوي، أي 'ورقة الصفصاف' في التقرير الصيني)، وبذلك قام بزرع الثقافة السنسكريتية في جنوب شرق آسيا.

إن هذا الكتاب يتعقب تاريخ تلك اللغات التي امتدّت إلى أوسع نطاق، كجزء من التاريخ الإنساني الذي نعرفه الآن. وبطريقة ما، ولأسباب متنوعة، فإن المجتمعات الناطقة بتلك اللغات تمكنت من إقناع آخرين بالانضمام إليها، وهكذا توسعت. أما دوافع ذلك الإقناع فيمكن أن تكون شديدة التنوّع - فهي تشمل السيطرة العسكرية، والآمال بالازدهار والإثراء، والتحوّل إلى اعتناق الدين، أو الدوام في المدارس الداخلية، والخدمة في الجيش، وأسباب كثيرة أخرى. ولكن هذا الإقناع في الأساس هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنتشر بها اللغة، وهو ليس شيئاً صغيراً، كما يعرف أي شخص حاول متعمّداً أن يتعلم لغة أخرى.



القسم الأول

طبيعة تاريخ اللغات

سمح [الملك إكسيركسيس] لثميستوكليس أن يقول ما يدور في ذهنه بحرية عن القضايا الإغريقية، فأجاب ثميستوكليس بأن كلام الإنسان يشبه السجّادات الغنية التي لا يمكن إظهار أنماطها إلا عند فرشها وفتحها. فعندما تُطوى السجّادات تختفي الأنماط فتضيع، ولذلك فقد طلب منحه وقتاً. فَسُرَّ الملك بهذا التشبيه، وطلب منه أن يأخذ وقته. فطلب إمهاله سنة. ثم بعد أن تعلم اللغة الفارسية بشكل كاف، تكلم مع الملك بلغته...

بلوتارخ، ثميستوكليس، 5:29



1

بساط ثميستوكليس

النظرة اللغوية للتاريخ الإنساني

من وجهة النظر اللغوية، فإن سكان العالم الحاليين ليسوا ستة مليارات، ولكنهم يزيدون قليلاً على ستة آلاف.

فهنالك ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف مجتمع في العالم اليوم معرّفون تحديداً باللغة الأولى التي يتكلمونها. وهم ليسوا متساوين في العدد. فمجال الحجم يمتد من لغة الماندرين الصينية التي يتكلمها حوالي 900 مليون ناطق يمثلون وحدهم سُدس سكان العالم جميعاً، وتليها اللغتان الإنكليزية والإسبانية، اللتان لكل منهما 300 مليون متكلم، وتتبعها سلسلة طويلة من المجتمعات الصغيرة: وعلى سبيل المثال فإن أكثر من نصف لغات العالم ينطق بكل منها أقل من خمسة آلاف متكلم، وهناك أكثر من ألف لغة لا يتكلمها سوى بضعة أشخاص. فهذا وقت يحدق فيه الخطر باللغات.

وبالنظر في التاريخ الإنساني نجد أن المجتمع اللغوي وحدة طبيعية جداً. فاللغات بطبيعتها كأدوات اتصال تقسم الإنسانية إلى مجموعات. ولا تستطيع أي مجموعة من الأشخاص أن تتصرف بشكل جماعي منسجم إلا من خلال لغة مشتركة، وبذلك يكون لها تاريخ مشترك. وعلاوة على ذلك فإن اللغة التي تتشارك فيها المجموعة هي بالضبط الأداة التي يمكنها أن تتقاسم بها ذكريات تاريخها المشترك. فاللغة تمكّن الناس أن يعيشوا تاريخاً مشتركاً وأن يسردوه.

ولكل لغة ملمح آخر يجعلها أنسب واسطة للحفاظ على تاريخ المجموعة. وكل لغة يتعلمها الصغار من الكبار، بحيث إن كل لغة حية هي تجسيد لتقليد. والتقليد خالد من حيث المبدأ. فاللغات تتغير عندما تنتقل من شفاه جيل إلى الجيل التالي. ولكن لا شيء في عملية النقل هذه يمثل التلاشي أو الانطفاء. ومثلما يتلقى كلُّ جيل جديد الحياة نفسها، فإنه يستطيع أيضاً أن يتلقى موهبة اللغة من جديد. وهكذا فإن اللغات ـ على عكس أي من الناس الذين يتكلمونها ـ لا يمكن أن تمرض، أو تموت.

ولكل لغة فرصة لتحقيق الخلود، ولكن ليس معنى ذلك القول إنها ستبقى إلى الأبد. فالجينات والأنواع التي ترمّزها تلك الجينات هي خالدة أيضاً. ولكن حالات الانقراض شائعة في علم الأحافير القديمة (المستحاثات). وبالمثل فإن فترة العمر الحقيقي للجماعات اللغوية تختلف اختلافاً هائلاً. فحوليات تاريخ اللغة مليئة باللغات التي ماتت وتلاشت، والتقاليد التي انتهت، فلم تترك وراءها أي ناطق بها على الإطلاق.

إن وجهة نظر اللغة في التاريخ يمكن مقارنتها بالنهج الوراثي في التاريخ الإنساني، الذي يحدث الآن ثورة في نظرتنا إلى ماضينا البعيد. ومثل الفرد في النوع البيولوجي الحيّ وانتماء النسب إلى سلالة الأمهات، فإن الفرد في مجموعة لغوية يقوم على أساس علاقة واضحة. فالفرد يكون عضواً في نوع معين إذا كان يستطيع الإنجاب مع أعضاء آخرين من ذلك النوع، وينتسب إلى سلالة الأم إذا كانت أمه تابعة لذلك النسب. وبالمثل فإنه على الصعيد الأساسي الأولي فإنك عضو في جماعة لغوية إذا كنت قادراً على استخدام لغتها.

إن فائدة هذه الوحدة المحددة لغوياً هي أنها تحدد بالضرورة مجموعة هامة بالنسبة لنا كبشر. فوحدة النوع تثير اهتمامنا في تحديدها لعلاقتنا في عصور ما قبل التاريخ مع المجموعات ذات الصلة بنا كالبشر الذين يقفون منتصبين على أقدامهم *Homo erectus* كنوع وبالبشر من فصيلة النياندرتال. ولكن بعد ظهور الإنسان العارف *Homo sapiens* كنوع بيولوجي فإن هذه الفائدة تؤدي إلى الحقيقة الواضحة بأننا، من ناحية النوع، مشمولون جميعاً في

هذا. كما أن وحدة الانتماء والنسب لها نقاطها هي الاخرى، فهي متميزة على مر الدهور بوجود حمض الدنا DNA المسؤول عن إنتاج الطاقة في الخلية، وعن كروموسومات Y، ويمكنها تقديم دليل مثير للاهتمام عن أصل السكان إذا كان هناك نسب واضح اليوم في السكان ولكنه مفقود في إحدى المجموعات المرشحة للانتماء إلى الأسلاف. وهكذا فقد تم الاستنتاج بأن أهالي بولينيزيا لا يمكن أن يكونوا قد جاؤوا من أمريكا الجنوبية. وأن معظم سكان أوروبا لديهم أسلاف بعيدون عن المصادر الزراعية في الشرق الأدنى، وأن أسلاف معظم سكان المنطقة الوسطى في إنكلترا هم من فريزلاند[1]. ولكن مع معرفتنا بانعدام المعلومات عن أمهات كثير من الناس أو آبائهم فإن ذلك لا يضع حداً على مجموعة من الناس ككل كما تفعل اللغة ذلك.

قارن وحدة مثل عرق عنصري حدوده غير معروفة بما لا يزيد عن مجموعة منتقاة من الصفات، سواء أكانت تشابهات سطحية مثل لون البشرة أو نسب أبعاد الجمجمة، كما كان معروفاً في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أو عن طريق الدم ومجموعات الأنسجة، وتسلسلات حمض الدنا، كما صار معروفاً مؤخراً. وبالمثل، فإن هناك عقبات لا يمكن التغلب عليها في تحديد النظير الثقافي للعرق العنصري، أي الأمة، وهذا تتبعه أشياء أخرى لا يمكن وزنها بدقة، حول الوعي بتاريخ مشترك، وربما لغة مشتركة أيضاً[2]. وبما أن كثيراً من الخصائص تنسب إلى أفراد مختلفين في أجيال مختلفة، فليست هناك أي أهمية عملية لما يمكن أن نفهمه عن أي مجموعة خصائص لعرق عنصري أو عن أمة(*). ولكن استخدام أي لغة معينة هو حقيقة وظيفية لا يمكن إنكارها

(*) ليست المشكلة هي كون المواصفات والخصائص المشتركة خيالية دائماً (مثلما كانت المعايير النازية للعرق اليهودي) أو حتى كونها عديمة الأهمية الموضوعية للبقاء (مثل كون امتلاك الجينات الوراثية لفقر دم الخلايا المنجلية وفقر الدم المتوسطي يعرّض الناس بوضوح للأمراض الوراثية بينما يعطيهم مقاومة للملاريا) وهذا ينبع من منطق الإحصائيات. فعند اختيار مجموعة من الناس لدراستها يجب دائماً تحديد مجموعة فرعية من الخصائص لاختيارها من مجموعة أكبر بكثير. ولكن الناس المتشاركين في مجموعة فرعية قد لا يتشاركون في مجموعة فرعية أخرى. وعندئذ فمن الذي يستطيع أن يقول (مسبقاً قبل بدء الدراسة) ما هي الخصائص التي تحدد المجموعة ذات التاريخ المثير للاهتمام؟ ومن الناحية العلمية فإن الخصائص المنتقاة تميل إلى إثبات المفاهيم المسبقة عند الباحثين. وهذا يؤدي

في أي مكان، وفوق كل شيء فإن استخدام اللغة هو إحدى خصائص كل مجموعة بشرية معروفة، وهو مستمر بإلحاح متواصل عبر الأجيال. وبذلك فإنه يقدم مفتاحاً عالمياً لتقسيم التاريخ الإنساني إلى مجموعات ذات معنى.

صحيح أن المجتمع اللغوي هو وحدة أكثر انتشاراً من العرق أو النسب والانتماء: فاللغة تتغير بسرعة أكبر من سرعة تغير سلسلة حمض الدنا، بل إن المرء لا يستطيع حتى أن يتأكد أن اللغة ستظل تنتقل دائماً من جيل إلى الجيل الذي يليه. فبعض الأطفال ينشؤون وهم يتكلمون لغة غير لغة والديهم. وكما سنرى عما قريب، فإنه ليس من الممكن دائماً إحصاء عدد المجتمعات اللغوية أو تمييزها بشكل يمكن الاعتماد عليه. ولكنها ملامح حقيقية لا يمكن إنكارها من الحالة الإنسانية.

إن مهمة هذا الكتاب هي رسم خريطة لبعض تواريخ التقاليد اللغوية التي صارت هي الأكثر شعبية، والتي نشرت نفسها في الفترة التاريخية في مناطق شاسعة من العالم المأهول. وسوف تنحصر رؤيتنا في تواريخ تلك اللغات التي يوجد لها دليل مكتوب ومباشر. وهذا يعني حذف عدد من أقدم اللغات، مثل انتشار لغة البانتو عبر جنوب إفريقيا، أو اللغات البولينيزية عبر المحيط الهادئ، ولكن رغم ذلك فإن القصة تشمل آلاف السنين بشكل دائم تقريباً. وتاريخ الإنسانية منظوراً إليه من لغاتها يعطي منظراً واسع المدى.

حالة الطبيعة

لقد ظلت اللغات العملة المتداولة للمجتمعات الإنسانية طيلة مئات الألوف من السنين، ومن الطبيعي أن نمط المجتمع اللغوي قد تغير في ذلك الوقت. والافتراض هو أنه قبل اكتشاف الزراعة وتوسّعها كانت المجتمعات الإنسانية زمراً صغيرة، تماماً مثل مجموعات الصيد والقطاف الباقية حتى يومنا هذا. وهذه المجموعات

مثلاً إلى جعل التناظر بين التصنيفات الوراثية والتقاليد اللغوية لمجموعات سكان العالم أقل إثارة للدهشة. إن هذا التعسّف الملازم لوضع وتحديد النماذج الإحصائية هو عيب أساسي في مصداقية ترتيب سكان عصور ما قبل التاريخ المرتبط مع لوكا كافالي - سفورزا (في كتابه الصادر عام 2001 مثلاً) وكثيرٍ من اتباعه.

كلها لها لغات ومعارف تقليدية شعبية قديمة وقصص يحكيها الكبار للصغار. ولقد كان من الممكن أن تكون كثافة السكان من البشر أقل بكثير مما هي عليه اليوم، أينما كان الناس يعيشون. ومن البديهي في اللغويات التاريخية أن اللغات المتصلة ببعضها بعضاً تفترق عندما يتوقف الاتصال بين المجموعات، وهكذا نستطيع الافتراض أيضاً بأنه في هذه الفترة المبكّرة فإن كل مجتمع يتمتع باكتفاء ذاتي ويتكون من عدد يصل إلى بضعة آلاف شخص لديه على وجه العموم لغته الخاصة به.

وقد تغير هذا كله في المجتمعات التي اعتمدت طريقة العيش المستقر القائمة على تربية قطعان الحيوانات وعلى الزراعة. وعندئذ صارت المجتمعات أكبر وأفضل تنظيماً. وفي المجتمعات المستقرة فإن جيران المرء في عام ما يظلون جيرانه طيلة أعوام كثيرة، بل طيلة أجيال قادمة. وقد تكون على المرء ضرائب ورسوم ينبغي دفعها، والتفاوض بشأنها مع سلطات أعلى. كما أن الأعياد والأسواق تجمع بين الناس من منطقة واسعة. ولا بد من إنشاء مقاتلين مسلّحين للدفاع عن المجتمعات المحلية، وللسرقة من الآخرين عند الشعور بأنهم أضعف منهم. وبدأت تبرز دوافع للتواصل بين الناس عبر مسافات أطول. ولا بد أن ثنائية اللغة قد زادت بين السكان، كما تنامى عدد المتكلمين بكل لغة؛ ومن المحتمل أيضاً أن يكون العدد المطلق للغات قد انخفض وفقدت المجتمعات الأصغر بعض متكلّميها بسبب الحرب أو الزواج أو الهجرة، أو ببساطة بسبب ميل عملي ذرائعي لاستعمال لغة قوم آخرين.

ومن طبيعة الوضع المتغير نفسه كان يمكننا استخلاص هذه العمليات. ولكن في الحقيقة كان من الممكن مراقبتها. فقد تمت مراقبتها في تطور متسارع في الجيلين الماضيين في بابواغينيا الجديدة، بينما راحت طرق الحياة القديمة المكتفية ذاتياً في القرى والتجمّعات الصغيرة تتراجع أمام طريقة الحياة الوطنية الأكثر اتساعاً. ومن ملامح هذا التحول تضاؤل أهمية كثير من اللغات المحلية وتبديلها عن طريق توسّع اللغات المجاورة، أو على نطاق عالمي أوسع باللغات المرتبطة بالتجارة على الصعيد الوطني أو الحكومي: فالرطانات العملية الهجينة أو

اللهجات المبسّطة بين الناطقين بلغات مختلفة تتحول بسرعة إلى لغات مختلطة تستخدم لأغراض عامة ثم تتوحّد بطرق غير رسمية ولكنها فعالة بين أعداد واسعة من المتكلمين.

معرفة القراءة والكتابة وبداية تاريخ اللغة

طيلة فترة وجود حكاية القصص وتصريف الأحكام القضائية، وطقوس المعالجة، كانت هناك سجلات لغوية يتم الاحتفاظ بها شفوياً في ذاكرة أفراد المجتمع المتعلمين. فعقول الكبار مصدر له وزنه، مليء بالأغاني، والسوابق، والمهارات، والخرائط، والوصفات، والتواريخ.

ولكن كان هناك دائماً عنصر ذاتي في التعلّم نابع من التلاوة، وكذلك حدّ عملي للكمية التي يمكن حفظها - إلا إذا كان بالإمكان تنظيم فرق متكاملة من حملة السجلات. وعلاوة على ذلك، فعند الحديث الآن من وجهة نظر المؤرخ المعاصر البعيد عن تلك الأزمنة القديمة، فإنه يظهر دائماً أن هناك ميلاً لعدم الدقة في السجلات القديمة المحفوظة في الذاكرة. وعند الاستعمال، كان هناك دائماً ضغط لتحديث السجلات شيئاً فشيئاً لتلبية حاجات العالم المعاصر: وإلا فبسبب التراكم التدريجي للتغييرات في المؤسسات الاجتماعية وفي اللغة أيضاً، فإن السجلات القديمة فعلاً من شأنها أن تصبح غير ذات صلة وغير مفهومة في وقت معاً. وحتى في يومنا هذا، بينما يمكن العثور على تقاليد شفوية متماسكة، فإن من النادر أن يتمكن المرء من الحصول على معلومات واضحة لا غموض فيها من شهادات المتذكّرين. فاستعادة الذكرى هي عمل منظّم مضبوط من إعادة التخيّل، والماضي البعيد قد يصبح بمنأى عن نطاق معرفة أيّ كان.

وحلّ هذا كله يكمن في معجزة الكتابة. وتقاليد الكتابة تبدأ عادة بنوع من إجراء سجلات المحاسبة - وعلى الأقل فإن السجلات والرموز كثيراً ما كانت من أوائل السوابق الواضحة المبكرة للوثائق المكتوبة التي بقيت - وكان الهدف منها تقديم إثبات موضوعي للكميات التي تنطوي عليها بعض الصفقات. ولكن مع

الممارسة العملية صار من الواضح غالباً أن الرموز كانت من حيث المبدأ قابلة لتسجيل أي رسالة، ومع نمو سهولة التعامل بالرموز، فإنها صارت قابلة للاستخدام كمساعد مباشر للذاكرة، وحتى للكلام البليغ الطلاقة.

وما أن تصبح ثقافة ما مالكة لوثائق مكتوبة حتى تبدأ بوضع أول الآثار التي سيكون من شأنها لاحقاً أن تساعد على كتابة تاريخ اللغة. فإذا كان لنظام الكتابة صلة واضحة باللغة كما هي محكية، فإن الحجارة الصمّاء أو الألواح الطينية أو جلود الحيوانات المحفوظة - أو أي شيء - تبدأ بأن تكشف لنا شيئاً ربما كنا نظنه سريع الزوال تماماً وهو كيف كانت اللغة تنطق بالفعل، ربما قبل ألوف السنين(*) (ورغم البداية الرمزية المعتادة بالأرقام والمفاهيم العامة فإن من المستحيل عملياً تطوير نظام كتابة يعمل تماماً بدون الإشارة إلى الكلمات باللغة المنطوقة).

إن كل اللغات التي سننظر في سيرتها لها تواريخ مكتوبة تعود إلى الوراء أكثر من ألف سنة، بل أكثر من ذلك أحياناً بمرتين أو ثلاث مرات. وفي كل حالة تقريباً كانت معرفة القراءة والكتابة مهارة تم تعلمها من الزوّار أو الجيران، ثم صارت جزءاً من تقليد اللغة نفسها. وكما يحدث - ما عدا في اللغة الصينية - فحتى اللغات التي نبعت منها الكتابة واستفادت منها في أبكر وقت، تخلت عن نظامها الأصلي واستعارت نظاماً آخر(**).

إن السير الماضية للّغات متنوعة كتنوّع العوالم التي خلقتها كل لغة للناطقين بها. فكان لها أقدار مصائر شديدة الاختلاف: فبعضها (مثل

(*) من سخرية الاقدار أن من بين المشاكل الشائعة أن نزعة المحافظة عند بعض الكُتّاب قد جعلت رموزهم تشير إلى نسخة من اللغة صارت غير مستعملة. فذكريات ما تم تعلمه في مدارس الكتبة قد تكون لها أولوية سابقة لما كان الكاتب أو الناسخ يسمعه بالفعل.

(**) تخلت اللغة المصرية عن الحروف الهيروغليفية، وهي (تعرف الآن بالقبطية) تكتب بأبجدية مشتقة من اللغة اليونانية. أما الاكادية والسومرية فلم تعودا تكتبان على الإطلاق؛ وهكذا فإن الخط المسماري حرف ميت. وقد زالت الفينيقية أيضاً، رغم أن كل أبجدية مستعملة من إيرلندا إلى سيام قد اشتقت من حروفها الاصلية. وقد انقطع استخدام الصور الرمزية المنقوشة النافرة بلغة المايا عند الغزو الإسباني لأمريكا. وتكتب هذه اللغات الآن كلها بالحروف اللاتينية. وفي تلك الاثناء تستمر كتابة الصينية بالحروف التي تم توحيدها لأول مرة على يد الرجل الذي أمر بإحراق كل كتاب في ذلك البلد (انظر الفصل الرابع، 'الوحدة الاولى'، ص 202).

السنسكريتية والآرامية) نمت حتى صار لها سكان ناطقون بها موزعون عبر رقاع شاسعة، ولكنها تقلصت في آخر الأمر حتى عادت بلا أهمية؛ وبعضها (كلغات القفقاس وبابوا) لمعت بشكل مطرد في ملاجئ لا يمكن الوصول إليها؛ وبعضها الآخر لا تزال تُخضِع الناطقين بها إلى تقاليد مختلفة تماماً (كما في كثير من أنحاء الأمريكتين الشمالية والجنوبية وإفريقيا وأستراليا). وبعضها (مثل المصرية والصينية) حافظت على الناطقين بها ألوف السنين في بقعة وحيدة، متحدّية كل الغزاة؛ وبعضها (كالإغريقية واللاتينية) انتشرت بالغزو العسكري، ولكنها خسرت مواقعها لغزاة جدد في آخر الأمر.

وكثيراً ما كان أحد التقاليد يصعد على حساب تقليد آخر ثم يقتلعه في آخر الأمر. فتتطفل لغة كبيرة على لغة أخرى وتعيش عالة عليها، ثم تستولي في هجوم مباغت على قنوات تم بناؤها على مدى أجيال. وهذه خدعة شائعة عندما تأتي إمبراطوريات في أعقاب إمبراطوريات أخرى في كل عصر وفي كل قارة. فالآرامية في بلاد فارس استفادت من الشبكات القائمة للغة ليديا في غرب آسيا الصغرى على تخوم بحر إيجه في القرن السابع؛ وفي القرن السادس عشر، اغتصب الإسبان لغات الأزتيك والإنكا فاستخدموها للتحكم في المكسيك وبيرو؛ وفي أوائل أيام البريطانيين في الهند، وصلت الإنكليزية والأوردو إلى تراكيب السلطة المبنية باللغة الفارسية. ولكن مقاييس الزمن التي تمت خلالها هذه التغيرات في المصائر كانت شديدة الاختلاف والتنوّع إلى حد مذهل. فقد يؤسس عقد واحد من الزمن لنمط يعيش بعده ألف سنة، كما حدث عندما استولى الإسكندر على شرقي الأبيض المتوسط من الفرس؛ وقد يقوم اتجاه معين بتثبيت نفسه رويداً رويداً، ميلاً بعد ميل، في قرية بعد أخرى، على مدى ألوف السنين: فهكذا تسربت الصينية متغلغلة في آسيا الشرقية.

ومعنى ذلك أنه على الرغم من التنوّع المحيّر فإن هذا التاريخ المروي عن طريق اللغات يمكن أن يعطي رؤية مُعمّقة لتأثيرات التغيّرات المفاجئة على المدى الطويل. وهذا صحيح وخاصة عندما يكون الشيء الآخذ في التغير هو طريقة تَحدُّثِ أمّةٍ مع أمة أخرى، كما هو حاصل اليوم.

والواقع أن التأثيرات المعقدة على اللغات عندما تتواصل الثقافات هي أفضل سجل لدينا عن التأثير الحقيقي. قارن بين التحاليل الأكثر شيوعاً والمستندة إلى الغزو العسكري، أو السيطرة التجارية، والتي قد تقدم وضوحاً كاذباً ومزيفاً. فما هو مدى اختراق الغزو الصاعق للإمبراطورية الرومانية الغربية على أيدي القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي؟ فمع أن هذا الغزو قد غيّر كل الرؤوس المتوّجة تغييراً أبدياً، إلا أنه ترك فرنسا، وإسبانيا، وإيطاليا الشمالية مستمرة في التكلّم بتنويعات من اللغة اللاتينية، وظلت كذلك حتى يومنا هذا. وما الذي كان يحدث حقاً في آشور في القرن السابع قبل الميلاد؟ في تلك الفترة، كان صعود الحكام مضموناً وكانت هناك فتوحات وغزوات جديدة، ومع ذلك كانت لغة آشور آخذة في التغير من الأكادية، لغة حكامها الطويلة العمر، إلى الآرامية، لغة البدو الرحّل الذين كانت آشور تغزوهم كما هو مشهور.

إن التاريخ اللغوي للعالم يُظهر تأثيرات حقيقية أكثر للحركات الماضية والتغيّرات في الشعوب تتخطى المزاعم العسكرية المعلنة لقادتها الذين يعيّنون أنفسهم في المناصب الرئاسية. وهذه التأثيرات والتغييرات تكشف تداخلاً خفياً في العلاقات الثقافية مع سياسات القوة والنزعة النفعية الاقتصادية.

ويقدّم هذا التاريخ أيضاً بعض التلميحات العريضة إلى ما يخبئه المستقبل. فهو يوحي بقوة بأنه ليس هناك انتشار مضمون وآمن لأي لغة في آخر الأمر: فحتى أكبر اللغات في القرن الحادي والعشرين ستكون عرضة إما للعناصر القديمة التي تقرر التتابع اللغوي أو لعناصر جديدة برزت في القرون الخمسة الماضية أو في السنوات الخمسين الأخيرة. فالهجرات، ونمو السكان، والتقنيات المتغيرة في التعليم، والاتصال - كلها تحدث تحوّلات في ميزان الهويات اللغوية عبر العالم، بينما يتنوع تركيز النفوذ والتطلعات مع تكيف اقتصاديات العالم لنشوء مراكز جديدة للثروة. فالأوضاع في المستقبل قد تكون فعلاً غير مسبوقة، مع إمكانية تحقيق اللغات لاستعمال عالمي حقيقي، ولكنها سوف تبقى إنسانية. والبشر نادراً ما يظلون متحدين لفترة طويلة.

تاريخ متجه للداخل أيضاً

ولكننا يمكن أن نتوقع من التاريخ اللغوي للعالم أن يكون كاشفاً بطريقة أخرى. فالمجتمع اللغوي ليس فقط مجموعة تتميز باستخدامها للغة معينة بذاتها: بل هو كيان متطور بحد ذاته، ونظرته إلى العالم تغذيها معلومات من تقليد لغوي عام مشترك. فاللغة تجلب معها كتلة من المدركات الحسية، والكليشيهات والصيغ الشائعة، والأحكام، والإلهامات. وبمعنى ما إذن فإنه عندما لا تحل لغة محل أخرى فلا بد أن نظرة الناس إلى العالم تتغير أيضاً.

وهكذا فإننا عندما نستعرض التاريخ الخارجي للمجتمعات اللغوية الكبيرة والمؤثرة، في حالات توسعها، وإعادة تمترسها على وجه الأرض، فسنحاول أيضاً أن نبين بعض جوانب الإحساس الداخلي للمجتمعات الناطقة بتلك اللغات.

وهذا شيء يصعب التعبير عنه جداً. ولعل أصعب ما فيه يكمن في اللغة نفسها. وكما لاحظ ويتغنشتاين، فإن حدود لغتي هي حدود عالمي؛ وكان يشعر أن هذه الحدود لا يمكن تعيينها إلا بصورة غير مباشرة، فلا يمكن ذكرها بصراحة على الإطلاق. وهذا الكتاب يحاول بطرق متنوعة غير مباشرة - وباستخدام وفير للترجمة - أن يبين شيئاً من المزاج الفكري الذي كيفته اللغة، حتى عندما كسبت أو خسرت ناطقين بها.

وهذا التزام خطر، ولكنه حاسم الأهمية إذا أردنا لتتابع اللغات التي سيطرت على الثقافات الإنسانية أن يكون لها معنى أكثر من مجرد قائمة من الأسماء والتواريخ في تسلسل زمني. ذلك أن جزءاً مما يؤكده هذا الكتاب هو أن هناك شيئاً أخفّ وأدق بكثير من تغيير الولاء يحدث عندما يبدأ جيل ما بتكلم لغة غير لغة والديه.

ويمكننا الحصول على أول تلميح طفيف عن ماهية هذا الشيء بمقارنة خطابي موتيكوهزوما وكورتيز من حيث الأسلوب أكثر من المضمون. فلغتاهما الناحواتلية والإسبانية تتميز كل منهما عن الأخرى تميزاً تاماً، بطرق تستدعي إلى الذاكرة سمات كل شعب على حدة. وأوضحها أنه مثلما يملك كل شخص

صوتاً يمكن التعرف عليه، فإن لكل لغة نظامها الصوتي أو الكلامي الخاص بها. لاحظ عبارة 'مدينتك مكسيكو'، فهي بلغة الناحواتل: "إن ماتسين إن موتيبيتسن مهشيكو" وهي بالإسبانية *"Su ciudad de Mexico"*. فالعبارة بلغة الناحواتل تستخدم الصوت "تس" الذي هو غير مستعمل في الإسبانية، تماماً مثلما كلمة *ciudad* الإسبانية تبدأ بالصوت "ث" الذي هو غائب وغير موجود في لغة الناحواتل. وحتى حيث كانت الإسبانية تحاول تقليد لغة الناحواتل مباشرة، كما في الاسم "مكسيكو" (الذي يلفظ مهشيكو)، فقد فشلت في التقاط التوقّف الحلقي الذي يكتب على شكل هاء ساكنة في كلمة "مهْشيكو"، الذي ربما كان النطق به يقتضي تهجئة كلمة مثل "مشيتكو"، أي *"Meshitko"* بالإنكليزية الحديثة.

ولكن قواعد الربط لإيجاد كلمات وجمل أطول تكون مختلفة بين اللغتين اختلافاً جذرياً كذلك. وهكذا فإن الاحترام الضمني في الاستخدام الإسباني لكلمة *Su* الدالة على كاف التملّك في البداية يعبر عنه بلغة الناحواتل بإضافة "تسين" *tzin* في آخر كل من الكلمتين. وفي العبارة نفسها فإن كلمة 'مدينة' بلغة ناحواتل هي بكل وضوح تجمع بين *a-tl* أي 'الماء' و*tepe-tl* أي 'الجبل' ولا يماثلها شيء في الإسبانية، حيث إن في كلمة *ciudad* معانيَ ضمنية عن الوضع المدني أكثر من معاني البروز الجغرافي. وبصورة عامة فإن كلمات الناحواتل هي في الغالب سلاسل طويلة من مقاطع قصيرة تتضمن معنى يعادل ما هو موجود في جملة كاملة بالإسبانية، بحيث تستخدم المقاطع القصيرة لإظهار احترام خاص وزيادة الطابع الرسمي في الكلمات المنطوقة.

ولكن الأصوات الكلامية، والمفردات، وقواعد النحو ليست سوى البداية لما يجعل اللغتين تختلفان. ومثلما يملك كل شخص طريقة كلام متميزة، منفصلة تماماً عن صوته الذي يمكن التعرف إليه، فإن لكل لغة أسلوب تعبير خاص بها. ويمكن تقليص هذا الفرق إلى أدنى حد عندما تكون اللغات متقاربة وكثيراً ما تتم الترجمة من واحدة منها إلى الأخرى، كما هي الحال بين لغات أوروبا الغربية مثلاً. غير أن الفرق موجود دائماً بشكل ضمني، فيبرز بوضوح شديد في المقابلة بين لغة الناحواتل واللغة الإسبانية.

إن أوضح جانب في أسلوب التعبير بلغة الناحواتل هو المزاوجة المطّردة بين الكلمات التي تكاد تكون مترادفة، كما في عبارة: 'لقد عانيت، فأنت متعب' و'وسادتك، عرشك'، و'أنا لا أحلم، ولا أتخيل، لأنني رأيتك، ونظرت إليك'. وعلى عكس ذلك، فإن الأسلوب الإخباري الأوروبي المتميز، حيث تتم تجزئة خطاب كامل باختصار بضمير المفرد الغائب، كما في الرواية الإسبانية لكلمات كورتيز، هو شيء غريب تماماً عن لغة الناحواتل. فلم تأت تلك الكلمات بصيغة: 'قال له: "أنا لا أعرف كيف أكافئك..."، بل بصيغة: 'أخبره بأنه لا يعرف كيف يكافئه...'، إلخ.

هذه أمثلة على الفوارق المتميزة بين اللغات في استخدامها اليومي. ولكن هناك مجال سجل اللغة الماضي، في أذهان الناطقين بها وفي الكتابة كذلك.

لقد كان موتيكوهزوما وكورتيز أسيرين لماضيهما الشفوي. فسرعان ما انهمك كورتيز في إعطاء موعظة فورية مرتجلة ما كانت لتحمل أي معنى بالطبع لأن مستمعيه كانت تنقصهم معرفة النصوص المسيحية التي تربى عليها في إسبانيا الكاثوليكية. ولكن خطاب موتيكوهزوما الموجّه إلى كورتيز لتمجيده كزعيم كان هو الآخر نتاجاً منمّقاً مليئاً بعطور كلام الأقدمين الذي كان جزءاً من مناهج مدرسة شباب النخبة في المكسيك. فكان يحتوي مثلاً على خطاب حول الواجب لإلقائه أمام قائد حديث التعيين: 'إن مولانا صاحب الصفاء الأكبر والإنسانية العظمى، وملكنا ذا الكرم والشهامة الكبيرين، والأنفس من جميع الحجارة الكريمة، وحتى من الياقوت الأزرق المخضرّ! هل ما نراه حلم؟ أيمكن أن نكون قد سكرنا من رؤية ما فعله مولانا لنا بإعطائنا إياك كملك ومولى؟ والحق أن مولانا قد وضع فوقنا شمساً جديدة ذات بهاء وضوءاً كضوء الفجر ...'[3].

فالمواضيع هنا دائماً في هذا النص من المدرسة التقليدية هي نفسها عن قائد جديد يظهر كما في حلم ويشبه ضوءاً من السماء. ولكن ما هو مفقود في تحيات موتيكوهزوما لكورتيز هو أي شيء يشبه الخطاب الذي يسبق هذا في

احتفالات الترحيب بزعيم جديد، وهو خطاب يتم فيه تذكيره بشكل كامل بواجباته وضرورة أن لا يؤدي علوّ شأنه الجديد إلى فقده رباطة جأشه. فهل كان حذف هذه التحذيرات من التحيات الودية الموجهة إلى كورتيز سيبدو غريباً للمستمعين الأزتيك؟

لقد كان من بين ملامح أسلوب لغة الناحواتل على الدوام استخدام العبارات الودية كمصطلحات للتشريف والتكريم. فلاحقة "تسين " التي رأيناها تستخدم للتكريم لا تزال تستخدم في لغة الناحواتل الحديثة كلاحقة مشحونة بالعاطفة: (نوكوكوني ـ تسين: 'يا بني العزيز'). وقد جادل بعضهم بأن هذا هو معناها الأصلي في الحقيقة. ومن المؤكد أن الاستخدام المهذب للغة الناحواتل يتضمن حالات قلب من وجهة نظرنا: فالحاكم الذي يحضر حفل زفاف يمكن مخاطبته بعبارة 'يا بنيّ العزيز'، بينما الخدم والأتباع في بلاط ملكي يخاطبهم مولاهم بكلمة 'أبنائنا'. وفي قواعد التشريفات بلغة الناحواتل يبدو أن الاحترام الأصيل كان يتم إظهاره بتبني جرأة في رفع الكلفة، ولعل العكس صحيح أيضاً. بل لقد اقترح البعض[4] أن لهجة التبجيل العالي وغياب كلمات الحب العاطفية في خطاب موتيكوهزوما لكورتيز تظهر في الواقع أنه كان يحقّر الإسباني، أو يحاول على الأقل أن يؤكد تباعد المسافة بين الاثنين. فإن كان ذلك صحيحاً فإنه كان نهجاً خالفه الصواب على نحو فريد. فقد كان كورتيز نفسه رجلاً عالي الثقافة ـ ولكنه ما كان ليستطيع التقاط هذه الخفايا البلاطية في مثل هذا الخطاب الغريب بلغة أهل القصور.

لقد أظهر هذا التحليل المختصر أن المقابلة بين الناحواتل والإسبانية في المكسيك في القرن السادس عشر قد وضع ثقافتين متطورتين وجهاً لوجه. وكان الانتقال إلى التكلم بالإسبانية لدى الأجيال القليلة التالية ينطوي على تغيير في العواطف القلبية وتغيير في اللسان كذلك، إلى درجة أن الاهمية الاجتماعية للتكلم بلغة الناحواتل في المكسيك (حيث تسمى تلك اللغة أيضاً مكسيكانو) بدلاً من الإسبانية قد استمرت حتى يومنا هذا. فيطلق الناطقون بها تعليقات كهذه:

ليست هناك طريقة لإمكانية اختفاء الناحواتل، فهي إرث من أسلافنا.

إن الذين يتكلمون بالمكسيكانو منا، حسناً إنها تعود لأجدادنا. فيجب أن لا تضيع هذه اللغة أبداً. لقد كان جدي وجدتي يتكلمان بالناحواتل دائماً. فلم يستخدما الإسبانية على الإطلاق.

من المهم ومن الجيد في الوقت نفسه أن يكون المرء قادراً على التكلم بالناحواتل، لأن هذه هي الطريقة الأصلية للكلام في المكسيك. فأنا أعتبرها هامة جداً لأنها تشعرنا بأننا مكسيكيون أصليون، لأن الإسبانية لم تُجْلَب إلى هنا إلا مع الغزو. ومنذ تلك الحين بدأ الناس يتكلمون الإسبانية في بلادنا. ولكن قبل الغزو كان أجدادنا يتكلمون الناحواتل. ومن الواضح أن الغزو جاء بتغييرات كثيرة. فكان فيه حضارة أكثر؛ ولهذا السبب فإنني أعتقد أن من المهم أيضاً أن نتكلم الإسبانية. ولكننا لم نستطع التوقف عن التحدث بالناحواتل لأن آباءنا كانوا يتحدثون بها، ونحن نتبعهم.[5]

إن كل لغة تحدد هوية مجتمع، فالناطقون بها يفهم بعضهم بعضاً. فاللغة تعمل لا كوسيلة اتصال بينهم فحسب، بل كشعار لهويتهم المتميزة أيضاً. وكثيراً ما يسبب ذلك يأساً للحكومات الوطنية التي تحاول صياغة هوية وحيدة لكل مجتمعاتها اللغوية المختلفة. وقد يكون لذلك تأثيرات معاكسة تماماً. فليس من الصدفة أن تختفي لغة الناحواتل من الاستخدام في الكتابة عند حوالي نهاية القرن الثامن عشر، وتختفي معها إلى حد كبير لغات كثيرة من لغات الأسلاف في المكسيك، بالضبط عندما كانت هناك حركات سياسية يقودها الناطقون بالإسبانية من أهالي المدن تثير الوعي بأن المكسيك بلد منفصل يتطلع إلى الاستقلال. فالتناقض بين أهل المدن الناطقين بالإسبانية وبين 'الهنود' الناطقين بلغات المكسيك القديمة كان ينظر إليه على أنه يلفت الأنظار بعيداً عن بروز هوية المكسيكي الحقيقي. فقد كان يجب أن يتخلص الناس من اعتبار اللغات القديمة باعتبارها 'متخلفة'.

يحاول هذا الكتاب أن ينقل شيئاً من وجهة النظر النموذجية المتميزة حول

عالم كل لغة يحكي قصتها. ومن الواضح أن العيش في لغة معينة لا يحدد فلسفة كلية في الحياة: ولكن بعض الاستعارات المجازية تخطر في الذهن بسهولة أكثر من غيرها؛ كما أن بعض الحالات الذهنية، أو المواقف من الآخرين، يسهل افتراض وجودها في لغة أكثر من غيرها. فلا يمكن النظر بلا مبالاة إزاء أي لغة نتكلمها أو أي اللغات كان أجدادنا وأسلافنا يتكلمون. ذلك أن اللغات تؤطر آراءنا في العالم، وتحللها، وتلونها. 'إن لي ثلاثة قلوب'، هكذا ادّعى كوينتوس إينيوس (239 ـ 169ق.م)، أحد فحول الشعر اللاتيني الأوائل، بشأن قوة طلاقته في اللاتينية، واليونانية، والأوسكانية[6].

2

ما الذي تتطلّبه اللغة لتكون عالمية؛ أو، إنك لا تستطيع أن تخمّن أبداً

إن قوى الدمج والتحصيل التاريخية، التي أنشأت كثيراً من اللغات الأوروبية في أعلى عشرين لغة في العالم على مدى القرون الخمسة الماضية يبدو أنها قد استهلكت نفسها ـ أو وقعت تحت حصار مسدود على الأقل ـ عند حلول نهاية القرن العشرين.

فلم يعد أحد يدافع عن الاستعمار الصريح المكشوف. ولم تعد غاية الاستعمار مقصودة بشكل مفتوح، رغم أن الحربين الجراحيتين اللتين افتتح بهما القرن الحادي والعشرون بغزو أفغانستان والعراق تظهران أن الوسيلة لا تزال مقبولة. وبالمثل، فإن تدفّق الهجرة الواسعة النطاق متوقف حالياً. ففي القرنين الماضيين، أوجدت التدفقات من البلدان الأوروبية جزءاً كبيراً مما يعرف الآن بالعالمين الناطقين بالإنكليزية والبرتغالية، ومعظمهما في الأمريكتين، ولكن أيضاً في إفريقيا، وأستراليا، ونيوزيلندا. ثم حدث تدفق هام في النصف الثاني من القرن العشرين، ولكنه أصغر بكثير، من البلدان التي كانت مستعمرة، فأوجد تجمعات ذات لغة جديدة منعزلة في قلب الأراضي الأوروبية.

إن الاتجاهات التي ستشكل المستقبل لا تزال مبهمة. ففي الوقت الراهن لا يزال هناك حشد من المهاجرين المتطوّعين، يتواجدون في سلسلة من البلدان أوسع بكثير، والكابح الرئيسي لحركتهم وإعادة توطينهم هو عدم استعداد البلدان المضيفة التي يرغبون فيها لقبولهم. وبينما يكتب بعض النقاد الخبراء عن

'صراع الحضارات' الوشيك فيضعون العالمين الناطقين بالعربية والإنكليزية وجهاً لوجه على الفور، يبدو النسيج السياسي الذي تضمنه أمم قوية راسخ ومتماسك.

ولكن المستقبل اللغوي للعالم ليس قضية شؤون حالية راهنة، ولا حتى تحليلاً إخبارياً. فانتشار اللغة شيء طويل الأمد يقاس بما لا يقل عن أجيال، بل يقاس أكثر بالقرون والألفيّات. والسؤال الأساسي الذي يطرحه هذا الكتاب هو: كيف - في أي ظروف وبأي تحرّكات - ازدهرت المجتمعات اللغوية في الماضي، وكيف تدهور بعضها، بل لقي نهايته.

إن أكثر الطرق استقامة لازدهار لغة ما يمكن تسميتها نهج الفلاّح. فكل ما على المجتمع أن يفعله هو أن يبقى متحداً، ويزيد عدد سكانه. وهذا ما يعرف بالنموّ العضوي الذي يعتبر التاريخ النموذجي للغات الكبيرة في آسيا الشرقية والجنوبية. وهو ليس مجهولاً حتى في أوروبا، وخصوصاً باتجاه شرقيها(*). وهو ليس استراتيجية مبادرة فعالة، ولكنه يثير سؤالاً لاحقاً: كيف استطاعت اللغات التي تتبع مثل هذه السياسة أن تدافع عن نفسها ضد المجتمعات الأجنبية، التي قد تتعرض لإغراء مهاجمتها وإحداث خلل واضطراب في نموها المطّرد؟

ومن شأن الخلل بطبيعته أن يأتي من مجتمعات لغوية تتبع ممراً أقل هدوءاً: ويمكن تسميتها مجتمعات الدمج والتحصيل، كنوع من التشبيه بالفاعلين الهجوميين في عالم الأعمال التجارية الحديث. وإذا كان النمو العضوي هو استراتيجية الفلاّحين، فإن هذا البديل يمكن أن يسمى نهج الصياد.

ومثل هذا التغيير، الناتج عن الاتصال المباشر بين المجتمعات، يتميز أحياناً كواحد من ثلاثة أنماط: الهجرة، حيث ينتقل مجتمع لغوي جسدياً، جالباً معه لغة جديدة ؛ والانتشار، حيث لا ينتشر الناطقون باللغة بأعداد كبيرة فعلاً، ولكن حيث يقوم الناطقون من أحد المجتمعات بتشريب لغتهم لتستوعبها لغة

(*) وبهذه الصفة، فإن هذا النمو بارز في تشكيل المجتمعات اللغوية العليا العشرين في وقتنا الراهن، التي سيتم النظر فيها قبيل خاتمة هذا الكتاب (انظر ص 713).

مجتمع آخر هم على اتصال به؛ ثم التغلغل، وهو خليط من النمطين السابقين[1]. فتقدم الإنكليزية في أمريكا الشمالية وأستراليا هو حالة هجرة، وفي الهند واسكندينافيا هو حالة انتشار، أما في جنوب إفريقيا فهو حالة تغلغل(*). ولا تستطيع لغة ما أن تصبح لغة مشتركة، أي لغة اتصال أوسع، إلا عن طريق الانتشار أو التغلغل: ولهذا يجب أن تكون اللغة قد التقطها أناس ليسوا من متكلّميها الأصليين.

إن مجتمعات الدمج والتحصيل اللغوية هذه هي التي يتطور دورها بسرعة، ومن خلال أعمال متعمدة على الأغلب. ومن الناحية العلمية، ستكون هذه هي اللغات الرئيسية التي نتابع سيرتها لأنها بالطبع هي الأكثر امتلاءً بالأحداث.

فهل هناك أي ملمح عام يجعل مجتمعاً لغوياً يغري الآخرين باستخدام لغته، وبذلك ينضمون إليه؟ إن إحدى طرق النظر إلى موضوع هذا الكتاب هي اعتباره تحقيقاً في جذور النفوذ اللغوي، المحدد بأنه النزوع إلى اجتذاب مستخدمين جدد للغة. فتحت أي ظروف تملك اللغات القدرة على النمو بهذه الطريقة؟ وهل هناك أي خصائص للعلاقة بين اللغات الجديدة والقديمة تجعل الناطقين بها راغبين في القيام بالقفزة وقادرين عليها؟

هناك اعتقاد ضار واسع الانتشار حتى بين اللغويين بأن هناك جواباً مباشراً لا رحمة فيه لهذا السؤال. ويقدم ج. ر. فيرث، اللغوي البريطاني البارز في منتصف القرن العشرين، بياناً جيداً وبسيطاً لهذا الجواب:

> إن القوى العالمية تصنع لغات العالم ... فالإمبراطورية الرومانية صنعت اللاتينية، وصنعت الإمبراطورية البريطانية اللغة الإنكليزية. وبالطبع فإن الكنائس قوى عظمى أيضاً ... فالرجال الذين لديهم مشاعر قوية موجّهة نحو العالم وقضاياه قاموا بأكثر الأعمال. ومن الصعب تصور ما الذي كان الأنبياء المتواضعون للوحدة اللغوية سيفعلونه بدون العبرية، والعربية،

(*) إن استخدام الإنكليزية الواسع الانتشار في الاتحاد الاوروبي يمكن رؤيته كانتشار يعززه التغلغل (بعد صعود المملكة المتحدة في العام 1973).

> واللاتينية، والسنسكريتية، والإنكليزية. فلغات العالم صنعها الساسة، والجنود، والبحارة، ورجال التبشير الديني، ورجال الفعل، وذوو المشاعر القوية. فاللغات مبنيّة على الدم، والمال، والأعصاب، والمعاناة في السعي وراء القوة[2].

وهذه قبل كل شيء صرخة من القلب يرن صداها منذ العام 1937، من أيام الإمبراطورية البريطانية الميتة، ومسيحية استعراض العضلات، وسيطرة الذكور؛ ويبدو أن فيرث (في رأي المدافعين عنه) مهتم أساساً بالمقارنة بين فعالية رجال الفعل ذوي الشهوات القوية وبين الدارسين الضعفاء في بناء اللغات الدولية.

ومع ذلك، فإن هذه الصرخة لا تصمد أمام النقد. فعند دراسة سِيَر اللغات بصورة جدية ـ حتى 'العبرية، والعربية، واللاتينية، والسنسكريتية، والإنكليزية' التي يذكرها فيرث بصراحة كأمثلة ـ يتضح أن رأيه هذا المتشدّد في التعبير عن مشاعره الذاتية ليس دليلاً أبداً على ما يجعل أي لغة قادرة حقاً على الانتشار. كما أنه لا يقدم تفسيراً للمصدر الذي جاءت منه كل لغات العالم، ولا لماهية الأشياء التي تحققها كل القوى العالمية.

ولعل أفضل حالة يمكن التفكير فيها تأتي من الأمثلة التي يوردها فيرث ويستشهد بها، وهي الإمبراطوريات العسكرية المتعددة الجنسيات والتي دامت عدة قرون، مثل المحاولات الرومانية والبريطانية. ولكن رغم استمرار وجود اللغات الرومانسية (التي نشأت عن اللاتينية)، فإن تلك اللغات ذات الأصل المشترك قد نمت في بلدان أزيح عنها الحكم الروماني ليحلّ محله استقرار الغزاة الجرمان. فإن رجال قبائل الفرانك، والبورغونديين، والفاندال، والقوط، الذين أقاموا الممالك في أوروبا الغربية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية [في العام 476 م] لم يكن تأثيرهم في أقصى درجاته يزيد عن اللكنة التي تنطق بها اللغة اللاتينية، وإضافة كلمات قليلة إلى مفرداتها؛ فلم ينجحوا في فرض لغتهم على رعاياهم الجدد في أي مكان. ومع ذلك فعلى الطرف الآخر من البحر المتوسط لم يتحقق للرومان أنفسهم أي نجاح أفضل في نشر اللغة اللاتينية. ففي العام 395 م، رغم مضي أكثر من خمسة قرون من الحكم الروماني المباشر، كان

الإغريق، والسوريون، والمصريون لا يزالون يتبادلون الحديث فيما بينهم باللغة اليونانية. (وبعد ذلك العام انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى اثنتين، شرقية وغربية، وسرعان ما فقدت اللاتينية حتى دورها الرسمي في الشرق).

وعلى مبعدة من ذلك الميدان، في شمال الصين، فإن الغزوات المتكررة للغزاة الأتراك ـ المغوليين والناطقين بلغة التونغو، والذين حكموا الصين طيلة سبعمئة عام من ألف عام بدأت من القرن الرابع الميلادي ـ لم يكن لهم أي تاثير على بقاء اللغة الصينية؛ وفي آخر الأمر فإن قبائل المانشو الناطقة بلغة التونغو احتلت الصين كلها في العام 1644، ومع ذلك فإن لغتهم نفسها تلاشت واختفت في غضون قرن واحد. فإذا عدنا إلى الشرق الأوسط فسنجد أن انتصارات الفاتحين المسلمين الناطقين بالعربية كانت مؤقتة: فاعتباراً من منتصف القرن السابع الميلادي احتكرت حضارتهم السيطرة على إيران، مع جيرانها في الشرق والغرب. ولكن عندما احتل السلاجقة الأتراك ذلك البلد من الجانب الآخر في القرن الميلادي الحادي عشر، اتضح أن العربية لم تترسخ جذورها هناك أبداً، وعادت اللغة وكل شيء آخر معها ـ ما عدا الدين ـ إلى الفارسية.

فمن الواضح أن الفتح الكلي العسكري وحتى الروحي ليس كافياً دائماً لإحداث تغيير لغوي. ومع ذلك يحدث أحياناً أن يتحقق ذلك على يد مجتمع يبدو أضعف. تأمّل في الآرامية، لغة البدو الرحّل، التي اجتاحت الإمبراطورية الآشورية التي كانت ما تزال في أوج قوتها في القرن الثامن قبل الميلاد، فحلّت محل اللغة الأكادية النبيلة التي كان تاريخها يعود إلى بداية حضارة وادي الرافدين نفسها. أو تأمّل في السنسكريتية، التي تم اعتمادها والأخذ بها في جميع أنحاء جنوب شرقي آسيا في الألفية الميلادية الأولى كلغة تخاطب عند النخبة، رغم أنها جاءت عبر البحر من الهند دون أن يدعمها جندي واحد. بل إنه ليبدو أن القيشوَا التي أصبحت لغة إمبراطورية الإنكا في البيرو في القرن الخامس عشر، قد تم تبنيها عن طريق تسوية مصالحة بين السلالات الحاكمة. فتخلّى الحكام عن لغتهم نفسها كي يضمنوا تأمين قبول نظامي هادئ لامتداد سلطتهم عبر مساحات شاسعة.

أما القوة الاقتصادية، التي كثيراً ما يعتقد الناس أنها تكمن في جذور

انتشار الإنكليزية برعاية بريطانية أو أمريكية، فإنها تبدو أقل لجوءاً إلى الإجبار القسري من القوة العسكرية. وقد سيطرت سفن الشحن الفينيقية على تجارة البحر الأبيض المتوسط طيلة معظم سنوات الألف الأول قبل الميلاد. وخلال جزء كبير من تلك الفترة كانت تدعمها في الغرب سيطرة مستعمرة قرطاجة الفينيقية التي كانت تتكلم اللغة نفسها. ولكن يبدو أن اللغة الفينيقية ظلت غير معروفة خارج مستوطناتها نفسها: فكانت اليونانية هي اللغة المشتركة للخطاب الدولي، ويستعملها حتى الجيش القرطاجي. وعلى مبعدة من ذلك إلى الشرق، فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، كانت ملكة طريق الحرير إلى الصين هي مدينة سمرقند الإيرانية: وكانت لغتها هي اللغة الصغدية، ولكن من سمع بها؟ فالتجار الصغديّون، رغم ثرائهم، وجدوا أن من الدهاء واللباقة أن يستخدموا لغات زبائنهم - العربية، والصينية، والأويغور - التركية والتيبتية[3].

وفي النص القوي المقتبس أعلاه، أكد فيرث على البعد الديني للسلطة والقوة، وهذا مهم في أغلب الأحيان، بل لعله ينبغي علينا أن لا نتحدث عن نفوذ اللغة، بل عن جاذبيتها الآسرة. فالسنسكريتية، إلى جانب كونها لغة الهندوسية المقدّسة، كانت مدينة بالكثير لتلاميذ بوذا وأتباعه؛ كما أن العبرانية كانت ستضيع منذ ألوف السنين بدون الديانة اليهودية. وأما العربية فكانت أكثر غموضاً، ففي المدى الطويل، أثبت الإسلام أنه الدافع الأساسي لانتشارها. ولكن الجيوش الناطقة بالعربية كانت هي التي نقلت لغتها بالفعل إلى آسيا الغربية وإفريقيا الشمالية، وخلقت دولاً دخلت إليها الدعوة الإسلامية بعد ذلك. وكان العرب مشهورين أيضاً كتجّار في منطقة المحيط الهندي. ولكن قبول الإسلام في هذه المنطقة لم يعط اللغة العربية أبداً أي شيء أكثر من دورها في الطقوس الدينية. ومن الغريب أن التأثيرات اللغوية على انتشار اعتناق الإسلام كانت شبه مستقلة عن أولويات الوعّاظ: فكان المسيحيون لا يبالون بأي لغة يتم التعبير بها عن عقيدتهم الدينية. كما أن نصوصهم التقليدية في العهد الجديد تسجل أقوال المسيح مترجمة. ومع ذلك فإن المسيحية نفسها أدّت دوراً حسّاس الأهمية في

الحفاظ على لغات كثيرة، بل وعلى نفوذ تلك اللغات، بما فيها الآرامية، والإغريقية، واللاتينية، والقوطية.

والواقع أن التبشير الديني كان عاملاً فعّالاً ليس فقط في سِيَر عدد قليل من اللغات العالمية، بل يمكن الادّعاء بأن الدين هو مجرد مثال على البعد الثقافي للغة، الذي هو المصدر النهائي لنفوذها. وبالطبع فإن الثقافة كلمة غامضة للغاية، فهي تشمل كل شيء، من تشكيل يد الفأس إلى التصريحات الجماعية عن المهمات والبعثات، وكذلك عن تقدير قيمة أشعار شكسبير الغنائية ورسوم هوكوساي؛ وهكذا فإن علاقة الثقافة وصلتها بحاجة إلى اهتمام أكبر وأدق بكثير(*).

وليس هناك امتناع عن دراسة العوامل الثقافية التي يفترض أنها أعطت التميز والنفوذ، عند تحليل حركات الشعوب في عصور ما قبل التاريخ، والقسوة الظاهرة في حلول شعب محل آخر (كما في حالة انتشار الشعوب الناطقة بلغة البانتو عبر الثلث الجنوبي من قارة إفريقيا، وما تلا ذلك من فرض القيود على مجال قبائل الصان والخوي، أو تغلغل البحارة الأوسترونيزيين إلى داخل جنوب شرقي آسيا، واتصالهم مع المالينيزيين). فالفنون الجميلة والتعليم العالي لا تعتبر في العادة من العوامل المساهمة ذات الأهمية الجدية. ذلك أن العوامل الثقافية التي توسع القدرة على دعم السكان الأكثر عدداً (عن طريق أشكال الزراعة الجديدة أو تربية الحيوانات مثلاً) هي التي تعتبر ذات أهمية خاصة. ولكن الابتكارات البسيطة في الممارسات العسكرية يمكن أن تكون فعّالة أيضاً.

وبين الحين والآخر تسيطر البيولوجيا الوحشية على الأمور، فتترك الفوارق الثقافية على الهوامش الجانبية وتصبح غير ذات صلة لفترة من الوقت. فإذا تعرض شعب ما للموت بسبب الأمراض على نطاق واسع، كما حدث لسكان

(*) إن الثقافة أيضاً مصطلح فيه خطورة متأصّلة، ويصعب فصلها عن المحاولات الكاسحة الشاملة لتقييم منجزات شعوب بكاملها (انظر مثلاً الحكم السيئ السمعة الذي يطلقه ماكولي على الثقافات ذات الأسس العربية والسنسكريتية (وانظر الفصل الثاني عشر، المعنون: 'المنظور المتغير: اللغة الإنكليزية في الهند'، ص 674).)

العالم الجديد الذين واجهوا المتطفّلين الأوروبيين الغزاة في القرن السادس عشر، فلن تبقى هناك أهمية لكون أسلحتهم وتكتيكاتهم العسكرية متخلفة تخلفاً كبيراً ـ أو بعكس ذلك لكون محاصيل خضراواتهم (بما فيها البطاطس، والذرة، والطماطم والشوكولاتة) متفوقة على غيرها عالمياً.

ولكن البحث عن أسباب سيادة اللغة ليس في العادة مسألة يمكن حلها بسهولة. ففي السجل التاريخي للاتصالات بين الشعوب ـ وللمنافسات بين اللغات ـ عندما تكون هناك شهادة شهود عيان للحفاظ على نزاهتنا حول ما حدث في الحقيقة ـ فإننا كثيراً ما نعجز عن تحديد الفوارق الثقافية التي كانت حاسمة بوضوح. وعندئذ قد يكون علينا أن ننظر بصورة أعمق، ليس فقط إلى الارتباطات المدركة بين المجتمعات المختلفة، وكيف نظر كل منها إلى الآخر، والسمات الذاتية للمجتمعات اللغوية، وكذلك مزاياها الموضوعية، بل حتى إلى خصائص اللغات نفسها ـ وهذا شيء غير عادي ولا تقليدي وخاصة فيما بين اللغويين.

ومن الغريب أن اللغويين يفترضون بصورة عامة تكاد تكون شاملة أن خصائص اللغات التي يدرسونها ـ كأنواع الأصوات التي تستخدمها اللغة، والترتيب الأساسي لكلماتها، وما إذا كانت تعمل بتصفيف كلمات قصيرة ومستقلة أم بتنسيق أنظمة من الزوائد السابقة واللاحقة ـ لا علاقة لها باحتمالات بقاء اللغات. فهم يعتبرون في آخر الأمر أن كل لغة هي بتعريفها نفسه قابلة لأن يتعلمها الأطفال: فهذا ما يجعلها لغة بشرية. فإذا كان لدى مجتمع ما مشاكل في توسيع انتشار لغته، فلا بد أن هناك سبباً اجتماعياً، وليس لغوياً.

ولكن بالنسبة لنا نحن الذين نرى أن اللغة مميزة للمجتمع الناطق بها، فإنه لا يسعنا سوى التساؤل عن سبب وجود كل هذه البنية اللغوية. فقد يكون لنموذج اللغة قيمة وجودية لبقائها تقرر إن كان السكان الجدد الذين تكلموا بلغة أخرى زمناً طويلاً مستعدين لالتقاطها أم لا. وهذا أحد الابتكارات في هذا الكتاب: أي اقتراح طرق تكون فيها أهمية فعلية لنوعية نمط اللغة التي يتحدث بها المجتمع (انظر الفصل الرابع عشر، المعنون: 'ما الذي يجعل اللغة قابلة للتعلم'، ص 753).

إن خطة حملة الكتاب ككل هي مراجعة تلتزم التسلسل الزمني عموماً لتواريخ اللغات التي تواجدت بشكل بارز في العالم. وهو يبدأ من انطلاق معرفة القراءة والكتابة، لأن هذا هو أول وقت توفّر فيه لنا دليل واضح على ماهية اللغة التي يتكلمها الناس. وكانت سياستنا عند كل نقطة هي طلب دليل صريح، وبالتالي آثار مكتوبة، وهكذا للمرور على أحداث كثيرة يعتقد أنها وقعت في الماضي السابق لمعرفة القراءة والكتابة(*). وتستمر القصة إلى أن نواجه اللغات الكبرى ذات النمو الحديث، مما أطلقنا عليه اصطلاح لغات ’الدمج والتحصيل‘.

وكما يتضح، فإن القصة تقع في فترتين كبيرتين تنفصلان عند العام 1492. فهذه هي بداية توسع أوروبا وبعض لغاتها على نطاق العالم كله. قبل ذلك التاريخ، كانت اللغات بصورة شبه دائمة تنتقل عن طريق البرّ فقط، ونتائج ذلك إقليمية: فاللغات الكبيرة يتم التحدث بها عبر مناطق متماسكة وسطى. أما بعد ذلك التاريخ فقد أصبح البحر هو الطريق العام المفتوح لتقدم اللغة الذي يمكن أن يصير عالمياً: إذ أصبح من الممكن التكلم بلغة ما في مناطق متميزة في قارات كثيرة مختلفة لا يرتبط تداولها فيها إلا بروابط التجارة والحكم العسكري التي تمتد عبر المحيطات.

وإلى جانب هذا الفرق الجغرافي، يمكن رؤية أنماط إجمالية بارزة أخرى تميز هاتين الفترتين.

فقبل العام 1492 نجد أن القوى الهامة التي تنشر اللغات هي أولاً معرفة

(*) وقد أدى ذلك إلى حذف كلي لانتشار لغتين هامتين معروفتين، ولغة مركّبة بالتخمين. فالجزر البولينيزية حصلت على عشرات من لغاتها المتقاربة العلاقات على امتداد أربعة آلاف عام بدءاً من العام 3000 ق.م. في عملية استكشاف لعلها أجرأ عملية تم الحفاظ عليها باستمرار. وقد انتشرت لغات البانتو عبر جنوب إفريقيا على مدى جزء كبير من الفترة نفسها، ابتداءً من الكاميرون وانتهاءً برأس الرجاء الصالح. ولهاتين القصتين كليهما أهمية حساسة لفهم النمط الكامل للغات عالم اليوم، ولكنهما مبنيتان فقط على الآثار وعلى المقارنات اللغوية. فليست لدينا كلمة واحدة مسجلة من كل كلام تلك الدهور السحيقة في القدم. أما بالنسبة لمسار اللغة الهندية - الأوروبية، التي هي اللغة السلفية الأمّ المعاد تركيبها لإعطاء معنى للعلاقات المنهجية المنتظمة الواضحة بين اللغات الحثّية، والسنسكريتية، والروسية، والأرمنية، واليونانية، واللاتينية، والغاليّة، والليتوانية، والإنكليزية، وكثير غيرها، فإننا لا نستطيع إلا أن نتكهن بشأنها، وهذه التكهنات هي من مادة اللغويات التاريخية، وليست من تاريخ اللغة.

القراءة والكتابة والثقافة المدنية، وبعد ذلك الدين الموحى به. ولكن عندما يملك مجتمع ما هذه المزايا فإن لغته كثيراً ما تنتشر على حدّ السيف، وبدون هذه المزايا، فإن الانتصارات العسكرية والتنمية الاقتصادية لا تحقق شيئاً يذكر. والطريقة العامة للانتشار هي التغلغل: فالشعوب لا تنتقل وتتحرك بكاملها، ولكن اللغة يمكن أن تبثها مجموعات صغيرة ومستعمرات مجزأة متفرقة. ولكن أساس الإنكليزية، التي تحدث في هذه الفترة، يبدو أنه استثناء من هذا كله.

أما بعد العام 1492، فإن قوى الانتشار كانت في البداية أبسط بكثير: فالأمراض تفتك بالسكان في الأمريكتين وفي أماكن أخرى. والفجوة التكنولوجية بين الغزاة الأوروبيين البيض وضحاياهم في كل مكان أبرز بكثير مما كانت عليه قبل فترة الانتشار الإقليمي. ولكن عند عودة ميزان القوى إلى التوازن، مع استقرار إمبراطوريات الأوروبيين العسكرية العالمية، يصبح من الصعب تمييز السيطرة العسكرية، والتجارية، واللغوية. ففي بادئ الأمر يكون السفر صعباً، وانتشار اللغة بطيئاً ولا يزال قائماً على التغلغل. غير أنه مع انتشار معرفة القراءة والكتابة، والانتقال الصغير تتحول الطريقة إلى الهجرة عندما تبحث جماعات كبيرة من السكان الأوروبيين عن استغلال الفرص الجديدة. وفي القرن العشرين تتراجع هذه الطريقة أيضاً؛ ولكن أشكالاً جديدة من الاتصال تنشأ، فتصبح أسرع، وأرخص وأشمل باستمرار: والنتيجة أن الطريقة الغالبة لانتشار اللغة تتحول من الهجرة إلى التسرّب. والإنكليزية استثناء هنا مرة أخرى، إذ إنها كانت في وضع فريد للاستفادة قبل غيرها من التكنولوجيات الجديدة. ولكن مستقبل إمكانياتها يبقى أقل وضوحاً مع استقرار اللغات الأخرى، كبيرة وصغيرة، وراءها. فهي تواجه مستقبلاً غير أكيد، كمستقبل أي شخص يصبح نجماً شهيراً بشكل فوري مفاجئ، وربما المحصلة النهائية المحتومة ذاتها لمثل هذا المستقبل. وليس السبب الأقل في ذلك هو أن مفهوم المجتمع اللغوي بكامله يأخذ في الانهيار بالنسبة لأبرز لغة مشتركة للعالم.

ولكن بعد الاطلاع على القصص المتنوعة لأكبر لغات العالم، يستطيع بحثنا أن ينتقل ليطرح بعض الأسئلة الوثيقة الصلة بالموضوع.

ما هو مدى كون القوى الحديثة لتسريب اللغة جديدة وغير مسبوقة؟ وهل تتشارك في خصائص هامة مع انتشار اللغة في الماضي؟

كيف ستقوم الخصائص القديمة للمجتمعات اللغوية بتأكيد نفسها؟ وعلى وجه الخصوص، هل ستظل جميع اللغات قادرة على أن تعمل كرموز خارجية للمجتمعات؟ وهل ستتمكن من أن تعمل معاً بشكل فعّال على نسج روابط تنجم عن تجربة مشتركة؟ وهل ستتمكن كل لغة مع ذلك من خلق عالمها الخاص بها؟ وهل سترغب اللغات بذلك عندما يدّعي العلم - وبعض الأديان الموحى بها - امتلاك مصداقية عالمية؟

هذه أسئلة سنرغب في طرحها. ولكن يجب أولاً أن نفحص المواد الهائلة لتاريخ اللغات الإنسانية.

القسم الثاني

اللغات على اليابسة

هناك رأيان إيطاليان، يفصل بينهما خمسة عشر قرناً، عن قيمة اللغة المشتركة المفروضة فرضاً:

> أنا أدرك أن الناس قد يكونون محقّين تماماً في اعتقادهم أنني عاقّ وكسول إذا ألمحت بشكل خفيف إلى تلك الأرض التي هي طفلة متبنّاة لجميع الأراضي ووالدة لها في الوقت نفسه، والتي تدعوها العناية الإلهية إلى جعل السماء نفسها أكثر إشراقاً، وإلى أن تجمع ممتلكاتها المترامية الأطراف، وتضفي الحضارة على طريقة حياتها، وتوحّد في المحادثة كل الألسنة الوحشية المشاكسة لشعوبها الكثيرة كلها من خلال استعمال لغتها، وتعطي الثقافة للإنسانية، وتصبح باختصار الوطن الواحد لكل أمة على وجه الأرض.
>
> بليني الأكبر (24 ـ 79م.)، التاريخ الطبيعي 39:3

> إن الشعوب المستعبدة تتخلص من نير الأسلحة بسهولة أكثر من تخلصها من نير اللغة.
>
> كلام منسوب إلى لورنزو فالا، العالم الإنساني الإيطالي (1406ـ1457)
> في كتابه 'روعة الحرية' VI



3

الصحراء تزهر:
الابتكار اللغوي في الشرق الأوسط

من يستطيع أن يعرف إرادة آلهة السماء؟
من يستطيع أن يفهم خطط آلهة باطن الأرض؟
أين تعلّم البشر طريقة إله؟
من كان حيّاً بالأمس هو ميت اليوم.
فهو قلق في لحظة، وصاخب في اللحظة التالية.
وينشد أغنية مرحة في لحظة،
وبعد لحظة يندب كأنه في حداد وراء جنازة.
وحالتهم تتغير كفتح [الساقين] وإغلاقهما.
وعند معاناة الجوع يصبحون كالجثث،
وعندما يشبعون يعترضون على إلههم.
وفي الأوقات الطيبة يتحدثون عن الصعود إلى السماء،
وعندما ينزعجون يتحدثون عن الهبوط إلى الجحيم.
هذه الأشياء تحيّرني، فأنا عاجز عن معرفة معناها.

من 'سأمدح رب الحكمة' باللغة الأكادية(1)

إن أسماء الحضارات التي نشأت في الشرق الأدنى القديم يرن فيها صدى قادم من زمان سحيق بعيد. فهناك بضع عشرات من تلك الحضارات عرفت بازدهارها في الألفيات الثلاث منذ بدء السجلات المكتوبة من حوالي العام 3300 ق.م. إلى غزوة الإسكندر في العام 330 ق.م. ومن بينها قوى مثل

بابل، وآشور، وفينيقيا، وليديا، وفارس. وهي تستحضر إلى الذهن رؤىً من الاستبداد الشرقي، والقسوة التي تقطع الأنفاس، والفخامة المبهرجة. ورغم كل تظاهراتها وادعاءاتها، وخصوبتها الثقافية، وقوتها العالمية الحقيقية أحياناً، فإنها لم تترك ورثة وراءها. وقد تنبأ بشيء من هذا واحد على الأقل من كتّابها أنفسهم:

أيها الخادم، استمع إلي.
نعم، يا سيدي، نعم.
سوف أفيد بلدي.
افعل يا سيدي، افعل.
فالرجل الذي يفيد بلده
تكتب أفعاله في [سجل] مرذوخ.
كلا، أيها الخادم، لن أفيد بلدي.
لا تفعل يا سيدي، لا تفعل.
اذهب إلى أكوام الخرائب القديمة وطف حولها؛
وانظر إلى جماجم الوضيعين والعظماء.
فأيها جمجمة من فعل الشر، وأيها جمجمة من فعل الخير؟

من 'حوار التشاؤم'، باللغة الأكادية[2]

ولكن ربما يكون هناك شيء من القسوة في وزن استمرار بقاء المنجزات السياسية بعد فجوة فراغ امتدت ما بين ألفي عام وأربعة آلاف عام. فبعض أعمالهم قامت فعلاً بتحدي العصور. فالكتابة تم اختراعها هنا، وتطورت من طريقة لأخذ الملاحظات إلى أساس لسجل كامل صريح لحياة البشر وتفكيرهم؛ وكتكملة محظوظة لذلك، تم اعتماد مادة متوفرة بكثرة ولا تتدهور حيويتها لتدوين الكتابة عليها، وهي أقراص من الطين النهري، تتم تسويتها والنقش عليها، وتخبز أحياناً حتى تتصلب. ونتيجة لذلك نستطيع أن نتتبع ليس فقط الخطوط الأساسية العريضة للأحداث، بل وكذلك

الشخصيات، وحتى الحوار الدبلوماسي للأسر الملكية الحاكمة، والأساطير وطقوس آلهة الشعوب، وكذلك صورهم، والقوانين التي كانوا يعيشون في ظلها، وأغاني الغرام التي كانوا ينشدونها، وقبل كل شيء لغاتهم المتعددة الأغراض.

وهذه الهدية الأخيرة نعمة خاصة مرسلة من الله في القرنين الأخيرين من الحفريات الأثرية، لأنه من بين شعوب المنطقة كان العبرانيون في الطرف الغربي والإيرانيون في الطرف الشرقي هم الوحيدين الذين لديهم نصوص وتقاليد بقيت حتى العصر الحديث. ومع ذلك فإن كتابيهم ـ العهد القديم، وزند آفيستا [مجوسية زرادشت] ـ تكملهما الأقوال المنقولة عن متفرجين مثل هيرودوتس اليوناني ـ وكل ذلك كان متاحاً لباحثي القرن الثامن عشر ـ تعطي رؤية جزئية جداً، وحتى هذه الرؤية لا تشمل إلا المراحل المتأخرة مما تم عمله، وبدون إحساس على الإطلاق بما قاله الذين قاموا بالعمل.

ولولا اكتشاف أوروبا في القرن التاسع عشر بأنها تستطيع القيام بالأبحاث التاريخية عن طريق الحفر، ولولا المهارات الجديدة في فك الرموز وإعادة بناء اللغة ثم تطبيق ذلك تاريخياً على ما تتكشف عنه الحفريات، لما عرفنا أي شيء أبداً عن المدن المؤسسة في سومر وعيلام، والقوة الممتدة باطراد لأورارتو من القفقاس، أو عن بروز تفوّق الحثيين فيما هو الآن تركيا. فكل واحدة من هذه المجموعات كانت تتكلم لغة لا علاقة لها أبداً بلغة جيرانها، مما يشير إلى أصول مختلفة اختلافاً جذرياً، وثروة من القصص غير المعروفة حتى في ماضيها السحيق. وحقيقة هذه اللغات المختلفة تشرق بشكل مذهل من خلال نص مدوّن وحيد استعملته مجموعات كثيرة منها، يقوم على أنماط من العلامات المنقوشة أشكالها بإزميل رغم أنها كانت مصممة في الأصل لتمثل معاني الكلمات وليس كيفية النطق بها.

السومرية:

كان فم الرسول كبيراً. فلم يستطع أن يكرر الرسالة. فقام سيد كولاب بتسوية بعض الطين، ووضع عليه الكلمات كما ترسم على قرص. وقبل ذلك الوقت لم تكن توجد كلمات منقوشة على الطين أبداً.

إنمركار وسيد آراتا (حوالي 1800ق.م.)

الأكادية:

معالجات من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، ومختارات غير شرعية، وتعاليم بارعة، وكل ما له علاقة بالخبرة الطبية لنينورتا وغولا، كتبتها على أقراص، ودققتها ورتبتها ترتيباً صحيحاً، وأودعتها داخل قصري لمراجعتها وقراءتها.

كلمات في ختام مخطوطة نص طبي، في مكتبة آشور بانيبال
(حاكم آشور من 668 إلى 627 ق.م.)

العيلامية:

قال الملك دارا: بفضل آهورامازدا، عملت نقشاً آخر باللغة الآرية.

نقش على صخرة في بهيستون، القرن الخامس ق.م.

ست لغات مكتوبة بالخط المسماري
السومرية، والأكادية، والعيلامية، والحوريّة، والأورارتية، والحثيّة

الحورية:

وقال كيليا، رسولي، هذه الكلمة: متكلماً هكذا، أخوك نيموريا، سيّد مصر، قدم هدية عظيمة.

رسالة من توشتراطا، ملك ميتاني إلى ملك مصر،
منتصف القرن الرابع عشر ق.م.

الأورارتية:

لأن السيد هالدي، إشبويني بن ساردوري، ومينوا بن إشبويني قاما ببناء مزار هالدي المقدس.

نقش مزار هالدي في باسيلاليتش، أواخر القرن التاسع ق.م

الحثّية:

ولكن بما أن والدي ظلّ معسكراً في أرض ميتاني وتأخّر في المعسكر، فإن احتفالات سيدتي إلهة الشمس في آرينا مرّت دون أن يتفرج عليها أحد.

حوليات الدولة لمورسيليس الثاني، في بوغازكوي، حوالي 1353 ـ 1325 ق.م.

ست لغات مكتوبة بالخط المسماري
السومرية، والاكادية، والعيلامية، والحوريّة، والأورارتية، والحثّية

هذه منطقة قدّمت للعالم أشياء كثيرة للمرة الأولى في الابتكار اللغوي. وعلى عكس مصر، والصين، والهند، فإن مدن هذه المنطقة ودولها كانت دائماً متعددة اللغات عن وعي، سواء للتواصل مع الجيران المتكلمين بلغات أخرى، أو لأن تواريخها جعلتها تتبنى لغة أجنبية لتكريم بلاطها أو دينها أو تجارتها. فهذه هي المنطقة التي نجد فيها أول استخدام واع للغة تقليدية كلاسكية، ولكن أيضاً وبالعكس، أول استخدام معمّم للغة أجنبية تماماً لأنها مناسبة كأداة اتصال، وكلغة مشتركة، وهذا انتصار ظاهر في وقت مبكر للنزعة الدبلوماسية العملية الذرائعية على العاطفة الوطنية.

وتشمل هذه المنطقة موقع أقدم كتابة معروفة في التخوم السفلية لوادي الفرات. ولكن في منطقتها الغربية، في المدن الساحلية السورية كانت هي الأولى في عمل التبسيط الجذري من الهيروغليفية التي تحدد الكلمات والمقاطع في أبجدية قصيرة تمثل أصواتاً بسيطة. ولقد كانت الآثار السياسية لذلك كثيفة. فلأول مرة صار من الممكن أن تنتشر معرفة القراءة والكتابة لتتجاوز طبقة الكتّاب الأرستقراطية العليا من الناس الذين توفرت لهم في طفولتهم أوقات الفراغ ليتعلموا النظام القديم المعقد، وعندئذ صارت مناصب السلطة والنفوذ في جميع أنحاء الإمبراطورية الآشورية مفتوحة لسلسلة اجتماعية أوسع.

وتحتوي المنطقة أيضاً على أول المتاحف والمكتبات المعروفة، وهي غالباً ما تكون مؤسسات مركزية متعددة اللغات تابعة للدولة. ولكن من سخرية القدر التي فضلت ذاكرة هذا المجتمع المبنية على أقراص الطين أن وثائقه تم الحفاظ عليها على أفضل وجه بالإحراق، وبأبسط طريقة من خلال الحرائق في المباني التي تواجدت فيها. وهذا ظرف لم يكن نادراً في تاريخها العاصف. فكانت كوارث الحرائق معجزات لحفظ مكتبات بكاملها وأرشفتها وهي في مواقعها، وفي بعض الأحيان حتى مع بقاء تصنيفها سالماً متماسكاً. فساعد ذلك على قراءة سريعة لكثير من التاريخ غير المعروف في عصرنا هذا.

ولم تبق جميع دول المنطقة مركّزة ضمن الهلال الخصيب، أي المنطقة

المروية جيداً والتي تمتد من وادي الرافدين، دجلة والفرات، إلى ما حول المنحدرات الجنوبية لجبال طوروس ونزولاً إلى سواحل سوريا وفلسطين على البحر الأبيض المتوسط. وكانت المدن الفينيقية الوقعة على الساحل الغربي لفلسطين ترسل بعثات تجارية إلى كافة أنحاء البحر المتوسط. فكانت إحدى النتائج هي تأسيس قرطاجة، ومن هنا جاءت أول إمبراطورية استعمارية في العالم وهي التجربة الإرهاصية السابقة لنمط المؤسسة التي جعلت الإنكليزية لغة عالمية. وكان من النتائج الأخرى أول دوران ملاحي حول إفريقيا (نيابة عن الفرعون المصري)، واكتشاف الطرق الملاحية إلى بريطانيا للحصول على القصدير، وإلى بحر البلطيق للحصول على الكهرمان. وعلى الطريق نشر الفينيقيون ممارسة الكتابة الأبجدية في جميع أنحاء شبكتهم من الأسواق التجارية. وبذلك قدّموا شيئاً لعله أهم مفتاح فريد لطريق تقدم منافسيهم الكبار من اليونان والرومان الذين سيقتلعونهم فيما بعد من موقع سيادتهم على حوض الأبيض المتوسط.

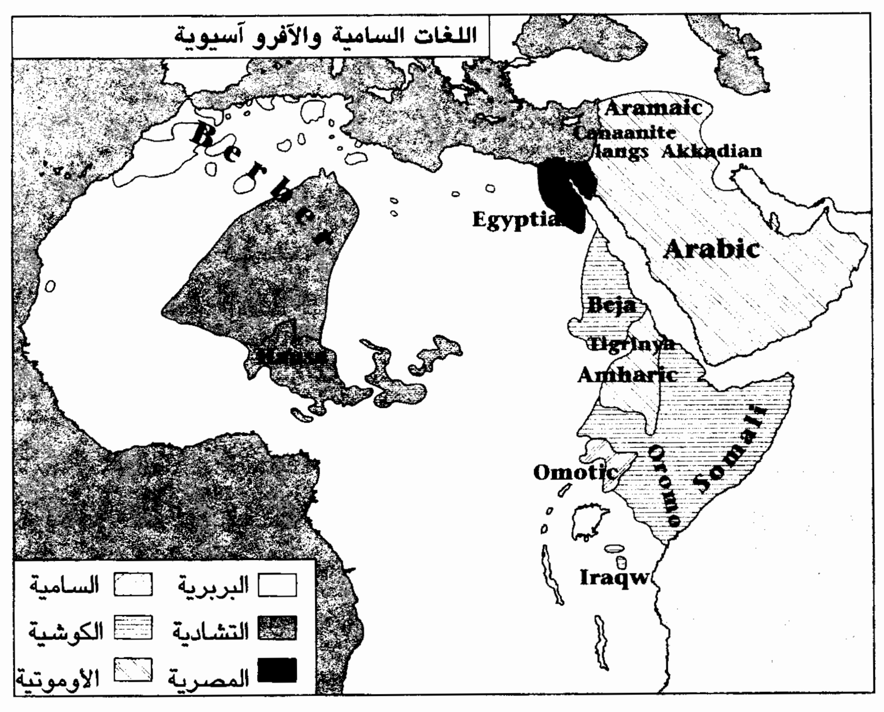
إن أفضل كلمة تصف مجتمع الشرق الأوسط هي أنه عالمي غير محلي، مكوّن من مواطنين عالميين، ولكن عالمهم لم يكن محمياً أو منعزلاً أبداً. إذ إن المواصلات الجيدة وغياب الحدود الطبيعية جعلت من الصعب على أي ثقافة أن تمسك بالقوة والسلطة بشكل مستقر. فنجد سلسلة متلاحقة من الممالك تأتي من كل الاتجاهات المختلفة، (ويتضح فيما بعد) من أسر لغوية مختلفة تستولي على السلطة في المنطقة الوسطى التي هي العراق الحديث. وبعد ثلاثة آلاف سنة موثقة من موازين القوى المتنقلة المتغيرة ضمن المنطقة، سلمت السلطة إلى مجموعات مواقعها بعيدة، هي اليونان، وبعدهم الرومان من الغرب، ثم الفرثيون، من زاوية بلاد فارس الشمالية الشرقية في الشرق. ولكن هذه القوى الأجنبية لم تكن أكثر فعالية في تحقيق الاستقرار: فقد تتابع العرب والمغول والأتراك عبر القرون في العصر الحديث، وكان القرن العشرون من مطلعه إلى منتهاه فترة صراع شديد المرارة على نحو خاص في تاريخ المنطقة.

ثلاث أخوات نَسَجْنَ تاريخ 4500 عام

كان الاستقرار الوحيد الذي تمتع به هذا المجتمع هو في مادة لغته الحاكمة. فالأكادية، اللغة التي كان يتكلّمها سرجون الأول، أول ملك آشوري في العام 2300 ق.م. هي من الأقارب اللصيقين للغة العربية التي يتكلمها خليفته في هذه الأراضي، صدام حسين، في العام 2000 م. ومن الأقارب اللصيقين أيضاً الآرامية، اللغة المشتركة القديمة للشرق الأوسط، التي تردم الهوة فيما بين أفول الأكادية حوالي العام 600 ق.م. وانطلاق العربية مع المسلمين حوالي العام 600 م. فهي كلها أخوات ضمن الأسرة السامية الشديدة التلاصق(*).

وهي تملك نقاطاً مشتركة متميزة كثيرة. ففيها حروف صحيحة تلفظ بتقليص الحنجرة (وهي توصف بأنها حلقية أو بلعومية) [وهي في العربية الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء]. والكلمات المؤنثة في هذه اللغات تنتهي بتاء التأنيث. وهناك حالتان أو ثلاث حالات فقط من تصريف الأسماء. وتنتهي بياء النسبة لتصبح صفة، ويزاد عليها في أولها حرف الميم لتتحول إلى اسم للزمان أو المكان. وهناك تمييز في صيغ الأفعال بين الأزمنة المتحركة والساكنة ـ فالمتحركة تبدأ بحروف تدل على شخصية الفاعل والساكنة توضع الحروف الزائدة في آخرها [لعل هذه إشارة إلى حروف البداية في الفعل المضارع وهي الألف والتاء والنون والياء، وضمير الفاعل في آخر الفعل الماضي مثل ذهبت، ذهبنا، ذهبوا]. وقبل كل شيء، فإن اللغات السامية كثيرة التمدد والتصريف بالاشتقاق مستخدمةً نظاماً يكون فيه لهيكل الحروف الصامتة في الكلمة معنى مستقل عن أنماط حروف العلّة المتنوعة التي قد تضاف فيما بين

(*) إن اسم هذه العائلة مشتق من اسم سام، الابن الثاني لنوح، الذي يرد في الآية 18 من الإصحاح التاسع من سفر التكوين. ويعود استخدامها اللغوي إلى آ. ل. شلوسر في العام 1781. وقد استلهمها من حقيقة أن الشعوب المسمّاة متحدرة من سلالة سام في الآيات 21-31 من الإصحاح العاشر من سفر التكوين كانت تتحدث بلغات هذه الأسرة، وخاصة العبرية (عن طريق آرفخشد) وكذلك آشور وآرام. ولكن اختيار الاصطلاح غير جيد التوفيق. فقد كان من بين أبناء سام عيلام ولود، (أبَوَا اللغتين العيلامية والليدية، اللتين لا علاقة لهما باللغات السامية؛ وكذلك كنعان (أول الصيدونيين والعموريين والأروانيين) ونمرود (أول البابليين والأكاديين) الذين يقال إنهم متحدرون من سلالة حام، رغم أن لغاتهم في الحقيقة ذات صلة قريبة بالعبرانية، والآشورية، والآرامية.



تلك الحروف الصامتة: ومن أبسط الامثلة على ذلك في الأكادية جذر الكلمة المكونة من الأحرف الثلاثة *k-š-d* (ق ص د)، ومعناها 'يمسك'، الذي يمكن تمييزه في كلمة *kašādu* (قصدوا) بمعنى 'يمسك'، وكلمة *ikaššadu* (إيقاصادوا) بمعنى 'كانوا يمسكون'، و*kišidtu* (قيصيدو) بمعنى 'الغنيمة' وكلمة *kuššudu* (قصودوا) بمعنى الممسوك به، تماماً كما أن الجذر *š-p-r* سبر (بمعنى الأمر) يتمثل في كلمة šapāru (سابارو)، التي معناها 'يرسل' أو 'يحكم'، أو 'يكتب'، وكلمة *šipirtu* (سيبيرتو) التي معناها 'بعثة' أو 'رسالة'، والجذر *š-l-m* (سَلِم) بمعنى 'يرتاح' الذي يمكن تمييزه في كلمة *šalāmu* (سالامو) بمعنى 'كان سليماً معافى' و*šalimtu* (ساليمتو) بمعنى 'السلام' و *šulmu* (سولمو) بمعنى 'التسليم' و'التحية' و'الراحة' و'غروب الشمس'.

وبالإضافة إلى شمول المجموعة السامية للغات الكبرى في الشرق الأوسط القديم والحديث، فإنها تضم أيضاً بعض أكثر اللغات سكاناً في الحبشة وإريتريا، بما فيها الأمهرية والتيغرية والتيغرينية ولغة الكنيسة الحبشية القديمة 'الجيعزية'.

والواقع أن هذه اللغات السامية تتشارك في معظم هذه الخصائص مع مجموعة أكبر تسمى الآفرو آسيوية، أو الحامية ـ السامية، التي تشمل المصرية، والبربرية، وبعض عوائل اللغات المنطوقة في الجنوب، مثل الكوشية، والأوموتية، والتشادية (بما في ذلك لغة الهاوسا الواسعة الانتشار الآن). وهي لغات يمتد التكلم بها إلى الأجزاء الشمالية من إفريقيا، التي يفترض عادة بأنها هي الموطن البدائي للغات السامية أيضاً. بل إن هناك بعض الأدلة غير المباشرة على حركة كبيرة للقبائل في عصور ما قبل التاريخ، وليس مجرد الانتشار البسيط للغات بين الجيران: وفي بعض الطرق فإن الأكادية والحبشية متشابهتان أكثر من أبناء عمومتهما من اللغات السامية المتداخلة. كما أن تفشّي التصحّر الكاسح في الصحراء في حوالي العام 3500 ق.م. قدم حافزاً دافعاً للانتقال إلى خارج إفريقيا الشمالية[3].

وعلى أية حال فإنه عند حلول وقت مقابلتنا لهم لأول مرة في سجلاتهم التاريخية نفسها، حوالي العام 2400 ق.م.[*]، كان يوجد ناطقون باللغات السامية (وحسب طبيعة الأدلة، يوجد كُتّاب أيضاً) في مراكز موزعة على طول الحافة الشمالية للهلال الخصيب وجزء كبير من حدود سوريا الحديثة، من إيبلا (على بعد 60 كيلومتراً جنوبي حلب) مروراً بالنباضة (تل البيدر، على بعد 20 كيلومتراً شمالي الحسكة)، فنزولاً إلى ماري على نهر الفرات (قرب أبو كمال) وكيش (على بعد 15 كيلومتراً إلى الشرق من بابل). (إن أسماء الملوك الذين حكموا كيش توحي بأنها كانت مستعمرة مختلطة من الساميين مع السومريين). وكانت كل هذه المجتمعات تستخدم الرموز السومرية بثبات كمصدر رئيسي لنقوشها المسمارية، ولكن اللغة كانت سامية بشكل يمكن تمييزه، ومكتوبة بالرموز اللفظية لإظهار نهايات الأفعال والأسماء والكلمات الوظيفية، وبنظام للكلمات مختلف عن السومرية. وهناك أيضاً نصوص مدرسية ثنائية اللغة تحدد على الأقل طريقة لفظ بعض الرموز السومرية. ولا يبدو أن لغة إيبلا كانت

(*) إن الأسماء السامية الأولى (وهي في الحقيقة من الأكادية) تظهر حتى قبل ذلك، في وثائق سومرية يعود تاريخها إلى حوالي العام 2800 ق.م. (كابليس 1988: 3).

مكتوبة بطريقة شديدة الانسجام والتجانس، ويصعب على وجه العموم تمييزها عن أشكال الاكادية المبكرة، الموجودة في كيش، ونزولاً في سومر بعد غزوات سرجون الأول في القرن الرابع والعشرين ق.م.

وهذه الغزوات هي أول دليل تاريخي على التوحيد السياسي. ولكنها كثيراً ما كانت توحّد أقواماً يتحدثون بلهجات سامية شديدة التقارب. فتاريخ لغات الشرق الأوسط يُفتتح وممثله الرئيسي واقف على المسرح: لغات سامية مكتوبة بخط مسماري سومري، ولا ندري كيف وصل الناطقون بتلك اللغات السامية إلى هناك، وكيف انتشرت لهجاتهم (أو لغاتهم) الموحّدة بشكل لافت للنظر لتغطي الهلال الخصيب بكامله. فعلى الخريطة تبدو بادية الشام وصحراء شبه الجزيرة العربية كنقاط مركزية جيدة ليبدأ التوسع منها ـ ولكنها تبدو من غير الممكن تصورها كمناطق ينشأ فيها الفائض السكاني الكبير الضروري.

ومن بين نتائج صمود اللغة السامية يمكن إظهار كون التعداد من واحد إلى عشرة لم يتغير هنا تغيراً يذكر على مدى أربعة آلاف عام، أي مئتي جيل:

العدد	الأكادية، من القرن 23 إلى 6 ق.م	الآرامية، من القرن السادس ق.م. إلى القرن السادس م.	العربية من القرن السادس إلى الحادي والعشرين م.
1	إشتن	حاد	واحد
2	شينا	ترين	اثنين
3	شلاش	تلاتا	ثلاثة
4	إربا	أربعا	أربعة
5	حميس	حميشة	خمسة
6	شيش	شتا	ستة
7	سيبي	شبعا	سبعة
8	سماني	تيمانيا	ثمانية
9	تيشه	تسعا	تسعة
10	إيشر	عسرا	عشرة

العدّ من 1 إلى 10 في العراق من 2300 ق.م. إلى 2000 م.

القصة باختصار: الوثبات اللغوية

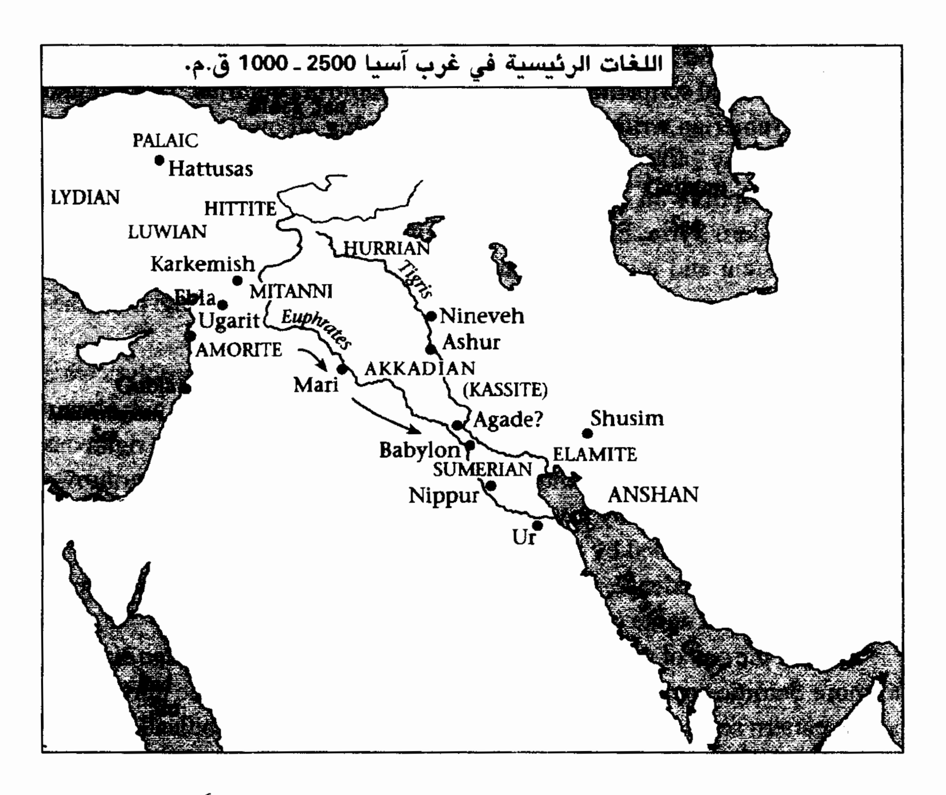
يجب أن لا تُري العربي البحر، ولا الصيدوني الصحراء؛
لأن عملهما مختلف.

من الآرامية: أمثال أحيقار، 110[4]

ليست هناك حاجة لإعادة بناء التاريخ اللغوي للشرق الأدنى - وبعبارة موضوعية أدق: لجنوب غرب آسيا - فهو مذكور في وثائقه نفسها، اعتباراً من أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. وهو يفيض بتفاصيل مثيرة للاهتمام، وخاصة بأشياء لغوية وثقافية كانت هي الأولى من نوعها في العالم. ولكن هناك التواءات وتقلّبات كثيرة في سرد القصة التي تستغرق خمسة آلاف عام بحيث يصعب على المرء ألاّ يضل طريقه. وسوف نبدأ بإدراج قائمة مختصرة جداً بكبار الفاعلين، من السومرية إلى العربية، فنضعهم حول المنطقة الوسطى من الهلال الخصيب، من العراق إلى فلسطين، ثم نعود لننظر بتفصيل أدقّ إلى إسهاماتهم في فهمنا للغات على مرّ الزمن.

والتركيز العام للقصة ينصب على مركزها النابض عند مصب نهر الفرات في الخليج العربي. فمع مرور القرون يتوسع نفوذ المركز إلى الشمال أولاً، ثم إلى الغرب، ثم تبدأ الشعوب المجاورة بالاهتمام فتنشئ مراكز جديدة، كثيراً ما تكون أقوى، وخاصة بها، حتى تصبح القصة صراعاً بين تأثيرات (ولغات) متنافسة على النفوذ في وادي الرافدين، والأناضول، وفارس، وسوريا، بينما يتسع إطار المرجعية إلى حدود اليونان ومصر في الغرب، وأفغانستان والهند في الشرق. وتأتي الخاتمة مرتين، لا مرة واحدة، بغزوتين كاسحتين تؤديان إلى زلزال لغوي، أولاً باليونانية من الشمال، ثم بالعربية من الجنوب.

فعند بدء القصة كانت هناك ثقافتان تمتلكان مهارة الكتابة، ومتجاورتان عند التخوم العليا للخليج العربي: وهما سومر، أو أرض شنعار المذكورة في التوراة، عند التقاء نهري دجلة والفرات، ثم عيلام، عبر المستنقعات إلى الشرق،



بين جبال زاغروس والبحر. ولم تكن كل منها دولة، بل تجمّعاً من المدن والقرى لأناس يتكلمون لغة مشتركة. وأصل اللغة السومرية مجهول تماماً، غير أن العيلامية يظهر أنها متصلة باللغة الدرافيدية، وبالتالي فهي مرتبطة منذ الزمن القديم باللغة البراهوية، التي لا يزال يتكلمها أكثر من مليونين في غرب الباكستان، وبلغات كثيرة أخرى يتحدث بها أناس في الهند الوسطى والجنوبية(5).

ويبدو أن هاتين الثقافتين قد اخترعتا أنظمتهما الكتابية بشكل مستقل، وفي الوقت نفسه تقريباً (حوالي القرن الحادي والثلاثين قبل الميلاد). ولكن قدّر لسومر أن يكون لها تاريخ مؤثر أكثر بكثير من تاريخ عيلام. وقد حافظت عيلام على لغتها بالفعل لمدة زادت على ثلاثة آلاف عام (فكانت واحدة من وسائط الاتصال الرسمية الثلاث في الإمبراطورية الفارسية في أواخر الألف الأول قبل الميلاد) ومع ذلك توجد اللغة العيلامية مكتوبة بخط مسماري على الطريقة السومرية في حوالي العام 2400 ق.م.، ولكن نقشها المحلي تلاشى واختفى في

القرنين التاليين لذلك التاريخ. فقد كان هذا الانتشار الثقافي للكتابة السومرية يحدث بالفعل في جميع أنحاء الهلال الخصيب. وبالمثل، فعند حلول العام 2400 ق.م. نجد كلمات سومرية ورموزاً مسمارية شائعة في منقوشات إيبلا، على بعد 1000 كيلومتر على ساحل البحر الأبيض المتوسط في سوريا الحديثة. وكانت لغة إيبلا سامية، مثل الأكادية، ولها نظام صوتي وتركيب صرفي نحوي إذا تأمّلناه من وجهة نظر حديثة فإنه يجعل اللغة السومرية غير ملائمة كأساس للكتابة: ورغم ذلك فإن قوة تعبير الرموز السومرية ظلت جذّابة لا تقاوم.

ومن الناحية السياسية، كان النفوذ في الجانب الآخر. فالسومريون أنفسهم لم يلبثوا بعد زمن قليل (2334 ـ 2200 ق.م) أن خضعوا لجيرانهم الشماليين المتكلمين باللغة الأكادية عندما فرض الملك سرجون نفسه عليهم ـ واسمه على وجه الدقة "شاروكين" التي معناها 'الملك العادل'. ورغم أن هذه الإمبراطورية الأكادية قد أسقطت بعد بضعة أجيال على أيدي غزاة من قوطيوم في الشمال الشرقي، واستطاع السومريون بقيادة مدينة أور كرأس حربة أن يستعيدوا استقلالهم بعد ذلك بثمانين عاماً، فإن وادي الرافدين الجنوبي راح يعرف منذ ذلك الحين بالاسم المشترك "أرض سومر وأكاد" (*).

وفي نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، سقطت أور، أعظم مدينة سومرية، في أيدي ناطقين آخرين بلغة سامية، هم البدو العموريون من الشمال الغربي، وعندئذ نشأ نمط جديد. فعلى امتداد 1500 عام بعد ذلك كانت الأرض تتوحّد بشكل دوري تحت سلالات ناطقة بالأكادية تحكمها من بابل في الجنوب، أو من آشور في الشمال، ولكن سلطتها كانت تتمزق كل بضعة قرون بسبب التصارع عليها فيما بين تلك السلالات، أو بسبب غزوات من الغرب أو الشرق. ولكن تلك الغزوات لم يكن لها أي تأثير لغوي أبداً، رغم أنها كانت تستمر زمناً طويلاً، ولا

(*) جاء اليونان إلى المشهد متأخرين، فلم يعرفوا أي شيء عن تلك الأصول المبكرة القديمة، فأطلقوا على المكان اسم 'أرض ما بين النهرين'، مما أكد الدور الإطاري لنهري دجلة والفرات، وهما الاسمان الإغريقيان من كلمتي إيديقلات وبوراتو. ولكن في هذه الفترة المبكرة كانت أهمية الفرات أكثر مركزية بكثير لأنه كان يجري عبر بابل وأور، ويروي أراضي أكاد وسومر. أما دجلة، على مبعدة إلى الشرق، فإن أهميته تتزايد مع نهوض آشوريا. وآشوريا هي المحاولة الإغريقية لتسمية آشور.

سيّما أربعمئة عام بعد استيلاء الكاسيين على بابل في العام 1570 ق.م. فمثل الأتراك الذين كانوا يغزون الصين الشمالية، أو الألمان الذين أسقطوا السيطرة الرومانية على أوروبا الغربية، كان هؤلاء جميعاً غزاة يذعنون للغات ضحاياهم. فاعتباراً من حوالي العام 2000 ق.م. صارت الأكادية هي لغة الكلام الوحيدة في جميع أنحاء المنطقة. ولكن السومرية لم تتعرض للنسيان، بل انتقلت إلى مكانة أعلى في السوق وحافظت على نفوذها في لغة الكتابة. وقد استمرت بابل وآشور كقوتين في وادي الرافدين على مدى ألف وخمسمئة عام، وكثيراً ما كانتا تتنافسان في وحشية بلا رحمة، ولكنهما تتحدثان بلهجات من لغة واحدة.

وبينما سيطرت الأكادية على المنطقة الوسطى حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد، فقد كانت مطوّقة من الشرق والشمال والغرب بلغات أخرى لا علاقة لها بها. وكانت الحورية (التي حلت محلها الأورارتية فيما بعد، والتي لا يزال اسمها يعيش في جبل أرارات) هي اللغة الكبرى في الشمال، وهي اللغة المحكية في أرمينيا الحديثة وإلى الجنوب حتى كركوك في العراق الحديث (وقريباتها الباقيات لغات صغيرة مثل لغتي آفار وليزجيا من العائلة القفقاسية الشرقية لا تزال تستعمل في الكلام على السواحل الغربية لبحر قزوين).

وإلى جهة الغرب، في سهل أناضوليا الوسطى، التي هي الآن تركيا، نرى أول الهنود - الأوروبيين المعروفين في التاريخ، وهم الحثّيون، مع أقاربهم اللصيقين الذين كانوا يتكلمون اللغتين اللوية والبالية(*). وقد ازدهر الحثّيون فيما بين القرنين السادس عشر والثالث عشر قبل الميلاد. وخلقوا حضارة فيها معرفة كثيفة كبيرة للقراءة والكتابة. ومكتبتهم الملكية في حاتوساس، التي تم اكتشافها في بوغاز كوي الحديث، على بعد 150 كيلومترا إلى الغرب من أنقرة، كانت تحتوي على مواد ليست باللغتين الحثية والأكادية فحسب، بل وكذلك

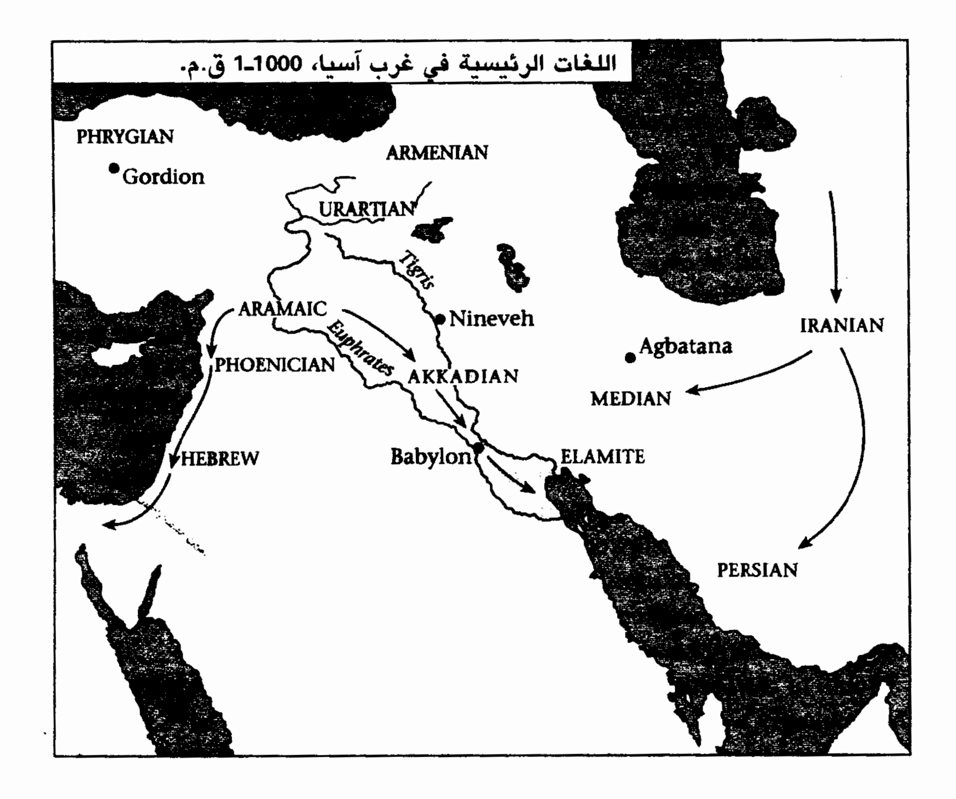
(*) إن تسمية الحثّي (من العبرانية *hitti*) تأتي من مركز قوتهم وسلطتهم في أرض حاتي، حيث كان الأهالي يتكلمون لغة لا علاقة لها بهم، هي الحاتية. وفي الحقيقة كان الحثيون يسمون لغتهم نيسان (نشيلي nešili) على اسم مدينة نيشاش (أو كانيش، وهي كولتيب الحديثة في جنوب شرقي تركيا) ولكن تسمية 'الحثيين' التوراتية الخاطئة بقيت ملاصقة لهم.

باللغات الحورية واللوية والبالية، تتخللها هنا وهناك عبارات بالحاتية والسومرية واللغة الهندية ـ الأوروبية للأرستقراطية الميتانية. وكثيراً ما شكّل الحثّيون تهديداً لسومر وأكاد. ولقد كان الغزو الحثّي الكاسح السريع الذي لم تتم متابعته هو الذي ترك بابل مفتوحة لاستيلاء الكاسيين عليها كما هو مذكور أعلاه. وفي آخر الأمر انهارت الإمبراطورية الحثّية في حوالي نهاية القرن الثالث عشر ق.م. ولكن اللغات المتصلة بها ظلت باقية بعد ذلك بعدة قرون، ولا سيّما اللغة اللوية، وعلى مبعدة منها إلى الغرب اللغة الليدية(*).

وإلى الجنوب من الحثيين، ولكن إلى الغرب تماماً من سومر وأكاد، في سوريا الحديثة، كانت اللغات سامية، من أقارب الأكادية اللصيقين. وقد رأينا أن الغزو العمّوري قد جاء من هذا الاتجاه (وهي تسمية جاءت من اسم المنطقة "آمورو"، أي "الغرب" باللغة الأكادية، في سوريا الشمالية)، وهو الغزو الذي وجّه الضربة القاضية لاستقلال السومريين، وبالتالي للغة السومرية كلغة محكية في حوالي العام 2000 ق.م.

وفي الحقيقة، يبدو أنه كان هناك شيء من التآخي بين هذه المدن الناطقة باللغات السامية، من أوغاريت (على الساحل قرب اللاذقية) عبر آيامحاد (حلب) وقرقميش وقطنا في سوريا الشمالية، إلى ماري على نهر الفرات. وقد تركت كل من ماري وأوغاريت مكتبات ضخمة من الألف الثاني قبل الميلاد. أما بالنسبة للنفوذ الأجنبي في هذه الفترة فقد كان يوجد ههنا اتجاه للتطلّع إلى مركز القوة في مصر، وليس إلى أبناء العمومة اللغويين في وادي الرافدين. فمدينة المرفأ الفينيقية غوبلا (المعروفة عند الإغريق باسم بيبلوس) كانت تغتني وتثرى من تصدير الأخشاب، وعلى وجه الخصوص خشب الأرز اللبناني، إلى المصريين الشديدي التعطش للخشب. وإن المدن العمّورية المذكورة أعلاه قد تركت كلها كميات من المزهريات الملكية، والمجوهرات، والتماثيل المستوردة من مصر. وإلى الجنوب

(*) إن كرويسوس آخر ملوك ليديا الذي يضرب المثل بثرائه، سقط في يد كورش الفارسي في العام 547 ق.م. ومن الناحية اللغوية كانت تلك هي حشرجة الموت الأخيرة للقوة الحثية.



من هذه المدن، في فلسطين، كان المستوى العام من الثراء والتمدّن أقل. وكان المغيرون من الحابيرو (المعروفين عند المصريين باسم عابيرو) يشكلون تهديداً للمجتمعات الأكثر استقراراً. ولعله كان من بين أولئك المغيرين أسلاف الناس الذين أطلقوا على أنفسهم فيما بعد اسم العبري (أي العبرانيين).

وطيلة الألف الثاني قبل الميلاد، كانت أرض سومر وأكاد تتمتع بنفوذ ثقافي متميز الجدية. وهذا منعكس بوضوح في انتشار نظام كتابتها بالخط المسماري بين جيرانها جميعاً، بما فيهم حتى عيلام، التي كانت قد طورت كتابتها البديلة بشكل مستقل. وبالإضافة إلى النصوص المكتوبة المنقوشة كانت الأكادية في هذه الفترة هي اللغة المشتركة للدبلوماسية، حتى في الأماكن التي لم يكن فيها البابليون أو الآشوريون طرفاً في القضايا موضوع المناقشة.

ولكن هذا الوضع التفضيلي المؤاتي قد انقلب في آخر الأمر بفعل أحداث

خارجية. فقد حدثت تطورات في الشرق والشمال والغرب قدّر لها أن تؤثر على وادي الرافدين، وعلى نفوذه اللغوي، تأثيراً عميقاً.

فعند نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، كانت جماعات جديدة من الهنود ـ الأوروبيين تدخل الإقليم الشمالي من بلاد الأناضول. فكانوا يأتون من البلقان، جالبين معهم ناطقين باللغة الفريجية، ولاحقاً باللغة الأرمنية، إلى داخل المناطق الوسطى والشمالية. وقد عرفوا باسم الموشكي بمناسبة اختراقهم المنطقة (في العام 1115 ق.م) ليواجهوا الحاكم الآشوري تغلات بيلسر الأول(*). ولكن فيما عدا ذلك لم يكن لهم تأثير مباشر يذكر على وادي الرافدين، الذي كان محصّناً إلى حد كبير بمملكة عازلة له هي مملكة الأوراراتيين في شرق أناضوليا.

وفي الشرق، في حوالي ذلك الوقت نفسه، جاء غزو آخر واسع النطاق على أيدي شعب ناطق بلغة هندية ـ أوروبية. ولأول مرة، تم التكلم باللغة الفارسية، أو اللغة السابقة لها مباشرة (ذات الصلة الوثيقة بلغة الفيدا السنسكريتية) على هضاب بلاد فارس. فكانت هذه اللغة ابنة عم الكلام الإيراني للناس الذين ظلوا منتشرين بشكل واسع على سهول أوكرانيا وسيبيريا الجنوبية طيلة ألفي عام أخرى على الأقل تحت اسم "سكيثيا" أو "شاكا". أما الذين هاجموا إيران فقد صاروا يتقنون القراءة والكتابة لبضعة قرون فقط من خلال اتصالهم بوادي الرافدين. وهكذا فإن الأدلة المبكرة على وصولهم هي أثرية محضة. ومن بين أسماء القبائل كان هناك اسمان (من السجلات الأكادية) لقبيلتين يبدو أنهما استقرتا بالقرب من الحدود مع سومر وأكاد وهما "ماداي" في الشمال حول آغباتانا (همدان الحديثة)، والقبيلة التي سكنت "بارسوا" (أي أراضي الحدود) في الجنوب (مقاطعة فارس الحديثة): وهاتان القبيلتان صارتا

(*) هذا هو اسمه بالعبرانية. أما اسمه الحقيقي فهو توكلاتي - آبيل ـ إشارا، ومعناه 'إنني متوكّل على ابن إيشار'، اي إله آشور الآشوري. وأما تسمية الموشكي فهي حسب رأي إيغور ياكونوف معادلة لاسم الميسيين، وهم قبائل ثراسيا التي استقرت في الأناضول الغربية، وكذلك الارمن الذين أطلق عليهم الجورجيون اسم سا-ميخي. وتتحدث التوراة أيضاً عن المشيخ كشعب أجنبي.

الميديين والفرس. وقد طوّقتا عيلام من الشمال والجنوب على التوالي. وفي بادئ الأمر كان يظهر أنهما مجرد تعاقب من البرابرة في جبال زاغروس على الجناح الشرقي، في أعقاب القوطيين واللولوبيين والكاسيين الذين كانوا هناك منذ وقت قديم لا تعيه الذاكرة، ولكن قدّر لهم اعتباراً من القرن السابع أن يقوضوا منطقة وادي الرافدين ثم يدمروها كمركز قوة مستقلة.

ويعتقد كثيرون الآن أن هذه اللغات الهندية ـ الأوروبية قد انتشرت بدون تغير جماعي كثيف بين الناس، ولكن عن طريق الحروب التي جاءت بنخب جديدة إلى موقع السيطرة على الأراضي القديمة، ومعها لغات جديدة راحت تنتشر بين السكان القدامى من خلال نفوذ النظام الاجتماعي الجديد. أما سبب قدرة هؤلاء المتطفلين على الدخول بالقوة، فإن من المفروض أنه ليس صدفة أن هذه كانت هي الفترة التي شهدت أيضاً رسوخ استعمال الحديد.

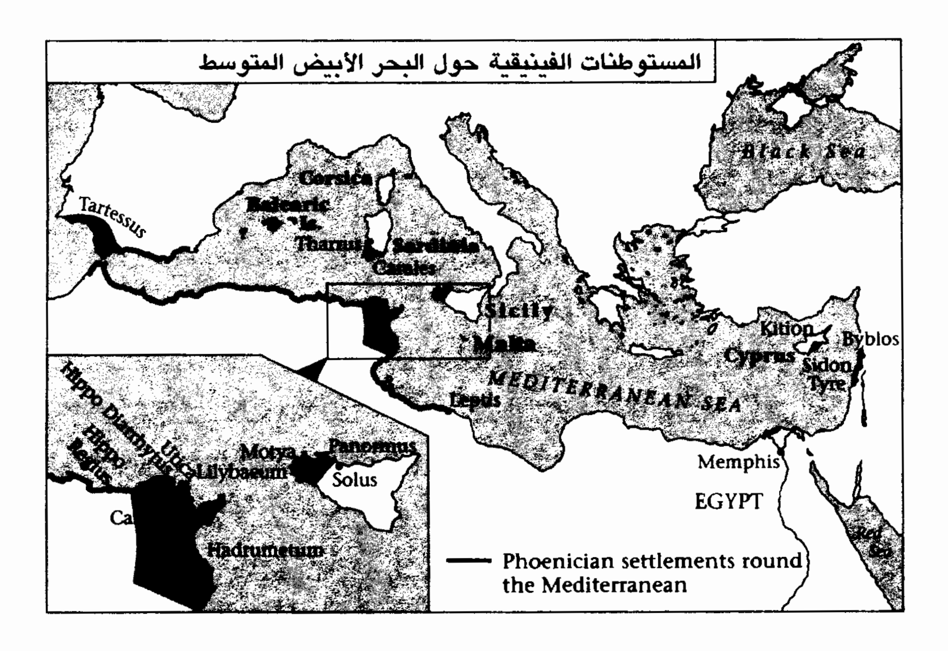
ولكن كانت هناك مجموعة ثالثة لها أكبر أهمية مباشرة في التاريخ اللغوي للشرق الأوسط، وهم الآراميون، بدو الصحراء الناطقون بلغة سامية من سوريا الشمالية. ونحن نسمع بهم لأول مرة كعدو مستمر الإصرار في نص مكتوب من أيام تغلات بيلسر الأول نفسه عند نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وسرعان ما نسمع بعد ذلك بقليل أن دمشق كانت مدينة آرامية. وعند حلول القرن العاشر قبل الميلاد كان الآراميون قد رسخوا أنفسهم كقوة هامة، وذلك عى حساب المستعمرات الحثّية اللووية المتبقية إلى حد كبير، ثم انتشروا باتجاه الشرق، رغم مقاومة ملوك آشور، وعند نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، ظهر أنه كانت لهم مستوطنات في جميع أنحاء أرض سومر وأكاد. ولم يكن التعاقب على عرش بابل روتينياً منتظماً في هذه الفترة. ويظهر أنه كانت هناك سلالة آرامية واحدة على الأقل، هي بيت بازي، في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد. وكان الكلدانيون (كالدو) أيضاً قبيلة آرامية استقرت في سومر، واستمرت لتؤسس آخر سلالة بابلية حاكمة فيها بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، بما فيها نابوبولاسر، ونبوخذنصّر الثاني، ونابونيدوس. وإلى حد كبير جعل الآراميون أنفسهم جزءاً من المؤسسة الحاكمة.

ولا بد أن هذا جزء من تفسير الطريقة التي جعلت لغتهم تحل محل الأكادية كواسطة الاتصال العامة الشاملة في وادي الرافدين، اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد، وتؤسس نفسها بعد ذلك بوقت قصير كلغة مشتركة للهلال الخصيب كله (عندما غزت آشور كلاً من سوريا وفلسطين). ولم يكن هذا توسّعاً تقوده الثقافة، إذ إن الآراميين لم يكونوا مرتبطين بأي أسلوب متميز أو حضارة خاصة بهم، ومع ذلك فهم الذين جلبوا إلى قلب إمبراطوريتهم الكتابة بالأبجدية البسيطة التي هي اختراع جيرانهم الفينيقيين، حيث تم هناك بناء الثقافة والإدارة كلها على أساس الكتابة بالخط المسماري المعقّد على امتداد ألفي عام. وبذلك أحدثوا ثورة في قدرتها على الاتصال، وربما في تركيبها الاجتماعي كذلك. فصار في إمكان اثنين وعشرين رمزاً حرفياً بسيطاً أن تقوم بالعمل الذي كان في السابق يتطلب ستمئة رمز.

وبينما كان ذلك يحدث في آسيا، كان الفينيقيون أنفسهم، وهم المنتشرون على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط فيما يعرف الآن بلبنان، يتوسعون، أو بالأحرى يستكشفون ويستغلون في الاتجاه المعاكس. وفي اللغة، كان الفينيقيون (أو الكنعانيون، كما سموا أنفسهم) شديدي الشبه بجيرانهم الداخليين والجنوبيين، أي العبرانيين، ولكن كان لهم موقف شديد الاختلاف إزاء موطنهم.

إن 'فينيقيا' هي تعبير لغوي، بل أكثر من ذلك، هي تعبير اقتصادي عن المدن التجارية الواقعة على ساحل لبنان(*). وليس هناك سجل لوحدة سياسية تربط بينها، ولا حتى كعصبة أو تحالف؛ ولكن منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، كانت هذه السلسلة من عشرات المدن (بيبلوس؛ وصيدا، وصور هي الأشهر بينها) قد رسّخت نفسها باعتبارها المراكز المفضّلة للحصول على إمدادات النحاس والقصدير من قبرص، والأخشاب من لبنان، وسلع الترف الكمالية، ولا سيما الملابس والمجوهرات. وبما أن مورّديها أو زبائنها (وخاصة مصر، التي كانت تشتري منها الأخشاب) كانوا يعيشون في الخارج على الأغلب،

(*) إن الفينيق، وخاصة الصيدونيين، مشهورون في "الإلياذة" بمنسوجاتهم الناعمة ومصنوعاتهم المعدنية، وفي "الأوديسة" باعتبارهم تجاراً دائمي الترحال.



المستوطنات الفينيقية حول البحر الأبيض المتوسط

فإن ذلك قد عزز تطوير سفن الشحن ومعرفة الملاحة. وبمعرفة هذه الأشياء على نحو فريد من نوعه في الشرق الأوسط، كانت هذه المدن تملك كل متطلبات الاستكشاف في الميدان على نطاق أوسع. ولعل الحملات والبعثات الأصلية كانت قبل ذلك (يقترح المختصون بالتاريخ القديم نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد)، ولكن من الواضح أنه عند حلول القرن الثامن قبل الميلاد، كانت هناك شبكة من المستوطنات الفينيقية على طرفي البحر الأبيض المتوسط، مع تركيز خاص على صقلية وسردينيا، والشواطئ الشمالية الغربية لأفريقيا، وقادس (وهي باللغة الفينيقية غادر، أي "القلعة") وكانت في الغالب موانئ تجارية، وقبل كل شيء منافذ تعدينية، قبل أن تكون مدناً، ولكن في حالة واحدة أصبحت المستوطنة أكثر بكثير من مشروع تجاري. وكانت تلك هي قرطاجة، الواقعة على ميناء طبيعي فيما يسمى الآن تونس الحديثة، وسرعان ما تجاوزت الشبكة التجارية لتصبح إمبراطورية بحد ذاتها في شمال إفريقيا، وصقلّية، وسردينيا.

وقد نشرت المستوطنات الفينيقية بحضورها، وعلى نطاق واسع وعريض، إحساساً بماهية المجتمع المثقف والمتعلم في الشرق الأدنى بالإضافة إلى فتحها تجارة بالمعادن عبر مسافات بعيدة. فقد كان الفينيقيون ناشرين لثقافة وادي

الرافدين على نطاق عالمي. وكان الشيء المادي الملموس أكثر من غيره هو نشرهم معرفة الكتابة بنظامهم الأبجدي بين اليونانيين والإيبريين وربما بين الإتروسكانيين والرومان، وهكذا يحق لهم الادعاء بأنهم قدموا لأوروبا تعليمها الأساسي.

ولقد كان من الممكن سماع اللغة الفينيقية في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، ولا سيما في جزره وعلى حافته الجنوبية طيلة معظم الألف الأول قبل الميلاد. ومع ذلك فلم يكن لها تأثير لغوي يذكر على أوروبا على المدى الطويل. فاليونانيون وغيرهم قبلوا بوضوح تام نظام كتابة الفينيقيين كأساس للغاتهم نفسها (مستخدمين مصطلح قواعد النحو الفينيقية)، ولكنهم لم يستخدموا أي عنصر من عناصر لغة الفينيقيين. وربما يكون هذا تعليقاً جزئياً على مدى ضآلة ما أعطاه الفينيقيون من ثقافتهم في الحقيقة لزبائنهم أو شركائهم، حيث كان الفينيقيون يفكرون في أنفسهم بصورة دائمة باعتبارهم أجانب خارجيين وموجودين هناك من أجل الأعمال التجارية فقط[*].

ولكن علاوة على ذلك، فإن هذا يبين كيف أن الأبجدية أداة مجردة أكثر بكثير من نظام الكتابة بالرموز حيث يمثل الرمز والصورة البسيطة كلمة بكاملها. فالأبجدية المفهومة بصورة كافية تمكنك من الحصول على وسيلة لكتابة لغتك نفسها بطريقة نظيفة، بدون مزيد من الحمولة. قارن ذلك مع التاثيرات التي تُحدث نتائج متسلسلة عندما تم الأخذ بأفكار الكتابة المسمارية السومرية. فبعد ذلك بألفي عام، كان الكُتّاب البابليون ما يزالون يستخدمون بعض المقاطع السومرية كرموز للاختزال تدل على ما يعادلها من الكلمات باللغة الأكادية. ولم يكونوا في الحقيقة قد اكتشفوا طريقة للتعبير عن كل الأصوات الأكادية عندما تجاوزوا أصوات اللغة السومرية. ولم يكن هذا ضعفاً خاصاً من جانب الكتاب الأكاديين، فهناك تأثيرات

(*) هناك 6 ملايين طن من الخَبَث القديم، تغطي ثلاثة أرباع كيلو متر مربع في مناجم فضة ريوتينتو، قرب هويلفا (ولعلها موقع طرطيسوس، المعتقد أن اسمه بالعبرانية ترشيش). ورغم هذا النشاط الكثيف، الممتد على مدى قرون، فإن الأدلة الأثرية تميل إلى إظهار أن المستوطنات الفينيقية في إسبانيا كانت زوايا تجارية منعزلة ولم تكن مدناً (ماركو 2000، ص 182-186).

مشابهة يمكن رؤيتها في لغات أخرى تكتب بالخط المسماري، مثل الحثية والأورارتية(*).

فالمفارقة إذن هي أن اللغة الفينيقية لم يكن لها تأثير يذكر في أوروبا، رغم أن تأثير متكلميها على اللغات التي اتصلوا بها كان هائلاً بالفعل. ولكن البونية، وهي الكلمة التي تعرف بها اللغة نفسها عندما يتكلمها القرطاجيون، استقرت ورسخت في شمال إفريقيا. ومن الواضح أنها عاشت زمناً طويلاً بعد سقوط قرطاجة كدولة في العام 146 ق.م. أي بعد 655 عاماً من تأسيسها، وحتى الإدارة الرومانية الناطقة باللاتينية التي أعقبتها لمدة خمسمئة عام أخرى، كان القديس أوغسطين الهيبي (من مدينة هيبو) يستشهد بكلمات من هذه اللغة في القرن الخامس الميلادي، معلقاً على فائدتها لقسيس في أبرشية ريفية في نوميديا[6]. ولكن من الأشياء التي تعذّب المرء وتوجع قلبه أن اللغة البونية لم تستطع أن تضمن بقاء كتاب واحد من العالم القديم، رغم أنها كانت واسعة الاستعمال، وكانت هي الواسطة التي نشرت معرفة القراءة والكتابة الأبجدية في قارة أوروبا.

أما في آسيا الغربية، فاعتباراً من منتصف القرن السابع قبل الميلاد بدا أن إيقاع التغيير أخذ يتسارع. وخلال أربعة عقود امتدت إلى العام 627 ق.م. وسعت آشور قوتها إلى الحد الأقصى، فاستولت على ليديا في الشمال، وفينيقيا في الغرب، ودلتا النيل في مصر في الجنوب، وعيلام في الشرق. ولكن آشور انهارت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً. فقد أطاح الكلدانيون في بابل بالآشوريين، وجندوا الميديين لمساعدتهم في ذلك، ثم تقدموا لإعادة بناء إمبراطوريتهم حسب منظورهم الخاص بهم. فكان هذا آخر توهّج لقوة وادي الرافدين تحت حكم آخر إمبراطور عظيم لبابل، هو نبوخذ نصّر الثاني، الذي مات في العام 562 ق.م. وقبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً، حتى أثناء غزوه للقدس وأسره ليهودها، كان

(*) كان هناك نظام رموز معبِّرة عن أشياء وكلمات تم اختراعه عند الطرف الآخر من آسيا فكانت له تأثيرات مماثلة. فاللغات اليابانية والكورية والفيتنامية صارت جميعها مقروءة ومكتوبة من خلال استعمال الحروف الصينية، وحافظت على كثير من الأشياء اللغوية (والثقافية) التي اقترضتها من اللغة الصينية، وهي لا تزال موجودة على وجه العموم حتى يومنا هذا.

هناك آخرون يبدؤون عملية تعزيز سياسي سيكون من شأنها أن تمحو عظمة بابل. فقد قام الميديون بدحر الأورارتيين في ثمانينيات القرن السادس قبل الميلاد، وبذلك رسخوا سيطرتهم على معظم الشمال. ولكن الميديين أنفسهم خضعوا في العام 550 ق.م. لانقلاب ملكي نفّذته فارس، جارتهم الجنوبية الغربية، تحت حكم كورش، ملكها الجديد. وتابع كورش فاستوعب ليديا (وبذلك استولى على باقي الأناضول)، ثم الأطراف الشرقية لفارس، حتى طاجيكستان الحديثة، وأفغانستان وبلوشستان. وفي آخر الأمر استدار على الإمبراطورية البابلية نفسها فاستولى عليها دون قتال يذكر. بل إن ابنه قمبيز غزا مصر، ولو أنه مات بعد ذلك بوقت قصير. وعند حلول العام 522 ق.م. كان هناك سيد وحيد مسيطر على كل الأرض الممتدة من الأناضول ومصر إلى تخوم تركستان الحديثة ووادي الإندوس. ولو كان هذا إنجازاً نموذجياً لوادي الرافدين لكان انهياره متوقعاً في غضون جيل واحد. ولكن الفرس استخدموا طرقاً مختلفة. وقدر للإمبراطورية المركزية المتكاملة التي أوجدوها أن تستمر مئتي عام.

وكان اسم سيدها دارا، وكانت له مواهب إدارية يمكن مقارنتها مع عبقرية كورش في كسب الانتصارات والحفاظ على ولاء الذين يغزوهم. ومن أكثر الأشياء إثارة للاهتمام من وجهة نظرنا، أنه قد أصدر مرسوماً يقضي بأن لا تكون لغة الإمبراطورية هي الفارسية، ولا الليدية، بل الآرامية. فكانت نتيجة ذلك الانتشار الفعال لاستخدام هذه اللغة السامية إلى ما وراء جميع الحدود السابقة - عبر ساحل بحر إيجه، والبلقان ومصر في الغرب، وخارجاً حتى هندكوش وضفاف الإندوس في الشرق.

ولا بد أن هذا القرار كان عملياً ذرائعياً محضاً، لأن الآرامية لم تكن هي اللغة التي تتكلمها الأسرة الفارسية الحاكمة من عشيرة الأخمينيين. ولعل العهد نفسه أراد أن يعالج هذه المشكلة، فاضطلع بمحاولة جعل الفارسية لغة أدبية أيضاً لأول مرة، فابتكر أبجدية مقطعية لكتابتها (مبنية على رموز مسمارية) ولاستخدامها مع العيلامية والأكادية في الكتابة المنقوشة على النصب التذكارية (فالأبجدية الآرامية التي كان يمكن استخدامها بسهولة لكتابة الفارسية، كان من

الواضح أنها عفوية أكثر من اللازم وغير رسمية بحيث لا يمكن استخدامها على النصب التذكارية الإمبراطورية). ولكن تلك الكتابات لم تنتشر وتم التخلي عنها بحلول العام 338 ق.م.، حتى قبل سقوط الإمبراطورية الفارسية على أيدي الإغريق. ومع ذلك فقد عاشت لغة الكلام الفارسية الحديثة واللهجات المتصلة بها، المستخدمة في إيران حتى يومنا هذا.

ورغم أن الآرامية لم تستمر في العيش كلغة آسيا الغربية، فإن توحيد اللغة الإدارية على يد الملك دارا، الذي تحقق بصورة جوهرية خلال القرنين التاليين من الإدارة الفارسية، كان له عدد من العواقب الهامة.

فقد أوجد معرفة بالإدارة التي يجري تشغيلها بلغة مشتركة منفصلة عن اللغات العامية الدارجة. وهكذا كانت التراكيب جاهزة في مكانها لإتاحة الانتشار السريع للغة اليونانية، للأغراض نفسها، بعد سقوط الإمبراطورية على يد الإسكندر وخلفائه. فتدفقت اللغة اليونانية عبر قنوات كانت مصنوعة للآرامية لمدة المئتي عام التالية (انظر الفصل السادس، تحت عنوان 'ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب'، ص 345).

وقد أعطت هذه الوحدة اللغوية السطحية نتائج مختلفة طويلة الأمد في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. ففي الأناضول، يبدو أن اللغة الإغريقية قد تعمقت في قرنيها من الزمن أكثر مما وصلت إليه الآرامية: فقد حلت محل جميع اللغات الأصلية المتبقية (وكانت تلك اللغات هي الليدية إلى حد كبير وقريباتها الأصغر منها، وكذلك الفريجية، لغة الملك ميداس). وفي منطقة إيران وأفغانستان الحديثة، حيث كان التكلم باللغات الإيرانية المتصلة بالفارسية واسع الانتشار فإنها قد اقتلعت الآرامية كلغة مشتركة، ولكنها لم تمس اللغات العامية الدارجة. وكانت المستعمرات الإغريقية، مهما بلغت أطرافها المترامية، مستثناة من ذلك بالطبع[7]. أما في وادي الرافدين، وسوريا، وفلسطين، ومصر، فلم تحرز الإغريقية تقدماً ينكر بين عامة الناس ضد الآرامية. ولكن يبدو أن مجموعات محلية معينة قد أخذت بها، مثل تجّار المسافات الطويلة، ومعهم - بصورة تدعو إلى الدهشة - اليهود المقيمون بالإسكندرية في مصر.

وكان دخول الرومان من الغرب، والفرثيين من الشرق، في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، يعني أن الإغريقية راحت تتعرض للتحدي. وقد ردت على ذلك بطرق مختلفة. فسلمت للاتينية الاستعمالات القانونية والعسكرية، ولا شيء سواها، بحيث وجدت سوريا وفلسطين ومصر أنفسها الآن مناطق تتنافس فيها ثلاث لغات أو أكثر. ولكن أمام اللغة الفرثية، الوثيقة الصلة بالفارسية (والتي كان الناطقون بها يتشاركون في الولاء لنصوص زرادشت المسماة آفيستا) فقد أزيلت الإغريقية بشكل فعال، بينما حصل شيء من الانبعاث للآرامية، كلغة مكتوبة على الأقل. واستمر استعمالها يلهم كل أنظمة الكتابة (عدا نظاماً واحداً) التي راحت تستخدم منذ ذلك الحين اللغات الإيرانية، والفرثية والفارسية (البهلوية) في الغرب، والخوارزمية والصغدية ولغتي السكاثياتيين الشاكا والأوسيتية في الشرق، وكذلك لنصوص الأفيستا نفسها(*).

وفي ذلك الحين لم تكن الآرامية لغة رسمية في أي مكان، ولم تكن لغة غالبية المجتمع إلا في الهلال الخصيب. ورغم ذلك ظلت هي اللغة السائدة على مدى هذه المنطقة الواسعة لمدة ألف سنة تقريباً، حتى القرن السابع الميلادي، عندما تغلبت عليها لغة جديدة تماماً.

كانت تلك هي العربية، التي جاءت مع الإلهام الإسلامي والإرادة القوية المتحمسة لمعتنقي دين النبي محمد. إن تقدم هذه اللغة التي كانت غير معروفة عملياً، حتى شملت في غضون جيلين الشرق الأدنى بكامله حتى حدود فارس، وشمال إفريقيا بكامله حتى أعمدة هرقل، هو أحد أكثر أحداث التاريخ إثارة للذهول. ولكن تقدمها لم يكن كله بدون مقاومة: وعندما نصفها بتفصيل أكبر أدناه فسوف يكون من المثير للاهتمام التأمل في العقبات اللغوية التي ثبت أنها لا تلين.

وبهذا ينتهي استعراضنا السريع المرهق لوثبات اللغة في غرب آسيا،

(*) كان الاستثناء الوحيد هو الباكترية، التي أصبحت فيما بعد لغة إمبراطورية كوشانا (من القرن الميلادي الأول إلى القرن الميلادي الثاني)، والمكتوبة بحروف الأبجدية اليونانية. وهذا يبين التأثير الثقافي المستمر للسلالات الإغريقية المستقلة في الشرق الأقصى، التي اقتلعتها اللغة الكوشانية.

المنطقة اللغوية التي توسعت في آخر الأمر لتضم معظم شمال إفريقيا. ونستطيع أن نتباطأ قليلاً الآن، ونلقي نظرة أقرب على بعض فرادى هذه اللغات: فكثير منها كانت رائدة فريدة من نوعها في تاريخ اللغات المعروف في العالم.

السومرية ـ اللغة التقليدية الأولى: الحياة بعد الموت

أيها الأب إنكي، أجب نينشوبور:
'ما الذي حدث لابنتي! إنني منزعج،
ما الذي حدث لإينانا! إنني منزعج،
ما الذي حدث لملكة الأراضي كلها! إنني منزعج،
ما الذي حدث لخادم معبد السماء! إنني منزعج'.
من أظفور إصبعه أُخرج الوسخ، وصَمّم الكورغارو،
ومن أظفور إصبعه الآخر أخرج الوسخ، وصَمّم الكالاتورو.
لكورغارو أعطى طعام الحياة.
ولكالاتورو أعطى ماء الحياة.
ويقول الأب إنكي للكالاتورو والكورغارو:...
'ستون مرة طعام الحياة، ستون مرة ماء الحياة، رشّ عليها،
ومن المؤكد أن إينانا سوف تنهض'،[8]

تعرف اللغة السومرية أكثر من غيرها سرعة تلاشي حياة اللغة وشهرتها بصورة تسبب العذاب. فقد ظلت كل معرفة بهذه اللغة ضائعة طيلة ألفي عام تقريباً، عندما تم الكشف الأثري عن المكتبة الملكية للعاصمة الآشورية القديمة نينوى، وذلك في العام 1845. فاتضح أن أقدم الوثائق فيها كانت مكتوبة بلغة أقدم من الأكادية، وبالتالي فهي مختلفة عنها إلى درجة أن الآشوريين في القرن السابع قبل الميلاد كانوا يقتربون منها مسلّحين طلابهم بمجموعة سابغة من قواميس ثنائية اللغة، وقواعد النحو والنصوص المتوازية. ولم يكن هناك شيء في السجل اليوناني أو التوراتي لوادي الرافدين يُهيِّئ الباحثين الجدد لتوقع مثل هذا الأساس

الأجنبي الغريب لتلك الحضارة. غير أن أغلبية الوثائق كانت مكتوبة بلغة شبيهة بالعبرانية والآرامية فيه شيء من التطمين؛ إذ إن كل ما بقي عبر العصور من عظمة آشور وبابل، كان الأساس اللغوي لمنجزاتها قد اندرس وامّحى.

فالسومرية، وهي الكلام الأصلي لسومر، الاسم الذي أطلقوه على الجزء الجنوبي من وادي الرافدين، كان قد مضى على موتها ألف وثلاثمئة عام أخرى عند كتابة تلك الوثائق التي تم استخراجها من مكتبة سنحاريب. ولكن تبيّن أن الطريقة الوحيدة لفهم الأكادية المكتوبة بالخط المسماري هي النظر إليها كمحاولة لإعادة ترجمة نظام الإشارات المصمّم للاستعمال السومري. فقد وصلت الكتابة السومرية المبكرة إلى درجة من التعقيد، وربما من النفوذ المتميز، تجعل أي أناس خارجيين يريدون اعتمادها للغتهم الخاصة مضطرين إلى الأخذ باللغة السومرية معها إلى حد كبير.

ولم تكن هذه مشكلة أكبر من اللازم في حالات كون الإشارات ذات معنى واضح. فالإشارات الرمزية الدالة على كلمات سومرية كاملة أعطيت لها طرق تلفّظ جديدة فقط، بحيث تتم قراءتها مثل الكلمات النظيرة لها في الأكادية. ولكن الأكادية كانت لغة شديدة الاختلاف عن السومرية، في تصويرها لأصواتها الملفوظة وفي تركيب كلماتها كذلك. وبما أنه لم يتم إدخال إشارات جديدة إلى الأكادية، فقد كان من الضروري تجاهل هذه الفوارق إلى حد كبير: وبالنتيجة فقد رضي الأكاديون بأن يكيفوا أنفسهم لكتابة لغتهم الأكادية وكأنما أنتجها شخص له لكنة سومرية ثقيلة. فالإشارات السومرية التي كانت تقرأ كأصوات ملفوظة ظلت تقرأ كما كانت باللغة السومرية، ولكن تم تجميعها معاً لتقارب الكلمات الأكادية، وحيثما كانت لدى الأكادية أصوات غير مستعملة في السومرية، فإنهم تدبروا الأمر بأي شيء هو أقرب ما يكون لتلك الأصوات.

وهكذا عاشت السومرية بعد موتها كلغة حية بطريقتين على الأقل. فقد ظلت تعيش كلغة تقليدية كلاسيكية تم تقديس أعمالها الأدبية الكبرى واقتباس نصوصها من قبل كل الأجيال المتعاقبة من كتاب الخط المسماري. ولكنها عاشت أيضاً كقيد مفروض على التعبير بالأكادية، بل وعلى كلّ لغة لاحقة تتطلع

إلى استخدام نظام الكتابة المسمارية بكامله، كالعيلامية، والحورية، واللووية، والحثّية، والأورارتية، على مدى الألفي عام التالية. فكان الأمر يشبه حكماً إجبارياً على اللغات الأوروبية الغربية الحديثة بوجوب كتابتها على أقرب صورة ممكنة من اللاتينية، مع بعض الحواشي التفسيرية المتناثرة من الأصوات الملفوظة لإظهار كيفية نطق التهجئة الرومانية المقدسة منذ زمن طويل لإعطاء تلفظ له معنى بالهولندية، أو الإيرلندية، أو الفرنسية، أو الإنكليزية(*).

إن أصل اللغة السومرية يحيط به غموض مبهم، وبعض أهالي جورجيا (جنوبي القفقاس على تخوم البحر الأسود) هم وحدهم الذين يدّعون أن لغتهم ذات علاقة بها[9]. ولكن هذا الادعاء ليس مقبولاً على نطاق واسع. ومهما كان تاريخ السومريين السابق، فإن من الواضح أنه كانت هناك مجموعة حيوية من المجتمعات الفعّالة النشاط في جنوب وادي الرافدين منذ الألف الرابع قبل الميلاد راحت تستوعب مكاسب رسوخ الزراعة كمؤسسات كانت حديثة آنذاك، فأخذت تؤسس المدن الأولى، التي يبدو أنها كانت قبل كل شيء تجمّعات يحتفظ كل منها بسلعه باسم إله يترأسه، مع سلطة إدارية فعالة في أيدي طبقة الكهنة. وقد بدئ باستخدام دولاب الخزّاف، والمحراث المتأرجح، والشراع، وكذلك العمل بالذهب والفضة والبرونز. وبما أن الكتابة بالصور وتطويرها إلى الخط المسماري قد اخترعت في هذه الفترة، فإن هذا يعطينا أول شهادة مباشرة على التاريخ اللغوي للعالم. ويبدو أن الاستخدام التجاري جاء أولاً. فنقش الرموز على الطين بدأ باعتبارها بدائل مناسبة لمجموعات من العلاقات المستخدمة في عمليات الجرد وإبرام العقود[10].

وسرعان ما أدّت الثروات غير المسبوقة واللمعان الثقافي في المدن - الدول في سومر في الألف الثالث قبل الميلاد إلى اجتذاب اهتمام غير مرحّب به من الشمال. فنجم عن ذلك استيلاء عدواني وتعزيز سياسي تحت حكم ملوك أكاد. ولا بد أن اتصالاً أعظم بين اللغتين السومرية والأكادية قد نتج عن غزو

(*) وهذا هو بالضبط ما نفعله برموز أرقامنا، سواء أكانت الأرقام العربية أم الأرقام الرومانية.

سرجون في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والأجيال الخمسة من السيطرة الأكادية التي تلت ذلك الغزو. فكانت ثنائية اللغة السومرية ـ الأكادية ستشيع في صفوف النخبة. ويستطيع المرء أن يرى أدلة على ذلك على أعلى مستوى، ما دامت إنهدوانا بنت سرجون قد نظّمت مجموعتين من الترانيم السومرية. وأشهرها (الترنيمة إلى إينانا) قد عثر عليها في حوالي خمسين نسخة[11].

لقد كانت هذه المشاركة من النساء، وخاصة من الأميرات والكاهنات، في الأدب السومري شائعة وغير مجهولة. فقد كتبن أغنيات ترنيمية جنائزية ورسائل، وعلى وجه الخصوص أغنيات غرامية.

مدينتك ترفع يدها كشخص مشلول، يا مولاي شو ـ سين،
وهي تقبع عند قدميك كشبل أسد ـ يا ابن شولغي.
آه يا إلهي، إن خادمة الشراب العذراء لديها شراب حلو تعطيه،
ومثل شراب التمر حلو فرجها، وحلو شرابها ... [12]

وبين الحين والآخر هناك تهويدة لتنويم الأطفال:

تعال يا نوم، تعال يا نوم،
تعال إلى ولدي،
وعجّل بتنويم ولدي،
ونوّم عينيه المضطربتين،
ضع يدك على عينيه البراقتين،
وأما لسانه المثرثر بالهذيان
فلا تدع هذيانه يحجب عنه النوم.

سوف يملأ حضنكم بالقمح.
وسأصنع لك الأجبان الصغيرة الحلوة،
تلك الأجبان الصغيرة الشافية للإنسان ...
وحديقتي فيها خس جيد التروية...

فلتكن الزوجة داعمة لك،
وليكن الابن من نصيبك،

ولتكن حبّات الشعير المذراة عروسك،
ولتكن آشنان إلهة الفواكه حليفك،
وليكن لك ملاك حارس بليغ،
وليكن عهدك محقّقا لأيام سعيدة ..[13].

إن هذه الأعمال مؤلفة في العادة بـ "الإيميسال"، أي 'اللسان الناعم الرقيق'، الذي هو لهجة سومرية منفصلة، موثقة جيداً في قواميس النصوص المكتوبة. وفي المؤلفات الحوارية تستخدم هذه اللهجة في كلام الإلهات. وهي تختلف عن السومرية الفصحى الموحّدة، المسماة "إيميجير"، أي 'اللسان الأميري'، في المفردات (بما فيها أسماء كثير من الآلهة)، وفي التلفظ كذلك (بحيث تتضح الحروف الصامتة عموماً متقدمة إلى الأمام أكثر في الفم)، وهي لا تختلف أبداً في قواعدها النحوية. وعلى سبيل المثال، فعندما تظهر الآلهة إينانا أنها تزجر مغازلات خاطِب يزعجها بإلحاحه، فإنها تصرخ:

*Kuli **Mulila** šu bamu emeše danen*
amanu lulaše ta munaben
amanu Gašangale lulaše ta munaben

يا صديق إنليل، اتركني حرة! دعني أذهب إلى بيتي!
فأي كذبة سأخبر أمي بها؟
أي كذبة سأحكيها لأمي نينجال؟

وبالطبع فإن إنليل ونينجال إلهان. وبلسان الأمراء فإن ذلك سيكون كما يلي (مع إبراز الفوارق):

*Kuli **Enlila** šu bamu **enuše ganen***
*amanu lulaše **ana** munaben*
*amanu **Ningale** lulaše **ana** munaben*[14]

وهكذا يبدو أن السومرية، مثل لغات كثيرة أخرى في جميع أنحاء العالم، فيها لهجة خاصة لكلام النساء. وما يميز السومرية هو أن هذه اللهجة قد اكتسبت مكانة خاصة وصريحة مسجّلة في كتب قواعد النحو. ويمكن اعتبار ذلك دليلاً آخر على المكانة العالية للنساء في الأدب السومري.

وبالعودة إلى ثنائية اللغة السومرية - الأكادية، يتفق المختصون على أن ميزان لغة الحديث في سومر قد انتقل على مدى الفترة من العام 2400 إلى العام 1600 قبل الميلاد من السومرية بشكل كلي إلى الأكادية بشكل كلي. فقد بدأت سومر هذه الفترة كمجموعة من المدن - الدول المستقلة، ثم تعرضت للسيطرة الأكادية في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ثم للسيطرة العمّورية، فالسيطرة العيلامية (لفترة قصيرة) في القرن التاسع عشر، ثم لحكم حمورابي البابلي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وانتهى الأمر باستعادة استقلال سومر، أو بالأحرى الفوضى، عقب انهيار هذه الإمبراطورية البابلية الأولى. ولكن اللغة في الشوارع والبيوت صارت عندئذ أكادية.

فكان ذلك مثالاً مثيراً للاهتمام على ثنائية اللغة غير المستقرة، ما دام الوضع ينكرنا من خلال طرق عديدة بالعلاقة بين الإغريقية واللاتينية في الإمبراطورية الرومانية، فقد سيطرت إحداهما على الحياة الثقافية وسيطرت الأخرى على الحياة السياسية. وفي تلك الحالة، فعلى الرغم من عدم الاستقرار السياسي، وسمعة اليونانيين المتذبذبة بصورة عامة، على عكس ثبات الرومان ونفوذهم السياسي، فلم تتراجع اللغة اليونانية أمام اللاتينية في أي مكان. ومع ذلك ففي وادي الرافدين، كانت الشعوب السامية المختلفة هي مصدر الفوضى والتمزيق، رغم كل سيطرتها السياسية، حيث يظهر أنه لم تكن هناك أي حركة سياسية كبرى للسكان السومريين، وحيث لم يتعرض النفوذ الثقافي السومري للتحدي، ولكن السومرية راحت تفقد موقعها باطراد.

وفي بعض الحالات، راح حتى بعض الحكام الساميين يحاولون خوض معركة مؤخرة بالنيابة عن الثقافة السومرية. ففي مملكة إيسين، التي كانت تسيطر على أهم ثلاث مدن سومرية، هي نيبور وأوروك (الوركاء) وإيريدو فيما بين القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد، كانت السلالة الحاكمة من ماري، في شمال وادي الرافدين الناطق بالأكادية، ومع ذلك فإن ملكها أطلق على نفسه لقب ’ملك أور، ملك سومر وأكاد‘. وكانت كل نصوصها الرسمية مكتوبة باللغة السومرية، وقد ازدهر إنتاج طبعات أو نسخ جديدة من الأدب السومري الكلاسيكي.

وربما كان بين العوامل الفعّالة ضد بقاء السومرية كلغة حية إلى جانب الأكادية أن القادمين الجدد ذوي النفوذ المؤثّر كانوا يتكلمون لغة سامية، وهكذا وجدوا أن من الأسهل أن يتدبروا أمرهم بالأكادية. فقد كان الأكاديون وحدهم هم الذين عاشوا على مقربة وثيقة من السومرية منذ عصور قديمة لا تعيها الذاكرة، وربما صاروا ذوي لغة مزدوجة. أما الآخرون فلم يكن من شأنهم الصبر على التعقيدات الثقافية التي واجهوها في الجنوب. ومن السهل تخيّل الرجل العمّوري العادي المتنقل وهو يقول: 'بعد كل شيء فإنهم جميعاً يتكلمون الأكادية، أليس كذلك؟' فقد كان الهلال الخصيب كله يعرف لغة سامية واحدة أو أخرى. وكانت تلك اللغات بطبيعتها شديدة التشابه، بل ويسود بينها فهم متبادل إلى حد ما. وبرغم كل نفوذ السومريين الثقافي (الذي كان من الواضح أنه لم يتناقص أبداً)، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنازل لإجراء تسويات في اللغة في حياتهم اليومية والتجارية.

وبمعنى ما، فإن الأكادية قد اضطلعت بحمل العبء الذي ألقاه الناطقون بالسومرية عن كواهلهم. ومثلما كان الأمر دائماً، فقد ظل تعلّم الأكادية بأي طريقة أخرى سوى كونها امتداداً للسومرية شيئاً لا يمكن التفكير فيه، رغم أن السومرية والأكادية كانتا متباعدتين كلغتين كتباعد القطبين، إذ إن مفرداتهما الأساسية كلها لا علاقة لها ببعضها بعضاً على الإطلاق، ولهما نظامان صوتيان شديدا الاختلاف. فلم يقدّم النظام وسيلة للتمييز المطّرد بين *b* و*p* والدال *(d)* والتاء *(t)* والطاء *(ṭ)*، والغين *(g)* والقاف *(k)* والكاف *(q)* في الأكادية. ويظهر أن الأكادية تنقصها إلى حد ما خفايا ظلال الأصوات المنطوقة التي تميز كثيراً من أخواتها من اللغات السامية. ففيها صوت واحد للهاء *(h)* في حين تملك أخواتها ثلاثة، وثلاثة أصوات للسين *(s)* بينما يصل العدد في أخواتها إلى أربعة. ومن الصعب القول إن كان فقر الأبجدية السومرية في الهجاء فقط هو الذي يسبب هذه الظاهرة.

ويظهر أن الابتكارات الوحيدة التي سمح بها الكُتّاب الأكاديون لأنفسهم هي إشارة جديدة لهاء الوقف الحلقية الساكنة، مع تراخيص كبيرة في رموز

الكلمات أو المنطوقات السومرية: التي كانت متوفرة كأساليب للتورية، قادرة على الرمز للصوت نفسه الدالّ على الكلمة في السومرية، ومن ثم كانوا يستطيعون تطبيق الخدعة نفسها في الأكادية كذلك. وعلى سبيل المثال فإن العلامة السومرية التي تعني اليد صار بالإمكان قراءتها 'إيدو' التي تعني اليد في اللغة الأكادية. كما أن بإمكانها أن تمثل المقاطع إد (id)، إتْ (it)، إطْ (iṭ) يدْ (ed)، يِتْ (et)، ويطْ (eṭ).

وظلت رموز الكلمات السومرية، وظل الأدب السومري، أساساً للأكادية المكتوبة حتى عندما اجتاحت كافة أنحاء الهلال الخصيب وما وراء ممالك الشعوب الناطقة باللغات السامية، كلغة مشتركة للاتصال الدولي. وقد تمت المحافظة على النظام التعليمي ذاته، القائم على أساس 'الإيدوبا'، أي "بيوت الأقراص الطينية"، وهي المدارس، لمدة ألفي عام على الأقل. إذْ تم العثور على قوائم علامات لتدريس الرموز بالترتيب نفسه في مدينة أوروك (الوركاء) السومرية يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وفي مكتبة آشور بانيبال في العاصمة الآشورية نينوى من منتصف القرن السابع قبل الميلاد. كما أن إتقان الأعمال التقليدية الكلاسكية في الأدب السومري، وهي مجموعة من النصوص التي لم تمتد إلى ما بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، ظل قمة إنجاز البحث الدراسي، وبؤرة التركيز في سنوات الطالب الأخيرة في مدرسته. وحتى في الرياضيّات، كانت معظم المصطلحات باللغة السومرية، رغم أن الكتب المدرسية المقررة كانت مكتوبة بالأكادية. ويظهر أن التكلم بالسومرية قد استمر في الصفوف المدرسية: وقد أدى ذلك إلى جعل التمارين والكتب المدرسية الباقية أقل وضوحاً وصراحة في اللفظ مما كنا نحب أن تكون عليه.

إن حماسة الثقافة الأكادية لكل الأشياء السومرية في الحقيقة هي التي أنقذت ثقافة سومر الراقية وفنونها الجميلة. وتكاد جميع النصوص الأدبية السومرية التي عثر عليها تكون نسخاً قام بها الطلبة على الأغلب في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، بعد موت السومرية كلغة حية؛ وعلى عكس

ذلك، فإن معظم ما وصل إلينا من أيام ما قبل الأكادية، عندما كانت مدن سومر فخورة وحرة (وما زالت تتكلم السومرية) هي كتلة من المخطوطات والوثائق الإدارية.

ولكن هذه الذروة السومرية التي استمرت ستمئة عام، بعد موت اللغة الحية، وصلت إلى نهايتها في آخر الأمر، فأظهرت أن الأكادية لا تستطيع أن تواصل دعمها إلى ما لا نهاية. وبعد سقوط بابل في يد الملك الحثي المغير مورسيليس في العام 1594 ق.م. والاستيلاء على وادي الرافدين من قبل العشائر الكاسيّة الجبلية بعد ذلك، فإن التقدير الحقيقي للثقافة السومرية لم يستعد عافيته أبداً. فاعتباراً من بقية الألف الثاني، ثم الألف الأول قبل الميلاد (بل وحتى الاحتلال الإغريقي في ظل الإمبراطورية السلوقية بعد الإسكندر في العام 323 ق.م.) لم يعد أحد يحاول إنشاء كتابات بالسومرية ولم يعد يتم استنساخ نصوص أدبية سومرية سوى نصين اثنين، هما مآثر نينورتا (التي أوردنا عيّنة منها) وقطعة إنشائية عنوانها "آنجيم"، عن عودة نينورتا من الجبال إلى نيبور. ومنذ ذلك الحين، لم تعد الأعمال السومرية التقليدية الكلاسكية تعرف إلا في الترجمات.

وكما لاحظ شاعر (عن التدمير المبكّر لمدينة أكادية كانت تتطلع إلى إخضاع السومريين لسيطرتها):

> إن الذي قال 'سأعيش في تلك المدينة' لم يجد مكاناً جيداً للسكن هناك.
> والذي قال 'سأنام في أغادي' لم يجد مكاناً جيداً للنوم هناك.
> فقد دمرت أغادي. والحمد لإينانا.[15]

وبما أن الأكادية أيضاً كان مقدراً لها الزوال - وعندما حدث ذلك حلت محلها لغة لم تكن معروفة قراءتها وكتابتها تعتمد على التقليد القديم للكتابة بالخط المسماري - فقد قدر للسومرية أن تتلاشى. ففيما عدا الألواح الطينية التي تنتظر الاكتشاف في تلال العراق، فإنها لم تترك وراءها أي أثر.

الفترة الفاصلة الأولى: ما الذي حدث للعيلامية؟

يبدو أن العلامات الطينية التي أنشأت النصوص السومرية المكتوبة كانت واسعة الانتشار: وليس ذلك مدهشاً، إذ إنها كانت ستلعب دوراً أساسياً باعتبارها بواليص الشحن لتجارة المسافات الطويلة. فتطورها إلى مجموعات من الرموز المنقوشة على الطين جاء بشكل مستقل في سومر، وعلى مبعدة من ذلك إلى الشرق في شوسيم (المعروفة عند الإغريق باسم سوسه)، وهي أرض عيلام الداخلية. فالرموز المصورة في عيلام لم تذهب بعيداً وراء مرحلتها الأولية كواسطة لعمليات الجرد رغم أن النصوص العيلامية البدائية الأصلية، والتي يظهر أنها كانت مقطعية، كانت مستخدمة في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. غير أن خط التطور هذا تم إجهاضه في منتصف الألف المذكور، عندما تم الأخذ بالنظام السومري الذي كان عندئذ نظام كتابة حقيقي، رغم أنه كان متكيفاً بشكل قوي مع استعمال اللغة السومرية.

وفي الحقيقة، فإن عيلام ذهبت إلى أبعد من استعارة النظام الكتابي: لأن جميع النصوص الرسمية تقريباً كانت باللغة الأكادية طيلة تسعمئة عام تبدأ اعتباراً من العام 2200 ق.م. ولمدة طويلة من هذا الوقت كانت تحت السيطرة السياسية المباشرة لإحدى القوى إلى جهة الغرب، وهي السومرية، والبابلية، والآشورية. ورغم ذلك فلا بد أن العيلامية ظلت لغة الكلام في عيلام، إذ إنها تنهض عائدة للحياة في العام 1300 ق.م. كلغة رسمية تحل محل الأكادية لجميع الأغراض الكتابية، ما عدا اللعنات(16).

وظلت سيرة اللغة العيلامية فيما بعد تظهر إصراراً على الاستمرار طيلة ثمانمئة عام. فاعتباراً من العام 1300م. راحت عيلام تخوض سلسلة من الحروب لم تكن دفاعية دائماً مع جيرانها عبر سبخات دجلة المستنقعية. وخلال تقلبات هذه الصراعات على القوة والسلطة، التي كانت كثيراً ما تنجم عنها فترات من التسلط الأجنبي، استطاعت عيلام أن تحافظ على استقلالها على المدى الطويل من خلال احتفاظها بأرض داخلية واسعة ولكن يمكن الدفاع عنها والوصول إليها، وهي آنشان، في جبال زاغروس على الجنوب الشرقي،

التي لم يتغلغل إليها الناطقون باللغة الأكادية على الإطلاق[17]. ولم تأت الكارثة الحقيقية إلا في القرن السابع قبل الميلاد، عندما خسر العيلاميون مركزهم القوي: فقد استولى عليه الفرس، الذين جاء هجومهم، لأول مرة، من الجنوب. وفيما بعد ذلك التاريخ صارت آنشان تعرف باسم بارشا (والمنطقة تدعى فارس إلى يومنا هذا).

كان العيلاميون قد فقدوا حصنهم المنيع للطوارئ. وعلى الفور تقريباً، قام آشوربانيبال الآشوري بنهب سوسه في العام 646 ق.م. فوضعت هذه الكارثة حداً لآخر مملكة مستقلة في عيلام، إن لم يكن للعيلاميين أو لغتهم. ولكن بالطريقة الآشورية النمطية المتميزة، نفى آشوربانيبال كثيراً من السكان، إلى آشور حسب روايته هو، وإلى أبعد من ذلك، إلى السامرة في فلسطين حسبما هو وارد في التوراة في سفر عزرا (4:9ـ10).

ولكن الأحداث كانت تتحرك إلى ما وراء التأرجحات التقليدية لرقّاص تحولات القوة في وادي الرافدين. فلم يكد العيلاميون يشتفون برؤية آشور نفسها تسقط على أيدي الميديين والبابليين في العام 612 ق.م. حتى وجدوا أنفسهم تحت السيطرة البابلية ثم، في غضون جيل واحد، تحت السيطرة الفارسية. وأدى ذلك إلى وضع عيلام في قلب الأحداث العالمية لأول مرة. وبعد ذلك بجيلين، في العام 522 ق.م. سيطر دارا (دارايافوس)، الوريث الفارسي لآنشان، على الإمبراطورية الفارسية كلها، وكانت عندئذ قد امتدت من مصر والأناضول إلى حدود الهند. وعلى الرغم من تمرّدين عيلاميين فاشلين وقعا بعد فترة قصيرة من اعتلائه العرش، فقد اختار عيلام قلباً لإمبراطوريته، ومعها سوسه نفسها (المعروفة عنده باسم شوشان) كعاصمة إدارية لها، وبارشا، أي آنشان كموقع للعاصمة الاحتفالية الجديدة، التي راحت تعرف لدى الغرب بصورة أفضل تحت اسمها اليوناني بيرسيبوليس (وهي "المدائن" الحديثة).

ولم يكن الفرس أبداً يقدرون معرفة القراءة والكتابة تقديراً عالياً. فمن المشهور عنهم أن قادتهم كانوا يتعلّمون ثلاثة أشياء فقط هي: ركوب الخيل،

وإطلاق السهم بشكل مستقيم، وقول الحقيقة. وهكذا، فإن جيرانهم العيلاميين الذين كان وراءهم ألفا عام من التعليم المسماري، كانوا في وضع جيد جعلهم مفيدين للغاية في الجانب الممل المضجر من بناء الإمبراطوريات.

وعلى النصب التذكارية التي أقامها دارا في أنحاء مملكته (ولا سيّما عند بهيستون، على طريق الحرير)، لم تكن النقوش مكتوبة بالفارسية والأكادية فقط، بل بالعيلامية كذلك. ورغم أن اللغة الرسمية للإمبراطورية قدر لها أن تكون الآرامية، فإن من الواضح أنه حتى حوالي العام 460 ق.م. كانت الإدارة المركزية تتم في الحقيقة باللغة العيلامية، إذ تم اكتشاف أرشيف من عدة آلاف من الوثائق الإدارية في برسيبوليس (المدائن) في ثلاثينيات القرن العشرين. ومن الأرجح أن الفضل في الحفاظ عليها يعود إلى الحرائق المتعمّدة التي أشعلها الغزاة من جنود الإسكندر في العام 330 ق.م. (لأن النيران خبزت ألواح الطين جيداً فثبتت عليها النقوش).

ولكن هذه هي آخر الوثائق العيلامية التي بقيت في أي مكان[18]. فقد حلت محلها الآرامية كلغة للإدارة المكتوبة. ونظراً لأن العيلامية كان ينقصها أي تركيز سياسي للحفاظ على تقاليد الخط المسماري، فالظاهر أن الكتابة بها قد أوقفت. وبعد ذلك بوقت قصير، وربما كان طويلاً، فإن لغة الكلام بالعيلامية قد تلاشت أيضاً. فالعرب الذين كانوا يكتبون في القرن العاشر الميلادي ذكروا أن لغة الكلام في خوزستان لم تكن الفارسية ولا العربية ولا العبرانية: فلم يسجلوا أي كلمات منها، ولذا فلا يدري أحد إن كان ذلك هو آخر العهد باللغة العيلامية[19].

ولقد كانت هناك تكهنات بأن صراعات سومر وأكاد للسيطرة على الجبال التي وراء عيلام، بثرواتها الغنية من المواد الأولية، من الحجر والأخشاب والمعادن، ربما تكون قد انعكست بطريقة نظرية مجردة على أدب الفترة الباقي[20]. ففي القصيدة المعنونة "لوغال وميلامبي نيرغال" المعروفة بالإنكليزية بعنوان "مآثر نينورتا"، يسلم الإله على أمه التي جاءت لزيارته في فتوحاته الجبلية:

بما أنك يا سيدتي قد جئت إلى الأراضي الوعرة،
وبما أنك، أيتها السيدة النبيلة، بسبب شهرتي، جئت إلى أرض العدو،
وبما أنك لم تخافي من معاركي المرعبة،
فأنا البطل، على كومة الاستحكامات التي كدستها
سوف تدعى هرساغ، وستكونين ملكتها،
ومن الآن فصاعداً فإن نين هرساغ ستكون الاسم الذي يطلق عليك -
هكذا سيكون الأمر.
...
وسوف تزوّدك الهرساغ بعطور الآلهة بشكل وفير،
وسوف تزودك بالذهب والفضة بكثرة،
وسوف تستخرج لك النحاس والقصدير وتحملها إليك لتكريمك،
وسوف تُكثر الأماكن الوعرة المواشي الصغيرة والكبيرة لك،
وسوف تأتي لك الهرساغ بنسل كل المخلوقات ذوات القوائم الأربع[21].

والحقيقة أن الملك الذي حقق فتح عيلام وآنشان كان غوديا من لكش (بين عامي 2141 و2122 ق.م): وكان يخدم الإله نينجيرسو وليس نينورتا. ومع ذلك فقد كان نينورتا إله نيبور، التي أصبحت فيما بعد المركز الثقافي للمدن السومرية. وهكذا فإن تغيير الإله المركزي كان سيضفي على المقطوعة الشعرية شيئاً من الأبّهة والفخامة النزيهة التي ناسبتها فأصبحت من المأثورات الأدبية التقليدية الكلاسيكية.

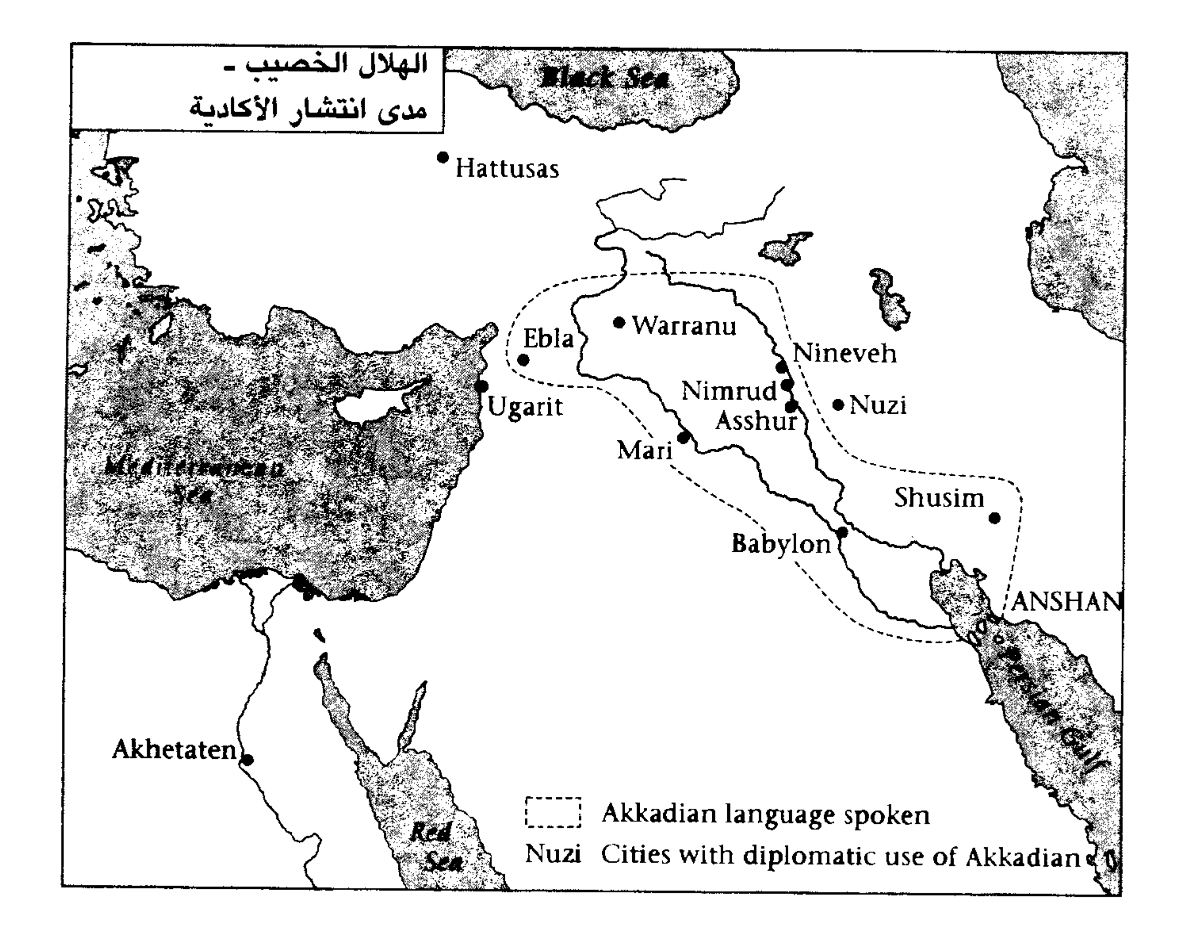
الأكادية ــ تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة

وكانتِ الأرضُ كلها لغةً واحدةً وكلاماً واحداً. وكانَ أنَّهمْ لمّا رَحلوا إلى المشرقِ وَجدوا بقعةً في أرضِ شنعارَ فأقاموا هُناك. وقالَ بعضهم لبعضٍ: 'تعالوْا نصنعْ لبناً ولنحرقهُ حرقاً!' فكانَ لهمُ اللبنُ بدلَ الحجارةِ، والحمرُ كانَ لهمْ بدلَ الطينِ. وقالوا: 'تعالوا نبنِ لنا مدينةً وبرجاً رأسهُ إلى السماءِ، ونقمْ لنا اسماً كي لا نتفرَّق على وجهِ الأرضِ كلها'. فنزلَ الربُّ يهوه

> ليَنظرَ المدينةَ والبرجَ اللذينِ كانَ بنو آدمَ يبنونَهما. وقالَ الربُّ: 'هوذَا همْ شعبٌ واحدٌ ولجميعهمْ لغةٌ واحدةٌ، وهذا ما أخذوا يفعلونهُ. والآن لا يكفون عما هموا بهِ حتى يصنعوهُ. هلمَّ نهبطْ ونبلبلْ هناكَ لغتهمْ حتّى لا يفهمَ بعضهمْ لغةَ بعض'. ففرَّقهمُ الربُّ منْ هناكَ على وجهِ الأرضِ كلها، وكفوا عن بناءِ المدينةِ. ولذلكَ سميتْ بابلَ لأنَ الربَّ هناكَ بلبلَ لغةَ الأرضِ كلها. ومنْ هناكَ شتتهمُ الربُّ على كلِّ وجهها.
>
> سفر التكوين: الإصحاح الحادي عشر، 1 ـ 10

إن هذه الأسطورة اليهودية، من الواضح أنها مستلهمة من البناء المعماري الضخم المذهل الظاهر في مدينة بابل العالمية، وتعدد أصوات اللغات التي تُسمع في شوارعها، لا تزال ترمز بشكل عميق إلى الثقافة الأوروبية. ولكن ضاعت فيها بطريقة ما آلية الصراع بين قوة عظمى متغطرسة وإله غيور. وهي تعتبر اليوم قصة حول الطريقة التي تعطي فيها اللغة الوحيدة وحدة، هي الوحدة الضرورية لإنجاز مشروع عظيم ورائع إلى حد استثنائي: فقط اخلط لغاتهم بشكل مربك فيصبح التعاون مستحيلاً. وبهذا الاعتبار، فإن هذه الخرافة ملفّقة بشكل غريب وموضوعة في غير مكانها عن بابل، التي تميزت طوال تاريخها بدور قيادي للغة وحيدة. وكانت هذه اللغة هي الأكادية التي سادت على امتداد ألفي عام تقريباً، رغم أنها خضعت للآرامية في آخر بضعة قرون من إمبراطوريتها، كما رأينا آنفاً.

ولعل الحلم برؤية البابليين مبعثرين وغير منظّمين كان ممارسة مريحة لرغبات يهود القرن السادس قبل الميلاد وتمنياتهم أثناء كونهم مشردين ومطرودين من موطنهم على يد الإمبراطور البابلي نبوخذ نصّر الثاني. وربما يمكن اعتبار هذه الخرافة تعليقاً ساخراً بالمفارقة عن كيفية تمكن آشوربانيبال الآشوري من نهب بابل قبل ذلك في القرن السابع قبل الميلاد. ورغم كل شيء، فإن كثيراً من التقليديين البابليين لا بد أنهم قد تشككوا بانتشار نفوذ الآراميين ذوي الكلام الخشن الغليظ وتكهنوا بأنه لن ينجم عنه أي شيء جيد. ولكن رغم أن بابل كانت ستفقد مجدها مع مرور الزمن ـ بل بعد نبوخذ نصّر بوقت قصير



جداً - فإن تدهورها لا يمكن عزوه إلى انحدار اللغة، أو إلى شيء من الفشل في التواصل. فقد استمر الناس في التحدث باللغة الآرامية، ودراسة الأكادية قروناً كثيرة بعد أن سلبهم الفرس، ثم الإغريق، قوتهم كلها.

ومع ذلك فإن الأكادية في أوجها كانت لغة القوة والنفوذ بشكل بارز، وإذا كانت السومرية قد انتشرت إلى ما وراء سومر باعتبارها محكاً لمقياس تعليمي موحد، فإن الأكادية قد انتشرت عن طريق النفوذ الاقتصادي والسياسي المتميز.

والأكادية تسمية مأخوذة من أغاد، أو أكاد، التي كانت ذات مرة المدينة الكبرى في جنوب وادي الرافدين. ولكن موقعها الآن يشوبه الغموض (ولعلها لم تكن بعيدة عن بابل). فسجلات اللغة تبدأ بشكل جدي في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، بحيث تصل إلى ذروة مبكرة في تلك الغزوات التي قام بها سرجون (الذي تركز عهد حكمه الطويل عند نقطة التحول من القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد). فقد شن حملات ناجحة في كل الاتجاهات.

وبذلك لم تقتصر منجزاته على نشر الاستخدام الرسمي للأكادية في الشمال (في ماري وإيبلا) فقط، بل شملت بداية سيطرة رسمية لتلك اللغة في عيلام إلى الغرب على امتداد ألف عام. وقد رأينا أن هذه النوبة الأولى من الحيوية الإمبراطورية الغزيرة قد تلاها انهيار في الجيل الرابع (عند نهاية القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد) وانبعاث لغوي قصير الأجل للشعوب المحكومة، مع عودة السومرية والعيلامية إلى الاستخدام الرسمي لمدة قرن أو نحوه. غير أن العموريين، 'الغربيين' الناطقين بلغة سامية سرعان ما راحوا يبرزون في كافة أنحاء وادي الرافدين(*). ولم تؤدّ تحركاتهم إلى تقوية أكاد سياسياً، ولكن كان يبدو أنها تزاحم الاستخدام الواسع النطاق لأي شيء سوى الأكادية كوسيلة للاتصال؛ وكان السجل المكتوب (خارج نطاق الأدب) مدوّناً بهذه اللغة حصراً منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

وفي الأيام المبكرة، كان هناك شيء من التكافؤ، وربما شيء من التخصص في المهمات، كما هو الحال بين الأكادية والسومرية. وقد لاحظنا آنفاً أن ابنة سرجون نفسها كانت شاعرة تتقن النَظْم باللغة السومرية. ولكن ثنائية اللغة أثبتت أنها غير مستقرة. فبينما كانت الأكادية محصّنة باعتبارها اللغة الكبرى في الهلال الخصيب، باستخدامها اليومي لكل أغراض معرفة القراءة والكتابة، مع درجة من الفهم المتبادل مع اللغات السامية السائدة على جهة الغرب فإن السومرية لم يكن يضمنها إلا دورها في التعليم والثقافة. وكانت فترة نشوء بابل ونهوضها (من 2000 إلى 1600 ق. م.) تحتضن ذلك وتغذّيه، ولكن عندما تبعثرت قواعد القوة، وسيطر على الوضع حكام أجانب (هم الكاسيون) فلا بد أن التعلم الجاد للغة السومرية صار يبدو غير ذي صلة. فتم الاحتفاظ بها

(*) لم يكن للعموريين تقليد خاص بهم من معرفة القراءة والكتابة. ولكن لغتهم يمكن إعادة تركيبها جزئياً عند اقتباس أسمائهم بلغات أخرى هي في العادة السومرية. وهذا يعطي صلة باللغات السامية الغربية المتأخرة فيما بعد، مثل الأوغاريتية والفينيقية والعبرانية، التي لا تظهر في السجل المكتوب لمدة خمسمئة عام أخرى أو أكثر. وبما أنه كان هناك ميل لإطلاق أسماء هي جمل كاملة، فإنها تعطي صورة للغة أكمل مما كان متوقعاً: آيا دادو؟ معناها 'أين دادو؟' وشوب آدوو معناها 'عُد يا آدو!' وياشوب - إيلو، ومعناها 'الإله يعود'، وسامسو إيلونا، ومعناها 'الشمس إلهنا'.

فقط كمساعد للدراسات الأكادية، على طريقة الاحتفاظ بقائمة من المقاطع أو الحروف اللاتينية الزائدة التي لا تزال توجد أحياناً في آخر قاموس إنكليزي.

ولقد ثبت أن هذه الفترة 'البابلية القديمة' كانت ذات أهمية بالنسبة للأكادية تعادل أهميتها بالنسبة للسومرية، ولكن بطريقة مختلفة. ففي هذه الفترة هناك فوارق طفيفة في اللهجات يمكن ملاحظتها أولاً بين الجنوب (البابلي) وبين الشمال (الآشوري). كما يبدأ ظهور لهجات مختلفة من الأكادية في مجالات أبعد، في ماري، وفي سوسة، وإلى الشرق في وادي ديالى. فهناك رسائل موجودة من جميع الفترات. وهي تقدم أفضل دليل على اللغة المحكية.

وفي الوقت نفسه، فإن لهجة بابل (التي كان البابليون أنفسهم يسمونها اكادو) ترسخت وأصبحت هي اللهجة الأدبية القياسية، التي سوف تستخدم النسخة الكلاسيكية الفصحى منها للأغراض الرسمية في جميع أنحاء وادي الرافدين. ولقد استمر هذا المركز المتميّز طيلة باقي تاريخ اللغة، وبصورة جوهرية بغضّ النظر عما إذا كانت بابل، أم آشور، أم سواهما، هي المركز السائد للقوة السياسية. والنموذج العظيم للغة البابلية الكلاسكية التقليدية هو قوانين شريعة حمورابي التي تم تجميعها في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، عندما كانت هذه اللهجة لا تزال هي العامية الدارجة. ولكن أفضل النصوص الأدبية المعروفة، مثل ملحمة جيلغامش وإينوماعليش (أي 'عندما في الأعالي'، وهي ملحمة الخليقة) هي أيضاً بهذه اللهجة، وقد كتبت بها، عندما لم تعد هي السائدة.

وفي الشمال، قدر للأكادية أن تتلاشى في حوالي العام 600 ق.م. لتحل محلها الآرامية بشكل كامل. ولكن استخدامها استمر في بابل حتى بداية القرن الأول الميلادي؛ ويبدو أنه عند حلول هذه المرحلة كان الجزء الأكبر من معرفة اللغة في أيدي كتاب محترفين، يقرؤون، ويكتبون، ويترجمون حتى الرسائل الشخصية - ولكن بدون تدخل من الآرامية التي كانوا يفكرون ويتحدثون بها بالفعل.

وإلى جانب استخدام الأكادية كلغة محلية من قبل معظم سكان وادي

الرافدين، ودورها التاريخي كأول لغة للساميين لمعرفة القراءة والكتابة في أي مكان، فقد أدت دوراً أوسع كلغة مشتركة بين أناس أجانب تماماً. فكيف صار ذلك ممكناً؟ كان السبب يعود في آخر الأمر إلى ارتباطها بأعقد تقنية في عصرها، أي الكتابة.

والدليل الأول على هذا الانتشار العالمي هو نشاط التجار الآشوريين في أناضوليا الوسطى بعيداً إلى شمال جبال طوروس في مجمع من مراكز التسوق (أو كاروم) مقام بين نيساس وهاتوساس (كولتيب وبوغاز كوي على الخرائط الحديثة). وكان ذلك في الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، 1950 ـ 1750 ق.م. وكان التجار يأتون من عوائل آشور الغنية، ويستخدمون قوافل الحمير للتنقل عبر جبال طوروس. وكان دافعهم لذلك المتاجرة بالمعادن: فقد وجدوا مصدراً للفضة، والذهب، والنحاس. وفي الاتجاه المعاكس كانوا يجلبون القصدير، واللباد المصنوع من شعر الماعز، والمنسوجات المحبوكة، والعطور. ويظهر أن التجّار كانوا مستعدين لدفع رسوم للسلطات الحاتّية المحلية. وهذا معروف من المراسلات التجارية (على ألواح طينية في مظاريف طينية) خلّفوها وراءهم، مكتوبة بالآشورية القديمة، وهي إحدى لهجات اللغة الأكادية.

ويبدو أن التجارة قد أنهيت حوالي العام 1750 ق.م. ربما بسبب الغارات الحورّية، وربما بفعل التحركات الأولى للتوسع الحثي، وحملات ملوك كوسارا. غير أن ذلك كان ذكرى بعيدة عند حلول وقت عثورنا عليه موصوفاً في أقدم التواريخ المتسلسلة لدى الحثيين أنفسهم، والمكتوبة في منطقة نيساس ـ هاتوساس بعد ذلك بحوالي أربعمئة عام. وهذه التواريخ بالطبع مكتوبة بالخط المسماري، مع استعمال وفير للعلامات السومرية والأكادية التي تمثل كلمات كاملة، وهي نفسها مشتقة من التقليد الأكادي.

فالحثيّون يقدمون مثلاً واحداً فقط على كيفية الأخذ بالأكادية من قبل الطبقة المتعلمة في الدول المحيطة. ففي الألف الثاني قبل الميلاد، كان هناك تدريس للأكادية واستعمال لها في كل عاصمة ومدينة كبيرة في المناطق المحيطة بوادي الرافدين، بغضّ النظر جوهرياً عن اللغة المحلية السائدة فيها. وبمجرد

تتبع الوثائق التي عثر عليها حتى الآن، والتي يعود تاريخها إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، نستطيع أن نرى أن نظام 'إيدوبا' السومري نفسه كان يمارس في سوسه بالنسبة للناطقين بالعيلامية، وفي نوزي (يورغان تيب الحديثة قرب كركوك) بالنسبة للحوريين، وفي هاتوساس بالنسبة للحثيين واللاويين، وفي آلالاه وأوغاريت قرب ساحل الأبيض المتوسط بالنسبة للناطقين بلغات سامية أخرى وكذلك بالحورية، وفي أختاتان (التي صارت عاصمة لمصر فترة قصيرة) بالنسبة للمصريين.

وكانت هناك ظلال فوارق دقيقة في الأوضاع اللغوية للأمم المختلفة: وعلى سبيل المثال، يبدو أن عيلام كان فيها في هذه الفترة قطاعات مختلفة من السكان يستخدمون الأكادية بشكل غالب (في السهل الشمالي) أو العيلامية (في الجبال إلى الجنوب)، بينما كانت هناك ثنائية لغوية على وجه العموم في أوغاريت، بحيث إن النصوص الأكادية الموجهة للاستهلاك المحلي كانت مزخرفة بتعليقات تفسيرية هامشية متفرقة باللغة الأوغاريتية[22]. ولكن مهما كان الوضع المحلي، فقد كان يبدو أن الممارسة العامة هي استخدام الأكادية للمراسلات الدولية، وكثيراً ما كانت تستخدم في المعاهدات.

والمثال التقليدي الكلاسيكي على ذلك هو مراسلات تلّ العمارنة، وهي حشد من الرسائل الدبلوماسية من القرن الرابع عشر قبل الميلاد عثر عليها في موقع العاصمة المصرية آنذاك. فهناك 350 رسالة مع ملحقاتها في هذه المجموعة، وكلها باللغة الأكادية ما عدا ثلاث رسائل (منها اثنتان بالحثية وواحدة بالحورية).

ومن المثير للاهتمام أن يتأمل المرء في طريقة تأدية الأكادية لهذا الدور كلغة دولية مشتركة. ذلك أن منتصف القرن الثاني قبل الميلاد لم يكن فترة مجيدة للناطقين باللغات السامية. ففي العام 1400 ق.م. كانت بابل قد مضى عليها قرنان وهي تحت سيطرة الكاسيين المُحكمة. وكانت آشور قد مضى عليها قرن وهي تابعة للميتانيين. أما في سوريا الشمالية فقد كان الحثيون يصارعون ضد السيطرة الميتانية الراسخة. وكانت بقية فلسطين مجموعة من الولايات التابعة تحت سيادة مصرية.

فلم يكن النفوذ السياسي الحديث إذن هو الذي جعل الأكادية اللغة المناسبة في تلك الوقت. وكان التفسير الوحيد ثقافياً، وهو على وجه الدقة قضية معرفة القراءة والكتابة، وثقافة كتاب 'إيدوبا'.

وباستثناء مصر، وشركائها الفينيقيين في التجارة، كانت كل واحدة من القوى قد أصبحت عارفة بالقراءة والكتابة في غضون الألفية السابقة عن طريق استيعاب الثقافة المسمارية لسومر وأكاد. وكما رأينا فقد كان نظام الكتابة هذا شديد الالتزام بلغاته الأصلية، وقد اخترقته رموز لفظية لم يكن لها معنى مفهوم إلا في سياق التورية والمجازات اللغوية بالسومرية والأكادية. ويتم تدريسه عملياً من خلال استنساخ واسع النطاق لكلاسيكيات الأدب السومري والأكادي التقليدية. ورغم أن بابل وآشور كانتا تتطلعان لأن تكونا إمبراطوريتين عالميتين - وكانت كل منهما ترى نفسها مرة أخرى على الأقل كسيدة للهلال الخصيب بكامله - فقد كانت سيطرتهما الثقافية كلها تقريباً هي قضية دورهما القيادي في تكنولوجيا لغوية مشتركة.

إن السؤال الكبير التالي، والأخير، في تاريخ اللغة الأكادية، هو لماذا انتهت سيطرتها، واستخدامها فعلاً. إن أحد الدروس التي يعلمها تاريخ هذه اللغة بالفعل هو أن حياة اللغات وموتها منفصلان من حيث المبدأ عن المصائر السياسية للدول المرتبطة بها. فمن الغرائب أنه عندما بلغت الأكادية ذروة نفوذها وامتدادها أثناء الكسوف الطويل للقوة الآشورية البابلية، فإن أفولها بدأ عندما كانت الإمبراطورية الآشورية في أوج قوتها.

وتتعمق المفارقة كلما تأمل فيها المرء عن قرب أكثر. فلم يقتصر الأمر على حلول لغة أخرى محل الأكادية وهي في ذروة تأثيرها السياسي، بل إن الآرامية التي حلت محلها كان المتكلمون بها هم البدو الرحّل حتى وقت قريب. وهم أناس لم يكن بوسعهم الادعاء بأن لهم أي ميزة ثقافية. ولم يكن من المحتمل أنهم سيقيمون حضارةً منافسة. بل كان المتوقع هو أنه كما حدث للكاسيين في بابل قبل ثمانمئة عام، فإن الناطقين بالآرامية سوف يذوبون لغوياً وثقافياً ليتم استيعابهم في تقليد وادي الرافدين العظيم. فرغم كل شيء كانت

هناك أشياء مماثلة ستحدث لآخرين اقتحموا إمبراطوريات عظيمة - كالجرمان الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية أو المغول الذي غزوا الإمبراطورية الصينية.

ولكن أكبر المفاجآت التي جاء بها الناطقون بالآرامية كانت في المجال الثقافي. فقد تم استيعابهم إلى حد كبير فعلاً في الثقافة الأكادية، بالتأكيد. ولكن كان هناك جانب حسّاس الأهمية لم يتم فيه ذلك الاستيعاب، وهو تكنولوجيا اللغة الصانعة لفترات التحوّل الهامة. فمع الآرامية جاء تقليد جديد للكتابة. وهو استعمال النص الأبجدي. ومع هذه الثورة في تمثيل اللغة جاءت مواد جديدة للكتابة: فراح الناس يدوّنون ملاحظاتهم ويكتبون سجلاتهم الرسمية ونصوصهم الأدبية بشكل متزايد على وسائط جديدة هي صفائح البردي أو الجلود المدبوغة.

فتغلغلت هذه التغيرات إلى قلب الثقافة الآشورية والبابلية، إلى درجة أن الرأي التقليدي هو أنها تفسر انتصار الآرامية كلغة. وهكذا فإن جورج رو على سبيل المثال كتب يقول: 'ومع ذلك فقد قدّر لهؤلاء الآراميين البرابرة التميز بفرض لغتهم على الشرق الأدنى بكامله. ويعود الفضل بذلك جزئياً إلى ثقل وزن عددهم من جهة، ومن جهة أخرى إلى أنهم أخذوا بالأبجدية الفينيقية مع تعديل طفيف بدلاً من الكتابة المسمارية الثقيلة المرهقة، وحملوا معهم في كل مكان نصوص الكتابة العملية البسيطة للمستقبل'[23]. وكتب جون سوير: 'إن نجاح الآرامية يعود بشكل أساسي لا شك فيه إلى أنها كانت تكتب بخط أبجدية سهلة نسبياً'[24].

ولا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. إذ إن الأنظمة الكتابية بعد كل شيء توجد لتسجيل ما يقوله الناس، وليس العكس. فليس في التاريخ حالة أخرى يؤدي فيها التغير في تقنية الكتابة إلى تغير في كلام الشعب. وحتى لو كان ذلك ممكناً، فإنه بعيد الاحتمال بشكل خاص في مجتمع كالإمبراطورية الآشورية، حيث لم يكن يعرف القراءة والكتابة إلا نسبة ضئيلة من السكان آخذة في التلاشي. فالأهمية الحقيقية للتغير في نظام الكتابة الذي جاء مع الآرامية هي إعطاء بعد إضافي للمفارقة الآرامية: كيف تسنى لمجموعة متنقّلة وخانعة سياسياً كالآراميين أن لا تكتفي بنشر لغتها فحسب، بل أن تجعل نظامها الكتابي مقبولاً في صفوف سادتها الثقافيين والسياسيين الآشوريين والبابليين؟

إن الجواب يكمن في أثر غير متوقع للسياسة العسكرية الآشورية.

فقد لاحظنا آنفاً أولى الاتصالات العدائية بين الآراميين الرحّل وبين الآشوريين عند نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. فالآراميون الذين جاؤوا من بادية الشام الشمالية تمكنوا من الاستقرار في جميع المناطق المسكونة في ذلك البلد، والمفروض أن ذلك قد تمّ بقوة السلاح. فلم يحصروا أنفسهم بمنطقة دمشق، بل انتشروا في الشمال، والجنوب، وأهم من ذلك في الشرق. فصارت منطقة أعالي الفرات كلها، فيما بين نهري البليخ والخابور تعرف باسم "آرام نهرايم"، أي 'آرام الأنهار'. وكان تقدّمهم جنوباً نحو بابل ثابتاً: فحطّموا معبد شمش في سيبار في منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وعند حلول القرن العاشر كانوا قد استقروا حول بابل بحيث قطعوها عن ضاحيتها بارسيبا، وبذلك منعوا الاحتفال بمهرجان العام الجديد احتفالاً مناسباً، وهو مهرجان كان يقتضي سير مواكب أصنام مردوخ ونابو من بابل وإليها. وفي تلك الأثناء، لم تستطع المقاومة الآشورية في الشمال أن توقف تقدمهم، وعند بداية القرن التاسع قبل الميلاد كانوا على ضفاف دجلة نفسه.

وجاءت أول مقاومة ناجحة من الملك الآشوري آدد ـ نيراري (911 ـ 891 ق.م.) الذي طرد الآراميين من وادي دجلة ومن جبال كاشياري إلى الشمال. وبعد ذلك بدأ الملوك الآشوريون سياسة شن حملات سنوية ضد أحد جيرانهم، فكانت سياسة عدوان غير محدود استمرت أكثر من مئة وخمسين عاماً، فلم تتوقف إلا عندما اتجه العدوان إلى الداخل أثناء الحروب الأهلية الكبرى من العام 827 إلى العام 811 ق.م. ومن العام 754 إلى العام 745 ق.م. وفي غضون مئة عام كان الهلال الخصيب كله تحت سيطرتهم، مع بلاد الأناضول الجنوبية حتى طرسوس، وشرائح واسعة من عيلام في الشرق. وعلى مبعدة في الميدان شنوا حملة عقابية في عمق أورارتو (في أناضوليا الشرقية) وحتى غزوا مصر لفترة قصيرة لم يتعزز فيها ذلك الغزو.

كانت تلك أياماً مجيدة لآشور بحق، ولكن يبدو أن ذلك كان هو الهدف الوحيد من تلك الحروب، فبعد كل انتصار كانوا يفرضون غرامة مدمّرة على

المدينة أو القبيلة المغلوبة. وليس هناك دليل في المراسلات التجارية الآشورية أو في سجل الآثار على أي محاولة لاحقة لنشر الثقافة الآشورية بعد ذلك، أو حتى لإقامة طبقة حاكمة على قاعدة أوسع. فكانت الثروة تنقل في اتجاه واحد، وعلى حدّ السيف. ومن عهد تغلات بيلسر الثالث (744 ـ727 ق.م.) إلى عهد سنحاريب (704ـ681 ق.م.) أضيف تكتيك جديد: فقد راح الآشوريون ينقلون حشوداً كبيرة من السكان المغلوبين إلى منطقة نائية من الإمبراطورية. وتنسب التقديرات سبعاً وثلاثين عملية نفي إلى تغلات بيلسر الثالث (لما مجموعه 368,543 شخصاً) وثمانياً وثلاثين عملية نفي إلى سرجون الثاني (وصل مجموع المنفيين فيها إلى 217,635) وعشرين عملية نفي إلى سنحاريب (مجموع المنفيين فيها وصل إلى 408,150). وينسب إلى الآشوريين أنهم نفوا ما مجموعه حوالي 5.4 ملايين شخص على مدى ثلاثة قرون[25].

وقد انطوت غالبية عمليات النفي هذه على منفيين ناطقين بالآرامية، رغم ان أشهرها تمّت على يد سرجون الثاني ضد السامرة، عاصمة إسرائيل في العام 721 ق.م. وربما تكون قد شملت ناطقين بالعبرانية:

> في بداية حكمي، أخذتُ مدينة السامريين للإله ...الذي أتاح لي تحقيق هذا النصر. فأبعدت 27,290 من السكان مساجين وسلّحت منهم جنوداً ليملؤوا خمسين عربة من حراستي الملكية ... وأعدت بناء المدينة بأفضل مما كانت من قبل وأسكنت فيها أناساً من بلدان كنت قد فتحتها بنفسي. ووضعت واحداً من ضباطي حاكماً عليهم وفرضت عليهم إتاوة كالمواطنين الآشوريين[26].

وتعطي التوراة العبرانية (في سفر الملوك الثاني، الإصحاح 17: 6، 24) تفاصيل أكثر عن الأماكن التي أرسل إليها المسبيّون الإسرائيليون (بما في ذلك آرام نهرايم على نهر الخابور، والطرف الشرقي الأقصى من الإمبراطورية في ميديا) وعن الناس الذين أرسلوا ليحلوا محلهم (وكان من بينهم بعض البابليين).

وبين الحين والآخر تعطي المراسلات نظرة معمقة عن كيفية رؤية الناس

لهؤلاء الأسرى المنفيين عند وصولهم إلى وادي الرافدين[27]. فهناك رسالة إلى الملك تقارن "قنات شا نينوى لابيروتي" أي 'عائلات نينوى المقيمة فيها منذ زمن طويل' مع "ناسي آني"، أي 'محدثي النعمة 'و"الشاغلوتي"، أي 'المنفيين'، وهي كلمة ربما كانت تحمل معنى آخر على سبيل التورية هو "شاكلوتي"، أي 'الجهلة'. ولكن من الواضح أن الأشخاص ذوي الأسماء السامية الغربية كانت توكل إليهم على الأغلب مسؤولية هامة.

وهذه البعثرة للشعوب الخاضعة للآشوريين يمكن رؤيتها كسياسة دهاء لتوحيد سكان الإمبراطورية المتنوعين بواسطة فصلهم عن تقاليدهم - وهذا حل بفرض 'بوتقة صهر'[28]. وكما نكر النص المقتبس أعلاه، فإن جميع المنفيين ينبغي 'اعتبارهم آشوريين'، وبهذا الاعتبار فإن من واجبهم أن 'يخافوا الله والملك'.

وكانت هناك سياسة جديدة أخرى تميل إلى هذا الاتجاه، لتحصين وحدة الإمبراطورية، وتجنيد حرس ملكي يتم اختيارهم من مقاطعات أخرى غير مقاطعات وادي الرافدين، لتكميل القوات الآشورية ذات التنظيم الإقطاعي. والواقع أن من الشائع تماماً بروز حملة الأسماء السامية كضباط في الجيش الآشوري. وكانت هناك شهرة خاصة لقوة "إيتو آيا"، المكونة من الآراميين من قبيلة "إيتو"، التي تظهر في كثير من المواقع الساخنة، مكلفة بسحق العصيان ضمن المقاطعات البابلية[29].

وإذن فقد كان الوضع في الهلال الخصيب على مدى الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد هو وضع جريان شديد التدفق للسكان. وكان الآراميون قد استقروا في المنطقة كلها قبل قرنين من تلك الفترة. ورغم أنهم في قرنيها الأخيرين كانوا تحت سيطرة الدولة بشكل أكثر فعالية، فقد عملت السياسة الآشورية على توزيعهم بشكل أوسع، وليس على دفعهم إلى الوراء، وذلك عن طريق تهجيرهم بالقوة، أو تجنيدهم في القوات المسلحة. وبما أن الآراميين كانوا أكبر مجموعة تتم بعثرتها بهذه الطريقة، عندما وجد ساميون غربيون آخرون أنفسهم مقتلعين ومزروعين في

أماكن أخرى، مثل الفينيقين والإسرائيليين، فقد وجدوا أنفسهم يتكلمون أكثر فأكثر مثل جيرانهم الجدد(*).

وهكذا فقد تدبر الآشوريون أمر تعزيز انتشار لغة مشتركة جديدة في أنحاء ممتلكاتهم، لغة لا تعتمد على معرفة القراءة والكتابة أو على أي تقليد تعليمي مشترك. فكانت فائدتها الفعّالة تتزايد مع توسّع الممتلكات الآشورية أكثر. كما أن السكان الناطقين باللغات السامية الغربية، الذين كانت غالبيتهم من الناطقين بالآرامية، راحت أعدادهم تزيد أكثر فأكثر عن أعداد سكان وادي الرافدين الأصليين الذين كانوا يتكلمون الأكادية. وقد حافظت الطبقة الحاكمة على الاستمرارية في مدن العاصمة الثلاثية آشور، ونينوى، وكالهو (نمرود)، ولكن في الأماكن الأخرى كان هناك تدفق اجتماعي متزايد، بحيث تعيّن على الناس أن يفسحوا مجالاً لإسكان القادمين الجدد. وفي بابل على وجه الخصوص لا بد أن ذلك قد حدث في وقت مبكر من قبل.

ولم يكن القادمون الجدد يعجزهم نقص الفن الأساسي للحضارة، أي معرفة القراءة والكتابة. ورغم أن الآراميين قد ظهروا في الأصل كبدو رحّل، المفروض أنهم أميون، فإنهم حتى قبل الألف الأول الميلادي كانوا قد بدؤوا يستولون على المدن (وأبرزها دمشق)، وعلى أقطار بكاملها (كآخر مملكة حثّية، عاصمتها زينتشرلي الحديثة، في المقاطعة التركية التي لا تزال تعرف باسم هاتاي)، وهكذا فإن كثيراً من الآراميين بدؤوا يعرفون قيمة الكتابة. وبما أن المدن التي عرفوها كانت في الغرب، فإن نظام الكتابة الذي قدّر لهم أن يتعلموه كان بسيطاً وأبجدياً.

وعند انتقالهم نحو الشرق، لا نستطيع إلا أن نفترض بأن معرفة القراءة والكتابة بالأبجدية قد انتشرت في صفوف بعضهم على الأقل، لأن المواد الجديدة، من الحبر والبردي أو الجلد المدبوغ عرضة للتدهور الحيوي ولا تبقى في السجل الأثري. والواقع أن أقدم الكتابات المنقوشة بالآرامية، التي لا يمكن

(*) كان هذا في آخر الأمر هو ما حدث بالضبط للقبائل المختلفة من الآنغل، والساكسون، والجوت، والدانمركيين الذين استقروا مع الفريزيانيين في بريطانيا في الألف الأول الميلادي. فكانت النتيجة ظهور اللغة الإنكليزية الوسطى التي هي أقرب ما تكون إلى الفريزيانية.

تمييزها بوضوح عن اللغات الكنعانية في ذلك الوقت، تعود إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد[30]. ولا بدّ أن الفوائد العملية القصيرة الأجل للوسائط الجديدة (الحجم الأقل والقدرة الأكبر) قد أثبتت وجودها. ودرجت في الاستعمال كلمة جديدة من اللغة الأكادية هي "سبيرو"، التي معناها 'الكاتب'، بدلا من الكلمة القديمة "طوبسارو" التي معناها 'الناقش على الطين'، وهي كلمة تعود تماماً إلى الكلمة السومرية، القديمة "دوبسار". وهناك صور للكتبة المنهمكين في عملهم تظهرهم أزواجاً أزواجاً في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، فأحد الاثنين يحمل منقاشاً ولوحاً من الطين، والآخر يحمل ريشة وصفحة من البردي أو الرقّ. وكما كان الحال مع البدء بآلات الحاسوب، لا بد أن الموظفين المكتبيين البيروقراطيين الجيدين قد ضمنوا تواجد القديم والجديد معاً لفترة طويلة: 'فالمكتب الخالي من ألواح الطين' لم يوجد في آشور قبل تدمير إمبراطوريتها على أيدي الميديين في العام 610 ق.م(*).

وكانت النتيجة الصافية على ما يبدو هي أن استعمال الأكادية في الكلام راح يتراجع أمام الآرامية حتى بدون نأمة تذمر أو غمغمة احتجاج. فهناك ضابط في مدينة أور يستأذن في أن يكتب للملك باللغة الآرامية[31]. ولكن لم يتم العثور على شكوى من المتفاصحين أو المتشددين في أي لوح طيني أكاديّ. وأقرب شيء إلى ذلك لدينا مراسلة بين كاتب وبين الملك سرجون (721 - 705 ق.م):

> الكاتب: أرجو من مولاي أن يسمح لي بكتابة وثيقة [بالآرامية].
> سرجون: ولماذا لا تكتب بالأكادية؟[32]

والحق أنه حسب دليل نمط الكلمات التي استعارتها الأكادية من الآرامية، في مقابل الكلمات المستعارة بالاتجاه المعاكس، كان هناك زعم ظهر في وقت حدوث التغيير بأن الأكادية هي اللغة الأقل تفضيلاً لأن الذين كانوا يكتبونها كان جوهر

(*) أما في بابل فقد كان بعض المحافظين العنيدين لا يزالون يكتبون بالأكادية على ألواح الطين بعد ذلك التاريخ بستة قرون.

تفكيرهم يتم بالآرامية، بينما كانوا يصارعون (ويفشلون) لإبعاد الأفعال بلغتهم الآرامية عن أذهانهم[33].

إن انتصار الآرامية على الأكادية يجب تفسيره على أنه انتصار الاستفادة العملية على امتياز النفوذ القديم. ولكن الاستفادة جاءت بالدرجة الأولى من أن عدداً كبيراً من الناس كانوا ينطقون بالآرامية. كما أن نظام الكتابة المرتبط بها كان تعلمه أسهل وأسرع، فكانت هذه نقطة تفوّق إضافية أزالت حجة ربما كانت ستدفع قطاعات من السكان الناطقين بالآرامية إلى تعلم الأكادية أيضاً. فما الفائدة من ذلك أصلاً؟ ما دام المرء لن يتم قبوله إلا على أنه "شاغلوتي"، (أي 'من المنفيين والجهلة'). فحتى البلاط الملكي كان يأخذ باللغة الآرامية.

وكما حدث للسومرية ذات مرة، فقد وقعت الأكادية ضحية لغة جديدة جاء بها البدو والقادمون الجدد، وتبعت ذلك حالة من ثنائية اللغة بدون استقرار، ومعها موت اللغة القديمة.

وفي مثل هذه الأوقات، كانت الحجة الوحيدة لصالح التعليم باللغة الأكادية هي الحفاظ على الصلة مع آداب الألفي عام الماضية، ومع تقاليد العظمة والفخامة المرتبطة بالمدن الكبرى في وادي الرافدين. فقد استمرت تلك الآداب والتقاليد بالعيش في بابل كلغة كلاسيكية طيلة ستة قرون بعد موتها المحتمل: فلم يقتصر الأمر على استخدامها من قبل آخر سلالة بابلية حاكمة (625 ـ 539 ق.م.) لتسجيل تسلسل تاريخ حكمها، رغم كونها مستخرجة من أصل كلداني (أي آرامي)، بل إن الغزاة الاجانب، كورش (557 ـ 529 ق.م.) وكسيركسيس (485 ـ 465 ق.م.) الفارسيين، وحتى الإغريقي أنطيوخوس سوتر (280 ـ 261 ق.م)، تركوا كلهم نصوصاً مكتوبة باللغة الملكية لتمجيد عهودهم. ولقد كان هناك بالتأكيد صدى رنان جديد، يصفه البعض بأنه بربري، عندما استطاع ملك يوناني ان يكتب: 'أنا أنطيوخوس، الملك العظيم، الملك الشرعي، ملك العالم، ملك E [بابل]، ملك جميع البلدان، راعي معبدي إيساجيلا وإيزيدا، الابن البكر لسلوقس [المقدوني]، ملك بابل'[34].

ولكن لم يكن هناك سوى قلائل ممن يفهمون هذه الكلمات(*).

الفينقية ـ تجارة بلا ثقافة: كنعان، والتوجه غرباً

מִי כְצוֹר כְּדֻמָה בְּתוֹךְ הַיָּם

mī ḵə-ṣōr kə-ḏumāh bəṯōḵ hayyām

مَن كانَ شَبيهاً بصُورَ في وَسَط البَحْرِ(**)

حزقيال 27: 32

نشأت أخوات كنعان معاً، ولكنهن انطلقن بعد ذلك في دروب للحياة شديدة الاختلاف.

أما فينيقيا (التي لم يكن هذا اسمها الحقيقي، ولكنه يستحضر اللون البرّاق الذي اشتهرت به(***))، فقد اختارت الحياة الراقية، فصارت مرتبطة بالمجوهرات،

(*) وكما يحدث، فإن آخر ما نسمعه عن الأكادية يأتي من قاص سوري يكتب باللغة اليونانية في القرن الثاني الميلادي هو أيامبليخوس (ومن الواضح أن اسمه الغريب آرامي، أو عربي، يا ـ ملك أي 'ليته يملك') الذي قال إنه تعلم اللغة البابلية من معلّمه البابلي الخاص، وهو رجل 'عالم بحكمة البرابرة'. (والمصدر الثالث لهذا الكلام يمكن تعقب آثاره من كتاب ستيفن ووينكلر الصادر في العام 1995، ص 181).

(**) تحتوي العبرانية والفينيقية على بعض التعقيدات النحوية في قواعد التهجئة: فمعظم توقفات الحروف الساكنة تلفظ كاحتكاكات في منتصف الكلمة. ونحن نمثل ذلك في حروفنا الرومانية بحروف تحت السطر أو فوقه: فأصوات الباء والدال والكاف والياء والطاء تلفظ على شكل ثاء، وذال، وغين (كصوت الغرغرة) وخاء، وفاء، وثاء. والنقاط تحت السين والتاء والدال في الفينيقية والعبرانية والعربية تعني أنها تلفظ مع التشديد عليها، مما يعطيها صفة حلقية فاترة.

(***) لم يتم التوصل أبداً إلى اتفاق حول سبب انتقاء اليونانيين لكلمة 'فينيق' لوصف هؤلاء التجار الساميين المتجولين. فمعناها الحرفي هو 'نخيل التمر' (أو حتى الاسم الأسطوري لطائر الفينيق) ولكن ارتباطها بكلمة فونيوس أو فوينيوس، أي 'الملطخ، الأحمر الدامي' ظل دائماً ماثلاً في الأذهان، لأن الفينيقيين كانوا مجهزي البضائع والمنسوجات المصبوغة باللون الأرجواني بامتياز، وكانوا يربون المريق (وهي الرخويات البحرية الصدفية التي تنتج صبغاً أرجوانياً) على نطاق صناعي. وإن ارتباط اللون بهذا الجزء من العالم يتخطى اللغة اليونانية: فالكلمة الأكادية التي تعني الأرجواني، وهي 'كيناعو' مشتقة من المكان المسمى كناعن أي 'كنعان'، (بلاك وشركاه، 2000: sv). ورغم أن العبرانيين أنفسهم عاشوا في كنعان، فقد استخدموا كلمة "كنعاني" كما استخدم الإغريق كلمة 'فينيقي' للدلالة بلا فرق على الفينيقي أو على التاجر. ويبدو أن هذا هو ما أطلقه الفينيقيون على أنفسهم.

والملابس الفاخرة وكل نوع من الفخفخة، وقامت برحلات مترامية وصارت معروفة وحائزة على الإعجاب في أفضل الدوائر الاجتماعية. ويقلدها الكثيرون على نطاق واسع في مهاراتها الصقيلة المعقدة في مجال الاتصالات. وقد أحاطت نفسها بأكثر الناس إبداعاً وذكاءً وثراءً في عصرها. وباعتبارها مضيفة بارعة فقد جعلتهم على اتصال ببعضهم بعضاً. وكانت لها ابنة هي إيليسا التي ربما لم تكن لامعة ومتعددة القدرات كأمها، ولكنها أقامت منزلها العائلي الخاص بها، وتابعت العمل لتوسيع شبكة أمها عندما كانت طاقات فينيقيا آخذة في الأفول.

وأما الأخت الأخرى، جوديث، فكان لها شباب غامض وربما سيئ السمعة، ولكنها استقرت فيما بعد في حياة هادئة في بيتها. فلم تكن تجرؤ على الخروج بعيداً عن حيها المحلي، واقتنعت بالاقتصار على تأدية واجباتها المحلية. ورغم كل ملازمتها للبيت، فقد كان الكثيرون يعتقدون أنها كانت تقدر نفسها تقديراً عالياً أكثر من اللازم، وقد لقيت صعوبات كبيرة مع المتنمرين المحليين: فكانت بين الحين والآخر تتعرض للهجوم في عقر دارها، وجرها منها وهي تصرخ: وفي آخر الأمر فقدت بيتها بالمرة. فكان كل ما يمكنها عمله هو أن تحاول البقاء أينما اقتيدت، بطريقة مثابرة ولكن غير جازمة، معتمدة قبل كل شيء على ذكرياتها عن منزلها كما كانت تديره ذات مرة، وعلى إخلاصها الديني المتفاني الذي لا يتزحزح. ولم يكن لديها أطفال ولكنها كانت تتصرف بين الحين والآخر كحاضنة أطفال أو مربية لا تشعر بالتثبيط حتى ولو لم تتلق أي امتنان أو ولاء ممن هم في عهدتها.

وقد قلب العالم مصائر هاتين الأختين، فعلى الرغم من سيرة حياة فينيقيا البراقة، وطبيعتها المدبرة وكل شعبيتها، فقد اختنقت بطريقة مفاجئة تماماً دون أن تترك وراءها أي ذكرى بين الناس الذين كانت تزورهم أو تحرضهم أو تذهلهم لمدة طويلة، وقد خلدت ابنتها ذكراها فعلاً، ولكن عملها هذا لم يكن له مصير أفضل في آخر الأمر: فقد أصابها أحد منافسيها بجرح قاتل، ففقدت كل جمالها وثروتها، ثم ذوت وتلاشت إلى لا شيء.

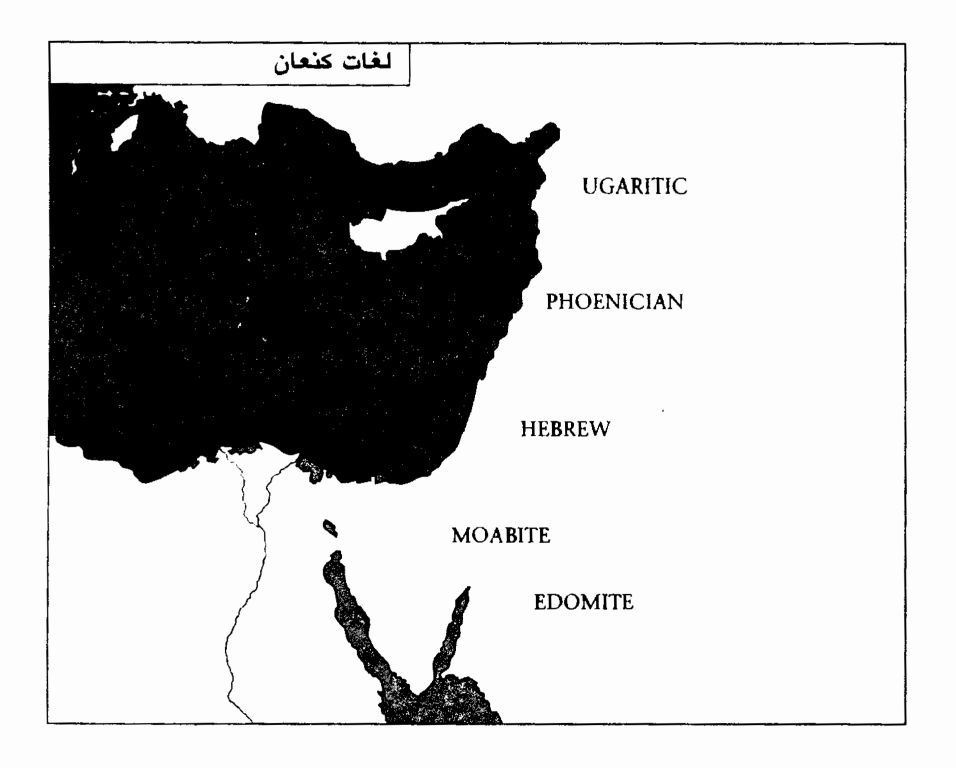
وهكذا بدا الأمر وكأن فينيقيا وابنتها لم توجدا قط. ومع ذلك فإن جوديث لا تزال معنا، وكثيراً ما تتعرض للسخرية والإهانة المخزية ـ وخاصة من قبل

الأطفال الذين هم في عهدتها والغاضبون منها بصورة غريبة ـ ولكنها كما يظهر ثابتة متماسكة لا تعرف الاستسلام، بل لقد عادت مؤخراً إلى بيتها القديم، ويبدو أنها بذلك كسبت فرصة جديدة للبقاء.

إن هذا المثل الرمزي الصغير يبرز سخرية القدر الغريبة في مصائر لغات أرض كنعان. فالعبرانية (التي كثيراً ما تسمي نفسها "اليهودية"، أي 'ابنة يهودا')، والفينيقية هما اثنتان من لغات كنعان القديمة، واللغات الأخرى هي العمّونية، والمؤابية، والأدومية، وهي اللغات المحكية في شرقي نهر الأردن. وكانت هناك الأوغاريتية أيضاً، وهي لغة محكية على الساحل في شمال فينيقيا. وكلها ربما تكون قد بدأت كلغات للقبائل الرحالة في هذه المنطقة، ومن البدو المغيرين Habiru العابرين. ولكن بعضهم استقروا على ساحل لبنان. وأثناء الألف الأول قبل الميلاد تطورت أنشطتهم التجارية بقوة، وصارت لغتهم الفينيقية أكثر لغة في المجموعة استعمالاً في الكلام. وعلى عكس ذلك فإن العبرانية وغيرها لم تصبح من اللغات الكبرى، إذ إنها كانت مقتصرة على جنوب غرب كنعان، وذلك في الجزء الأول من تلك الألفية فقط. وفي القرن السادس قبل الميلاد أصيبت العبرانية بالضعف، وربما انتهت كلغة عامية دارجة بسبب نفي اليهود بالقوة إلى بابل الذي تصادف مع انتشار الآرامية في جميع أنحاء الإمبراطورية البابلية.

ويظهر أن الفينيقية ظلت لغة الكلام على ساحل لبنان حتى القرن الأول قبل الميلاد (حيث حلّت محلها الآرامية) وفي شمال إفريقيا حتى القرن الخامس الميلادي على الأقل. ولكن رغم أن التكلم بالعبرية كان توقف قبل ذلك بعدة قرون، فإن استعمالها الطقوسي والمكتوب من قبل اليهود باعتبارها اللغة المقدسة لدينهم لم ينقطع أبداً. وهذا الوجود المختفي تحت الأرض حماه تقليد تعليمها في المدارس والإصرار على قراءة النصوص اليهودية وعرضها، واستنساخها، وكان العهد القديم في التوراة جزءاً صغيراً منها(*).

(*) وهي تعرف باسم تاناك (وهي مختصر لكلمات التوراة، والأنبياء، والكتب). ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك التعليق على التوراة، المعروف باسم المشناه (من العام 200 ق.م. إلى العام 200 م)، والملحق التكميلي المعروف باسم توسفتا (في العام 300 م). والتعليق على التاناك آية آية، المعروف باسم المدراش (200-600 م). وهذه كلها توضح أن العبرانية استمرت تكتب وتقرأ كذلك.



إن اللغات الكنعانية هي لغات سامية نموذجية إلى حد كبير. ومن الخصائص المتميزة التي تملكها كلها بشكل مشترك ميلها إلى تدوير حرف الألف الممدود: ومن هنا تأتي كلمة "شيلوم" العبرانية التي هي "سلام" العربية. وفي اللغة الفينيقية (والبونية) يذهب هذا الميل إلى أبعد من ذلك بحيث يتم حتى تدوير الألف القصيرة إلى واو، والألف الطويلة إلى أوُ. وهكذا فإن الكلمة الفينيقية التي تعني الأبدية هي "عولوم" (مقابل العبرية "عولام"، والآرامية "عالم")، وقضاتهم الرئيسيون يحملون لقب "سوفِت"، الذي يعادل بالعبرانية كلمة "شوبِتْ" التي معناها 'القاضي' في التوراة. والأدلة على حروف العلّة الفينيقية هي بالضرورة غير مباشرة لأن نظام كتابتها يتم بوضع علامات على الحروف الصامتة فقط.

وفيما وراء موطن الفينيقية في لبنان، فإن نصوصها المكتوبة توجد في مصر، وفي جنوب الأناضول، وفي قبرص، وشمال إفريقيا، ومالطة، وصقلية،

وسردينيا، وجنوب إسبانيا. وهذه النصوص المكتوبة الموزعة على مناطق مترامية الأطراف تميل إلى ان تكون باللهجة الفينيقية المرتبطة بالمدينتين المتجاورتين صور وصيدا (صيدون). ويشار إلى صور عادة باعتبارها المدينة الأم للمستوطنات الفينيقية في الخارج. وعلى وجه الخصوص فهي الموطن الأسطوري الأصلي لإيليسا، أو ديدو، الأميرة الفينيقية التي يقال إنها أسست قرطاجة، (التي يقال عنها بالفينيقية "قرت هداشت"، أي 'المدينة الجديدة'). وكثير من النصوص المكتوبة ثنائية اللغة، تظهر علاقات فعالة مع اللاويين، والإغريق، والقبارصة، واخيراً الرومان.

كما نقرأ أيضاً عن محفوظات فينيقية رئيسية، أقدمها حكاية مصرية من القرن الحادي عشر قبل الميلاد، عن موظف مصري اسمه وِنْآمون، يذهب إلى بيبلوس ليقدم طلباً لشراء الخشب، ويضطر إلى الدخول في مساومة هجومية مع الملك زاكار بعل، الذي يقرأ سوابق من صفقات تم عقدها في أجيال ماضية، مكتوبة على لفافات من ورق البردي. وقد احتفظت مدينة صور أيضاً بسجلات، إذ إن المؤرخ اليهودي جوزيفاس يسجل بأن المؤرخ اليوناني مناندر من آفيسوس قد جمع تاريخه عن صور من هذه السجلات.

وكما حدث، فإن أقدم نص مكتوب بالفينيقية هو نقش رثائي لتكريم أحيرام، ملك بيبلوس. ويعود تاريخه (بحسب دلالة لغته) إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

> النعش الذي صنعه إيتوبعل بن أحيرام، ملك بيبلوس لأبيه عندما وضعه في دار الأبدية.
> والآن إذا جاء ملك من الملوك، أو حاكم من الحكام، أو قائد لأحد الجيوش، فاصطدم مع بيبلوس وكشف عن هذا النعش فليتمزق صولجان حكمه، ولينقلب عرش مملكته، وليهرب السلام من بيبلوس! وليندثر نقش ضريحه...

وبالرغم من تاريخ فينيقيا المدوّن الممتد ألف عام، ليس هناك أدب فني باق

باللغة الفينيقية. غير أن اكتشافاً في العام 1929 قد أظهر أدباً قديماً في المدينة المجاورة إلى الشمال، وهي أوغاريت، يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد(*). والشخصيات المركزية في الأساطير والملاحم المسجلة هنا هي آلهة معروف عنها أنها قد برزت في طقوس المدن الفينيقية، ولا سيما شخصيات مثل هدد وبعل (التي معناها ببساطة "الرب" أو "المولى")، وأبيه داغون، وإلهة جميلة هي زوجة لها أسماء متنوعة، منها عشتروت، وعشيره، وكذلك إيل: الإله العالي الحميد، وكوثار، الحِرَفي والحدّاد الإلهي. وبعد ذلك بألف وثلاثمئة عام، بعد أن كانت الفينقية كلغة قد ماتت وتلاشت إلى حد كبير، ألّف شخص من بيبلوس يدعى فيلو كتاباً باليونانية عنوانه "التاريخ الفينيقي"، زاعماً أنه مستمد من عمل ألفه سانخونياثون من بيروت كان بدوره قد قرأه على "الآمونيات"، وهي أعمدة بعل آمون التي كانت قائمة في المعابد الفينيقية. وبما أن فيلو، حسب أسلوب نموذجي قديم، يعرّف كثيراً من الآلهة الفينيقية بأسماء إغريقية (تحكى عنها حكايات مماثلة)، فإن روايته غير المدعومة للأساطير الفينيقية قد استقبلت (طيلة ما يقرب من ألفي عام) بشيء من التشكك. ولكن فيلو يذكر في الحقيقة إيل باعتباره اسم كرونوس(**)، ويجعل داغون ابنه. وفيما بعد ينجب داغون شخصاً غير معروف، اسمه ديماروس. وبعد كثير من النشاط، فإن ديماروس، وأستراتي (المعروف أيضاً باسم أستريا)، وأبودوس، ينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا حكاماً للعالم، تحت توجيه إيل. أما خوصور فهو الإله الحِرَفي، المهم في خلق العالم وأصل الاختراعات. وبما أن أستراتي وأسترايا هما ترجمتان يونانيتان لاسمي عشتروت وعشيره، وهدودوس بدون حرفي "وس" في آخر اسمه باليونانية (ومع حرف الواو الطويل) سيكون

(*) وقد كتب على الواح طينية. ولهذا عاش وبقي. ولكنه منقوش بأبجدية مبنية على الخط المسماري. وهكذا فإنه من الناحية التصويرية يلقي ضوءاً مثيراً للاهتمام على الفينيقيين، الذين كانوا مشهورين حتى ذلك الحين بأنهم اول من استعمل أبجدية. وإن الأشكال الأبسط للحروف الفينيقية يعود السبب فيها إلى أنها قد كتبت بالحبر على ورق البردي، بدلاً من أن تكون منقوشة بإزميل حاد على الطين.
(**) إن كلمة إيل El هي، ببساطة، الجذر السامي لكلمة *elohīm*، اي 'إله'، التي نشاهدها أيضاً في الكلمة العبرانية إلوهيم، وهي إحدى الكلمتين اللتين معناهما 'الله' في سفر التكوين، والكلمة العربية 'الله'.

لفظاً طبيعياً بالفينيقية لاسم هدد، فإن طبقة الآلهة الفينيقيين تكون مصطفة في مكانها.

وتعطي النصوص الأوغاريتية أيضاً تلميحاً إلى مدى اقتراب الأدب العبراني من الأعمال الفينيقية المفقودة. ولنتذكر أن العبرانية من الأقارب اللصيقين للأوغاريتية، ولكنها ليست بدرجة قرابة الفينيقية منها. وتأمل الآن كيف تقوم إلهة أوغاريت المسماة آنات بتزيين نفسها كي تلتقي بمبعوثي بعل:

تسحب بعض الماء وتستحمّ،
بندى السماء من دسم الأرض،
برشاش من راكب الغيوم،
والندى الذي رشح من السماوات
ورشّ تسفحه النجوم[35].

إن كلمات 'ندى السماء' و'دسم الأرض' هي بالضبط ما يعد به إسحاق يعقوب (وينكره على عيسو) في مشهد التبريك في سفر التكوين:

فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض[36].

وإذن فإن العبرية والأوغاريتية كانتا متقاربتين بحيث تتشاركان في بعض العبارات الثابتة. فإذا جمعنا بين الشخصيات الفاعلة في الملاحم الأوغاريتية، وصياغة عبارات العهد القديم، والقصص المسرودة في "التاريخ الفينيقي" الذي كتبه فيلو نقلاً عن سانخونياثون، فقد نتمكن من إعادة بناء شيء من الثقافة الشفهية لبيبلوس، وصور، وأخواتهما من المدن.

وهناك مقطع شهير من سفر حزقيال فيه صدى واضح لما كان من الممكن أن يكون عليه شعر مدينة صور. ففي سياق سلسلة من النبوءات عن سقوط جيران يهوذا المختلفين، يعرج النبي على الأمجاد الماضية لمدينة يتنبأ لها بالدمار:

يا صورُ إنَّكِ قلتِ 'أنا كاملةُ الجمال'.

تخومكِ في قلب البحارِ؛
وبانوكِ أكملوا جمالكِ.
بسروٍ من سنيرَ بنوا لكِ كلَّ ألواحكِ؛
وأخذوا أرزَة من لبنانَ ليصنعوا ساريةً عليك.
صَنَعوا مقاذيفكِ (مجاديفكِ) من بلّوك باشان؛
ومتنكِ من عاجٍ مرصعٍ في الشربينِ من جزائر كتيم (قبرص).
البزُّ الموشّى من مِصْرَ كان ما نشرتهِ شراعاً لكِ؛
والسمنجونيُّ والأرجوان من جزائر أليشةَ
كانا غطاءكِ.
سكانُ صيدونَ وأروادَ كانوا قذافينَ لكِ؛
وحكماؤكِ يا صورُ الذين فيكِ هو مدبّروكِ
شيوخُ بيبلوس وحكماؤها
كانوا فيكِ جلافطةً لخصاصكِ.
وجميعُ سفُن البحرِ وملاحوها
كانوا فيكِ لترويجِ بضائعكِ
فارسُ ولُود وفُوط
كانوا في جيشِكِ رجالَ حربكِ
وعلّقوا فيكِ المجنَّ والخوذةَ.
هم أفادوكِ بهاءً.
بنو أروادَ وهيليش مع جيشِكِ كانوا على أسوارِكِ من حولِك،
والأبطال من غاماد كانوا في بروجكِ
وعلّقوا تروسهم على أسوارِكِ من حولكِ.
هم أكملوا جمالكِ
..(*).

(*) وتستمر القصيدة في إدراج المنتجات المتميزة لجميع أمم الزبائن الكبار: ترشيش (المعادن)؛ اليونان، وطوبال، ومشيتش (العبيد، وأشغال البرونز)، وبث طوغارما (الخيول)؛ وررودس (العاج والآبنوس)؛ وآرام (الفيروز، والملابس الناعمة، والمرجان، والياقوت)؛ ويهوذا وإسرائيل (القمح، والعسل، والزيت، والبلسم)؛ ودمشق (النبيذ، والصوف)؛ والدانيون، ويونان أوزال (الحديد المطاوع، والقرفة الصينية، والنبات عطر الجذور)؛ وددان (بطانيات السروج)؛ والجزيرة العربية، قيداح (الخراف،

وكانتْ سفنُ ترشيشَ ناقلةَ بضائعكِ
لقد امتلأتِ وثقلَ حملكِ
في قلب البحار.
القذافون أتوا بكِ إلى مياه غزيرةٍ
فحطمتكِ الريحُ الشرقيةُ
في قلب البحار.
...
وفي نوحهم يرفعون الرثاءَ عليكِ
ويرثونكِ قائلينَ:
'منْ كانَ شبيهاً بصورَ
في وسطِ البحرِ؟'[37]

كان القرطاجيون، مثل الفينيقيين الآخرين، يحتفظون بسجلات ضخمة. وتلك التي كانت محفوظة على ورق البردي ضاعت. ولكن هناك عدة آلاف معروفة من النصوص المدونة، تعطي الحقوق على الضحايا المنذورة، وتقدم إهداءات إلى الإلهة تانيت أو الإله بعل هامون، أو تحيي احتفالات تذكارية. ومن الواضح أيضاً أن قرطاجة قد مررت الاستخدام الإداري للغتها إلى الدولتين المجاورتين لها من جهة الغرب، ماسيليا وماسايسيليا، اللتين تحمل عملاتهما المسكوكة نقوشاً بالحروف البونية، وكذلك حجارة الحدود[38].

بل إن هناك أدلة على أدب بكامله باللغة البونية. ومن المشهور عن القديس أوغسطين أنه قد لاحظ بأنه 'حسب رواية كثير من الدارسين، كان هناك كثير من الفضيلة والحكمة في الكتب البونية'[39]. وهذا رأي يشاركه فيه مجلس الشيوخ الروماني. فبينما كان يجري تدمير قرطاجة بشكل نهائي في العام 146 ق.م. أصدر ذلك المجلس أوامره للقيام بترجمة جديدة وتحرير نسخة من مقالة

والماعز)؛ وسبأ، راما (التوابل، والجواهر، والذهب) حاران، وقانا، وعدن، وآشور، وكيلماد (الملابس، والمنسوجات، والسجاد المزين بالعقد).

عن الزراعة كان الرومان معجبين بها بشكل خاص. 'لقد أهدى مجلس شيوخنا مكتبات المدينة إلى أمراء أفارقة، باستثناء 28 كتاباً من مؤلفات ماغو أمروا بترجمتها إلى اللاتينية.... وقد أعطيت النصوص إلى باحثين يتقنون اللغة البونية'[40]. وهناك أربعون جزءاً منها اقتبسها مؤلفون لاتين متأخرون جاؤوا فيما بعد. ولكن النص الكامل قد ضاع، حتى في الترجمة اللاتينية.

والواقع أنه لم يبق عمل أدبي بوني. وأقرب شيء إلى ذلك ترجمة يونانية من حوالي سبعمئة كلمة لنص بوني منقوش في معبد بعل هامون في قرطاجة يسجل رحلة استكشاف قام بها قائد قرطاجي يدعى هانو (حنّون)، حول الساحل الغربي لأفريقيا (ولعله قد وصل إلى الغابون). وهو ينتهي بما يلي:

> ... وصلنا إلى الخليج المسمى قرن الجنوب. وفي الزاوية كانت جزيرة... وفيها بحيرة فيها جزيرة مليئة بأناس متوحشين. وكانت أغلبيتهم الكبرى من الإناث، والشعر يغطي أجسادهم ويطلق عليهم المتوحّشون اسم 'الغوريلا'. ولم نستطع أن نمسك بالرجال لأنهم كانوا بارعين في التسلّق والدفاع عن أنفسهم بالحجارة. ولكننا أخذنا ثلاث نساء، قاومن بشدة، بالعضّ والخدش. غير أننا قتلناهن وسلخنا جلودهن وعدنا بها إلى قرطاجة. ولم نبحر إلى أبعد من ذلك، لأن إمدادات مؤننا قد نفدت[41].

ويشعر المرء بفضول يعذبه لكون هذا النص واحداً من أشياء قليلة مختصرة بقيت من الأدب البوني تحكي قصة مثل هذه المغامرة الفريدة من نوعها.

فكيف يمكن تفسير الضياع الكامل للغة الفينيقية، واللهجة البونية التي أعقبتها بعد هذا التمدد الواسع الانتشار عبر عالم البحر الأبيض المتوسط؟ إن لدينا هنا سؤالاً آخر لم تتم الإجابة عليه، بل إنه لم يتم طرحه بعد.

بعد نهب الإسكندر لصور، في العام 332 ق.م. ظلت التجارة الفينيقية مزدهرة قروناً كثيرة، بدون كوارث أخرى تهدد استقرار التجار. فلم تمت اللغة البونية على الفور، حتى في مقاطعاتها وراء البحار، حيث انقطعت كل الصلات

الإدارية بقرطاجة عند نهاية القرن الثاني قبل الميلاد: ففي سردينيا، على سبيل المثال، عثر على عدة نصوص مكتوبة 'باللهجة البونية الجديدة' وآخرها في بيثيا، في أقصى جنوب الجزيرة، مدوّنة في آخر القرن الثاني الميلادي. وحتى عندما وضع حد لحياة قرطاجة كمدينة بطريقة وحشية في العام 146 ق.م. فقد أعيد تأسيسها كمدينة رومانية على يد أغسطس بعد ذلك بقرن من الزمن. وعندئذ تمتعت بحياة مزدهرة لاحقة حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب. ويمكننا التخمين بأن لغتها بقيت تستخدم في شمال إفريقيا حتى القرن الخامس الميلادي. ويخبرنا أوغسطين بأنه مضطر إلى اقتباس أمثاله البونية باللغة اللاتينية لأنه 'ليس كل واحد' سيفهم الأصل[42].

ورغم ذلك، فمنذ أن غزا الإسكندر آسيا الغربية حدث تهديم ثقافي عام في الشرق الأدنى، وانتشرت اليونانية والآرامية على حساب كل لغات الأقليات. ورغم أن الآرامية كانت ذات صلة وثيقة بالفينيقية والعبرية، فقد تم الأخذ باليونانية من قبل جزء كبير من المجتمع اليهودي (وخاصة يهود مصر) في هذه الفترة. وصارت اليونانية أيضاً موضوعاً أساسياً في التعليم لدى الرومان، الذين صار معروفاً بوضوح أنهم القوة الصاعدة عند حلول القرن الثاني الميلادي.

وهكذا فإن التيار الثقافي الكامن تحت السطح كان يجري لمصلحة اللغة اليونانية. والحقيقة أن اللغة الفينيقية ولهجتها البونية - برغم الشجاعة والبراعة التجارية لمستعمليها - لم تكونا أبداً لغة مشتركة واسعة الاستعمال حتى في اللغو التجاري خارج إفريقيا. ذلك أن لغة التجارة هي حتماً لغة الزبون، لا لغة التاجر.

وهذا شيء يوضحه الممثل الهزلي الروماني بلوتوس في مشهد من مسرحيته "بونيولوس"، أي 'الشخص البوني - الساذج'، التي ظهرت في مطلع القرن الثاني ق. م.، بعد وقت قصير من نهاية الحرب البونية الثانية[43]. فيحاول تاجر قرطاجي أن يتحدث باللغة البونية مع زوجين رومانيين، رغم أنه يعرف اللاتينية، فإنه سرعان ما يتعب من تورياتهما وتنكيتهما عليه وعلى لغته باستمرار، فيحاول التغطية على ضعف المهارة اللغوية للشخص الزاعم بأنه خبير

قليلاً باللغة البونية: فيدور الحوار كما يلي:

هانو: **صباح الخير لكما.** ميلفيو: الأفضل لك، لا لي.
آغوراستوكليس: ماذا يقول؟ ميلفيو: يقول إن فكّه يؤلمه.
لعله يظننا طبيبين.
آغوراستوكليس: إذن فقل له إننا لسنا كذلك، فهو غريب، ولا أريده أن يضلّل.
ميلفيو: هل تسمع؟ هانو: **طبيب، لا أحد كامل**
آغوراستوكليس: نعم، أريد بالتأكيد أن يفسر هذا كله لي
اسأله إن كان بحاجة إلى أي شيء.
ميلفيو: إنك بدون حزام. لماذا جئتم أيها الناس إلى هذه المدينة، أو ما الذي تسعون إليه؟
هانو: **ماذا تقصد** ؟ آغوراستوكليس: ما الذي يقوله؟
هانو: **ما الذي يسعى إليه عند غريب؟**
آغوراستوكليس: لماذا جاء؟
ميلفيو: ألا تسمع؟ الفئران الإفريقية [نكتة معناها 'الفيلة']
يقول إنه يريد تقديم حرّاس المدينة لاستعراض السيرك[44].

ومع ذلك فإن حقيقة وجود الحوار البوني هنا أصلاً تشير إلى أن وجود كلمات بونية مبعثرة وقليلة لم يكن غريباً على أسماع الرومان في ذلك الوقت. وأنه كان مفيداً لاستثارة قليل من الضحك.

ويقال بأن الجيش القرطاجي (المكوّن أكثره من مرتزقة من جميع أنحاء غرب البحر الأبيض المتوسط) كان يتلقى أوامره باليونانية: ومن المؤكد أن العملة التي سكّها الجنود أثناء التمرد الكبير (241 ـ 238 ق.م) الذي سمي 'حرباً لا هدنة فيها' كانت منقوشة باليونانية. ومن المعروف أن مؤرخَي الحوليّات اللّذَين رافقا هنيبعل في حملته في إيطاليا، وهما سيلينوس وسوسيلوس، كانا يكتبان باليونانية. وعندما وضع هنيبعل لوحة تسجل مآثره في معبد هيرا في صقلّية، كانت مكتوبة باليونانية وكذلك بالبونية[45].

فالفينيقيون والقرطاجيون، المشهورون بأنهم رجال أعمال محنّكون، لا بد أنهم كانوا عمليين ذرائعيين، مثل نظرائهم المحدثين الآن. فقد كانوا سيركزون على الفائدة العملية لوسيلة الاتصال، ثم يختارون اللغة بحسب ذلك الاعتبار. ففي القرنين الأخيرين قبل الميلاد، كان واضحاً أن أكثر اللغات الدولية فائدة بوجه عام في حوض البحر الأبيض المتوسط كانت اللغة اليونانية.

ولقد استمر استعمال اللغة البونية في قرطاجة نفسها وفي مقاطعات شمال إفريقيا في ليبيا (إلى الشرق) ونوميديا (إلى الغرب). ولكن ليس هناك دليل على نشاط أدبي بوني بعد الغزو الروماني (في العام 146 ق.م). ويبدو أن معرفة القراءة والكتابة صارت محصورة في استعمال اللاتينية واليونانية. وتم التوقف عن رعاية التقاليد الثقافية البونية، ولم يستمر السجل المادي طويلاً لهذا المجتمع الذي كان ذات مرة ذا درجة عالية من التعليم.

وكانت الواسطة العالمية المستعملة لتدوين السجلات الإدارية والأدبية هي البردي، وهي مادة تتحمل البقاء الطويل الأمد فقط في الظروف الشديدة الجفاف (مثل ظروف الصحراء المصرية). فالنصوص التي لم تكن منقوشة على واسطة لها صفة الديمومة، كالحجر أو العاج أو الطين، لم تكن لتبقى ما لم يتم استنساخها بصورة متكررة - وهذه خدمة كانوا يحافظون عليها بالنسبة للنصوص ذات الأهمية الواعدة في المستقبل باللغات اليونانية واللاتينية بل والعبرية طيلة أواخر العصور القديمة، والعصور الوسطى، إلى أن جاءت الطباعة فجعلتها سليمة. ولم يكن هناك تقليد للحفاظ على نصوص فينيقية أو بونية. وهكذا هلكت مع أوراق البردي التي كانت مكتوبة عليها.

أما بالنسبة للهجات المنطوقة، فقد كان من المرجح أن تبقى إلى أن تخلفها اللغات المجاورة على نطاق واسع. وفي كلا الحالتين كانت هذه اللغات الجديدة سامية ذات صلة وثيقة باللهجات الكنعانية بل هي في الحقيقة شبيهة بها. فقد قدر للفينيقية في لبنان أن تخضع للآرامية في القرن الأول قبل الميلاد، أما

البقايا الأخيرة للبونية في شمال إفريقيا فربما خضعت للعربية في القرن السابع أو حتى الثامن الميلادي(*).

الآرامية ـ أغنية الصحراء: تداخل لغات آسيا الغربية

وفي السنة الرابعةَ عَشْرَة للملكِ حِزْقيّا صَعِدَ سنحاريبُ ملكُ آشور على جميعِ مُدُنِ يَهُوذا المُحَصَّنَةِ وأخذها. أرسل قائده الميداني من لاكيش مع جيش عظيم إلى الملك حِزْقيّا في أورشليم ... فقال القائد إلى [ألياقيم، وشبنا، ويوآح، مبعوثي حزقيا]:

هكذا يقول الملك الكبير، ملك آشور: ما هذا الاتكال الذي اتكلته؟... يهوه نفسه قال لي اصعد إلى هذه الأرض ودمِّرها.

فقال إلياقيم وشبنا ويؤآح لقائد الميدان:

"كَلِّمْ عبيدَك باللغة الآرامية فإننا نفهمها. ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب القائم على السور.

ولكن القائد أجاب:

هل إلى سيدك وإليك أرسلني سيدي لكي أتكلم بهذا الكلام. أليس إلى الرجال القائمين على السور المضطرّين إلى أكل بِرازِهم وشُرب بَوْلهم معكم؟

ثم وقف القائد ونادى بصوت عظيم باليهودية وقال:

اسمعوا كلام الملك الكبير، ملك آشور! هكذا قال الملك: لا يخدعكم حزقيّا. لأنه لا يقدر أن ينقذكم!....

سفر أشعيا ـ 36: 1ـ14 (= سفر الملوك الثاني ـ 18: 17ـ29)

(*) يقترح إيليمام (1977) أن القصة البونية كانت لها نهاية أسعد، وأن البونية لا تزال حية اليوم، باعتبارها سلفاً للعربية المغربية (فكلمة مغرب تعني الغرب باللغة العربية). صحيح أن هذه اللغة السامية، الموصوفة عادة بأنها لهجة من العربية، تفترق بشكل قوي عن اللغة التقليدية الفصحى للقرآن، ولكن هذا صحيح بالنسبة لجميع اللهجات العربية العامية الدارجة. وحيث بقيت البونية فعلاً بعد الفترة الرومانية، فإن من المرجح جداً أن تكون قد قدمت إسهاماً هاماً للهجة المغربية. ولسوء الحظ، فإن قلة الأدلة المحدودة على الماهية الحقيقية للغة البونية تجعل من الصعب معرفة إلى أي مدى قد حدث ذلك. ويقترح إيليمام نفسه، على أساس أطول خطاب بوني في بوينولوس (وهو مكون من عشرة أسطر، واثنتين وثمانين كلمة)، أن اللغة البونية فيها 62 بالمئة من الأشياء المشتركة مع اللهجة المغربية، وأن نسبة 18 بالمئة أخرى قد تعرضت لتطور في دلالات ألفاظها.

إن هذه الأحداث، التي وقعت في العام 701 ق.م. تظهر أن الآرامية في هذه المرحلة، وإن كانت اللغة المشتركة لكبار الضباط في الإمبراطورية الآشورية ومملكة يهوذا، فإنها لم تكن لغة الجندي العادي في يهوذا.

وقدر لذلك أن يتغير. فسياسة النفي الداخلي التي طبقها الآشوريون بشكل كامل استمر بها خلفاؤهم، وفي هذه المرة كانت الضحية اللافتة للنظر هي اللغة العبرانية، مع كثيرين من الناطقين بها في أرض يهوذا.

وعندما خضعت آشور آخر الأمر في العام 609 ق.م. لتحالف من الميديين في الشرق والبابليين في الجنوب، لم تكن هناك تأثيرات لغوية مباشرة سوى التوقف عن كتابة الأكادية في آشور. واستمرت الآرامية لغة قياسية للكلام في وادي الرافدين الذي راح منذ ذلك الوقت يخضع لحكم بابل (إن خضع لأي حكم على الإطلاق). ولكن آخرين قد لاحظوا التغير السياسي الخطير. فرأت فيه مصر على وجه الخصوص فرصة، فغزت سوريا وفلسطين.

وقد رد على ذلك رداً فعالاً ولي عهد بابل، الأمير نبوخذ نصّر (ومعنى اسمه هو: 'يا نابو، احم نسلي'). فبعد عشرين عاماً، وعندما تم دحر هذا الغزو المصري، وربما غزوتين أخريين، وقعت القدس بالتأكيد في أيدي البابليين، بعد أن كانت قد وقفت مع المصريين مرتين. فذهب معظم سكانها إلى مصر، أو سيقوا كأسرى منفيين إلى بابل.

وهذه على وجه الدقة هي نوعية المعاملة التي تقتل اللغة، كما تشهد على ذلك تجربة كثير من السكان المحليين في القرنين التاسع عشر والعشرين. فيبعدون عن أرضهم على أيدي المستعمرين أو المهندسين الاجتماعيين في مناطق متنوعة كتنوّع كارولينا الشمالية، وكوينزلاند، والحبشة، وسيبيريا، والتيبت. وهناك أغاني تفجّع ورثاء عبرانية، شديدة الوعي بالخطر:

عل نهاروت بابل شام ياشبينو غام باكينو
بيزاكرنو إطْ صهيون

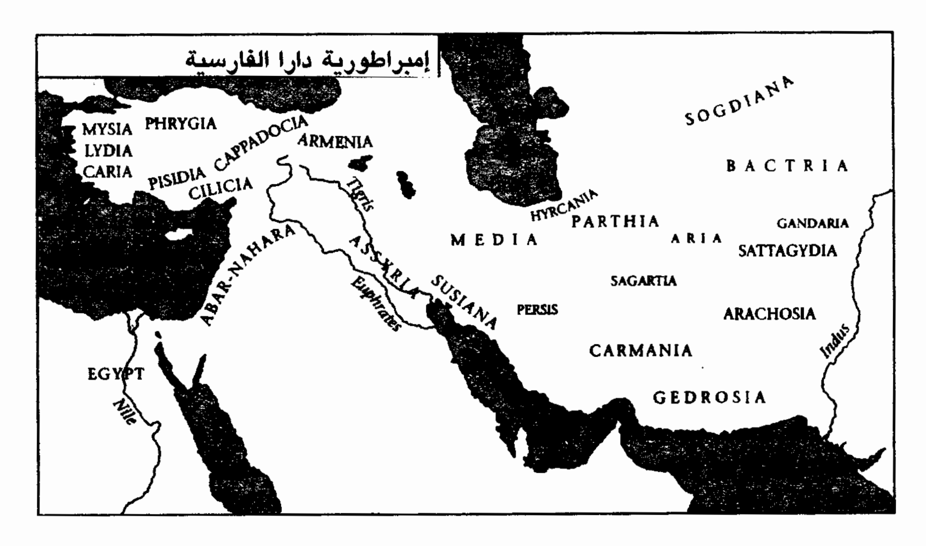
على أنهار بابلَ هناكَ جلسنا، وبكَيْنا
عندما صِهْيُونَ تذكّرنا.
على الصفصاف في وَسَطِها علّقنا كِنّاراتنا
هناك سَألّنا الذين أسَرونا نشيداً،
والذين عذّبونا طرباً:
'أنشِدوا لنا من صِهيونَ نشيداً'.
كَيْفَ نُنشِدُ نشيدَ يَهْوَه
ونحن في أرض الغُرْبة؟
إن نسيتك يا أورشليم
فلتشلَّ يميني.
وليلتصقْ لساني بحَنَكي
إن لم أذكرك...

المزمور 137: 1 ـ 6

ومع ذلك فقد نسوا، على الأقل، لغة الكلام في أورشليم. فوسط حشود بابل صارت الآرامية لغتهم العامية الدارجة، بعد أن كانت اللغة العالمية للنخبة اليهودية. أما العبرانية، لغة الشعب، فلم تعد معروفة إلا عند المتعلّمين. وكانت قد اختفت من الكلام بعد ذلك بجيلين من الزمن. ففي العام 538 ق. م. قام الملك الفارسي كورش، في واحد من أول إصلاحاته بعد غزو بابل، بالسماح لليهود بالعودة(*).

وفي ذلك الحين كانت اللغة الآرامية ملتصقة بالإمبراطورية البابلية ولا يمكن فصلها عنها، وقد نشأت نوعية قياسية جديدة منها تعرف عادة بالآرامية الإمبراطورية. وقد تطورت في المناطق الشرقية، حيث كان المستوطنون الآراميون قد وجدوا مستقراً لهم في وادي الرافدين. وبهذه الصفة كانت هذه النوعية

(*) هذه العودة مسجّلة بالتفصيل في سفري عزرا ونحميا من التوراة، وهما باللغة العبرانية، رغم أن كثيراً من المراسلات مع الحكومة واردة بالآرامية (كما في سفر عزرا 8:4، و18:6 و12:7 ـ 26). وإن كون العبرية الآن قد عادت لتصبح اللغة العامية الدارجة في شوارع القدس بعد غياب ألفين وخمسمئة عام هو دليل مذهل على قوة الحفاظ على تقليد يتم التمسك به عن وعي متعمد.
[ملاحظة: هذا مديح مبطن مليء بالنفاق للصهيونية وإسرائيل. والشيء الهام الذي يتهرب المؤلف من قوله هو أن التراث الأدبي والعلمي غير الديني بالعبرانية شحيح لا يكاد يرى بأكبر مجهر بعد هذا الزمن الطويل ـ المترجم]



متأثرة بالأكادية أكثر من تأثر نوعيتها القديمة المنطوقة في آرام وباقي أنحاء سوريا - وهي النوعية التي يقول البعض إنها هي الآرامية الأصح في الأصل. ومع ذلك فقد قدر للهجة الجديدة أن تصبح هي اللغة القياسية، ليس للإمبراطورية البابلية فحسب، بل كذلك للإمبراطورية الفارسية التي حلت محلها وكانت أعظم منها بكثير: 'أكثر من مئة وسبع وعشرين كورة ممتدة من الهند إلى كوش' حسب الكلمات المليئة بالرهبة في سفر أستير (9:8)، أي، من هندوستان إلى أرض قوص، في جنوب مصر.

وكانت الآثار المميزة لهذه اللهجة الآرامية عبارة عن أشياء صغيرة، مثل الياء والميم كعلامة للجمع وحلت محلها الياء والنون، والألف الطويلة في الجمع (كما في كلمة "أيا") حلت محلها الياء القصيرة، ومثل حذف الهاء في بداية بعض صيغ الأفعال ليحل محلها حرف حلقي ساكن (مما يذكرنا بلهجة الإنكليزية العامية الدارجة في لندن). والواقع أن نموذج هذا المقياس يبدو أنه كان هو الآرامية البابلية كما ينطقها ويكتبها المثقفون الفارسيون[46]. وإن كون هذا الشيء الناجم عن إعادة الزرع الاستيطاني قد أصبح هو النموذج أو المعيار الفعال ليس مدهشاً أكثر من الشعبية الحالية للهجة العامة الأمريكية التي صارت مقياساً عالمياً للإنكليزية. وقد قدر 'للآرامية الأدبية القياسية' أن تظل بدون أي تغيير جوهري طيلة الألف عام التالية.

والمدهش أكثر هو أن الآرامية كانت تستخدم أيضاً كلغة للاتصال العالمي إلى حد ما. ففي سقّارة، قرب موقع العاصمة المصرية ممفيس، تم اكتشاف نص خطاب من ملك فلسطيني مكتوب على ورق البردي في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، باللغة الآرامية، يطلب مساعدة الفرعون المصري ضد ملك بابل؛ وبعد ذلك بوقت قصير، فإن إرميا، مستشار ملوك يهوذا قبل نهب بابل لأورشليم، يقطع خطابه المسهب العنيف بالعبرانية ليتكلم بالآرامية، مطلقاً شعاراً يرمي به في وجه عبدة الأوثان الأجانب صارخاً:

هذه الآلهة التي لم تصنع السماوات والأرض،
تُبادُ من الأرض، ومن تحت هذه السماوات.

إرميا ـ 11:10

وكان ما حدث بالفعل هو أن الناطقين بالآرامية المؤمنين بتلك الآلهة قدر لهم أن يرثوا الأرض، على الأقل من الهند إلى قوص. غير أن الآرامية كانت صالحة للاستعمال عبر هذه المسافات الشاسعة ليس لأن سكاناً مختلفين كانوا يتكلمونها، بل لأنها عملت كوسيط مكتوب بين اللغات، مفهوم من قبل شبكة من المترجمين والمفسرين المتعلمين، من الطبقة المسماة "سبيرو". فكان الحاكم أو المسؤول يملي رسالة بلغته الخاصة به، فيكتبها السبيرو أي 'المترجم' بالآرامية. وعندما تصل الوثيقة إلى المرسلة إليه ـ كان مترجم آخر يقرؤها بصوت عال بلغة سيّده أو سيّدته، مهما كانت تلك اللغة ـ ولقد كانت فارس مشهورة أيضاً بخدمتها البريدية الممتازة ـ. وكانت هذه العملية تدعى بالآرامية "باراش" ومعناها الحرفي 'الإعلان'، أو تسمى بالفارسية "أوزفاريشن"، أي 'التفسير'[47].

وفي سفر عزرا (4: 18)، يتلقى الملك الفارسي أرتاكسيركسيس ترجمة شفوية لرسالة بالآرامية من بعض المسؤولين الحكوميين المحليين من الضفة الأخرى لنهر الفرات. فيبدأ بالرد عليها كما يلي (يرد ذكر الرد بالآرامية، ولكن لا شك أنه قد أملي بالفارسية):

سلام، وبعد:
إن الرسالة التي بعثتم بها إلينا قد ترجمت وقرئت بين يدينا جَهْراً ...

وكان هذا النظام العملي ذاته مستخدماً على نطاق دولي، رغم أنه كان ـ ولا بد ـ مقيداً بتوفّر مترجمين مزدوجي اللغة للغات السائدة فيما وراء المملكة الفارسية. وفي الحرب البيلوبونيزية في اليونان (بين أثينا وإسبارطة من العام 431 إلى العام 404 ق.م) اعترض الأثينيون طريق رسول من الملك الفارسي إلى إسبارطة في العام 428 ق.م، فكانت هناك حاجة لترجمة رسائله "من الكتابة الآشورية". ولم يكن من المحتمل أن يفهم الإسبارطيون الموجهة إليهم تلك الرسائل بدون ترجمة الرسول الحامل لها[48].

وبما أن هذا النظام كان مناسباً، فلا بد أنه قد عمل كحافز على انتشار اللغة، وعلى دخولها إلى بعض الأماكن المذهلة، ولا سيما النصوص اليهودية. فبالإضافة إلى الرسائل الآرامية في سفر عزرا فإن هناك مقاطع طويلة في سفر دانيال (الذي كُتِبَ في القرن الثاني قبل الميلاد) مكتوبة باللغة الآرامية، وهذا شيء مناسب لأنها تحكي قصص المغامرات المختلفة ورؤى هذا المستشار اليهودي في البلاط البابلي تحت حكم ملوك بابليين ثم فارسيين متعاقبين. ويبدأ هذا السفر بوصف عبراني لتدريبه كمترجم بعد أن استخدمه الملك البابلي لمدة ثلاثة أعوام في دورة لتعلم 'الكتابة بلغة الكلدانيين'[49].

إن هذا الاستخدام الحذر المتحفّظ للغة مشتركة متنكرة وراء ترجمات، أو "إعلانات" متعددة اللغات كان متناسباً تماماً مع استمرار استعمال اللغات المحلية في مهمات رسمية أخرى (وهو يذكرنا بذلك النوع الساذج من الخيال الذي يتمكن بموجبه المسافرون من الذهاب إلى أي مكان، والدخول فوراً في محادثات جدية مع الناس المحليين دون أن يلاحظوا أبداً وجود حاجز لغوي). وأحد الأمثلة على ذلك الشعارات المنقوشة على قطع العملة المسكوكة: والواقع أن وسيلة الدفع هذه مع ضمانة حكومية لم تكن آنذاك قد اخترعت إلا قبل وقت قصير (في ليديا، في أناضوليا الغربية). ولم تنتشر في الإمبراطورية الفارسية

إلا ببطء، ومعظم قطع العملة المعاصرة آنذاك تأتي من المقاطعات الغربية. وهكذا فإن هناك قطعاً نقدية من الفترة الفارسية، وعليها نقوش باليونانية وجميع لغات بلاد الأناضول الجنوبية (الليدية، والسايدتية، والكاريانية، والليسية - وكلها ذات علاقة بالحثية واللوية)، أما الآرامية فتستخدم في الأجزاء الشمالية من بلاد الأناضول (حيث قد تكون اللغة الفريجية ما تزال قيد الاستعمال)، وفي كيليكيا (التي كانت جزءاً من الإمبراطورية البابلية، وكانت لها علاقات قوية مع فينيقيا)، وفي وادي الرافدين. وفي مصر كانت هناك أيضاً قطع عملة مسكوكة بالخط المصري القديم المستعمل في الحياة اليومية(50).

ومع ذلك، فقد أصبح المصريون مستعملين للغة الآرامية بشكل قوي، رغم تأخر زمن إلحاق مصر بالإمبراطورية الفارسية. فقد كانت اللغة ستدخل سلفاً، مع العدد الكبير من السكان اللاجئين أو المهاجرين من آرام، وفينيقيا، وإدوم، ويهوذا، وبلدان أخرى تهددها أو تسيطر عليها بابل، مع لغة الأمر الواقع بالآرامية. ولكن مصريين كثيرين انجذبوا إلى هذا المجتمع أيضاً، كما يظهر من الأسماء المصرية الواردة في النصوص الآرامية. وعندما حل البطالسة محل الفرس، استمر المصريون في استخدام الآرامية في الوثائق القانونية(51).

ولقد قدمت مصر - بسبب مناخها الجاف - كل النصوص الآرامية الباقية من هذه الفترة، مكتوبة على ورق البردي، أو على الجلد المدبوغ، وخاصة المراسلات مع حاكم فارسي (مرزبان: حاكم ولاية) يدعى آرازميس، وعلبة من الرسائل من عائلة موزعة بين الأقصر وسيين (أسوان) في وادي النيل الأعلى والأدنى. وفي أسوان أرشيف محفوظات الحامية العسكرية اليهودية، بما في ذلك عدد لا بأس به من الوثائق القانونية، والرسائل التجارية إلى أورشليم. وهذا يشمل ايضاً أمثال الحكيم أحيقار، وهو مستشار أسطوري في بلاط الملكين الآشوريين سنحاريب وأسرحدّون في أوائل القرن السابع قبل الميلاد، يظهر أحدها كعبارة افتتاحية تتصدر القسم الثاني من هذا الفصل. فبما أن له تجربة في الحياة في بلاط ملكي، فإنه قلق بشكل خاص من قوة التسريبات والإشاعات الخبيثة:

يا بني:

لا تثرثر أكثر من اللازم وتتفوه بكل كلمة تخطر ببالك، لأن عيون الناس وآذانهم في كل مكان مدرّبة على تلقي ما يخرج من فمك، فاحذر أن يكون في ذلك هلاكك. وراقب فمك أكثر مما تراقب أي شيء. وحول ما تسمع عوّد قلبك على قوة التحمل.
فالكلمة كالطير: إذا انطلق فلن يستطيع أحد الإمساك به. أولاً: احسب عدد أسرار فمك، ثم أخرج منه الكلمات بقدر محدود. لأن تعليم الفم أقوى من تعليم الحرب.
ولا تستخفّ بكلمة ملك: بل اجعلها شفاء لجسدك ..... [52]

وتكشف الرسائل أن بعض اليهود، كما قال إرميا في مراثيه متفجعاً، كانوا فعلاً على علاقة حميمة مع آلهة أجنبية غريبة. لنتأمل النص التالي من خادم خصوصي، وهو مكتوب على قطعة فخّار مكسورة: 'إلى مولاي ميكايا، من خادمك جيدل. أرسل لك الرخاء والحياة، وأباركك بياهو [أي يهوه] وخنب [إله محلي]. والآن أرسل لي الثوب الذي ترتديه، وسوف يصلحونه. وسأرسل الفاتورة إلى ضمانك الاجتماعي'[53].

وعلى مبعدة إلى الشمال، في بلاد الأناضول، لا بد أن لغات الكلام كانت متنوعة كتنوع نقوش قطع العملة على الأقل، ومع ذلك فقد تم العثور على نقوش باللغات اليونانية، والليدية، والليسية، مصحوبة بترجمة إلى الآرامية، وخاصة منقوشات القوانين التذكارية.

كما أن تغلغل الآرامية يتضح أيضاً على الجانب الآخر من الإمبراطورية عن طريق ثلاثة نصوص دعائية عن الإمبراطور الهندي آسوكا (انظر الفصل الخامس: 'السنسكريتية في الحياة الهندية'، ص 269) وتعود هذه النصوص إلى عصر متأخر، وهو القرن الثالث قبل الميلاد، عندما كانت الآرامية قد اقتُلعت لتحل محلها اليونانية كلغة رسمية للإدارة في أنحاء إيران. ومع ذلك فقد رأى آسوكا أن من المناسب أن يقدم هذه النصائح الدائمة التي تحثّ على الفضيلة

بالآرامية - مع التوصية بشكل محدد على الاقتصار على أكل النباتات - وكذلك باليونانية، بعد ثلاثة أجيال من التغيير أو أربعة.

.... ويمتنع

الملك عن الحيوانات، كما أن الباقي

من الرجال وكل الصيادين، وصيادي السمك

التابعين للملك، قد توقفوا عن الصيد...

وبالإضافة إلى ذلك، فيما يخص الطعام. لمولانا الملك، حيوانات قليلة يتم ذبحها: وعندما رأى الناس ذلك توقفوا؛ حتى صيادو السمك، أولئك الناس يخضعون للحظر ... [54]

وكانت هناك ثلاثة نصوص آرامية تم اكتشافها حتى الآن في منطقة الحدود هذه، في قندهار، وفي لاغمان، شرقي كابول (لامباكا)[55]، والمركز الأكاديمي تاكسيلا (تاكصاسيلا)، وكلها كانت ستكون في المقاطعة الفارسية الحدودية عند غاندارا، وبالمصطلحات الحديثة فهي على حدود أفغانستان، ولكن على حدودها البعيدة المتاخمة لباكستان، مما يبين تغلغل الآرامية إلى أقاصي حدود السيطرة الفارسية نفسها وربما إلى ما وراء ذلك، والمفروض أن ذلك تحقق للآرامية بزخمها الخاص بها[*].

وعندما وصلت الآرامية إلى نهاية مجدها، فإن ذلك لم يكن عن طريق التغلغل الذي أنهت به الآرامية عهد الأكادية الطويل، بل كان عن طريق الغزو المباشر والمفاجئ.

فبعد خمسة أجيال من فشل محاولات الملكين الفارسيين دارا وأكسيركسيس لإنهاء استقلال المدن - الدول الإغريقية عبر بحر إيجه (رغم أنهم

(*) كان هذا الزخم معروفاً على أية حال، ما دام النصّان الهنديان الأصليان خاروشتي وبراهمي، مشتقين كليهما من الكتابة الآرامية. وبما أن نص براهمي بدوره هو أصل كل أبجدية أخرى في جنوب وجنوب شرقي آسيا، فإن الملك الفارسي دارا كان بالنتيجة يؤسس نظام الكتابة لغالبية آسيا على مدى الالفين وخمسمئة عام التالية عندما اختار الآرامية كلغة قياسية موحدة لإمبراطوريته.

كانوا قد دجّنوا المدن اليونانية المتاخمة للأناضول بسهولة تامة)، نجحت قوة أخرى حيث فشلت فارس. فقد أخضع فيليب المقدوني اليونان الأوروبية كلها زاعماً أنه هو نفسه يوناني. وهذا زعم مبني على أساس اللغة والثقافة، ولكن المدهش أنه يصعب تأييده والحفاظ عليه، وخاصة لأنه لم تبقَ من اللغة المقدونية كلمة واحدة[56]. ولكن ابنه الإسكندر، بنزعته العدوانية التي ربما نبعت من انعدام شعور بالأمن[*]، قرر أن يثبت انتماءه إلى اليونان عن طريق اضطلاعه بالانتقام للإهانة التي تعرض لها اليونانيون عندما حاول الفرس غزوهم. (ولكن ذلك لم يمنع الإسكندر، بعد اغتيال الملك الفارسي الحاكم على يد أبناء شعبه أنفسهم، من الادعاء للفرس أنه هو الخليفة الشرعي لملكهم).

وفي غضون عشر سنوات (333 ـ 323 ق.م) حقق الإسكندر نجاحاً كلياً. فرغم أنه لم يشن حملته في كل مقاطعة، إلا أن الإمبراطورية الفارسية الشاسعة، بما في ذلك أطرافها القصوى في مصر وأفغانستان، قد سقطت في قبضة الأسرة الملكية المقدونية. وظل المقدونيون مسيطرين على فارس ووادي الرافدين قرابة مئتي عام، إلى أن استسلموا إلى الأرزاسيين، الذين كانوا أول الفرثيين، وذلك فقط في العام 140 ق.م.

ومن المحتمل أنه في هذه الفترة "الهلينيستية"، كان الشرق الأوسط في الحقيقة محكوماً بخليط من اللغات، بحيث كانت الإغريقية، لغة السادة الجدد، تتنافس مع الآرامية، لغة السادة القدامى (انظر الفصل السادس: 'ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب'، ص 345). ومن الواضح أن الآرامية قد صمدت في مواقعها في وادي الرافدين، وفلسطين، وسوريا، حيث كانت وراءها أرضية عمرها خمسمئة عام على الأقل، بطريقة أفضل بكثير من صمودها في الأناضول وفارس، حيث لم تكن مستعملة كلغة حكومية إلا بترخيص من ملك الملوك قبل ذلك بمئتي عام فقط. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه بعد فتوحات الإسكندر، كان الاستيطان الإغريقي في الأناضول سيصبح أثقل بكثير مما هو

(*) إن المؤرخ الفرنسي فرناند برودل لا يستطيع أن يسامح الإسكندر على تفويته الفرصة للتوجه بدلاً من ذلك إلى الغرب للسيطرة على حوض الأبيض المتوسط (برودل 2001: 'غلطة الإسكندر'، ص 284-277).

عليه في فارس، لأن بلاد الأناضول كانت محاطة بالمستعمرات اليونانية على سواحلها، بينما كانت فارس بعيدة وراء جبال طوروس وزاغروس، حتى ولو أن طريق فارس الملكي من ساردیس في ليديا إلى بيرسيبوليس (المدائن) كان يعني أن المنطقة كانت تتمتع بمواصلات أفضل مما في أي مكان آخر في العالم المعروف.

وقد أدى ذلك إلى سِيَر حياة مختلفة للغة اليونانية في هذه الأجزاء المختلفة من إمبراطورية الإسكندر. فالإدارة اليونانية هنا أنهاها صعود الفرثيين (من فارس الشرقية، وهم يتكلمون لغة قريبة من الفارسية) في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد وضع هذا حداً للمكانة الرسمية للغة اليونانية. ويبدو أنه ربما كانت هناك عودة إلى وضع لغوي يشبه السنوات الأولى للإمبراطورية الفارسية، حيث كانت الآرامية مستمرة لكل الأغراض العملية في وادي الرافدين، ولكن مع استخدام شكل من أشكال الفارسية على مبعدة إلى الشرق.

وأما في الغرب، فعلى عكس ذلك كانت اللغة اليونانية قد حلت تماماً محل اللغات السابقة (ولا سيّما الليدية، والليسية، والآرامية). وعندما تولى الرومان زمام الأمر في القرن الأول قبل الميلاد احتفظوا باليونانية كلغة الأمر الواقع في الإدارة. وأصروا على استخدام اللاتينية في المحاكم وفي الجيش فقط (وعلى أي حال، كان الرومان المثقفون جميعاً يعرفون اليونانية). وكان معنى ذلك أن بلاد الأناضول صارت وحيدة اللغة باستخدامها لليونانية فقط، أما في سوريا وفلسطين فقد كانت اليونانية مستخدمة لحكم أناس لا يزالون يتكلمون الآرامية على الأغلب. وفي مصر كان الوضع معقداً ببقاء اللغة المصرية، وكذلك المجتمع ذي الطابع العالمي للغاية بتشجيع من البطالسة حول عاصمتهم، وفي الإسكندرية، حيث كانت الجالية اليهودية مثلاً تتكلم اليونانية إلى حد كبير.

وهكذا فإن دخول اليونانية كلغة وحيدة عبر الإمبراطورية الفارسية التي كان من المفروض أنها موحدة في ظل الآرامية، كان له أثر لافت للنظر في جعل الفوارق اللغوية تظهر طافية على السطح.

الفترة الفاصلة الثانية ـ درع الإيمان

كان يسوع الناصري يتكلم الآرامية، رغم أنها لم تكن أفضل آرامية بحسب مقاييس شعبه نفسه. فقد كان موطنه الجليل يعتبر بأنه يتكلم نوعاً دون المستوى من هذه اللغة، يترك صدى لكنةٍ في آذان المثقفين في القدس ويهوذا، ومن المشهور عن حواريه بطرس أن لكنته قد فضحته في لحظة حسّاسة، وحتى في التلمود ذي الطابع الثقافي هناك نكت تظهر بين الحين والآخر على حساب طريقة اللفظ الجليلية(*).

وكانت لغة المجموعة التي تشكلت بعد موت يسوع آرامية بوضوح. وقد استمر المسيحيون السامريون يتكلمونها حتى اليوم (والسامرة جنوبي الجليل تماماً). ولكن الدين الجديد كانت له تطلعات عالمية. وكان أول أحداثهم العامة (وهو مسجل في الإصحاح الثاني من أعمال الرسل) الاحتفال بيوم الخمسين الذي أصبح فيه رجال هذا الدين قادرين بمعجزة على الوعظ بكل أنواع اللغات. ولكن موهبة اللغات المفاجئة هذه لم تستمر. وهكذا كان من الضروري إيجاد وسيلة مناسبة لنشر الأناجيل. وبما أنهم كانوا في الإمبراطورية الرومانية، ومتركزين على سواحل البحر الأبيض المتوسط، فقد كانت اليونانية اختياراً معقولاً. وكانت أيضاً متحررة من الارتباطات اليهودية العالقة باللغة الآرامية، والتي كان من الممكن أن تقلص جاذبية المسيحية لأبناء الأمم الأخرى. وبموجب ذلك كانت اليونانية هي اللغة التي ألفت بها الأناجيل المسيحية التي سميت 'العهد الجديد' فصارت أول لغة للكنيسة في الغرب.

ورغم ذلك، فقد كان العالم أكبر من روما 'ودائرة الأراضي' المحيطة ببحرها. ومن المهم أن أول الأجانب المذكورين كشهود على معجزة يوم الخمسين هم الفرثيون والميديون والعيلاميون وساكنوا ما بين النهرين، الذين لم يكن أي منهم تحت حكم روما في ذلك الوقت. وكما رأينا أنه بحلول ذلك الوقت

(*) إنجيل متى، 26: 74. ويستشهد سوير (1999، ص 84)، بكثير من الأدلة على الموقف من اللهجة الجليلية.

(بعد سبعة أجيال من سقوط الإمبراطورية السلوقية في الشرق) فقد كان من المرجّح بشكل كبير أنهم سيفهمون الآرامية أكثر من فهمهم لليونانية.

وقد استغرقت اليونانية مئتي عام حتى ترسّخت. ولكن الكنيسة المسيحية المبكرة حصلت على ذراع كبرى موجهة نحو الشرق. كانت قاعدة انطلاقها في إيديسا (أورفة الحديثة والقديمة(*))، وهي مدينة على الطريق العام من إنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى نصيبيس (نصيبن) في آرام نهارايم (أرض الأنهار)، وإلى آغباتانا (همدان) في ميديا. وكانت لغة إيديسا ومؤمنيها هي الآرامية، المعروفة هنا بالسريانية. وهذا هو مثالنا الأول على دافع جديد بشكل جذري لنشر اللغة، وهو الحافز على كسب متحوّلين إلى الإيمان بدين جديد. ورغم أن الأناجيل الأصلية كانت باللغة اليونانية، فإن العهد الجديد ومعظم الأدب المسيحي المبكّر قد ترجمت إلى السريانية وأصبحت أساساً لأدب خاص بها من الترانيم والمواعظ والخطب الأوسع، واستمرت بصورة فعالة حتى القرن الثالث عشر الميلادي، رغم دوامات الفتوح الإسلامية التي مرت حولها وبالقرب منها.(**)

كما يقطر العسل من قرص شهد،
وكما يتدفق الحليب من امرأة مليئة بالحب لأطفالها،
كذلك أملي معقود عليك يا إلهي.
وكينبوع يتفجر ماؤه باندفاع،
هكذا يتدفق قلبي بمدح الرب
وتكيل شفتاي الثناء عليه،
ولساني حلو من التحدث إليه،
ويتهلل وجهي بالفرح الذي يجلبه لي،

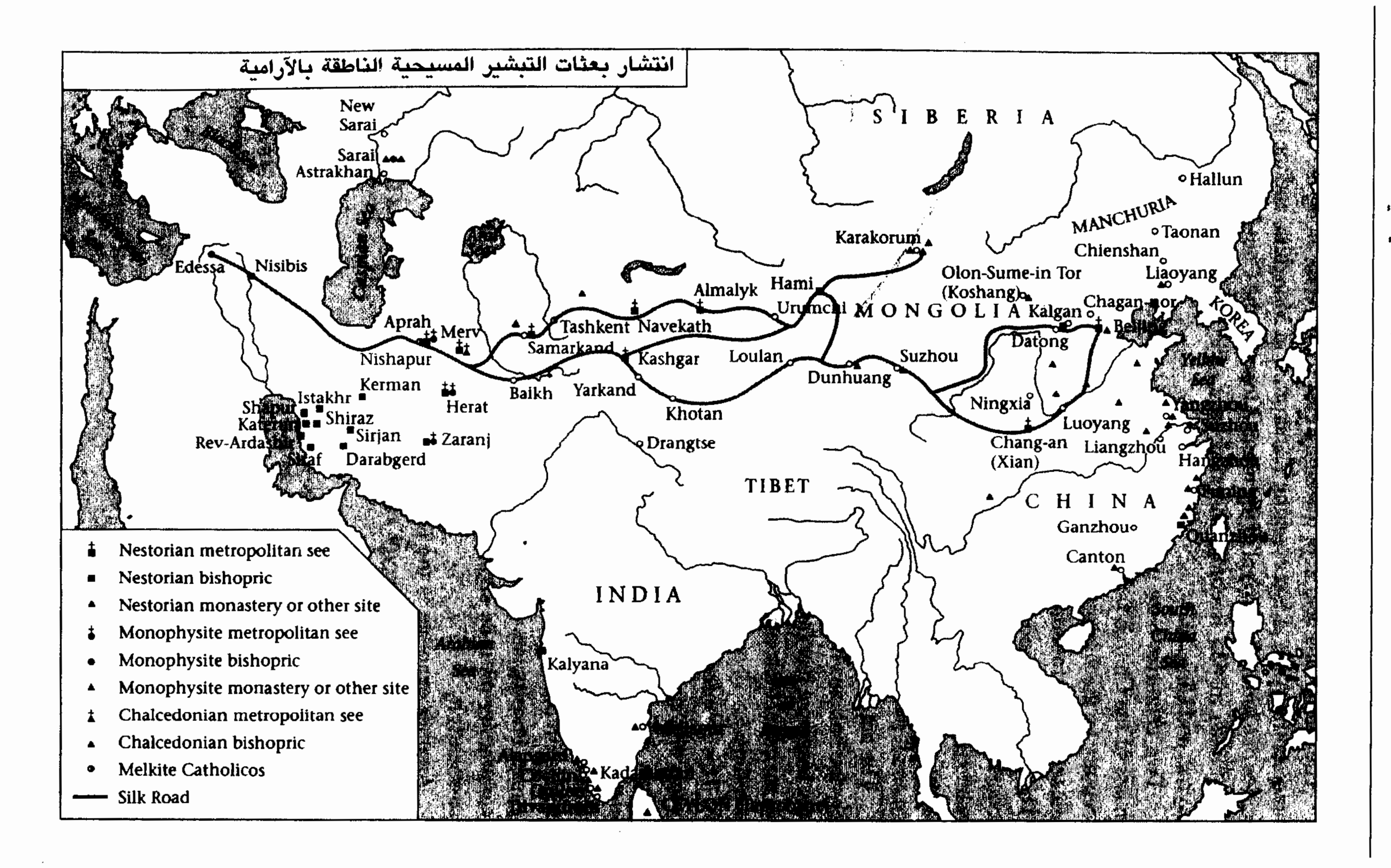
(*) ربما يكون اسم أورفا مشتقاً من كلمة حورّي (قارن مع الاسم اليوناني للمقاطعة المحيطة بها (أورهوين)، وله تاريخ يعود إلى الفترة الميتانية.

(**) لم يشكل المسلمون بأنفسهم أي تهديد مادي أبداً للناطقين بالآرامية، لأنهم اعتبروهم في كل مكان من الملل، أي الجنسيات المتميزة... المنفصلة، ولكنها محترمة. ولكن كان لدى الناطقين بالآرامية في كل مكان ميل للتخلي عن الاستعمال اليومي للغتهم لصالح اللغة العربية.

وروحي مبتهجة بحبه
وبه تتنور روحي.
ومن يخش الله يكسب الثقة،
لأن خلاصه أكيد ومضمون؛
وسوف ينال الحياة الأبدية،
والذين يتلقون هذا لن يفسدهم شيء. الشكر لله!
أناشيد سليمان، النشيد الأربعون[57]

إن انتشار لغة ما يجب تمييزه عن انتشار الدين طبعاً. فمثلاً، كانت إيديسا مصدراً للمسيحية التي وصلت إلى أرمينيا في العام 303 م. ولكن الارمن لم يُغْرَوْا بالتخلّي عن لغتهم حتى عندما كانوا يقيمون أول كنيسة وطنية في التاريخ، وحتى لو أن الأسقف مصروب ماشتوتز ما كان بوسعه أبداً أن يصمم الأبجدية الأرمينية بدون النص الآرامي، وهي الأبجدية التي لا تزال مستخدمةً اليوم.

ومع ذلك فقد انتقلت اللغة، على الأقل بالشكل الطقوسي والمكتوب، مع الوعّاظ. فالمسيحيون من المذهب النسطوري، الذين حكم عليهم بأنهم هراطقة، فتم نفيهم من إيديسا بأمر إمبراطوري في العام 489 م، حملوا معهم السريانية إلى فارس، حيث كانت الآرامية لا تزال مستوطنة إلى حد كبير كما رأينا آنفاً. فكانت قاعدتهم التالية على الطريق تماماً في نصيبيس. ولكن النساطرة لم يتوقفوا هناك. فقد تابع مبشروهم طريقهم إلى الهند، حيث أقاموا أسقفية في كالايانا (قرب مومباي)، ومجموعة من الأديرة على مبعدة إلى الجنوب، وخاصة في كيرالا. فضموا قوتهم إلى قوة مسيحيي القديس توماس، الذين يفترض بأن تاريخهم يعود إلى الفعاليات التبشيرية لتوماس الحواري الرسول [الذي يقال إنه استشهد في الهند قرب مدراس] - وكان من الناطقين الأصليين بالآرامية بشكل طبيعي. وعندما أعيد اكتشاف النساطرة على أيدي الأوروبيين في القرن التاسع عشر كانوا لا يزالون يملكون أناجيل ومخطوطات دينية مكتوبة بالسريانية، رغم أنه يظهر أن تلك اللغة لم تعد مستخدمة في العبادة.


انتشار بعثات التبشير المسيحية الناطقة بالآرامية
SIBERIA
MANCHURIA
KOREA
MONGOLIA
CHINA
TIBET
INDIA
Hallun
Taonan
Chienshan
Liaoyang
Chagan-nor
Olon-Sume-in Tor
(Koshang)
Kalgan
Datong
Luoyang
Liangzhou
Ningxia
Chang-an
(Xian)
Ganzhou
Canton
Karakorum
Suzhou
Dunhuang
Hami
Loulan
Almalyk
Navekath
Kashgar
Khotan
Drangtse
Tashkent
Samarkand
Yarkand
Balkh
Kalyana
Merv
Herat
Zaranj
Aprah
Nishapur
Kerman
Sirjan
Darabgerd
Istakhr
Shiraz
New
Sarai
Sarai
Astrakhan
Nisibis
Edessa
Nestorian metropolitan see
Nestorian bishopric
Nestorian monastery or other site
Monophysite metropolitan see
Monophysite bishopric
Monophysite monastery or other site
Chalcedonian metropolitan see
Chalcedonian bishopric
Melkite Catholicos
Silk Road

وقد تابع النساطرة رحلاتهم شرقاً من فارس على طول طريق الحرير إلى داخل آسيا الوسطى، فوصلوا في آخر الأمر إلى قراقورم في منغوليا، والمدن الشمالية في الصين. وهناك عمود حجري يحمل نقشاً ثنائي اللغة بالسريانية والصينية أقيم في العام 781م لإحياء ذكرى وصول الراهب آلوبين إلى العاصمة الصينية تشانغان (إكسيان) في العام 635[58].

وبعد ذلك بقرنين كانوا قد اختفوا من الصين إلى حد كبير، كما أن بقايا الكنيسة على مبعدة إلى الغرب قد أبيد معظمها في القرن الرابع عشر على يد القائد العسكري تيمورلنك. ولكن النساطرة ظلوا باقين في مناطق تأسيسهم، في وادي الرافدين، وإلى الشمال في كردستان. كما أن تقاليدهم، واستخدامهم للسريانية، تعيش باقية في الكنائس الآشورية والكلدانية. وبقيت كذلك أعداد صغيرة من الناطقين الآخرين بالسريانية من التابعين لما يسمى الكنيسة اليعقوبية السورية قريبين من موطنهم حول أنطاكية وإيديسا، وكان نشاطهم التبشيري أكثر استهدافاً لطرق القوافل في الجزيرة العربية[*].

وكانت النتيجة الصافية لكل هذا التبشير البطولي متواضعة: فقد بقيت الآرامية أو السريانية في جيوب صغيرة، قريبة تماماً من مواطنها الأصلية[**]. ولكن اللغة ظلت حية. وهي مدينة بحياتها إلى تصميم الناطقين بها على الحفاظ على مجتمعاتهم. وتلك المجتمعات كلها كانت مبنية على أساس الدين.

(*) كان المسيحيون هم الناس الوحيدين الذين استمروا يتكلمون الآرامية، رغم أنهم كانوا أطول الناس بقاء. وكانت الطائفة الغنوسطية في جنوب وادي الرافدين تتكلم أيضاً لهجة أخرى من الآرامية تعرف باسم المندائية، حتى القرن الثامن على الأقل. ولمدة بضعة قرون ميلادية استمر يهود بابل وفارس أيضاً، فانتجوا التلمود البابلي الضخم اللافت للنظر بشدة. ولقد كان هذان المجتمعان منتجين للكتابات الأدبية بغزارة. [الغنوسطية هي الاعتقاد بأن المادة كلها شرّ وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية].

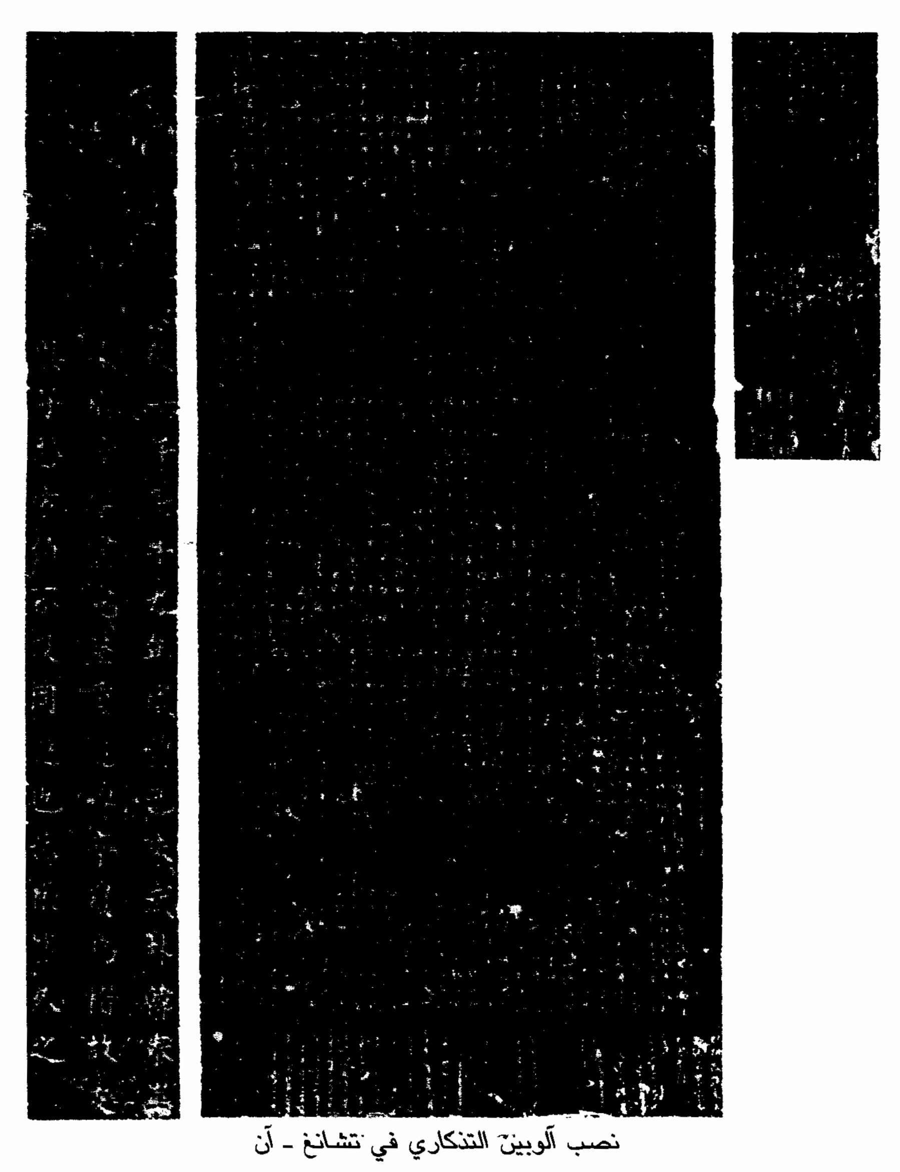
(**) وهناك عدد كبير منهم أيضاً في الشتات في العصر الحديث، في المدن الكبرى في فلسطين المحتلة، ولبنان، وسوريا، والعراق، وإيران، وتركيا. ويقال بأن كثيرين منهم قد هاجروا إلى أرمينيا وجورجيا بعد الحرب الروسية - الفارسية في العام 1827، وقد تجمع منهم عدد كبير في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد قامت مكلور بدراسة استخدام شبكة الإنترنت لربطهم معاً (2001). وهي تستشهد بتقديرات لأعدادهم حول العالم تقول إنها تتراوح بين مليون وثلاثة ملايين.

وهذا الطريق "الطقوسي" المذهبي للبقاء عمره على الأكثر ألفان وخمسمئة عام، ويبدو أنه من الخصائص المميزة للغات الشرق الأدنى، وخاصة اللغات الأفرو آسيوية. والعبرانية أكثر اللغات لفتاً للأنظار في بقائها عن طريق هذه الاستراتيجية. وقد لاحظنا آنفاً كيف أن تمسكها بهويتها الخاصة، المتميزة بقانون ديني هو الذي يفسر بقاءها على عكس شقيقتها الفينيقية التي طواها النسيان كلياً قبل ألفي عام. ولكي تنجح هذه الاستراتيجية، لا بد أن يكون دين المجتمع اللغوي شديد الاختلاف عن دين السكان المحيطين بذلك المجتمع.

وهناك مثال آخر هو اللغة القبطية، الباقي الأخير من اللغة المصرية. وكانت ببساطة هي لغة أسلاف مصر(*) باعتبارها متميزة عن مداخلات الآرامية واليونانية اللتين دخلتا من الشرق الأدنى. ولكن بعد الفتح الإسلامي صارت تلك اللغة مرتبطة أكثر فأكثر بسكان مصر المسيحيين، ذلك أن المسيحيين في معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية صاروا هم الأكثرية بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين لدينهم في أوائل القرن الرابع الميلادي.

وقد ساءت معاملة المسلمين للأقباط بالتدريج. ولا يعرف أحد مدى سرعة انخفاض النسبة المئوية للمسيحيين من السكان. ولكنها انخفضت فعلاً، وخاصة في جنوب البلد، بحيث صار الأقباط أقوى في الجنوب على مدى بضعة قرون. ومن القرن السابع إلى آخر القرن التاسع تم ضمان الحرية الدينية والاستقلال الذاتي للأقباط، رغم أنهم خضعوا لدفع ضرائب خاصة، مثل غير المسلمين في كل مكان. ولكن في العام 829 ثار الأقباط ضد جامعي الضرائب، فتم قمعهم بقسوة. وبعد ذلك كانت الأوضاع تسوء بشكل متفرق وتتحسن بين الحين والآخر في ظل حكم سلالات مسلمة مختلفة، ولكن الاتجاه المطرد كان نحو تناقص عدد السكان الأقباط، وتناقص استخدام لغتهم خارج الطقوس الدينية. واستمرت كتابة الأعمال اللاهوتية إلى العام 820 م. واستمر نَظْم الترانيم الجديدة

(*) اسم مصر مشتق من الكلمة العربية "قبط" وتعني 'مصري' أي 'إيجبتشان'، وهي مختصر لكلمة إيجبتيوس الإغريقية.



نصب ألوبينً التذكاري في تشانغ - آن

تلخص كتلة النص الصيني العقيدة المسيحية (المذهب المشرق من داقين) وتاريخ الكنيسة تحت الرعاية الإمبراطورية في الصين. والجزء السرياني (في الأسفل على جهة اليسار) مكتوب بأسطر عمودية، مثل اللغة الصينية، وترجمته: 'في العام 1092 من التقويم اليوناني، قام مولاي يازيد بوزيد، القسيس والأسقف النظامي لمدينة كوادن الملكية، ابن المرحوم ميليس، أسقف بلخ، المدينة في طهورستان، بتشييد هذا النصب التذكاري الذي كتب فيه قانون مخلصنا، ووعظ أسلافنا لحكام الصينيين'.

وعلى الجانبين قوائم أسماء بالصينية والسريانية

حتى أوائل القرن الرابع عشر. وكان في المجتمع اللغوي من الحيوية ما يكفي في الحقيقة لجعل لهجة الدلتا في الوجه البحري تقتلع لهجة الصعيد في الوجه القبلي لتحل محلها كلهجة قياسية معترف بها. وكرّسها البطريرك غابرييل الثاني للاستعمال في الطقوس الدينية بين العامين 1132 و1145م. ورغم وجود حالات انبعاث ثقافي بعد القرن الرابع عشر، فإن اللغة لم تعد إلى الحياة اليومية. ولكنها بقيت في الطقوس الدينية حتى يومنا الحالي، وهناك علامات على محاولات جادة لإعادة إحيائها.

فالقبطية إذن مثال على لغة في الشرق الأدنى تمّ الحفاظ عليها صامدة في فترة من الشدّة المتزايدة، من خلال ارتباطها بإيمان متميز. ويمكن مقارنتها ببقاء اللغة الجعيزية على مبعدة قليلة إلى الجنوب، وهي لغة الكنيسة الحبشية، وهي لغة تقليدية كلاسيكية (لها علاقة باللغات القديمة في جنوب الجزيرة العربية، وهي مدينة تدين بمكانتها في آخر الأمر لغزو جاء عبر البحر الأحمر في عصور ما قبل التاريخ). ورغم أنها قد بقيت، مثل القبطية من خلال دورها في الطقوس الدينية المسيحية، فإن مصيرها أكثر شبهاً من القبطية بمصير اللاتينية والسنسكريتية. فالحبشة لا تزال بلداً مسيحياً، والجعيزية محاطة بلغتين هما ابنتها وابنة أختها، وهما اللغة التيغْرِينية والتِغْريّة والأمهرية. وقد بقيت الجعيزية عن طريق النزعة العاطفية واللغوية المحافظة، ولكن التقليد اللغوي الذي تمثله لا يزال حياً ولا يتعرض لأي تهديد لغوي أو اجتماعي أو ديني من الخارج.

وعلى عكس ذلك، فإن ما يمكن أن نسميه استراتيجية "درع الإيمان" للحفاظ على بقاء اللغة قد تم استخدامه كثيراً في القرنين الأخيرين من الزمن، وبعيداً عن الشرق الأدنى أو اللغات الأفرو آسيوية. فقد كان هذا، رغم كل شيء، هو الذي حافظ على لغة 'بنسلفانيا الهولندية'، أي الألمانية، في صفوف المجتمع المنفصل من الأيميش Amish في الولايات المتحدة الأمريكية[59] وهذا هو الذي حافظ على اللغة الويلزية منذ العام 1865 في جماعة المنشقين عن الكنيسة الإنكليزية في الأرجنتين، وعلى سهول باتاغونيا التي تجتاحها الرياح[60]. ويمكن الادعاء بأن هذه الاستراتيجية يعاد تطبيقها بشدة مفرطة في إعادة بناء اللغة

العبرانية في دولة إسرائيل الجديدة في فلسطين المحتلة.

ولكن علينا الآن، في الجزء الأخير من استعراضنا لهذه المنطقة، أن نلتفت إلى لغة أخرى استثمرت ارتباطاتها المذهبية بلا هوادة، ليس لمجرد البقاء، بل من أجل التوسع، والتوسّع السريع بشكل مستمر أكثر من أي لغة معروفة أخرى.

العربية ـ البلاغة والمساواة: انتصار 'التسليم'

أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي.
حديث منسوب للنبي محمد ﷺ[61]

العربية لغة سامية أخرى ذات صلة وثيقة بالآرامية والأكادية اللتين سبقتاها في الشرق الأدنى. وتعود سجلاّتها في الحقيقة إلى نصوص في شمال الجزيرة العربية من القرن الرابع ق.م. ولكن الناطقين بها، وهم بشكل رئيسي بدو صحراويون ورعاة، ظلوا خارج نطاق السيطرة الفعالة (وربما الاهتمام) لجميع الإمبراطوريات السابقة في المنطقة.

وعندما أظهروا قوة همتهم، كانت النتائج مذهلة حقاً. ففي غضون خمسة وعشرين عاماً بعد وفاة النبي محمد في العام 632 م. وكانوا قد فتحوا كل الهلال الخصيب، وفارس، واندفعوا إلى داخل أرمينيا وأذربيجان. بل إن تقدمهم الصاعق كالبرق كان أكثر اختراقاً نحو الغرب: فسقطت مصر في أيديهم في العام 641 م. وتبعها شمال إفريقيا حتى تونس في السنوات العشر التالية. وبعد ذلك بجيلين، عند حلول العام 712 م، كانت العربية قد صارت وسيلة العبادة والحكم في شريط متواصل من الأراضي المفتوحة من طليطلة وطنجة في الغرب إلى سمرقند والسند في الشرق. ولم يستطيع أحد أبداً أن يقدّم تفسيراً واضحاً للطريقة أو السبب اللذين مكّنا العرب من القيام بذلك[62]. فيلجأ البعض في العادة إلى التفسير القائل بوجود فراغ في القوة في الشرق (عندما كانت الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية

والإمبراطورية الفارسية الساسانية تتعافيان من الحروب التي أرهقتهما)، مع غياب أي قوة تنظم المقاومة في الغرب.

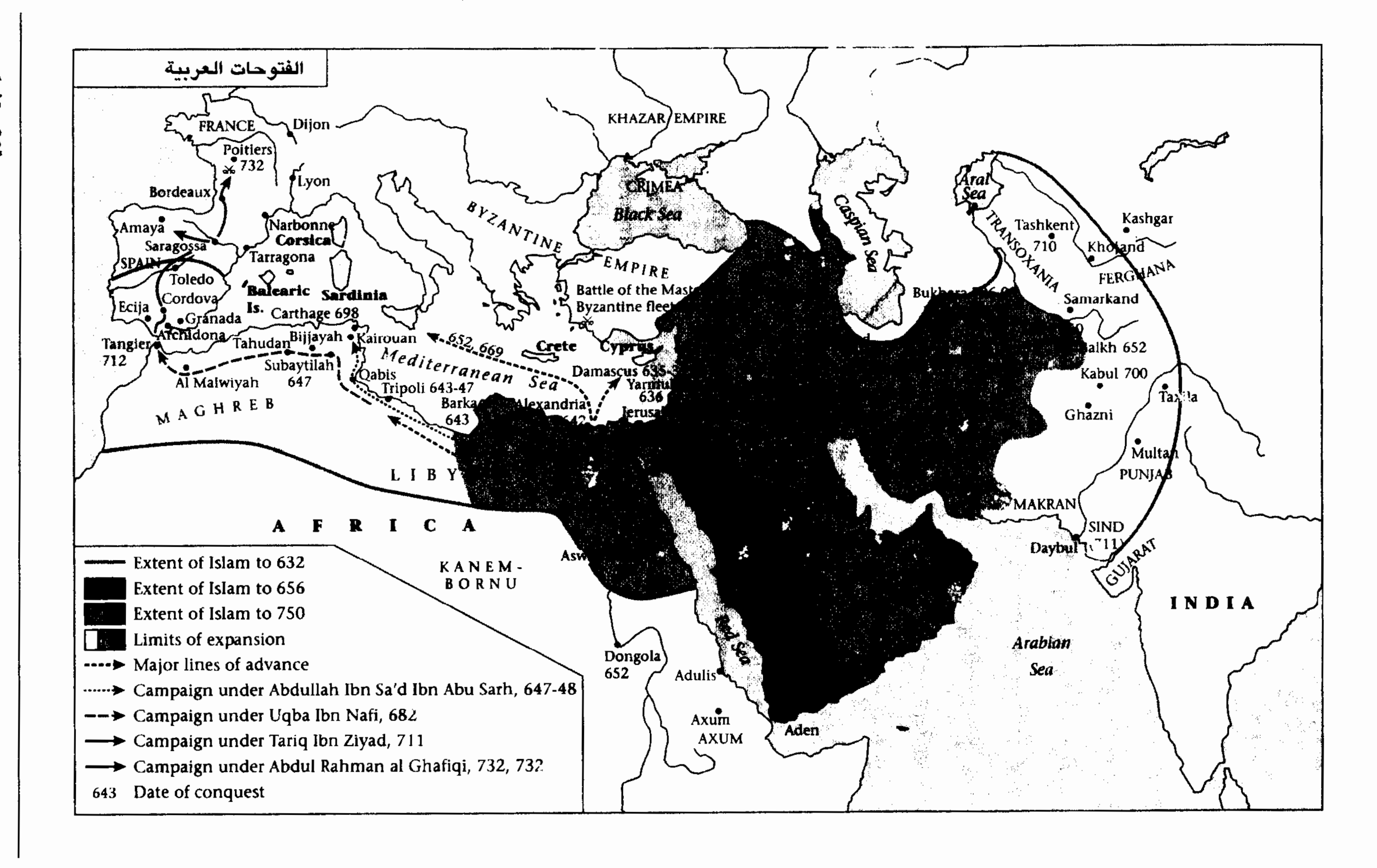
ومهما كان السبب الذي أضعف الدفاعات، فإن سلسلة من الغارات العربية الناجحة أصبحت موجة منسجمة من الغزو وراح جريانها يتلاحق بزخم إعصار التسونامي. وكان أصل ذلك دولة صغيرة جديدة قامت على مدينتي مكة والمدينة في الجزيرة العربية وقوّاها مؤخراً وحي إلهي، فاعتنقت عقيدة جديدة فيها تجريد مذهل:

لا إله إلا الله، محمد رسول الله

وهذه الشهادة التي يعلن فيها المسلم إيمانه، والمحترمة باعتبارها أول أركانه، لها قوة أساسية عظمى، فكانت إيماناً تحوّل من درع إلى سيف. ومع ذلك فإن اسم هذا الإيمان "الإسلام" يترجم عادة على أنه يعني 'التسليم' (لله)، وجذره السامي "سلم" (وفاعله مسلم)، وهو أساس كلمة 'السلام' (كما في التحية العربية 'السلام عليكم'). فمن المفارقة المزدوجة إذن أن هذا الدين الذي يعني اسمه القبول السلمي قد انفجر على العالم هكذا بقوة عاصفة.

ولكن أهمية اللغة في الإسلام تذهب إلى ما هو أبعد بكثير من إنتاج شعار شديد الأثر. فالبلاغة، قوة الكلمة المحضة كما أنزلها الله وخوطب بها كل من يسمع، كان لها الدور الأول في كسب المؤمنين بالإسلام، دون أن يترك ذلك للسامعين أي تفسير لجمال كلمات محمد سوى أنها وحي إلهي. والمثال التقليدي الكلاسيكي على ذلك عمر بن الخطاب، المعاصر لمحمد، والحجة المعترف بها في معرفة الشعر المنقول شفهياً، والذي صمم على معارضة محمد، وربما حتى اغتياله. فعندما واجهته كلمات النبي مباشرة لم يستطع إلا أن يصيح: 'ما أجمل هذا الكلام وأنبله!' وهكذا أسلم.

ولقد استعملت اللغة بطريقة فذة في نشر هذا الدين أيضاً. فالأحاديث الصحيحة للنبي، وهو الرجل الأمي، سرعان ما تم تدوينها كتابياً بحيث أصبح نصها الذي تم التوصل إليه مقدساً وصحيحاً بصورة مطلقة، فلم يعد بالإمكان


الفتوحات العربية
FRANCE
Dijon
Poitiers
732
Lyon
Bordeaux
Narbonne
Corsica
Amaya
Saragossa
Tarragona
SPAIN
Toledo
Cordova
Balearic Is.
Sardinia
Ecija
Granada
Carthage 698
Archidona
Tangier
712
Tahudan
Bijjayah
Kairouan
Subaytilah
647
Al Malwiyah
MAGHREB
Qabis
Tripoli 643-47
Barka
643
Mediterranean Sea
652, 669
Crete
Cyprus
Alexandria
Damascus 635
636
BYZANTINE EMPIRE
Battle of the Masts
Byzantine fleet
KHAZAR EMPIRE
CRIMEA
Black Sea
Caspian Sea
Aral Sea
TRANSOXANIA
Tashkent
710
Khokand
Kashgar
FERGHANA
Samarkand
Balkh 652
Kabul 700
Ghazni
Taxila
Multan
PUNJAB
MAKRAN
SIND
Daybul
GUJARAT
INDIA
Arabian Sea
LIBY
AFRICA
KANEM-BORNU
Dongola
652
Adulis
Red Sea
Axum
AXUM
Aden
Extent of Islam to 632
Extent of Islam to 656
Extent of Islam to 750
Limits of expansion
Major lines of advance
Campaign under Abdullah Ibn Sa'd Ibn Abu Sarh, 647-48
Campaign under Uqba Ibn Nafi, 682
Campaign under Tariq Ibn Ziyad, 711
Campaign under Abdul Rahman al Ghafiqi, 732, 732
643 Date of conquest

تغييره، رغم أنه كان من المسموح (كما في النصوص العبرانية) أن توضع على حواشيه بعض النقاط والخطوط كعلامات على حروف العلة بالنسبة لمن تكن العربية لغتهم الأم، والذين قد يحتاجون نتيجة لذلك إلى بعض المساعدة في قراءة الحروف الصامتة غير المشكلة(*). وكان هذا معروفاً بأنه "تلاوة" القرآن. والقرآن كلمة جذرها قـ ر ـ أ. وهو الجذر السامي للكلمة التي تعني القراءة بصوت عال، والمشهورة بأنها بداية الوحي الذي جاء به جبريل لمحمد بالآيات:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾[63].

إن هذه النصوص المتميزة، وهي مجموعة مغلقة إغلاقاً كلياً، هي كنز الإسلام العظيم، يفكر فيها المؤمنون ويتلونها باستمرار. ويبدو أن وجودها قد أخذ به المسلمون باعتباره الشارة المميزة للدين الصحيح الموحى به، لأن حملة الديانات التوحيدية الأخرى الموحى بها والمقيمين في ديار المسلمين، أي اليهود ونصوصهم المعروفة بمجموعها باسم التناخ، والنصارى وأناجيلهم، والزرادشتيين في فارس وكتابهم الأفيستا، قد أطلق عليهم بالمثل اسم "أهل الكتاب"، وبذلك تم إعفاؤهم من اعتناق الإسلام بالقوة(**).

إن التأثيرات اللغوية للحملة العربية الخاطفة الكاسحة لا يمكن مقارنتها إلا بتأثيرات الاقتحام الإغريقي الجامح للممتلكات الفارسية قبل ذلك بتسعة قرون. وقدّر لتأثيرات الحملة العربية في آخر الأمر أن تدوم أكثر من التأثيرات الإغريقية. ولكن، مثل انتشار الإغريقية عبر الشرق، فإن الأخذ بالعربية لم يصل إلى درجة انتشار السلطة الزمنية التي سببت تقدمها.

(*) وقد سبب هذا بعض المشاكل في فقه اللغة، لأن لهجة محمد العربية كانت تختلف اختلافاً طفيفاً عن اللغة السائدة، فكانت تنقصها الوقفة الحلقية المعروفة بالهمزة (وهي الوقفة المسموعة في مكان حرف التاء المشددة في كلمة better عندما ينطقها أهل لندن فيقولون بَأَرْ بدلاً من بَتَرْ)، وكذلك فقدت نون التنوين في آخر الكلمة في حالة الرفع، وقلبت تاء التأنيث إلى هاء ساكنة عند الوقف. وكان الباحثون يريدون الاحتفاظ بالنص كما هو مكتوب بالضبط، ولكنهم يتلونه حسب قواعد العربية الفصحى. ونتيجة لذلك، كان يجب إدخال كل هذه الحروف العربية الساكنة في النص المكتوب مع علامات تشكيل خاصة بالنبرة وكأنها حروف علة. وصارت هذه العلامات الآن قياسية موحدة في التهجئة العربية.

(**) [ملاحظة: إن البشرية كلها معفاة من اعتناق الإسلام بالقوة، وليس هؤلاء فقط، بدلالة قوله تعالى 'لا إكراه في الدين' ـ المترجم]

فمن الناحية السياسية، قامت الحملات العربية بتدمير قبضة الإمبراطورية الرومانية (التي صارت آنذاك هي البيزنطية) على شرقي البحر الأبيض المتوسط كله باستثناء بلاد الأناضول. ورغم محاولات العرب أخذ القسطنطينية، فإن مركز القوة الروماني هذا عاش مستمراً في تحديه المسيحي ثمانية قرون أخرى. وعلى مبعدة إلى الشرق، اجتاح العرب أرمينيا، ولكنهم لم يحوّلوها إلى الإسلام. وكان الشيء الأهم هو إنهاء العرب للقوة الساسانية في فارس وجبال أفغانستان. فكانت هذه بداية نهاية الزرادشتية، التي حلت محلها الديانة الإسلامية في العبادة الشعبية. وهي باقية اليوم فقط في صفوف الأقلية البارسية الصغيرة التي قدر لمنتسبيها أن يهربوا إلى الهند بعد ذلك بثلاثة قرون.

ومن الناحية اللغوية، كانت التأثيرات اللغوية مشابهة للتغيرات السياسية. فقد رسّخت العربية نفسها كلغة للدين حيثما تم قبول الإسلام أو فرضه(*). وفي مجال ما هو مقدس، فإن الإسلام، على عكس المسيحية، لم يبحث عن فهم له باللغات العامية الدارجة، ولا عن ترجمة إلى لغات أخرى. كان الوحي بسيطاً، ومعبراً عنه باللغة العربية فقط. وعلاوة على ذلك، فإن الإسلام دين يصر على تأدية الصلوات بالعربية، حيث يصدح صوت المؤذن يومياً داعياً المؤمنين إلى الصلاة مراراً بنداء عربي: 'الله اكبر'.

وفي العام 700 م. استدعى الخليفة بدمشق، عبد الملك، مستشاره اليوناني يوحنا الدمشقي ليخبره بأنه قرر اعتباراً من ذلك الحين أن يحظر استعمال اليونانية في كل شؤون الإدارة العامة. فقال المستشار لزملائه: 'من الأفضل أن تبحثوا عن مهنة أخرى لكسب عيشكم، فإن عملكم الحالي قد سحبه الله'، ثم أمضى بقية حياته الطويلة (655 ـ 749) كراهب[64].

كان هذا هو التطلع الطموح. فمن الناحية العملية، وعلى امتداد الأجيال القليلة الأولى، ظلت الأعمال الإدارية تتم باللغات السابقة، اليونانية، والفارسية، وإلى حدٍ ما الآرامية والقبطية، ليس على الأقل لأن الفاتحين لم يكونوا قادرين

(*) [ملاحظة: مرة أخرى نقول للمؤلف: الإسلام لا يفرض على أحد، بدلالة 'لا إكراه في الدين' ـ المترجم].

على تشغيل الأنظمة المكتبية البيروقراطية المعقدة التي سيطروا عليها، ولأن طرائق التعيين في وظائفها كانت في معظمها تقوم على محاباة المقربين. فقد ظلت الأسر نفسها هي التي تقدم طبقات الكتّاب. ولكن عند حلول القرن الثاني من العصر الإسلامي كانت تلك الأسر تقرأ وتكتب بالعربية. ويمكن متابعة العملية وفق خط سير أوراق البردي في مصر. ففي القرن الأول الذي تلا الفتح الإسلامي ظلت جميع الوثائق باليونانية، ثم دخلت ثنائية اللغة إليها. ولكن العربية حلت محل اليونانية بشكل كلي في أواخر القرن الثامن الميلادي فقط، أي بعد مئة وخمسين عاماً من دخول الإسلام[65].

ولكن التكلم بالعربية لا يمارس إلا في منطقة داخلية ضمن "دار الإسلام" ككل. فما الذي جعله يتراجع؟ على المدى الطويل كان هناك حد لغوي خفي لنجاح العرب، أو بالأحرى لنجاح العربية. فقد تقدمت العربية من كونها لغة المسجد لترسّخ نفسها بشكل دائم كلغة دارجة عامة بين الناس فقط في البلدان التي كانت في السابق تتكلم لغة لها بعض الصلة بالعربية، وتنتمي إلى أسرة اللغات الأفرو آسيوية (أو الحاميّة ـ السامية)(*).

وقد شملت هذه المنطقة الآسيوية الهلال الخصيب، الذي حلت فيه العربية محل الآرامية، ومصر التي تغلبت فيها العربية على القبطية، وليبيا وتونس اللتين اقتلعت العربية البربرية منهما وحذفت البونية ـ أو اندمجت فيها ـ والمغرب (شمال الجزائر ومراكش الحديثتين)، حيث قامت العربية أيضاً بإرجاع البربرية إلى مجموعة من الجيوب الصغيرة. كما أن جزيرة مالطا الصغيرة، ذات الخلفية

(*) لقد تبين أن الأبجدية العربية كانت لها جاذبية عالمية أكثر من لغتها، فقد تم الاخذ بتلك الأبجدية حيثما تم قبول الإسلام. وذلك برغم نقاط ضعفها الوظيفية، كعدم وجود علامات لحروف العلة وتشكيلات لطريقة لفظها، والحاجة إلى لهجات أو نبرات واضحة التفاصيل لتمييز كل الحروف الصامتة. ومع ذلك امكن التوصل إلى تسويات، مع تطبيقها على لغات منفصلة وغير ذات علاقة بالعربية، كالفارسية، والتركية، والكشميرية، والبربرية، والأويغورية، والصومالية، والهوسا، والسواحيلية، والملايوية، وكذلك الإسبانية والصربو - كرواتية. ويعود نجاح الأبجدية هذا إلى أن معرفة القراءة والكتابة في البلدان الإسلامية تجد مبدأها ومنتهاها في النص المقدس للقرآن بالحروف العربية، وهكذا فإن أي نظام كتابي آخر لن يكون سوى تعقيد إضافي.

البونية من أصلها في الإمبراطورية القرطاجية، راحت تتكلم العربية بعد الفتح العربي في العام 870 م. وتنكرت لسيطرة روما عليها ألف عام منذ العام 218 ق.م. وقد شملت منطقة التقدم الدائم للغة العربية أيضاً منطقة هامشية، أو أكثر ميلاً إلى الجنوب فيما بعد، في إفريقيا، في موريتانيا غرباً، وفي تشاد والسودان شرقاً، فقد انتشرت العربية هناك في وقت لاحق عن طريق التجارة، وكانت ستحل محل بعض اللغات التشادية والكوشية.

وفي جميع هذه المناطق التي أصبحت العربية فيها هي اللغة السائدة، دخلت حالة يمكن تسميتها 'التفسير المختلط'، بحيث صار شكل وحيد من العربية الفصحى هو لهجة النخبة، ولكن معه لهجات محلية مختلفة ليس فهمها المتبادل أكثر من فهم اللغات الرومانسية (ذات الأصول اللاتينية) في أوروبا. فالعربية الفصحى قريبة من لغة القرآن، ولكن ليست متطابقة معها تماماً.

إن تفسير محدودية انتشار العربية لا بد أنه لغوي ـ اجتماعي، وليس سياسياً أو دينياً أو ثقافياً، ما دامت الأوضاع التي انطبق فيها كانت شديدة التنوع.

فبلاد فارس، التي ظلت ألف عام تحت سيطرة الأخمينيين، والمقدونيين، والفرثيين، والساسانيين، كانت قلعة متغطرسة للزرادشتية. ومع ذلك فقد أخضعها العرب إخضاعاً عسكرياً كلياً في عشرين عاماً اعتباراً من العام 634 م. وبعد ذلك انتشر الإسلام فيها بالتدريج، رغم أن الثورات الدينية ظلت تحدث فيها حتى مضي وقت كبير من القرن التاسع الميلادي. ثم أصبحت في قلب ديار الإسلام، بل والحصن المنيع للمذهب الشيعي، وبقيت مسلمة منذ ذلك الحين.

وبحلول منتصف القرن الثامن، أصبحت العربية هي اللغة الرسمية للحكومة في جميع أنحاء فارس، فحلت محل لغات الفرثيين البهلوية في الغرب، والصغد في أقاصي الشرق[66]. وفي أوائل تلك الفترة كانت ثنائية اللغة العربية ـ الفارسية واسعة الانتشار حتى في بلاط الخليفة، ولا سيّما في أيام هارون الرشيد (786ـ809 م.)، الذي تحول إلى شخصية أسطورية من خلال ظهوره المتكرر في "ألف ليلة وليلة". ويحكي الجاحظ (المتوفى في العام 869 م) قصة

فقيه كان يتلو القرآن، ثم يفسره بالعربية للجالسين على يمينه، وبالفارسية للجالسين على يساره. وكان الشعراء من بلاد فارس، مثل أبي نواس وبشار بن برد، شخصيات هامة في تاريخ الأدب العربي[67]. وكانت هناك مستوطنات استقر فيها الفرس في الجزيرة العربية، وسوريا، ويدّعي الجغرافي العربي المقدسي أن أصفى لغة عربية عند نهاية القرن التاسع الميلادي كانت هي المحكية في خراسان، في شمال شرق فارس، لأن الباحثين هناك بذلوا جهوداً كبيرة لتعلمها بشكل صحيح[68]. وعلى مستوى النخبة، لا بد أن العربية قد حققت انتشاراً عالمياً شاملاً ضمن بلاد فارس.

ومع ذلك، فإنها لم تتغلغل داخل أي جزء من بلاد فارس كلغة للحياة اليومية(*). وبمعنى ما، فإن الإصرار على امتياز العربية المنطوقة في فارس يكشف عن كونها لم تترسخ بصورة جذرية، ولم تأخذ طابعها كلهجة محلية، كما فعلت في كل مكان من العالم الناطق بالعربية. فالجغرافيون الذين يصفون المدن الكبرى في الغرب في القرن التاسع الميلادي يقولون إنها كانت تتكلم الفارسية. ويذكر ابن حوقل أن جميع سكان قمّ كانوا شيعة، ومعظمهم عرب، ورغم ذلك فقد كانوا جميعاً يتحدثون بالفارسية[69]. ومن المفارقة أنه يبدو أن تقدم الإسلام قد دعم انتشار اللغة الفارسية إلى الشرق: فالفتوحات العربية في آسيا الوسطى البوذية في القرن الثامن نشرت الفارسية، على حساب اللغات المحلية، وخاصة لغة الصغد. والمفروض أن معظم القوات كانت من فارس الشرقية، حيث كانت اللغة المشتركة ما تزال هي الفارسية[70]. وهذا هو سبب كون طاجيكستان، والنصف الشمالي الغربي من أفغانستان تتكلم الفارسية حتى يومنا هذا. وبعد ذلك بخمسمئة عام، عندما تغلغل جيش إسلامي إلى ما وراء ذلك في الهند، وأقام سلطنة دلهي، فإنه جاء في أعقابه باللغة الفارسية، وليس العربية.

وعلى بعد ستة آلاف كيلومتر، في الطرف الآخر من ممتلكات الإسلام، في شبه جزيرة إيبيريا، انتشر الإسلام على حدّ السيف على أيدي جيش يتكون

(*) [ملاحظة: يستخدم مؤلف الكتاب اسم "إيران" وهذا خطأ، لأن هذا الاسم لم يؤخذ به رسمياً إلا في العام 1926 تحت حكم رضا بهلوي الذي استولى على السلطة من أسرة قاجار ـ المترجم].

معظمه من البربر الذين أسلموا(*). فتحت إمرة قائدهم طارق بن زياد، عبروا مضيق جبل طارق في العام 711 م (رمضان عام 92 هـ) وبعد أن دحروا الملك القوطي رودريك، وجدوا أنفسهم سادة للبلد(**). (وقد حاولوا بالفعل شن غارة كبرى إلى الشمال من جبال البيرانيس بعد ذلك بعشرين عاماً، فوصلوا إلى بواتييه في فرنسا الوسطى في العام 732 م ولكنهم أُبعِدُوا عنها)(***) وكانت أمامهم سبعمئة وخمسون عاماً من الحضور الإسلامي في أسبانيا والبرتغال، حيث كان البلد يعرف نفسه باسم "الأندلس". وكان تاريخه قصة أمراء مختلفين يتنازعون على السلطة. وأصبحت قرطبة على وجه الخصوص إحدى الجواهر الثقافية للإسلام كله، وموطناً للشعر العربي خاصة. بل إن الأمير عبد الرحمن الثالث [الناصر] قد اعتبر نفسه عظيماً وقوياً بما فيه الكفاية لإعلان نفسه خليفة، أي "أميراً للمؤمنين" في العام 929 م (317 هـ) للمسلمين جميعاً. ورغم ذلك، فإن منطقة سيطرة المسلمين راحت تنضوي بعد ذلك بالتدريج، عندما صار الملوك النصارى أقوى في ليون، ونافار، وبعد ذلك في قشتالة وآراغون. فسقطت في أيديهم طليطلة في العام 1085 م (375 هـ)، مما سبب غارة جديدة للبربر من المرابطين استدعيت لإعادة التوازن بين المسلمين والنصارى. ولكن، بعد ذلك بفترة عاود المدّ انتشاره ضد المسلمين، فسقطت قرطبة في العام 1236م، وأشبيلية في عام 1248، واختتمت عمليات الاستعادة بسقوط غرناطة في العام 1492م.

وأثناء هذه الفترة الطويلة لا بد أن إيبيريا كانت منطقة ثنائية اللغة ـ وربما ثلاثية طيلة احتفاظ الغزاة البربر بلغتهم الأصلية. وقد ادعى البعض بأن الإسبانيّة، أو سلفها اللغة الرومانسية، كانت قد تلاشت تقريباً في المنطقة

(*) [هذه فرية أخرى يصر عليها المؤلف: لم يسلم أحد في الدنيا بحد السيف: 'لا إكراه في الدين'، ويشهد على ذلك نصارى الأندلس ويهودها.. مثل إلفارو أسقف قرطبة في العام 845 م والحاخام أبراهام بن عزرا في القرن الثاني عشر الميلادي ـ المترجم].

(**) [وكان معهم يوليان حاكم سبتة، وغيطشة ملك إسبانيا الشرعي الذي كان رودريك قد اغتصب منه الحكم ـ المترجم].

(***) [تلك هي واقعة بلاط الشهداء، التي احتل المسلمون مرسيليا بعدها بثلاثة أعوام في العام 735م ـ المترجم]

الإسلامية عند حلول القرن الثاني عشر، وحلت محلها العربية "الأندلسية"، وليس الفصحى. فقد أظهرت طبيعة لهجتها أن الناس قد أخذوا بها على نحو جدي. ومن المؤكد أنه بعد أكثر من مئة عام من عودة السلطة المسيحية إلى طليطلة، كانت أعداد كبيرة من الوثائق لا تزال مكتوبة ومعلنة باللهجة الأندلسية(71)، على أيدي كتّاب العدل. فقد كتب فريدريكو كورينت، الخبير بالأندلسية: 'إن ثنائية اللغة تطورت بسرعة إلى لغة أحادية، وهذه عملية اكتملت في القرن الثالث عشر، مما يجب أن لا يجعلنا ننسى بأن الجيوب الثنائية اللغة لم تكن سوى بقايا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر'(72).

وقد تم اتخاذ خطوات تنفيذية وتشريعية من قبل السلطة الجديدة لإزالة الكلام العربي على امتداد ثلاثة أجيال على الأقل بعد العام 1492 م. ففي العام 1501 و1511 تم سن قوانين ضد امتلاك معظم الكتب العربية. وفي العام 1511 صدر مرسوم (بلا جدوى، كما يظهر) لم تعد بموجبه العقود المكتوبة بالعربية صحيحة. وفي العام 1526 كان شارلس الخامس لا يزال يجد أن من الضروري أن يأمر في مجلسه باستخدام اللغة القشتالية الإسبانية فقط في الكلام، وفي كتابة العقود، وفي الأسواق. وحتى في العام 1566 كان فيليب الثاني يصدر مرسوماً بأنه في غضون ثلاث سنوات يجب عدم السماح للمور (أي المسلمين "المدجّنين") بأن يتكلموا العربية، بل القشتالية فقط.

ففي بلاد فارس إذن، لم تستطع العربية - برغم نفوذها الديني - أن تتغلب على الخمول الثقافي؛ أما في إسبانيا، فعلى الرغم من نجاحها الكبير في بادئ الأمر، فإنها خضعت في النهاية للقمع السياسي، والعسكري، والديني. وأما في المنطقة الوسطى بين هاتين، أي في شمال إفريقيا، فقد كانت الصورة أبسط. إذْ رسّخت اللغة العربية نفسها أوّلًا في المدن، حيث كانت اللاتينية منافستها الرئيسية المباشرة - وتليها في ذلك إلى حد ما اللغة البونية، كما شاهدنا آنفاً. وبالنسبة للبربر، الذين قبلوا الإسلام بسهولة تامة، كانت العربية بادئ الأمر قد أخذ بها باعتبارها لغة الإيمان. فكان لذلك تأثير كبير تماماً، بسبب دور العربية في تعليم الإسلام، وتأثير أكبر عندما بدأ رجال النخبة يرسلون أبناءهم إلى الشرق لدراسة الفقه والقانون والشريعة.

وحافظ بربر الممالك الداخلية على استقلالهم بقدر ما استطاعوا، ولكن ليس هناك دليل على أي محاولة لهم لإبعاد الإسلام بحد ذاته.

ويبدو أن العربية لم تحرز تقدماً حقيقياً إلا في القرن العاشر الميلادي، بعد تدمير المجتمع البربري على أيدي بني هلال، من مجموعات البدو الرحل[73]. إذ يبدو أنهم قد انقضّوا على المجتمع المغربي بصورة سريعة مفاجئة أثناء نزاع بين الإمارات بينما كان الفاطميون يحاولون جعل خليط من أتباعهم الزيريين يستقرون هناك، وهم عشيرة من البربر محكومة من تونس. وبعد ذلك بمئتي عام، جاء ابن خلدون، المؤرّخ ذو الأصل البربري، (مع جذور أندلسية) فكتب بالعربية وشبّه بني هلال 'بسرب من الجراد': 'بل إن الأرض نفسها قد غيرت طبيعتها كما يبدو. فكل الأراضي التي فتحها العرب في القرون القليلة الماضية قد رحلت عنها حضارات، كما رحل منها سكانها ...'[74].

غير أن ذلك قد وضع المدن الناطقة بالعربية في موقع تُقدم منه إمدادات لهذا العالم الجديد في شمال إفريقيا: 'عندما يكون هناك تغير كلي في الظروف، فكأن الخليقة كلها قد تغيرت، وكأن العالم كله قد تحول. وكأنه قد حدث خلق جديد، أو إعادة ولادة، أو كأن عالماً جاء إلى الوجود من جديد'[75].

كان البربر ذات مرة هم المجتمع اللغوي المسيطر في جميع أنحاء شمال إفريقيا. فصاروا الآن مرتبطين بمناطق نائية، وبحياة غير مستقرة. ولا تزال لغتهم باقية مع ذلك، وهي أقوى ما تكون في المنطقة الغربية من المغرب، التي لم يصل إليها بنو هلال أبداً في تغلغلهم، وبين قبائل الطوارق الرحّالة في الصحراء، رغم وجود جيوب كبيرة ما تزال على سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وأخيراً تأمل في الأتراك، القوى البدوية الرحّالة التي اتصلت باللغة العربية، ليس عن طريق غزو الناطقين بها لهم، ولا عن طريق التبشير العربي للأتراك، بل عن طريق أخذ الأتراك لزمام المبادرة وغزوهم العرب. فقد جاء الأتراك من الشمال الشرقي، فسيطروا أول الأمر على المناطق الشرقية من السلطة

الإسلامية، ثم تحركوا للاستيلاء على المركز في بغداد، وبعد ذلك توسعوا حتى أمسكوا بالسيطرة الفعلية على "دار الإسلام" كلها. وبعد انتصارهم، لم يكن هناك من يعادل تمسكه بالإيمان الإسلامي تمسك الأتراك به. ومع ذلك فقد تمسكوا بلغتهم حتى عندما اعتنقوا هذا الدين.

وكان لهم تأثير لغوي آخر: فقد أرخوا قبضة اللغة العربية على فارس ككل. وكان الأتراك قد التقوا بعالم الإسلام عن طريق المنطقة الناطقة بالفارسية في آسيا الوسطى. وبمعنى ما فقد رأوا الإسلام من خلال قناع من الشاش الفارسي فقط. وهكذا فبعدما بدأ الأتراك يمارسون نفوذهم، عادت الفارسية إلى بلاد فارس كلغة إدارية رسمية، وأخذت العربية تنحصر أكثر فأكثر في المهمات الدينية.

إن مجيء السيطرة التركية تحت حكم السلاجقة(*) في القرن الحادي عشر يوضح للمرة الأولى ظهور تقسيم المهمات بين مسؤوليات الخليفة الروحية، والمسؤوليات الزمنية للسلطان، الحامي الوطني للخليفة، فقد كان السلطان يعتمد على جيش تركي، ولكنه استفاد بشكل كامل من خبرة الإداريين الناطقين بالفارسية[76]. فلم يقيّض للعربية أن تنتشر عبر اتساع مناطق الشعوب الناطقة بالتركية الممتدة إلى قلب آسيا، حتى عندما اعتنقت تلك الشعوب الإسلام. فقد كانت للأتراك لغة مشتركة لاستخدامها مع رعاياهم الجدد، وكانت هي الفارسية. فقد كانوا جميعاً يتكلمون الفارسية. أليس كذلك؟ فلم تكن هناك حاجة إلى العربية إلا لمخاطبة الله وحده(**).

وكان هذا بالفعل هو نمط كل الحالات الأخرى لانتشار الإسلام في الألف الميلادي الثاني، ولا سيّما من شمال إفريقيا جنوب الصحراء، ومن مصر والجزيرة

(*) قد يكون من الجدير بالملاحظة أن حرف الجيم في هذه الكلمة ينطق جيماً كما في كلمة judge الإنكليزية.

(**) ولكن المرء يظل متسائلاً لماذا كان نهج الألمان، ولا سيما عشائر القوط، مختلفاً إلى حد كبير عندما سيطروا على الحضارة الأعلى المجاورة لهم في العام 410 م (عندما نهبوا روما) ليضعوا أنفسهم على الفور تقريباً في موقع حماة الإمبراطورية الرومانية. ولكن في الحالة الأوروبية، كانت هناك لغة ثالثة تؤدي الدور الذي قامت به اللغة الفارسية: فقد كانت اللاتينية ما تزال لغة السلطة الزمنية، وكذلك لغة الكنيسة الرومانية.

العربية نزولاً على طول الساحل إلى شرق إفريقيا ومدغشقر، ومن بغداد وبخارى إلى سيبيريا وآسيا الوسطى، ومن أفغانستان إلى الهند فجنوب شرقي آسيا؛ فتم قبول العربية كلغة مقدسة، ولكن لم يكن هناك اتجاه لانتشارها كلغة عامية دارجة، ولا حتى كلغة اتصال مشتركة بين السكان المسلمين الجدد. وباستثناء الناطقين بلغة الهوسا في غرب إفريقيا، لم يكن أي من المجتمعات التي اعتنقت الإسلام يتحدث باللغات الأفرو - آسيوية، وهكذا فإن ذلك يتمشى مع القيود اللغوية(*).

وقبل أن نترك موضوع انتشار العربية والقيود التي حدّت منه، فإن من الصحيح أن ننظر في طريقة أخرى ربما كان من المتوقع انتشار العربية بواسطتها ولكنها في الحقيقة لم تنتشر. فعلى الأقل منذ بدء القرن الأول الميلادي حتى مجيء المغامرين الأوروبيين في القرن الخامس عشر كان من المعروف أن البحّارة العرب، ربما مع بعض المنافسة من الفرس، قد اضطلعوا بمعظم التجارة البحرية بين الشرق الأدنى وسواحل إفريقيا والهند.

تعود الشهادة الأولى بتاريخها إلى القرن الأول الميلادي، في الدليل اليوناني للبحارة المعنون "الرحلة حول المحيط الهندي".

> (16§) وعلى مسافة يومين في البحر بعد ذلك تقع آخر مدينة للتسوق في قارة آزانيا [إفريقيا الشرقية] وهي تدعى رابتا، واسمها مشتق من القوارب

(*) إن الهوسا، المتركزة في كانو، في نيجيريا الشمالية، هي أكثر من مشكلة، بالنسبة للقيود والمحدودية. فلها ملامح معينة تذكرنا بالعربية. ففيها مثلاً جنسان، مذكر ومؤنث، ويتميز المؤنث بفتحة (تشبه الفتحة الهاء الساكنة بالعربية)، ويغيب عنها الحرف -p- كما في العربية، فتضع مكانه حرف f في الكلمات المستعارة من لغات أخرى. وقد ملأها الناطقون بها (وغالبيتهم العظمى من المسلمين) بكلمات مستعارة من العربية، بما ذلك معظم الأرقام التي تزيد على عشرة، وأيام الأسبوع، وحتى بعض حروف سوابق المشتقات، مثل السابقة "ما" (فالمدرسة هي ماقارانتا، مشكّلة من كلمة قارانتا التي معناها 'يقرأ' والتي لها علاقة بكلمة قرآن. وباللغة العربية فإن المدرسة هي "مكتب" أو "مدرسة" وفيها الحروف السابقة نفسها (التي تستعمل لاشتقاق اسم مكان حدوث الفعل)، ولكن جذر الفعل ك ت ب، الذي معناه 'كتب' ودرس، الذي معناه 'دَرَسَ'، تضاف إليهما الميم السابقة نفسها لاشتقاق اسم مكان حدوث الكتابة والدراسة)، ولكن الهوسا فيها ملامح كثيرة أكثر تمييزاً مأخوذة من جاراتها اللغات الأفريقية، مثل النبرات الثلاث المتناقضة، والحروف الصامتة المتفجرة. وربما كان استعمالها بشكل واسع كلغة مشتركة في إفريقيا الغربية، وليس بين المسلمين وحدهم، قد عمل على الحفاظ على استقلالها.

المخيطة المذكورة آنفاً، ويوجد فيها العاج بكمية كبيرة، وكذلك قوقعة السلحفاة. ويعيش على طول هذه السواحل أناس لهم عادات قرصانية، وهم طوال القامة جداً ويحكمهم رئيس منفصل لكل مكان. فالرئيس المافاريتي يحكمها بموجب حق قديم يخضعها لسيادة الدولة التي أصبحت الأولى في الجزيرة العربية. ويحتفظ بها أهالي موزا الآن تحت سلطته، ويرسلون إلى هناك كثيراً من السفن الكبيرة، مستخدمين القباطنة العرب كوكلاء لهم، وهم يعرفون الأهالي ويتزاوجون معهم، ويعرفون الساحل بأكمله ويفهمون اللغة ...

(21 §) وفيما وراء هذه الأماكن، وفي جزء رئيسي عند سفح الجانب الأيسر من الخليج يوجد مكان بجانب الشاطئ يدعى موزا؛ وهي مدينة تسوّق تأسست بموجب القانون، وهي بعيدة تماماً عن برينيس [راس باناس] بالنسبة لمن يبحرون باتجاه الجنوب بحوالي 12,000 ستاديا (الستاديوم وحدة قياس يونانية طولها يتراوح بين 607 و738 قدماً إنكليزياً - ومعنى ذلك أن هذه المسافة تقرب من 2,500 كيلومتر) والمكان كله مزدحم بحشود من البحّارة وأصحاب السفن العرب، ومشغول بقضايا التجارة. فهم يتاجرون مع الطرف البعيد من الساحل ومع باريغازا [بروش، في غرب الهند]، فيرسلون سفنهم إلى هناك[77].

وأينما كانت مواقع رابتا (دار السلام؟) أو موزا (مخا؟) أو مافاريت (معافير؟)، فإن من الواضح من هذا أن المشاركة التجارية العربية مع جانبي المحيط الهندي يعود تاريخها إلى ما قبل محمد بأكثر من ستمئة عام. كما أن من الصفات المعروفة عن السفن العربية أنها حتى العام 1500م كانت أبدانها تخاط معاً فلا تلصق بالمسامير أو الملاقط[78]. فقصص رحلات السندباد البحري في "ألف ليلة وليلة" لها أساس قوي في حقائق التاريخ العربي(*) (وقد كان السندباد تاجراً بحرياً أكثر من كونه بحاراً).

(*) بل كانوا يذرعون الطرق البحرية إلى جنوب شرقي آسيا والصين وخاصة في القرون المبكرة. فقد كتب أبو زيد السيرافي أن المرور البحري في العام 851 م كان منتظماً بسبب التبادل الكبير بين التجار والأسواق في العراق والهند والصين. والواقع كما قال أن مستعمرة تجارية فيها مئة وعشرون ألفاً من

ومعنى هذا أن اللغة العربية كانت مسموعة في جميع الموانئ على طول سواحل المحيط الهندي، من موزامبيق إلى مالابار وكوروماندل في جنوبي الهند. أفليس من المؤكد أن ذلك كان له أثر لغوي، على الأقل في خلق رطانة من المصطلحات التجارية الهجينة؟ فهناك على أية حال سوابق وفيرة، كما رأينا في طريقة انتشار اللغة الفينيقية حول حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي القرون الأحدث من ذلك في كيفية جلب الأوروبيين لغاتهم على أجزاء العالم التي ذهبوا إليها للتجارة. فالتجارة تعتبر عادة العامل الأول الذي وضع الإنكليزية على طريق تحولها إلى لغة عالمية.

والواقع أن الجانب الوحيد لمثل هذا التأثير للغة العربية موجود في شرق إفريقيا، حيث تُظهر السواحيلية، وهي لغة البانتو الكبرى، علاماتٍ على تأثير عربي كثيف. بل إن اسمها نفسه مشتق من الكلمة العربية "سواحل". فعند العد إلى عشرة نجد أن الأرقام 6 و7 و9 مستعارة من العربية: ستة، وسبعة، وتسعة. وعلى عكس كل لغة بانتو أخرى تقريباً، فإن السواحيلية ليست فيها نبرات طويلة مميزة، بل إنها تستخدم أصواتاً معينة من العربية غير معروفة في لغات البانتو الأخرى، ولا سيما التمييز بين حرفي الراء واللام، واستخدام الحرفين الصحيحين الثاء والخاء، ونظيراهما الحرفان الصوتيان الذال والغين.

ومع ذلك تبقى السواحيلية لغة بانتو نموذجية. ففيها أصوات وقف كثيرة تخرج من الأنف (نْدْ nd، نْغْ ng، مْبْ mb، نْتْ nt، نْكْ nk، مب mp) وتشكيلة متنوّعة من حروف السوابق الدالة على نوع المفهوم المخصص له الاسم للتعبير عنه، وحروف سابقة ملصقة بالأفعال تؤدي الوظائف التي تقوم بها الضمائر، وانثناءات الأفعال والأفعال المساعدة في لغات كالإنكليزية، بل والعربية؛ مثال:

الغربيين (مسلمين، ويهود، ومسيحيين، وزرادشتيين) قد تعرضت لمجزرة في كانتون في العام 878 م (حوراني، 1995: ص76-77).

وا ـ زي	ها ـ وا ـ جو ـ إي	آ ـ لي ـ كويندا
'كبار السن'	'لا هم لا يعرفون'	'هو ـ أين ـ ذهب'

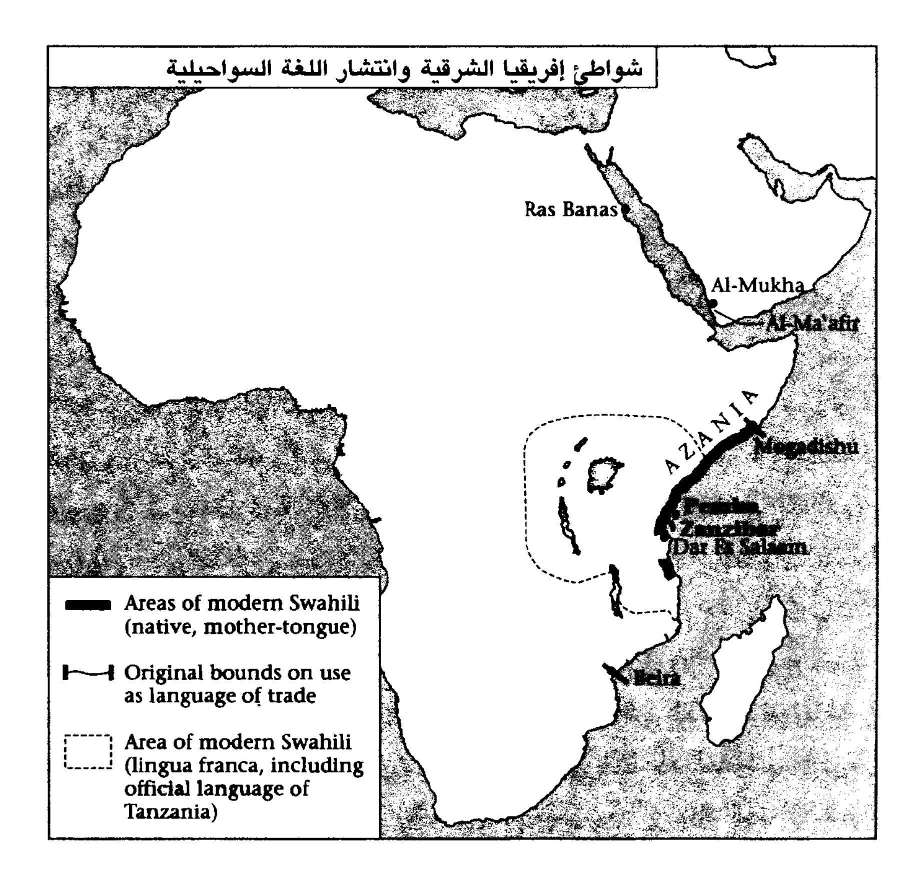
فتصبح الجملة كلها:

"كبار السن لا يعرفون أين ذهب"

والمعتقد هو أن انتشار لغات البانتو من منطقة البحيرات الإفريقية العظمى قد وصل إلى منطقة زنجبار(*) في وقت مبكر من الألف الأول الميلادي بحيث كان من المحتمل جداً أن نسخة مبكرة من تلك اللغة قد تعلمها الزوّار العرب المذكورون في الكتاب اليوناني "رحلة حول المحيط الهندي". وعندما وصل الأوروبيون إلى هذا المكان لأول مرة (وهم البرتغاليون في العام 1498م) كانت السواحيلية هي اللغة المحكية لغة الكلام في شريط ضيق على طول الساحل من مقديشو في الصومال إلى بيرا في موزامبيق. وإن أقدم نص عربي باق في المنطقة مأخوذ من جامع تم بناؤه في العام 1107م، ومن الواضح أن العربية كانت كثيرة الاستعمال كلغة للتجارة هنا، مخلوطة على الأغلب مع لغات أخرى تلاشت منذ ذلك الحين. وربما كان هناك تأثير في الاتجاه المعاكس، إذ يقال بأن بعض اللهجات الساحلية من العربية في العراق وشبه جزيرة العرب تظهر تأثير اللغة السواحيلية[79].

وكيفما يكن الأمر، فإن السواحيلية هي الآن اللغة الرسمية في دولتي تانزانيا وكينيا، كما أنها مستخدمة على نطاق واسع في البلدان المجاورة، في أوغندا، وموزامبيق، ورواندا، وبوروندي، والكونغو، ومدغشقر، وجزر القمر. ومنذ مجيء المستعمرين الأوروبيين، لعبت السواحيلية دوراً كبيراً كلغة مشتركة لإمبراطورياتهم، ودوراً أقل نزاهة كلغة سرية مصطنعة لتجّار الرقيق وضحاياهم. ورغم ضخامة عدد مستخدمي السواحيلية (الذي يقدر بأربعين مليوناً) فإنه لا يتم تعلمها كلغة أهلية محلية إلا في الجزر القريبة من زنجبار وعلى سواحلها. وكما هو الحال دائماً فلعل الأكثرية الساحقة من متكلميها (حوالي 90 بالمئة)

(*) زنجبار هي في الحقيقة كلمة معرّبة عن الفارسية "زانجي - بار"، أي 'أرض الزنوج السود'.



يلتقطونها في وقت لاحق من حياتهم. فبدون التجارة العربية ما كانت لتكون هناك لغة سواحيلية كما نعرفها، ولكن تأثير العربية عليها قد توقف منذ زمن طويل.

الفترة الفاصلة الثالثة: التركية والفارسية، المسلمون الخارجيّون

قلت لنفسي، فلأنهض من مقعدي وأقف،
قلت لنفسي، فلأركب حصاني الكازليك ذا العرف الأسود،
قلت لنفسي، فلأذهب بين حشود الأوغوز،
قلت لنفسي، فلأبحث عن كنّتي ذات العينين الكستنائيتين،
قلت لنفسي، فلأنصِب خياماً بيضاء على الأرض السوداء،
قلت لنفسي، فلأقد ولدي إلى غرفة عرسه،

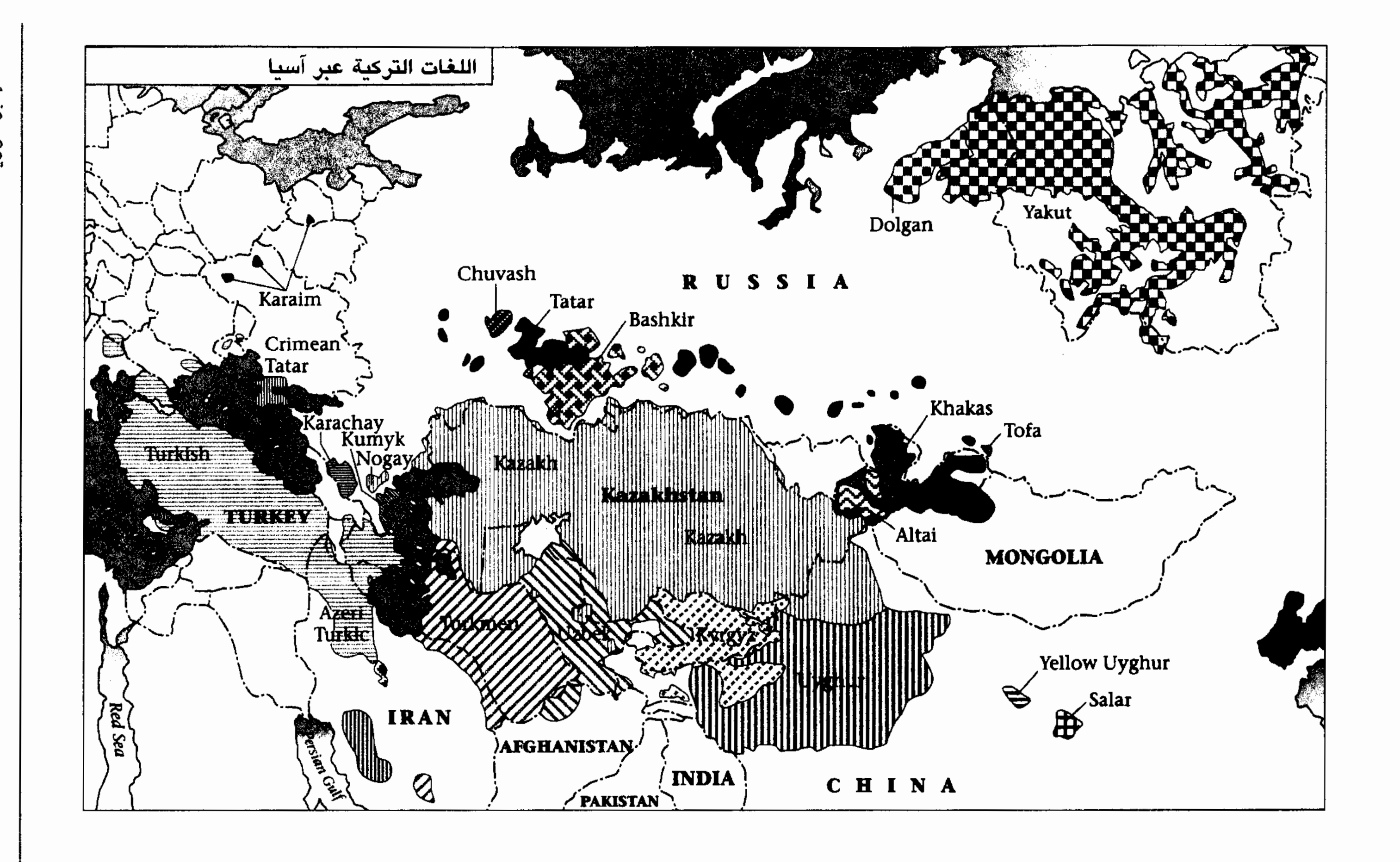
قلت لنفسي، فلآخذه إلى أمنيته، إلى بغيته،
ولكنك لم تدعني أحصل على أمنيتي،
فلتمسك بك لعنة الرأس الأسود، يا قازان!(*)

ديد قرقوط، نَسَب أوزون السجين، ابن قازان باي
(امرأة توبخ زوجها على فقد ولدهما في غارة)

هناك لغتان كبيرتان، هما التركية (المنطوقة بأشكال متنوعة، ولكنها كلها شديدة القرب من التركية الحديثة) والفارسية، من المعروف جيداً أنهما لغتان إضافيتيان مساعدتان للحضارة الإسلامية. وقد اضطررنا إلى المرور مروراً عابراً بدوريهما في تاريخ اللغة العربية، وليس هذا منصفاً لهما: فلكل منهما تاريخ مثير للاهتمام يعود إلى ألف سنة قبل القرار المصيري للناطقين بهما باعتناق الإسلام. وقد أسهمتا بطابعهما اليوم وفي الماضي.

فاللغات التركية منتشرة فوق منطقة شاسعة من منغوليا الغربية إلى بحر إيجه. ومثل لغتي كسيونغنو وتابغاش، فإن الناطقين بالتركية قد أغاروا على الصينية وأنهكوها واجتاحوها في القرنين الميلاديين الثالث والرابع. وفي القرن الخامس كانوا يرعبون الهند الشمالية تحت اسم الهونا، وأوروبا الشرقية تحت اسم الهوني. بل إنهم أغاروا على الخيل مع آتيلا ضد فرنسا لفترة قصيرة في العام 451 م. وكان الخزر يحكمون جنوب روسيا من البحر الأسود إلى بحر قزوين من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر. وكان المجنَّدون الناطقون بالتركية يشكلون غالبية جيوش جنكيز خان المغولي في أوائل القرن الثالث عشر. وكأعضاء في الجحفل الذهبي، كانوا هم الذين نهبوا كييف في العام 1240 فأحدثوا تحولاً دائماً في مركز القوة الروسية (انظر الفصل الحادي عشر 'أصول اللغة الروسية'، ص583). وهناك أتراك آخرون: السلاجقة، ثم العثمانيون فيما بعد، أسقطوا الإغريق البيزنطيين واستقروا في جميع أنحاء بلاد

(*) في التهجئة التركية (التي ادخلتها أتاتورك عام 1929-1928) فإن حرف الكاف هو "جيم" في النطق، وحرف الشين هو تْشْ في النطق، والياء تنطق بإعادة جذر اللسان إلى الوراء كما في كلمة kirk الاسكتلندية، والغين إما صوت مغرغر كما في كلمة gamma الإغريقية أو الغين العربية، أو مجرد إطالة في حرف العلة السابق لها، كما في كلمة German.



اللغات التركية عبر آسيا
Karaim
Crimean Tatar
Karachay
Kumyk
Nogay
Turkish
TURKEY
Azeri Turkic
Red Sea
Persian Gulf
IRAN
Chuvash
Tatar
Bashkir
RUSSIA
Kazakh
Kazakhstan
Kazakh
Dolgan
Yakut
Khakas
Tofa
Altai
MONGOLIA
Yellow Uyghur
Salar
AFGHANISTAN
PAKISTAN
INDIA
CHINA

الأناضول، من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر. وفي القرن السادس عشر كان الروس لا يزالون يرون أن التتر الناطقين بلغة تركية في قازان وأستراخان هم العقبة الكبرى في وجه التوسع الروسي، وهي عقبة يتعين على الروس زحزحتها؛ وفي القرن الثامن عشر كان تتر شبه جزيرة القرم هم أكبر الواقفين في وجه الروس.

وفي القرنين الثامن والتاسع، كان الأتراك يكتبون نصوصاً جنائزية في وادي أورخون في منغوليا الخارجية بأبجدية مفتعلة اصطنعوها لأنفسهم. ثم أخذوا بالكتابة بلغة الصغد، فحوّلوها إلى الخط العمودي للغة الأويغور في آسيا الوسطى. وفي القرن الحادي عشر التقوا بالفرس فأخذوا منهم الحروف العربية، بل كتبوا قاموساً بلغتهم وقصيدة إهداء طويلة عنوانها "كوتادغو بيليغ" أي 'سعادة المعرفة'. وفي القرن الرابع عشر في فارس وسمرقند كان نوع اللغة التركية المعروف باسم جغطاي - على اسم الابن الثاني لجنكيز خان - هو لغة الثقافة في بلاط خانات منغوليا[80]. وعندما انقضّ بابر، أول ملوك المغول من أفغانستان، ليفتح الهند في العام 1505، كانت تلك هي اللغة التي تحدث بها لرجاله، رغم أنه كان يفضل أن يكتبها بالفارسية[81].

ولقد يكون من الإنصاف تقريباً أن نعتبر نهج بابر هو روح التركية العثمانية حتى مطلع القرن العشرين. فقد كانت اللغة التركية الرسمية دائماً مخلوطة بمزيج كثيف من زخارف الفارسية الأدبية حتى جاءت محاولات أتاتورك لإصلاحها في ثلاثينيات القرن المذكور[82].

* * *

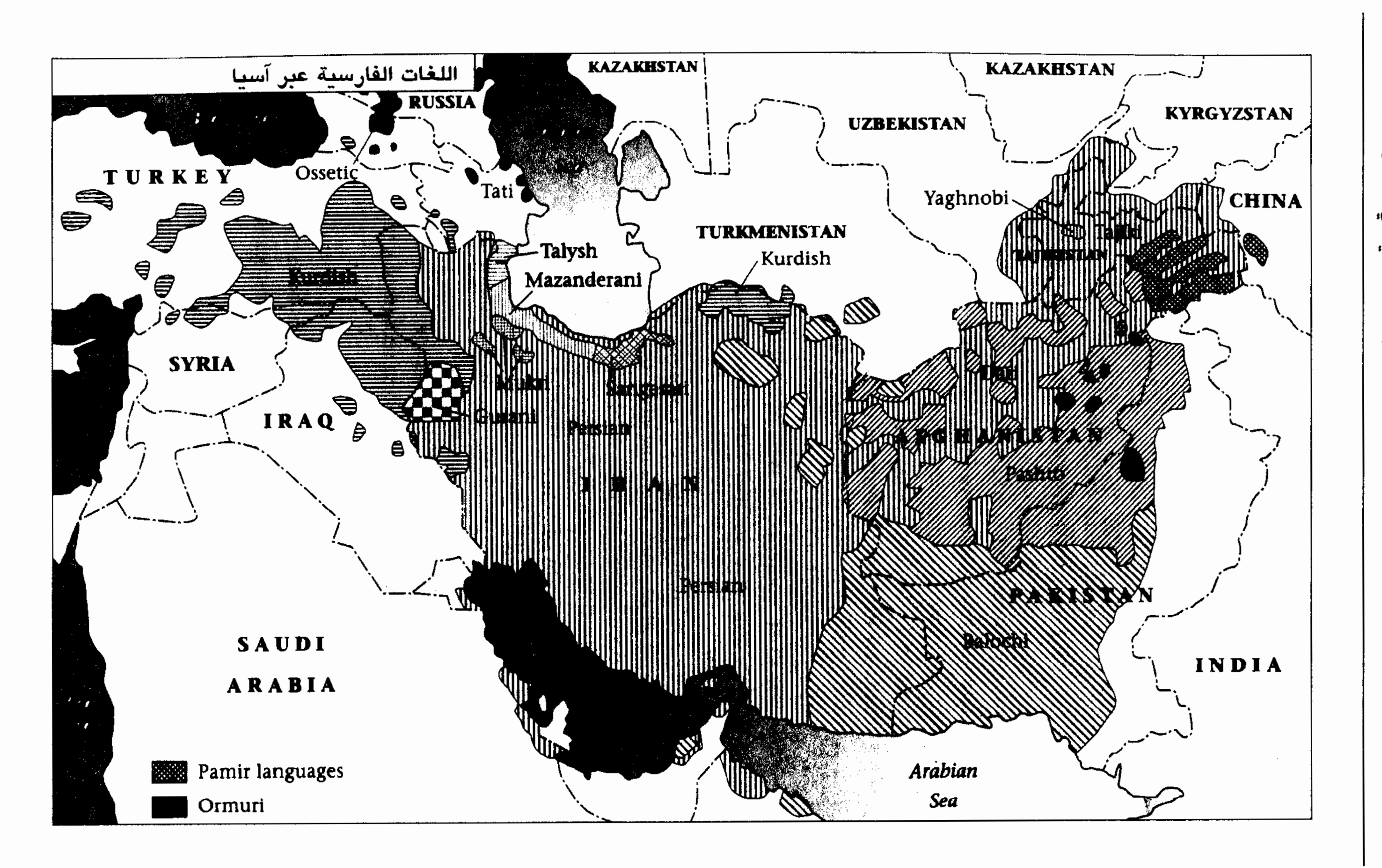
وإذا كانت التركية تستحق دراسة تعالجها بحد ذاتها، فهذا ما تستحقه أيضاً أختها الثقافية الكبيرة: الفارسية، التي هي لغة المتعلمين جيداً منذ القرن السادس قبل الميلاد. ولا يزال الأوروبيون غير المتعلمين حتى يومنا هذا يرون فارس كجزء غير متميز من شرقي العالم العربي: ومع ذلك فإن الفارسية كلغة لها أشياء مشتركة مع لغات أوروبا وشمال الهند أكثر مما تشترك به مع العربية أو التركية. فرغم ألف ومئتي عام من الممارسة، فإن الفوارق اللفظية في العربية بين

السين والزاي والتاء والدال في مقابل الصاد والجيم والطاء والضاد، وكذلك الألف في مقابل العين، التي يجد الغربيون صعوبة في إتقانها، هي صعبة على الناطقين بالفارسية أيضاً. والكلمة الفارسية المقابلة لـ 'is' لا تزال هي *ast*، مثل اللاتينية *est*، والألمانية *ist*، والروسية *yest*، والسنسكريتية *asti*.

ورغم أن 'it is' لم يتوقف النطق بها في بلاد فارس على مدى الألفي عام الماضية، فقد كانت سيئة الحظ من الناحية الثقافية، فقد غشيتها وأضرّت بها سلسلة من النكسات السياسية. فأولاً: قرر دارا في القرن السادس قبل الميلاد أن يجعل الآرامية اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية، وفي القرن الرابع قبل الميلاد، عندما غُزِيت الإمبراطورية، حاول السلوقيون أن يفرضوا اللغة اليونانية. ولكن الفرثيين والساسانيين أعادوا تأكيد احترام الفارسية لذاتها اعتباراً من العام 140 ق.م. لمدة ثمانية قرون. ثم جاء انتشار القوات الإسلامية بشكل استثنائي ضخم في القرن السابع الميلادي فرفع اللغة العربية إلى موقع النفوذ المتميز في الدين، والبحوث الدراسية، والحكومة؛ طيلة ثلاثة قرون. وتلقى الكتّاب أمراً 'بعدم التماس المعونة من الوثنيين في عمل الإدارات والمكاتب'[83].

وبدأ انبعاث للفارسية في القرن العاشر الميلادي، ولكنه تعرّض للخنق بشكل فوري تقريباً عن طريق غارات الناطقين بالتركية (من الذين يحملون اسم المغول) من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر. ورغم ذلك، بقيت الفارسية لغة ذات نفوذ، وبفضل سلطنة دلهي وحكامها المغول المسلمين الذين جاؤوا بعد ذلك، صارت الفارسية أيضاً اللغة الرسمية الرئيسية في الإدارة الهندية، من القرن الثالث عشر حتى خضعت للإنكليزية في القرن التاسع عشر.

وكانت اللغات القريبة من الفارسية ذات أهمية أيضاً في آسيا الوسطى. فقد تم الأخذ باللغة السكايثية عبر معظم سهوب أوراسيا في الألف الأول ق.م. (وهي باقية في الأوسيتية، التي هي لغة قفقاسية). وفي الألف الأول بعد الميلاد كانت لغة الشاكا ـ خوتانية لغة ثقافية هامة للبوذية. أما اللغة الباكترية، التي كانت لغة الكلام إلى مبعدة إلى الغرب، فقد أخذ بها ملوك كوشانا عبر الهند الشمالية في القرنين الميلاديين الأول والثاني. وكانت الصغدية، المتركزة في


اللغات الفارسية عبر آسيا
KAZAKHSTAN
KAZAKHSTAN
RUSSIA
UZBEKISTAN
KYRGYZSTAN
TURKEY
Ossetic
Tati
Yaghnobi
CHINA
TURKMENISTAN
Talysh
Mazanderani
Kurdish
Kurdish
SYRIA
IRAQ
Persian
IRAN
Pashto
PAKISTAN
Persian
Balochi
SAUDI
ARABIA
INDIA
Arabian
Sea
Pamir languages
Ormuri

سمرقند، هي اللغة المشتركة على طريق الحرير إلى الصين فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين (وهي باقية في اللغة الياغنوبية التي لا يزال الناس يتكلمونها في جبال بامير).

ورغم كل حالات الصعود والهبوط التي تعرّضت لها الفارسية فهي لا تزال مستخدمة فيما وراء حدود فارس في النصف الشمالي من أفغانستان (تحت اسم "الدارية"، أي 'لغة البلاط') وفيما وراء ذلك في طاجيكستان (باسم لغة الطاجيك). ورغم أن الناطقين بها كثيراً ما تنقصهم السيطرة السياسية حتى على أرضهم نفسها فقد ظلت أينما عُرِفت هي لغة النفوذ الثقافي الرفيع، واشتهرت بشعرها على وجه الخصوص:

ثلاثة أشياء تشكلت من ثلاثة أشياء فيك -
الوردة من خدك، والعُنّاب من شفتك، والجمال من وجهك.
وثلاثة أشياء تؤخذ كل عام من ثلاثة أشياء لي -
الحزن من قلبي، والدمع من خدي، والخيال من عيني.

(أبو القاسم 'العنصري' (ولد في بلخ بآسيا الوسطى، حوالي العام 968، وتوفي في العام 1040م)

إرث من الشرق الأوسط:
بريق بدويّ الصحراء

إن الدنيا المعولمة اليوم مليئة بالعربية، فهي اللغة التي يشعر كل الراغبين في أن يكونوا ثوريين إسلاميين في أوروبا والولايات المتحدة بأن عليهم أن يتعلموها ليعطوا مصداقية موثوقاً بها لنضالهم، وإن مفارقة شبهها بالعبرية، التي تم إحياؤها حديثاً في أرض كنعان، هي تذكير قائم لنا بالطريقة التي تؤدي بها أمَرُّ الصراعات إلى جعل أبناء العمومة الذين افترقوا عن بعضهم طويلاً يمسك كل منهم بخناق الآخر(*). "فالسلام" يتصارع مع "الشالوم"، ولكن معناهما

(*) [هذه مغالطة أخرى من المؤلف. فيهود العالم الآن ليسوا أبناء عمومتنا، لأن 85% منهم هم من قبائل الخزر ذات الأصل التتري التي تهوّدت في العام 742 م، ولا علاقة لهم ببني إسرائيل القدامى الذين تلاشوا كما تلاشى الرومان - المترجم].

المشترك، وهو 'السلام'، يستمر في الابتعاد عنهما. وفي هذه الأثناء تستمر تلاوة اللغة الفصحى يومياً في الصلاة الإسلامية، وتذاع على مستمعين يزيد عددهم على 200 مليون نسمة، وكلهم يعتقدون أنهم عندما يتحدثون، بطرقهم الشديدة الاختلاف، أنهم ينطقون العربية.

فالتقليد اللغوي للغات السامية المتكاملة على نطاق واسع، والذي ورثوه جميعاً، يعود تاريخه بشكل يمكن إثباته إلى خمسة آلاف عام. ففي ذلك الوقت كانت هناك فرصة لكثير من الابتكارات. وقد رأى العالم في تقليدهم أول اعتماد للغة أجنبية كنموذج تقليدي كلاسيكي للأدب، وأول نظام للكتابة له تطبيقات بلغات متعددة، وأول لغة مشتركة للدبلوماسية الدولية، وأول مكتبات للمحفوظات، وأول استبدال للغة إلى أخرى بدون تحطيم أي تقليد ثقافي معرفي، وأول تعيين لسجل مكتوب للغة محددة بأنه كلمة الله غير القابلة للتغيير، وأول استخدام للغة كطلّسم لفئة أقلية دينية.

وهذا سجل كبير من الأوائل ينتمي إلى تقليد وحيد، حتى ولو تبدّلت لغته المسيطرة مرتين، أو تجددت، بتعبير لعله أفضل. وسننظر في مكان آخر في أهمية هذه الأمثلة كلها في النمط العام لتطور أنظمة اللغة الإنسانية.

وهناك تأمل أخير مناسب هنا ربما يكون إمكانية وجود أي استمرارية متميزة الطابع في هذا التقليد القديم. فهل في اللغة العربية شيء تتشارك فيه مع الآرامية والأكادية؟ أم هل أدت الابتكارات الكثيرة في الطريق من العالم السحيق القدم، والعصور الوسطى حتى عالم العصر الحديث، إلى مراجعة أي جوهر جذري مشترك وإلغائه؟

وحسبما يرى فرناند بروديل، فإن النجاح الكلي للتقدم الإسلامي المفاجئ وغير القابل للتفسير هو إعادة طبيعية لتأكيد تقليد في الشرق الأدنى، بعد مقاطعة إغريقية ورومانية استمرت ألف عام[84]. فقد رأى فعلاً أن اللغة العربية هي أضمن برهان مؤكد بأن البلدان جزء حقيقي من الحضارة الإسلامية[85]. ومع ذلك فإن الأمثلة التي يقدمها على استمرارية حضارة الشرق الأدنى -

كالملابس، والأطعمة، والهندسة المعمارية المحلية، وحتى الديانة التوحيدية - لا علاقة لها باللغة[86].

وعلى أوضح صعيد فإن القيم التي يجري تعزيزها في الإسلام هي على طرفي نقيض مما كان يعتنقه كبار المستعمرين الآشوريين السابقين. فقد قدّم المسلمون تصورهم الفريد لله كسبب للقبول بحكمهم وهم يؤكدون طيلة الوقت رحمته غير المحدودة. أما الجيوش الآشورية فقد تدحرجت فوق جيرانها لتثبت الجبروت الأعظم لملوكها، وأظهرت قوتها من خلال عربدات لقسوة لا رحمة فيها، وجاءت آلهتهم في أعقابهم، وإذا كان كثيرون قد اختاروا أن يعبدوها فلم يكن ذلك سوى اعتراف منهم بقوة أكبر لما كانت تمثله تلك الآلهة، وعمل من أعمال الحكمة المتعقلة والدبلوماسية، وليس نتيجة قبول بوحي، ولا كعمل من التسليم المخلص الخضوع.

فالعرب الذاهبون لخوض المعارك في سبيل الإسلام يمكن رؤيتهم في الحقيقة كمزيج من ثلاثة تقاليد سابقة شديدة الاختلاف بين زملائهم الناطقين بلغات سامية، وهي: لاهوت اليهود المجرّد، وشمولية المسيحيين الآراميين، وزخم الآشوريين العسكري. بل إن المرء إذا ضم إلى ذلك كله نزعتهم إلى الأسفار البحرية الطويلة المدى وتجارة المضاربات فسيمكنه أن يصنفهم أيضاً مع الفينيقيين.

ولكن هناك شيئاً واحداً في الخلفية الثقافية يوحّد بالفعل كل الساميين، مهما كان دينهم أو مستوى الثراء الذي يرغبون فيه. فمهما بلغ نجاح مدنهم، ومهما كانت أديانهم وفلسفاتهم متطورة، فإنهم لم يفلتوا أبداً من تذكر أنهم جميعاً قد نشؤوا من البداوة الصحراوية. وكانت العربية لغة البدو الرحّل. وتأسس الإسلام باندفاع من بدو الجزيرة العربية. واخترقت اللغة الآرامية الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية فترسّخت، وانتشرت من آرام عن طريق البدو. وطوّر العبرانيون والفينيقيون مدنهم وثقافاتهم عندما استقر البدو العابرون آخر الأمر في أرض كنعان؛ فالتوراة تتحدث بوضوح عن بني إسرائيل التائهين في يباب سيناء أربعين عاماً. وما كان الأكاديون ليستولوا على الأمور من السومريين

بدون غارات البدو المجهولين من الغرب، أي العموريين، وأخيراً فإن من المؤكد أن البدو لا بد أن يكونوا هم الذين أخرجوا اللغات السامية في عصور ما قبل التاريخ من إفريقيا وأدخلوها إلى الهلال الخصيب(*).

وقد يكون من الصعب العثور على بدو رحل في العالم الساميّ الحديث. ولكن بعض جوانب البداوة لا تزال مركزية في مشاكل العرب غير المحلولة: فتشرّد الفلسطينيين، والقلق الأخلاقي الموسوس بخصوص الثروات التي لم يفعل أحد شيئاً لكسبها وهي تتدفق من فيافي الصحراء العربية، ورجال القاعدة المتوحّشون الذين فرضوا النفي على أنفسهم بينما هم يخططون لتدمير مدن الظلم. وفي هذا كله، فإن الناطقين بالعربية صادقون مع تقاليدهم. والحق أن تواريخ اللغات الأكادية، والفينيقية، والآرامية، والعربية، هي برهان عمره خمسة آلاف سنة على فوائد الصحراء كمكان يجيء منه الناس إلى الداخل.

(*) [ملاحظة: هذه مغالطة أخرى من المؤلف، لأن من المعروف أن الجزيرة العربية، لا إفريقيا، كانت هي الخزّان القديم الذي فاضت منه الهجرات السامية على الهلال الخصيب ـ المترجم].

4
انتصارات الخصوبة: المصرية والصينية

لأن السيد العظيم جداً هو بتاح،
*j^{o}w wār ʿar ptaḥ**

الذي أعطى الحياة لكل الآلهة
sabaš ʿanḫ na nāt^{ʕ}ūraw nibuw

ولأتباعهم
kaʀuw-sin

من خلال هذا القلب
s nib m ḥāʀtj p^{o}n

من خلال هذا اللسان،
s nib m nis p^{o}n

الذي اتخذ به حورس شكله،
ḫāpir-na ḥōruw j^{o}mf

الذي اتخذ به ثوث شكله،
ḫāpir-na dj^{o}ḥowtij j^{o}mf

مثل بتاح ...
m ptaḥ

(حورس (حورو) يمثل الملكية
وثوث (جيحوتي) إله العقل
هو أيضاً راعي الكتّاب.)

(*) لمصلحة الواقعية وقابلية القراءة، أعطيت الكلمات المصرية حسب إعادة تركيب لوبرينو في العام 1995 بالنسبة لأوائل اللغة المصرية الوسطى، مع إضافة كون حروف العلة التي يعتقد أنها غير ممكنة التمييز ممثله هنا بعلامة ^{o}، وحرف الراء هو حرف الحلق الفرنسي (R) كالغين، والجيم (J) يلفظ كما في كلمة German، والياء (y) كما في كلمة yet الإنكليزية، والهاء (ḥ) حرف حلقي عميق كالنفخ على النظارات، والخاء (ḫ) كما في كلمة loch أو Bach وعلامة(ʿ)، هي حرف العين المشهور في اللغات السامية والقريب من عملية النحنحة عند الإنكليز قبل بدء الكلام. غير أنه يجب التذكر بأن الكلمات المصرية عند كتابتها بالهيروغليفية هي خالية كلياً من حروف العلة.

بصر العيون،	*māRAR ījruwy*
سمع الآذان،	*sādjim m^{o}sdj^{o}rwy*
تنفس الأنف	*s^{o}s^{o}n^{o}w f^{o}rdj*
وهي تقوم بتبليغ	*sa ʿar-sin*
القلب،	*ḫar jib,*
وهو	*^{o}ntaf*
يقوم باستخراج	*dadaj paraj*
كل فهم.	*ʿ^{o}rq^{o}y^{o}t nib*
أما بالنسبة للسان،	*j^{o}n nis j^{o}m*
فهو يقول ما في القلب	*kaRat m ḥārtj*
وهكذا ولد جميع الآلهة	*suw masjaw nātˁūraw nibuw*
فاكتمل تاسوعه (آلهته التسعة)	*tam pisīdjat-^{o}f*
وانظر! من ههنا	*s^{o}k ḫāpir-na*
جاءت كل كلمة من الله	*j^{o}s nātˁar maduww nib*
من خلال ما ابتكره القلب	*m kaRRt hārtj*
وأمر اللسان.	*wadj nis*

لاهوت ممفيسي ('حجر شبكه')، السطران 53، 56

(بالمصرية القديمة، منتصف الألف الثالث ق.م، معاد نسخها في العام 710 ق.م)[1]

子路曰：「衛君待子而為政， *zǐlù yuē: 「wèi jūn dài zǐ ér wéi zhèng,*
子將奚先？」 *zǐ jiāng xī xiān?」*
子曰：「必也正名乎！」 *zǐ yuē: 「bì yě zhèng míng hū!」*
子路曰：「有是哉？子之迂 *zǐlù yuē: 「yǒu shì zāi? zǐ zhī yū*
也！奚其正？」 *yě! xī qí zhèng?」*
子曰：「野哉，由也！君子 *zǐ yuē: 「yězāi, yóu yě! jūn zǐ*
於其所不知，蓋闕如也。 *yú qí suǒ bù zhī, gài qùe rú yě.*
名不正，則言不訓； *míng bù zhèng, zé yán bù xùn;*
言不訓，則事不成； *yán bù xùn, zé shì bù chéng;*
事不成，則禮樂不興； *shì bù chéng, zé lǐ lè bù xīng;*
禮樂不興，則刑罰不中； *lǐ lè bù xīng, zé xíng fá bù zhōng;*
刑罰不中， *xíng fá bù zhōng,*
則民無所措手足。 *zé mín wú suǒ cuò shǒu zú.*
故君子名之必可言也， *gù jūn zǐ míng zhī bì kě yán yě,*
言之必可行也。君 *yán zhī bì kě xíng yě. jūn*
子於其言，無所苟而已矣！」 *zǐ yú qí yán, wú suǒgǒu ér yǐ yǐ!」**

قال زي لو: 'إذا كان الأمير وي ينتظرك يا سيدي لتتولى أمور إداراته، فماذا ستكون أولوية السيد؟'

فأجاب السيد: 'الشيء الذي هناك حاجة إليه هو تصحيح الأسماء'!

فقال زي ـ لو: 'هل أنت بعيد عن الهدف إلى هذا الحد يا سيدي؟ لماذا هذا التصحيح'؟

فرد السيد: 'كم أنت ساذج! إن الرجل العاقل إزاء الأشياء التي لا يفهمها يحافظ على موقف فيه تحفظ. فإذا كانت الأسماء غير صحيحة فإن البيانات لا تتمشى مع الحقائق، وعندما لا تتطابق البيانات والحقائق لا يمكن إجراء العمل التجاري بصورة مناسبة. وعندما لا يتم العمل التجاري بصورة مناسبة، فإن النظام والانسجام لا يزدهران. وعندما لا يزدهر النظام والانسجام فإن العدالة تصبح عندئذ عشوائية اعتباطية. وعندما تصبح العدالة عشوائية اعتباطية لا يعرف الناس كيف يحركون يداً أو رجلاً. ومن هنا فإن أي شيء يقوله الرجل العاقل يستطيع دائماً أن

(*) إن تهجئة لهجة بِنْيِنْ بالحروف اللاتينية هذه تمثل اللفظ بلهجة الماندارين الحديثة لهذا النص من القرن الخامس قبل الميلاد. وهي بذلك تمثل الكلمات وتركيب الجمل. ولكنها لا تمثل الأصوات التي كان كونفوشيوس سيستخدمها.

> يحدده. وإن ما يحدده هكذا فإنه يستطيع دائماً أن ينفذه عملياً، لأن الرجل العاقل لا يمكن أن يترك أي شيء في تحديداته مهملاً أو غير متقن بأي حال من الأحوال'.
>
> كونفوشيوس (المنتخبات الأدبية) 3:13(*)
> (باللغة الصينية، في أوائل القرن الخامس ق.م.)(2)

هاتان لغتان قديمتان، متباعدتان كثيراً في أراضيهما وفي عصريهما، ومع ذلك فإن من الغريب أنهما متشابهتان في سيرة حياتهما. كما أنهما مع صفاتهما المميزة لا تتناسبان إلا مع بعضهما بعضاً.

فالمصرية والصينية أداتان لتقاليد ثقافية فريدة ذات امتياز هائل. وقد كان لكل منهما دور لا ينازع في وطنهما باعتبار كل واحدة منهما لغة عالمية. وعند حلول فجر تاريخهما المدون كانتا قد رسختا على المنطقة المركزية من الأراضي التي استخدمتا فيها للكلام. وقد حافظت كل منهما على موقع سيطرة وحيدة وغير متغيرة بشكل أساسي لفترة هائلة من الزمن زادت على ثلاثة آلاف عام، أو مئة وعشرين جيلاً. ومع ذلك، ففي كل حالة، رغم شهرتهما ونفوذ ثقافتهما بين جيرانهما الذين كثيراً ما خضعوا سياسياً لهذه القوى، فإن اللغتين لم تضطلعا بأي دور كلغة مشتركة فيما وراء الإقليم الذي كانتا تعدانه وطنهما.

وهناك تناظر آخر يخص نصوصهما. فقد ابتكرت كل منهما أصلاً نظام كتابتها الفريد، المبني على الرموز التصويرية بأسلوب معين. ومنذ وقت مبكر اتخذت كل من هذه النصوص شكلاً لم يتغير. كما أن كلاً منهما قد أخذ بها شعب آخر فيما

(*) في هذا الكتاب تكتب الصينية باستخدام نظام 'الأبجدية الكلامية الصوتية'، المعروفة عادة باسم بِنْيِنْ، التي بدأت الحكومة الصينية بنشرها رسمياً منذ العام 1958. وفيها تشير نبرات الحرف *v* المختلفة على أنماط صوتية وليس على أصوات حروف علة. وبين الحروف الصامتة فإن الحرف س (c) هو الصوت تْسْ (ts) بالإنكليزية. وحرف الجيم هو حرف j بالإنكليزية. وكذلك الصوت تْشْ أو ch بالإنكليزية. وكذلك الحرف x يمثل ش أو sh بالإنكليزية. وترى فيها أيضاً zh وch وsh، وهي تلفظ بطريقة تشبه لفظ j وq وx ولكن مع إرجاع انعكاس اللسان إلى الوراء، كما لو كان بعدها مباشرة حرف ر "r". وإن معظم الصينيين خارج منطقة الشمال الغربي عاجزون عن التمييز بين هذه الأصوات. ولهجة بْنِيِنْ تتميز بأنها متماسكة، ودقيقة، ومتجانسة، (بدون الفواصل العليا المزعجة في الأنظمة الإنكليزية القديمة، ويد - جايلز وييل) ولكنها لا تستطيع سوى الادعاء بأنها تمثل التهجئة الملفوظة الحديثة. وهذا قد يكون مضللاً عند تطبيقه على الكلمات أو الأسماء الشديدة القِدَم.

بعد، وتم تبسيطها لتعطي أساسا لنظام كتابة صوتية: فكانت الهيروغليفية المصرية نقطة البداية لانطلاق الأبجدية الفينيقية. كما استمد اليابانيون أبجديتهم المقطعية المسماة "كانا" من الحروف الصينية. ولكن في كلا الحالين فإن ثقافة اللغة الأصلية تجاهلت الابتكار وحافظت على نظامها القديم بشكل جوهري دون تغيير، رغم الجهد الإضافي الذي كان يتطلبه استمرار تعليم نصوص مطوّلة.

وهناك تناظر في سيرة اللغتين. وبالنسبة لنا فإن الشيء الرئيسي الذي يثير الاهتمام يكمن في النظر في كيفية تحقيق اللغة لحالة ثابتة، أي لنوع من السكون المتجانس الذي يبدو فيه أنها تمتص أي اضطراب قد يؤثر عليها. وهذا الثبات مثير للاهتمام على نحو خاص في حالتي مصر والصين، ما دامت لغتاهما لم تصمدا في العزلة فحسب، بل يمكن رؤيتهما أيضاً وهما تتحملان غارات البشر لفترة طويلة من تاريخهما، وتحتل كل منهما مساحات كبيرة تكفي لإثارة مصاعب أمام حكومة موحدة.

ومن الجوانب الأخرى لهذه الوحدة المحيّرة، وخاصة في حالة الصين، التلاحم الغريب للغة نفسها. فمن المؤكد أن اللغة الصينية فيها لهجات، وهي كثيراً ما تكون مختلفة بحيث يمكن اعتبارها لغات متميزة. ولكن هذه الحقيقة الشهيرة أقل إثارة للاهتمام من حقيقة أخرى أقل لفتاً للأنظار، وهي أن أكثر من 70 بالمئة من الناطقين بالصينية يتكلمون نوعاً واحداً يعرف باسم الماندارين أو بوتونغهوا(*)، وهذه اللغة الرسمية في الدولة الصينية هي لغة الكلام في أكثر من 75 بالمئة من مساحة البلد. وفيها بعض اللهجات المحلية، ولكن ليس فيها من حيث الجوهر أي تغيير داخلي. وبما أن سكان الصين ومساحتها هائلان، فإن درجة التجانس التي تتحقق هكذا لا يوازيها شيء في أي لغة معروفة أخرى. ونحن بحاجة إلى النظر في كيفية تحققها.

كما أن اللغتين لهما دلالات مباشرة بالنسبة للعالم الحديث.

(*) إن كلمة "ماندارين" ليست صينية على الإطلاق، بل هي تحريف للكلمة السنسكريتية "مانترين"، التي معناها 'مستشار'، مع شيء من تأثير الفعل البرتغالي *mandar* الذي معناه 'يامر'، وأما كلمة "بوتونغهوا" فمعناها اللغة العامة الشائعة، وهو اصطلاح فيه شعور شامل حل محل مصطلحات أقدم، مثل *guanhua* أي 'اللغة الرسمية' (وهي أقرب شيء إلى ما يعادل كلمة "ماندارين" الصينية) أو *guōyū* أي 'اللغة الوطنية'، التي تشير إلى الشيء نفسه إلى حد كبير، كما أن هناك اصطلاحاً مستعملاً آخر هو *Hānyū* أي 'لغة هان'.

فاللغة المصرية، بعد كل شيء، خضعت في آخر الأمر لغارات جيرانها التي شنت بديمومة متزايدة الثبات على شكل موجات من الآشوريين، والفرس، والإغريق، والرومان، والعرب، وهي باقية الآن، إن كان لها أي بقاء، على شكل اللغة القبطية في طقوس ما كان ديانة غريبة، أي المسيحية. وهنا دليل على ما الذي يتطلبه محقق تقليد يبدو خالداً في أرض موطنه. فكيف يمكن إلغاء الخلود؟

وعلى عكس ذلك، فإن اللغة الصينية، رغم كل الانتكاسات السياسية والفظائع التي عانى منها شعبها على أيدي أجانب متحجري القلوب في القرنين الأخيرين، لم تكن أبداً أقوى مما هي عليه اليوم. فالناطقون بها يشكلون سدس سكان العالم. وأهلها الأصليون ثلاثة أضعاف الناطقين بالإنكليزية. ومع ذلك يعيش أكثر من 99 بالمئة منهم في الصين، وهكذا فلا يمكن اعتبارها لغة عالمية - إلا إذا كانت الصين هي عالمك. وكثيراً ما يسميها الناطقون بها "جونغ غوو هوا"، 'أي كلام مركز المملكة' من حيث أن مركزية العرق الصيني لا يتضاءل شأنها. ولا يزال هناك متسع من الوقت للنظر في تلك القوى التي أبقت المملكة الصينية متمركزة بثبات وتماسك كبيرين في وطنها التقليدي: فهل ستظل هذه القوى سائدة في العالم الحديث؟

سِيَرُ الحياة المتناظرة

إنّ التشابه اللافت للنظر في سيرة حياة اللغتين المصرية والصينية يمكن عرضه أولاً على شكل جدولين لتسلسل الأحداث التاريخية. والغارات الأجنبية والتأثيرات الثقافية موضحة بطبعها بالخط الغامق.

فتاريخ هاتين اللغتين مؤلف من فترات طويلة من الحكومة الموحدة المستقرة، تتخللها فترات من الاضطراب المدني، أو عدم الوحدة على الأقل، عندما كانت هناك سلالات متنافسة على الحكم في أجزاء مختلفة من البلاد. فكانت في مصر ثلاث فترات كهذه من الحكم الذاتي المستقر، هي الممالك القديمة، والوسطى، والجديدة، تبعتها فترة متأخرة كان فيها الحكم الأجنبي هو

القاعدة وليس الاستثناء. وكان في الصين أيضاً ثلاث فترات طويلة من الحكم الأهلي، هي العصر الإقطاعي لسلالتي شانْغ وجوُ، والإمبراطورية الأولى لسلالتي كين وهان، والإمبراطورية الثانية لسلالات سوي وتانغ وصونغ، التي طغت عليها بعد ذلك سلسلة من الغزوات الأجنبية الجزئية أو الكلية.

وقد تشكّلت كلا الحضارتين في الأصل على طول وادي نهر وحيد هو النيل(*) وهوانغ - هي ('النهر الأصفر') على التوالي، ولو أن الصين توسعت لتضم وادي النهر الكبير التالي في الجنوب، اليانغ تسي كيانغ(**). وأظهرت الحضارتان أنهما رغم عدم قدرتهما على الدفاع عن حدودهما إلى ما لانهاية، فإنهما قادرتان على امتصاص الغزاة الناجحين على المدى الطويل. والنظير اللغوي لذلك هو أن الغزاة الأجانب لم يفرضوا لغتهم على السكان، بل ولم يتمكنوا من المحافظة على لغتهم نفسها أكثر من جيل واحد بعد سيطرتهم على البلد (إلى أن استولى الفرس، ثم الإغريق على مصر).

فهاتان قصتان من النمو الصلب والصيانة البطولية، بدلاً من الانتشار الكثيف. وهذا الفصل يرسم أولاً مخططاً لتاريخ كل لغة، ملاحظاً بشكل خاص المواجهات مع لغات يتكلمها متطفلون أجانب كثيراً ما جاؤوا ليبقوا، ولكنهم لم يميلوا إلى اقتلاع مضيفيهم. وبعد التسلح بالحقائق، يمكننا النظر في أسرار مثل هذا الاستقرار اللغوي.

(*) يبدو أن أصل هذه التسمية هي محاولة يونانية مبكرة لتمثيل مصطلح 'الأنهار العظيمة' باللغة المصرية المتأخرة، إشارة إلى تفرعات النيل الكثيرة في منطقة الدلتا. ولهذا علاقة بكلمة ياطرو (jatruw)، أي 'النهر' التي كانت دائماً هي اسمه باللغة المصرية التقليدية الكلاسيكية (لوفت 1992).
(**) كان الاسم الأصلي "كيانغ" (kiang) وحدها، وهي كلمة أسترالية - آسيوية لها علاقة بكلمة "سونغ" (sông) التي معناها 'نهر' باللغة الفيتنامية (التي كانت ذات مرة تلفظ "كرونغ" krong)، وكذلك لكلمة مون "كرونغ" (krum)، التي تبين نوع اللغة التي كانت منطوقة هنا قبل مجيء الصينية من الشمال (نورمان، 1988: ص 18).

مصر	السياسة	الأحداث اللغوية
5000	أقدم المستوطنات	
3150		أول الكتابات الهيروغليفية على اللوحات الجدارية
3000	الفترة القديمة (3 قرون)	
2700	المملكة القديمة (6 قرون)	
2100	عدم الوحدة (نصف قرن)	
2050	المملكة الوسطى (3 قرون)	
1750	عدم الوحدة (قرنان)	
حوالي 1639		**ملوك الهوكسي في الدلتا (1 قرن)**
1550	المملكة الجديدة (5 قرون)	
1180 ـ 1174		**صدّ الليبيين (والأقوام البحرية)**
1050	عدم الوحدة (3 قرون)	

الصين	السياسة	الأحداث اللغوية
؟	أقدم المستوطنات	
؟2800		أول الحروف المكتوبة على جرار النبيذ؟
2100	سلالة إكسيا (5 قرون)	
1766	سلالة شانغ (7 قرون)	
حوالي 1300		حروف على عظام في هياكل المعابد
1027	سلالة جو (3 قرون)	
721	عدم الوحدة (5 قرون)	
221	سلالتا كين وهان (4.5 قرون)	
210 ق.م.		توحيد حروف الكتابة
65 م.		**أول دخول البوذية**
220	عدم الوحدة (3.5 قرون)	
311		**هون (اكسيونغنو، اكسيان بي) يشنون غارات في الشمال**
386		**تابغاش (واي) يهاجم الشمال**
401		**كوماراجيفا يقيم ترجمة بوذية في تشانغ آن**

مصر	السياسة	الأحداث اللغوية
945	**السلالة الليبية (قرنان)**	
750	**السلالة الكوشية (قرن)**	**الغزو الكوشي**
664-671		**الغزو الآشوري**
664	سلالة سايت (1.4 قرن)	
525	**الحكم الفارسي (قرنان، يتخللهما حكم مصري)**	**الغزو الفارسي**
332	**السلالة اليونانية (3 قرون)**	**الغزو اليوناني**
30 ق.م.	**الحكم الروماني/البيزنطي (7 قرون)**	
300 م.	**انتشار المسيحية (3 قرون)**	

الصين	السياسة	الأحداث اللغوية
511		**ليانغ وودي يدعون الرهبان البونيين إلى ناجينغ**
589	سلالتا سوي وتانغ (3.3 قرون)	
610		القناة الكبرى تربط بين تشانغ آن وهانغجو
635		**الترحيب براهب نسطوري في تشانغ - آن**
645		**الترحيب بعودة كسوان - زانغ لبلده في تشانغ - آن؛ تاسيس البونية في بلاط تانغ**
845		وو زونغ يلغي الأديرة البوذية والمسيحية النسطورية
907	عدم الوحدة (نصف قرن)	
960	سلالة صونغ (3.2 قرون)	
916		**خيتان (لياو) يغزون الشمال**
1115		**جورشين (جين) يغزون الشمال**

مصر	السياسة	الأحداث اللغوية
394		آخر استخدام للهيروغليفية
641	**الحكم العربي (6 قرون)**	**الفتح العربي**
1260	**المماليك (2.6 قرون)**	
1520	**الحكم العثماني (3.5 قرون)**	
حوالي 1550		الفقدان الأخير للتكلم بالقبطية، واستمرار بقائها في الطقوس المسيحية

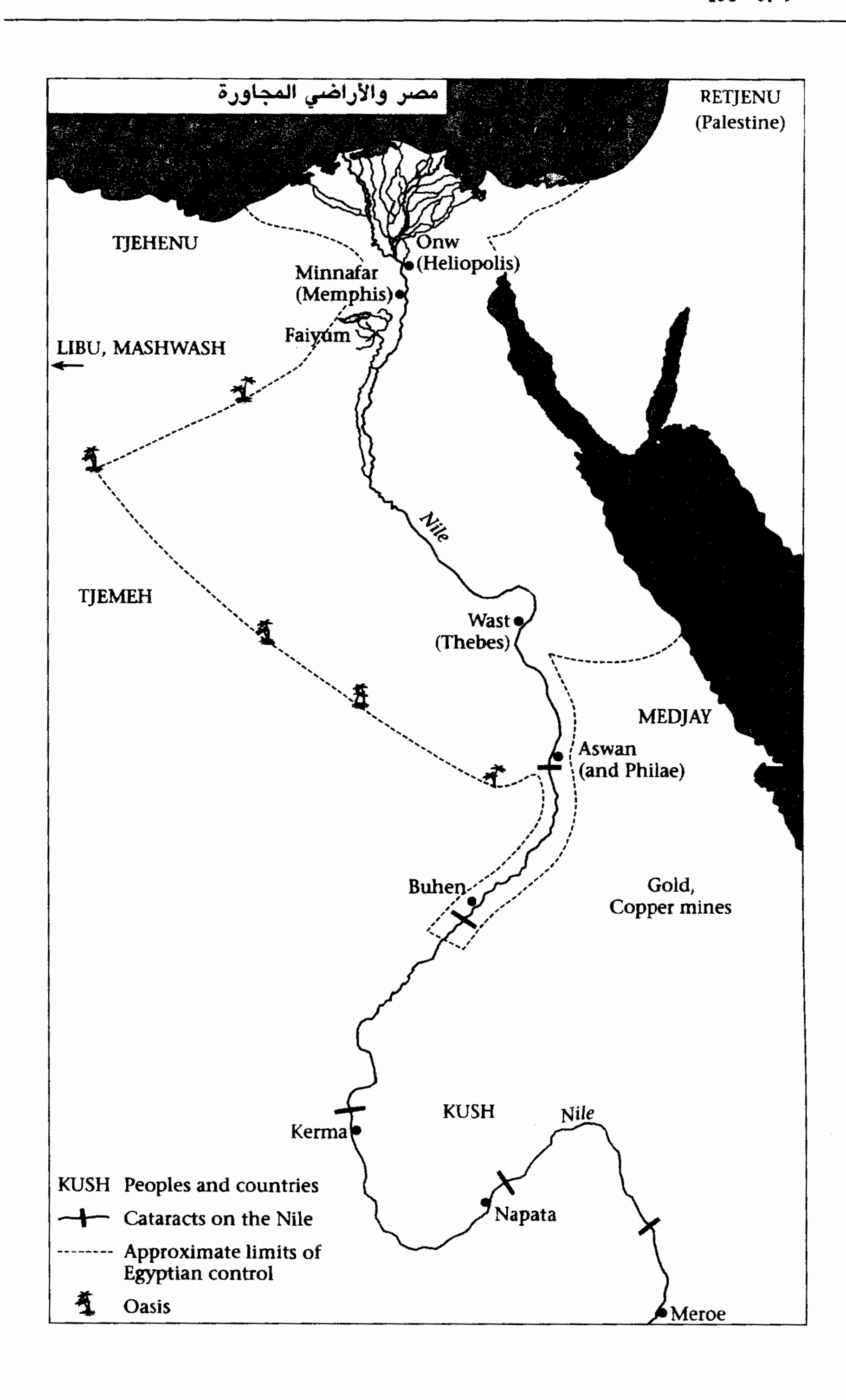
الصين	السياسة	الأحداث اللغوية
1200		الطاعون (؟) يخلي سيشوان من سكانها
1211		**المغول يغزون الشمال**
1279		**المغول يغزون الجنوب**
1271	سلالة يوان (قرن واحد)	**المغول يغزون يونّان**
1368	سلالة مينغ (3 قرون)	
1644		**غزو مانشو**
1644	سلالة كنغ (2.5 قرون)	إعادة الإسكان في سيشوان
1911	عدم الوحدة	
1949	جمهورية الصين الشعبية	

اللغة على طول نهر النيل

كن محترفاً في الكلام، فقد تصبح قوياً، فلسان الرجل سيف، والكلام فيه بسالة أكثر من أي قتال.

تعليمات للملك مريقار، السطر 32 (باللغة المصرية، منتصف القرن العشرين ق.م.)[3]

إن أصل اللغة المصرية يجب العثور عليه في مكان قريب في متناول اليد، في الأسرة الأفرو آسيوية أو السامية ـ الحاميّة التي كانت اللغات المتحدرة منها



مصر والأراضي المجاورة
RETJENU
(Palestine)
TJEHENU
Onw
(Heliopolis)
Minnafar
(Memphis)
Faiyum
LIBU, MASHWASH
Nile
TJEMEH
Wast
(Thebes)
MEDJAY
Aswan
(and Philae)
Buhen
Gold,
Copper mines
KUSH
Nile
Kerma
Napata
Meroe
KUSH Peoples and countries
Cataracts on the Nile
Approximate limits of
Egyptian control
Oasis

تشمل معظم شمال إفريقيا والمناطق المجاورة من الهلال الخصيب (من فلسطين إلى العراق) والجزيرة العربية. وليس للغة المصرية أقارب في هذه الأسرة الكبيرة، ولكن أصولها العائلية تفسر بعض الملامح المميزة لها، وهي أشياء دنيوية مثل انتهاء الأسماء المؤنثة بتاء التأنيث(*).

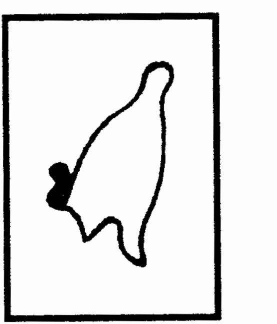
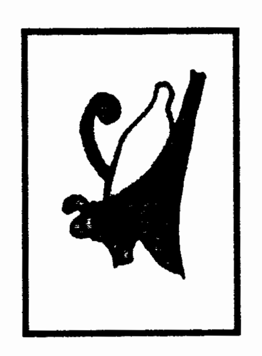
تقدم جليل

تظهر الحفريات الأثرية أن الدولة المصرية قد تأسست لأول مرة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، في المنطقة المحيطة بالنتوء البارز الكبير من نهر النيل التي سيطرت عليها فيما بعد مدينة "واست" (المعروفة عند الإغريق باسم طيبه)، وهي منذ ذلك الحين في القسم الجنوبي من مصر، أي مصر العليا. ومن الواضح أن المصرية كانت عندئذ هي لغة الكلام، نظراً لوجود عناوين هيروغليفية سهلة القراءة على لافتات وقدور فخارية في المقبرة الملكية في المنطقة، في آبيدوس، تعود إلى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. وفي الحقيقة فقد تم اكتشاف مواقع لهذه الثقافة المسماة ناغادا، من عصور ما قبل السلالات على طول وادي النيل كله من أسوان إلى الدلتا، بما في ذلك الفيوم، وكلها تظهر أن منطقة مصر القديمة بكاملها كانت مأهولة.

وبما أن الصحراء المحيطة بها ظلت غير قابلة للسكن، فإن المملكة المصرية كانت دائماً مؤلفة من تطوير تنمية شريط على طول نهر النيل. ومن الناحية التقليدية فإن تاريخها يبدأ عندما قام الملك مينا بتوحيد شطري مصر القبلي والبحري، أي مصر العليا والسفلى، وجعل مقر عاصمته في "مين نفر" (أي ممفيس) في الوجه البحري، أي مصر السفلى(**).

(*) قارن كلمة "سان" التي معناها 'أخ' بكلمة سانات، التي معناها "أخت". ومعظم الأسماء المجردة تشترك بتاء التأنيث في آخرها، مثل كلمة "مارات" التي معناها "الأحقّية" (والتي يتصورونها دائماً كآلهة). انظر ص 68 وما يليها من أجل وصف أطول لملامح اللغات السامية.

(**) إن اسم "ممفيس" يشير في الحقيقة إلى هرم الملك خوفو الذي بني هناك بعد مينا بحوالي سبعة قرون، ومعناه 'المستقر في جماله.' وإيجيبت هو الاسم غير الدقيق لمصر، فهو يعكس الكلمة اليونانية إيجبتوس، فهو في الحقيقة لقب لممفيس، وتحريف لعبارة معبد طاقة 'كا' للإله بتاح. و'كا' معناها الحفاظ على قوة الحياة بالطعام والشراب وتقديم الأضاحي.

تيجان مصر: العليا، والسفلى، والمندمجان معاً

وهذا إنجاز ظل قضية أسطورية أكثر من كونه تاريخاً. لأن اسم الملك لا تنطبق عليه أي أدلة هيروغليفية، وليس هناك دليل مكتوب على انفصال الملوك في الشمال والجنوب. ومع ذلك، فقد كان هناك تقليد لتيجان مختلفة الأشكال والألوان لمملكتين موحّدتين بشكل رسمي بالتاج التاريخي لفرعون(*) (بطريقة تذكرنا بطابع تركيب العلم البريطاني). وإن الاسم الذي كان المصريون يعرفون به بلدهم هو "طارويج" الذي يعني 'نوعي الأراضي'.

وفيما بعد ذلك ليس للغة المصرية تاريخ بعد تحقق مملكتها التاريخية على طول وادي النيل من الشلال الأول إلى البحر. ورغم أن القوة المصرية كانت تتمدد بين فترة وأخرى ثم تنسحب مرة ثانية، من أعالي النيل إلى كوش، وإلى الشمال الشرقي إلى داخل فلسطين وسوريا، فإن اللغة لم تكن تنتشر مع هذا التمدد. ولمدة تقرب من أربعة آلاف عام، ظل مداها على حاله.

ومع ذلك، فإن المصرية المنطوقة قد تغيرت علامات تصوير ألفاظها وتراكيبها اللغوية مع مرور الزمن المذكور. فاللغة التقليدية الكلاسيكية للأدب المصري تم صقلها وترسيخها في الألف الثالث قبل الميلاد، حيث عرفت باسم 'اللغة المصرية الوسطى' وأخذت تستخدم في الكتابة بقدر المستطاع قبل كل شيء في النصوص الرسمية والطقوسية حتى نهاية الحضارة المصرية. ولكن

(*) هذه الكلمة الشائعة كلقب لملك مصر ترسخت باستخدامها في التوراة العبرانية. وهي تمثل الكلمة المصرية "فرّ"، (التي معناها البيت العظيم)، وهذا يشبه استخدام كلمة 'القصر' للإشارة إلى العاهل في بريطانيا.

من الواضح أن اللغة تغيرت بالتدريج على شفاه الناطقين بها. ومن بين الفترات الأفضل صقلاً، يميز اللغويون بشكل عريض بين العصر القديم (3000 ـ 1300ق.م.) والعصر المتأخر (1300 ق.م. ـ 1500 م). واعتباراً من منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، من الواضح أن اللغة المحكية قد حققت تقدماً هاماً.

وعلى أبسط مستوى، فإن أصوات اللغة تتغير. فحرف الراء وتاء التأنيث في آخر الكلمات اختفيا. وصوت تْش والجيم (كما في لفظة judge) تم تبسيطهما فاختفيا وحلّ محلهما حرفا التاء والجيم البسيطان. ولكن هناك أيضاً تغييرات تركيبية تذكرنا بالطريقة التي صارت بها اللغة الإيطالية تختلف عن اللاتينية، أو الإنكليزية الوسطى عن الأنغلوساكسونية. ففي الفترة الأقدم، كانت اللغة المصرية متأثرة كثيراً بالتغيرات الصرفية عن طريق مجموعة من الحروف اللاحقة لتحديد العدد والجنس، ولم يكن فيها أداة تعريف أو تنكير (تماثل the أو a بالإنكليزية)، وكان الترتيب النموذجي للكلمات يضع الفعل في أول الجملة، يليه الفاعل ثم المفعول به. أما في الفترة المتأخرة لاحقاً فتميل نهايات الأسماء إلى الاختفاء، ولكن تظهر أدوات عاملة تعبر عن الفوارق المميزة بطريقة مختلفة. وتصبح منظومة الفعل أكثر اعتماداً على الكلمات المساعدة، وأقل تغيراً من الناحية الصرفية. وعلاوة على ذلك يميل الفاعل إلى المجيء أولاً في الجملة (كما هي الحال في اللغة الإنكليزية الحديثة).

ولنأخذ مثالاً واحداً: إن الترجمة المصرية لعبارة 'فليتقدس اسمك' كانت في الفترة القديمة:

> 'سوف يتقدس اسم لك' فتغيرت في الفترة الأحدث إلى 'فليحدث لاسمك كون القداسة'

ففي الحالتين نجد مقاطع اللغة المصرية الكلاسكية موجودة ولكنها صارت تصفف معاً بطريقة مختلفة تماماً .

ومن الأشياء الفاتنة أن أول لمحة تظهر للغة المتأخرة في السجل هي أسلوب الكتابة الأكثر شعبية تحت حكم المصلح الديني الفرعون أخناتون. وقد



أخناتون مع زوجته وابنتيه

جاء هذا الإصلاح الكتابي مع الصور الرسمية التي راحت للمرة الأولى تؤكد على حياة الفرعون المنزلية، مع زوجته الملكة نفرتيتي وابنتيهما في حوالي العام 1330 ق.م.

ورغم أن دين الدولة، واللياقة في صنع الأيقونات الرسمية قد تمت إعادتهما بعد عهد حكمه، فإن الأسلوب العتيق للتعبير المكتوب لم يعد بصورة تامة أبداً. غير أن النصوص الدينية (الطقوس، والأساطير، والترانيم) ظلت تكتب بالشكل التقليدي الكلاسيكي للغة؛ بل استمرت حتى نهاية الكتابة الهيروغليفية في القرن الرابع الميلادي. ولكن الأدب الشعبي والنصوص المدرسية والوثائق الإدارية تظهر أن نوعية مختلفة من اللغة صارت تستخدم عندئذ بصورة عامة .

وبقيت اللغة في مصر كوسيلة رئيسية للحياة اليومية طيلة ألفي عام أخرى بعد أخناتون. وإزاء هذه الاستمرارية الكامنة، فإن إثارة الاهتمام الرئيسية جاءت من الاتصال بلغات أخرى جاء متكلموها ليعيشوا في مصر. فكانت هناك أربع من هذه اللغات هي: الليبية، والكوشية، والآرامية، واليونانية.

المهاجرون من ليبيا وكوش

مارس الليبيون ضغطاً على مصر لأول مرة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بعد جيلٍ من سقوط أخناتون. فنقرأ عن حملات صحراوية شنها الفرعونان سيتي الأول ورمسيس الثاني، ولكن يظهر أنه كان هناك تدفق للهجرة هزيل ولكنه ثابت. فقد تم قبول جماعات من الجنود الليبيين المتطوعين كجنود احتياط في الجيش المصري[4]، وكانوا على وجه الخصوص من القاهاق، والشاردانا، والمشواش. فالفرعون منفتاح (1211 ـ 1202)، خليفة رمسيس، يذكر نصراً كاسحاً على جيوش من عشائر المشواش والليبو وتجهينو الليبية كانت ستهاجم مصر. وبعد ذلك بجيل يخبرنا رمسيس الثالث عن أعمال دفاعية مماثلة حوالي العام 1179 والعام 1176 ق. م. ومع ذلك فقد استمر التسلل إلى مصر باطراد، وصار الوجود الليبي ثابتاً في منطقة الدلتا. فقد كان رمسيس الثالث نفسه يملك عبداً ليبياً اسمه ينين، يخدمه في بلاطه[5]. وبعد ذلك بمئتين وسبعين عاماً، كانت الطائفة الليبية قد رسخت نفسها باستقرار كاف للتزوج من العائلة المالكة. كما أن الأسرة الثانية والعشرين التي حكمت ليس من ممفيس ولكن من تنيس في الدلتا قد أسسها محدث النعمة شوشنك من عشيرة مشواش. وقد دام حكم تلك الأسرة مئتين وثلاثين عاماً رغم أنها تمزقت بنـزاعاتٍ عائلية، وأرغمت على قبول مملكة مشتركة (تحت سيطرة ليبية متساوية)، مع أسرة منفصلة مقامة في مدينة أخرى في الدلتا هي تاريمو (ليونتوبوليس).

وكان القادمون الليبيون يتحدثون لغة لها علاقة بالبربرية الحديثة أو الأمازيغ، التي لا تزال منطوقة في كثير من أنحاء شمال إفريقيا. ولكن التأثير اللغوي لوصولهم كان ضئيلاً إلى حد بعيد. وكان لدى الفرعون إنيوتيف في القرن الحادي والعشرين ق. م. كلب اسمه "عباقيرو"، ويبدو أن هذه هي التسمية التي يطلقها بربر الطوارق على كلب الصيد السلوقي "آبيقور"[6]. ومن بين الأرقام المصرية، فإن الكلمة المستخدمة للرقم عشرة، وهي "مادجو"، تذكرنا بكلمة "مارو" البربرية[7]. وليس هذا بالشيء الكثير.

وفي جنوبي مصر كانت أرض كوش (قوص). وهنا تدفق العدوان في

اتجاه معاكس للاتجاه الآتي عبر الحدود الليبية. ويمكن استخلاص الحافز المصري عليه من الأصل التاريخي الشفاف للاسم الذي يطلقونه على كوش، وهو النوبة - من كلمة "نابو"، التي هي الكلمة القبطية "نوب"، أي 'الذهب' - رغم أن المناجم الرئيسية كانت في موقع غير ملائم في الصحارى الشرقية. ولكنها مثل مصر، يمكن رؤيتها كجزء مكمل لـ "كومات"، أي 'الأرض السوداء' المكونة من طمي النيل الخصب، المملكة الموجودة فقط من نمو شريط على النهر العظيم. وكانت مصر تعمل إلى الجنوب من الحد الطبيعي عند الشلال الأول، طيلة أيام المملكة القديمة، في استخراج الذهب وإقامة مستوطنة عند بوهن، بجانب الشلال الثاني. فحققت سيطرة كاملة على النوبة في القرن التاسع عشر ق. م. ثم خسرتها مرة أخرى في القرن الثامن عشر، ثم أعادتها في القرن السادس عشر وظلت محتفظة بها خمسمئة عام. وأُعطي نائب الملك فيها لقب 'ابن الملك في كوش' لتأكيد مكانته المركزية في الحكومة. وفي حوالي العام 1087 ق. م. أساء حامل هذا اللقب استخدام منصبه باحتلال العاصمة المصرية طيبه، ثم انسحب إلى الجنوب معلناً استقلال النوبة فعلياً.

وبعد ذلك لم يعد أحد يسمع شيئاً عن النوبة لمدة مئتين وستين عاماً. ولكن في حوالي العام 728 ق. م. كان مقر حاكم كوش في ناباتا، ولكنه كان يعطي لنفسه كل فخامة المنصب الفرعوني. فأكد على المطالبة بعبادة الآلهة في طيبة، وممفيس وعون (هليوبوليس) واستطاع تنفيذ مطالبته هذه. وشهدت الأعوام الستون التالية سيطرة الكوشيين (بشكل رخو فضفاض) على مصر. فعادت وحدة الأرض السوداء كهاجس ينتاب سادتها السابقين.

ولكن ما حدث هو أن هذه الوحدة قد أنهاها الغزو الآشوري الواسع النطاق الذي جاء من أقصى الطرف الآخر من البلاد في العام 664 ق.م. وفي أعقابه قامت أسرة مصرية جديدة بإعادة السيطرة الأهلية ضمن حدودها التقليدية(*)، بينما عاد ملوك النوبة إلى أرضهم ونقلوا عاصمتهم من ناباتا إلى

(*) وكان مقرها في سرو (سايس) في منطقة الدلتا، ويشاع أن أجدادها كانوا من ليبيا.

ميرو، على بعد 400 كيلومتر جنوباً على مجرى النيل. وهناك أسسوا حضارة ميرو التي دامت حتى حوالي العام 250 م، وكانت لها أبجدية مبنيةٌ على الرموز الهيروغليفية. ولم تكن اللغة التي كتبوها بهذه الطريقة ذات علاقة باللغة المصرية، ولا تزال حتى اليوم غير مفهومة بشكل كامل.

ومرة أخرى ليس هناك تأثير معروف للغة المصرية كما هي مستعملة في مصر نفسها، رغم طول مدة وجود مصر في النوبة وتعايشها معها. فمن الصعب الحكم على تفاصيل التأثير ما دمنا لا نملك دليلاً مباشراً على لغة الكلام في كوش في ذلك الوقت. وأثناء فترة السيطرة المصرية على كوش، لا بد أن اللغة المصرية كانت تستخدم على نطاق واسع على مستويات النخبة في مناطقها الشمالية، ولكن استخدامها لم يبق مستمراً بعد تراجع العلاقات بين البلدين، رغم الحماس الواضح لكل الأشياء المصرية الذي أصر على البقاء جنوبي الحدود. فالمغامرة الإمبراطورية المتبادلة ظلت مستمرة، بشكل متقطع، طيلة أكثر من ألفي عام، ولكنها تركت كلا طرفيها بدون علاقة لغوية دائمة.

وكان من البلدان الأخرى التي حاولت مصر غزوها أرض كنعان في الشمال الشرقي. فقد كانت لها منذ أقدم العصور علاقات تجارية مع فلسطين. وهي علاقات صارت قوية بشكل خاص في حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد مع مدينة بيبلوس الفينيقية، التي كانت تزود مصر بخشب الأرز المقطوع من لبنان. وفي حوالي العام 1830 ق. م. غزا أحد الفراعنة جنوب فلسطين. ولكننا لا نعرف شيئاً يذكر عن دوافعه، ولا عن أي عواقب لغزوه. وطيلة عدة قرون بعد ذلك كانت هناك حملات متواصلة للسيطرة على فلسطين كلها حتى حدود 'ميتاني'. وقد فُسر ذلك على أنه محاولة لتخليص مصر إلى الأبد من التهديد بسيطرة أجنبية، وهي سيطرة عانت منها مصر تحت حكم ملوك "الهكسوس" (وهي تسمية مأخوذة من اليونانية ومعناها 'الحكام الخارجيّون'). ولكن ليس هناك دليل لغوي أو غير لغوي على أن هذه السلالة، كائنة ما كانت، قد جاءت من الشمال الشرقي.

ومهما كان الدافع، فقد نجحت مصر في فرض سيطرتها على سائر أنحاء

فلسطين وسوريا حتى أوغاريت في الشمال. وهذا شيء تؤكده مراسلات العمارنة الدبلوماسية التي يعود تاريخها إلى ما بين العامين 1345 و1330 ق. م. وهي مراسلات تمثل إلى حد كبير رسائل متبادلة بين الملك الفرعوني وكثير من نوابه الكنعانيين، وخاصة ربحادا، حاكم بيبلوس. وهذا الجزء من المراسلات مكتوب باللغة الأكادية حصراً. والرسائل من الجانب المصري مكتوبة بأكادية جيدة تماماً، ولكن أجوبتها العائدة كانت بلهجة متأثرة تأثراً ثقيلاً باللغات الكنعانية[8]. ولم يكن الجانبان يتقنان هذه اللغة المشتركة بشكل مريح. ولكن النقطة بالنسبة لنا هي أن مصر، بعد قرن من سيطرتها السياسية، لم تنقل معرفة فعالة بلغتها، حتى إلى الملوك والمسؤولين الذين كانوا يتظاهرون بأنهم خدم موالون لسيدهم المصري[*]. وبدلاً من ذلك فإنهم كانوا يتصلون بمصر بلغة القوة الرئيسية في الشرق.

المنافسة من الآرامية واليونانية

كانت تلك القوة مركزة أول الأمر في آشور، ثم في بابل، وأخيراً في فارس، وقد استمر نفوذها يتنامى على مدى الألف عام التالية. وعندما فقدت مصر سيطرتها على فلسطين (التي كانت آخر فورة لها هي حملة الفرعون الليبي شوشنق عبر فلسطين حوالي العام 925 ق. م)، ثم شهد القرن الثامن قبل الميلاد تمديد آشور لسيطرتها على المنطقة ذاتها، وبدأت مصر تجتنب اللاجئين والمنفيين. وكانت اللغة التي يتكلمونها هي الآرامية، التي كانت في هذا الوقت قد انتشرت في جميع أنحاء الشرق الأوسط الناطق باللغات السامية، بل إنها قد حلت محل الأكادية في جميع أنحاء الإمبراطورية الآشورية.

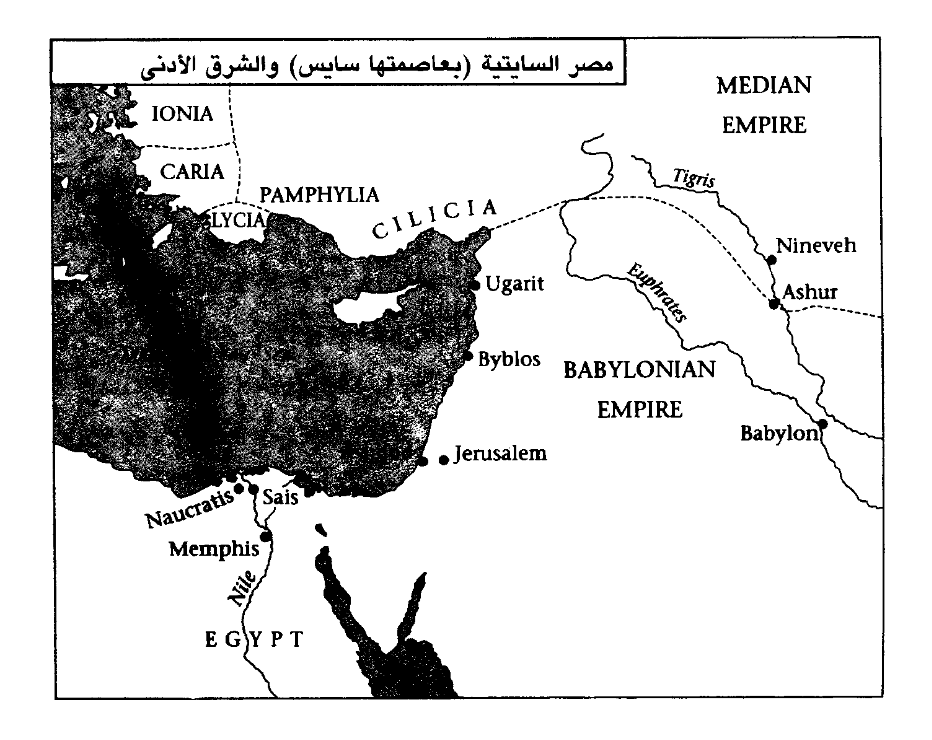
وفي القرن السابع قبل الميلاد دخلت الآرامية إلى مصر بشكل جدي

(*) ومع ذلك فعندما وصل بطل رواية "سنوحي" المصري الخيالية إلى رتجينو في فلسطين الشمالية (وكان الزمن الموضوع لأحداث الرواية هو القرن العشرون قبل الميلاد، وكانت رتجينو مصنفة مع أعداء مصر) قيل له: 'إنك ستكون سعيداً هنا، فسوف تسمع لغة مصر'. وكما يروي سنوحي، فقد كان هناك مصريون مع حاكم رتجينو، يتحدثون بالنيابة عنه (القصيدة 30 من الرواية). وكان اسم ذلك الحاكم هو آمولاناساي، ومن الواضح أنه اسم عمّوري.

حملتها قوة الغزو الآشورية التي نهبت طيبه بين العامي 671 و667 ق. م. ونصبت على مصر فرعوناً دمية. ولكن السيطرة الآشورية ثبت أنها مؤقتة. فقد استطاع بسامتيك، ابن الفرعون الدمية نكو، أن يستعيد استقلال مصر عند حلول العام 639 ق.م. وسرعان ما بدأ يعيد التأكيد على دور مصر في فلسطين، فاحتل العاصمة الفلسطينية أشدود في العام 630 ق. م. ودحر جوزياه ملك يهوذا وقتله في العام 610 ق.م. وتابع خلفاؤه هذه السياسة مدة خمسة وستين عاماً أخرى، مستغلين فرصة كسوف آشور وبابل، فحولوا فلسطين وسوريا كلها إلى منطقة عازلة لجميع الاشتباكات بين مصر وبابل. وكان نهب أورشليم في العام 587 ق. م. وسبي اليهود ونفيهم إلى بابل واحداً من الأثمان التي دفعها الآخرون لهذه السياسة.

ولعل التأثير الصافي لذلك على اللغة أنه لم يجلب إلى مصر اللغة الآرامية، بل اليونانية. فقد تحالف بسامتيك بشكل انتهازي مع القراصنة الكاريين والأيونيين، فتمكن من التخلص من آشور. فأوجد ذلك طابع أسلوب أسرته في ممارسة العمل بالتوافق مع الإغريق، عسكرياً وتجارياً. فراح أسطول مصري من السفن ثلاثية المجاديف المصنوعة في اليونان يجوب بدورياته البحرين الأحمر والأبيض المتوسط. وكانت فرقة من المرتزقة اليونان مع القوات المصرية التي أرسلت إلى جنوب وادي النيل في آخر مهمة ضد النوبة في تسعينيات القرن السادس قبل الميلاد. وكانت مستعمرة نوكراتيس التجارية اليونانية قد تأسست بالقرب من سايس، في غرب الدلتا كميناء بموجب معاهدة، بطريقة شديدة الشبه بميناء شنغهاي في الصين في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. وكانت هناك تجارة مزدهرة، ولا سيما في القمح والكتان من مصر، بالمقايضة مع النبيذ والفضة من اليونان. ويقول باقيليدس، الشاعر اليوناني من القرن الخامس قبل الميلاد، إن اليونانيين عندما يسكرون من شرب النبيذ، كانوا يتركون خيالهم ينطلق في تصوراته عن السفن المصرية المحملة بالقمح[9].

كانت تلك بداية جوّ عالمي شديد الغنى والخصوبة في الدلتا قيض له أن يتحقق في توسع الإسكندرية كميناء يوناني بعد ذلك بثلاثمئة عام. فقد أصبح



صوت اللغة اليونانية مألوفاً في مصر، ولو لم يكن يتعلمها إلا أشخاص قليلون حتى ذلك الحين(*). ولكن قبل أن تصل اليونانية إلى ذروتها، تعرضت مصر لتشرب لغتها باللغة الآرامية بشكل قسري.

فالآرامية، إلى جانب كونها لغة البابليين، كان قد تم الأخذ بها كلغة رسمية للإمبراطورية الفارسية. فكانت هذه هي الحالة التي حققت المهمة التي كانت مستحيلة حتى ذلك الحين، وهي إخضاع مصر لحكم أجنبي دائم. فمصر، بعد أن أسكرها النبيذ الإغريقي، طرحت أرضاً على أيدي الغزاة الفرس الذين اقتحموها في العام 522 ق. م. فأطاحوا بالفرعون بسامتيك الثالث وقتلوه، وأقاموا إدارة فارسية قياسية حولت مصر إلى مقاطعة خاضعة لحكم مرزبان فارسي.

(*) يروي هيرودتس، في الجزء الثاني من تاريخه، ص154 أن بسامتيك عين بعض الصبية المصريين في خدمة الأيونيين والكاريين، كي يتعلموا اليونانية، وبذلك أسس طبقة المترجمين المصريين. وليست هناك أية إشارة إلى يونانيين درسوا اللغة المصرية.

واستمر الحكم الفارسي قرنين، تخللهما إحياء استقلال مصر في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم تم سحقه فيما بعد. ورسّخت اللغة الآرامية نفسها ليس كلغة للحكومة والقانون فحسب، بل كذلك كوسيلة واسعة الانتشار للاتصال الشخصي الخاص. والحقيقة أن صدفة مناخية تشوش السجل. فبسبب المناخ الجاف، تقدم مصر كتلة هائلة من الوثائق الآرامية بقيت من هذه الفترة، سواء على أوراق البردي أو الرقوق، أو مرسومة على الحجارة، أو محفورة على المعادن.

كانت الآرامية إذن هي أول لغة في ثلاثة آلاف عام تتمكن من شق طريق للتغلغل بصورة هامة في مصر. وعندما استولى الإسكندر على البلد في العام 332 ق.م.، مفتتحاً ثلاثة قرون من الحكم اليوناني، وجد إدارةً تُشغَّل بالآرامية، وفي بعض الجوانب كالمحاكم القانونية مثلاً، أصرت هذه اللغة على البقاء تحت حكم البطالسة(10). ولكن الإغريقية حلت محلها في الاستعمال الرسمي بصورة عامة. ورغم أن البطالسة قد تعاملوا بجدية مع دورهم كورثة أو خلفاء للفراعنة، ورغم أن مصر اليونانية صارت بلداً مزدهراً وله حكم ذاتي مرة أخرى، فإن اللغة المصرية قد أبعدت منذ ذلك الحين إلى أقاصي أطراف الاستخدام سواء في مجال التقديس أم في مجال التجديف والتدنيس: في المعابد، وعلى شفاه عامة الناس العاديين. فالإسكندرية التي حلت محل آثينا كمركز علمي أكاديمي للعالم القديم كانت مدينة ناطقة باليونانية. والمشهور عن الملكة كليوباطرة، آخر الحكام البطالسة (51 ـ 30 ق.م.) كانت أيضاً هي أول من تعلم اللغة المصرية ـ ولكن ذلك لم يكن سببه سوى ولعها الشديد باللغات.

> كانت هناك متعة في نغمة صوتها بالذات، فقد كان بوسعها أن تدير لسانها بسهولة للتحدث بأي لهجة تشاء، وكأنه يشبه كثيراً من الآلات الموسيقية ذات الأوتار. وكان الأجانب الذين تحدثت معهم عن طريق مترجم قليلين فعلاً، إذ كانت تجيب معظمهم بكلماتها نفسها، سواء باللغة الحبشية أم التروغودية، أم العبرية، أم العربية، أم السريانية، أم الميدية، أم الفرثية. أما

الملوك المقابلون لها فلم يكن لديهم حتى الصبر على تحصيل اللغة المصرية، بل كان بعضهم تنقصه حتى معرفة لغته المقدونية(*).

تغييرات في الكتابة

مرت اللغة المصرية بثورات جذرية في شكلها المكتوب أكثر مما مرت به في شكلها الشفهي المنطوق. فالرموز التصويرية الأنيقة الدقيقة المعروفة من النصب التذكارية المصرية أطلق عليها اليونانيون اسم الهيروغليفية، أي 'المنقوشات المقدسة'. وترجموا الاصطلاح المصري "مادو نات سار" إلى 'كلمات الله' (وقد استخدمت العبارة أيضاً لوصف كلمات بتاح الخلاّقة في النص الموضوع على رأس هذا الفصل). وليس لدينا أي إشارة إلى كيفية نشوء هذه التعابير، التي لم تتعرض لأي تحوير جوهري طيلة الثلاثة آلاف وأربعمئة عام التي رأيناها تستخدم فيها، رغم تزايد تأثير المدى الذي أعطاه النظام للرموز والصور في القرون القليلة الأخيرة من تلك المدة، عندما تحول الدين المصري على نحو متزايد إلى ممارسة عتيقة الطراز في بلد متنصّر يغلب عليه الطابع الإغريقي. فقد اخترعت أعداد كبيرة من الصور الرمزية الكتابية التي أظهرت أن النظام لم يعد ملزماً بقيود كونه نصاً علمياً. ذلك أن آخر نص مكتوب يعود تاريخه إلى العام 394 م. فقد قمعته السلطات المسيحية بعد ذلك التاريخ(**).

فقد كان في موازاة تلك الصور الرمزية حروف معادلة لها ولكنها أكثر تقوساً، تدعى الهيرية - أي 'الكهنوتية' - وذلك زمن أول الوثائق غير المنقوشة

(*) بلوتارخ، "أنطونيو"، 27: 4-5. لا بد أن كل هذه اللغات كانت مسموعة في شوارع الإسكندرية في أيام كليوباطرة. فالحبشية كانت لغة كوش، والسريانية شكل من أشكال الآرامية، والتروغودية كانت لغة الكلام على طول ساحل البحر الأحمر، ولعلها هي سلف لغة بجا الحديثة. أما "المدجاي"، المفترض أنها بقيت كما هي، فكانت لغة قوم من الصحراء الشرقية استخدموا كرجال شرطة في مصر من القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (غاردنر 1957، ص183 الحاشية رقم 2). وليس هنا أي ذكرٍ للغة الليبية - أو اللاتينية، رغم أن بلوتارخ يضيف بأن كليوباطرة قيل عنها إنها كانت تتكلم لغات كثيرة أخرى إلى جانب اللغات التي ذكرها فعلاً. ومن المرجح أن غرامياتها مع قيصر، وبعده مع أنطونيو، قد جرت باللغة اليونانية.

(**) كان النص الأخير مكتوباً على جزيرة فيلاي المقدسة، فوق شلال النيل الأول مباشرة، وهو أبعد موقع حراسة مصري من الناحية الرمزية. وكان آخر تدنيس لهذا الموقع الديني، وهو آخر وأبعد موقع في مصر قد أقره وصادق عليه الإمبراطور الروماني جوستنيان (جونسون، 1999، ص 229).

ⲥⲉⲛⲁⲣⲓⲙⲉ ⲁⲛ ⲙ̄ⲡⲉⲧⲙⲟⲟⲩⲧ ⲛ̄ϭⲉ ⲙ̄ⲡⲉⲧⲟⲛϩ ⲥⲉⲛⲁⲙⲉⲉⲩⲉ ⲛⲉⲙ ⲉⲣⲟϥ ϫⲉ ⲟⲩⲣⲙ̄ⲙ̄ⲕⲏⲙⲉ ⲡⲉ ⲉⲧⲃⲉ ⲧⲉϥⲁⲥⲡⲉ

الهيروغليفية، والهيرية، والديموطية، والقبطية (١١)

على النصب التنكارية (حوالي العام 2600 ق. م.) وقد شكل هذان النوعان من النصوص ما كان من حيث الجوهر نظاماً واحداً، يمكن تدوينه بصور منقوشة على النصب التنكارية أو بالخطوط المقوسة المخربشة، مع حوالي 175 علامة تفسر على أنها حروف صامته أو لواحق تابعة لحروف صامتة، وبضع مئات من العلامات المستخدمة بصحبتها لتحديد المعاني بدقة.

ومن القرن السابع قبل الميلاد، بدئ باستخدام أسلوب جديد من الكتابة يعرف باسم الديموطي، أي 'الشعبي': فبدأ كشكل مبسط تبسيطاً جذرياً من حروف الكتابة الهيرية، ولكنه سرعان ما افترق عن النظام التقليدي عندما تم نسيان العلاقة مع الرموز الهيروغليفية.

ومن بعد الغزو اليوناني عند نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، تبدأ بالظهور مسارد يونانية بالكلمات العسيرة مع شرح لها في النصوص الديموطية الشعبية هنا وهناك. فقد أصبحت معرفة القراءة والكتابة باليونانية واسعة الانتشار. ومع ذلك فإن نظام الكتابة البلدي بقي له مشوار طويل جداً ليقطعه. إذْ كان آخر نص

شعبي مؤرخ يعود إلى العام 452 م أي بعد مرور 784 عاماً على الغزو اليوناني، و482 عاماً على استئصال الرومان للبطالسة، و310 أعوام على أول موعظة قيل إن الحواري مرقس قدمها في الإسكندرية التي كانت عندئذ عاصمة مصر. ومثل آخر النصوص الهيروغليفية المكتوبة قبله بثمانية وخمسين عاماً فإن هذا النص الشعبي قد عثر عليه في آخر موقع مصري، على جزيرة فيلاي[12].

مفارقات نهائية

كما رأينا، فقد قدر للمسيحية أن تُنهي الكتابة الهيروغليفية وتنهي معها المجرى المركزي للثقافة المصرية القديمة. ولكن رغم ذلك كان لها أثر فاسد آخر، وهو ضمان بقاء اللغة المصرية نفسها على المدى الطويل. وبحلول القرن الثالث الميلادي كانت اللغة المصرية قد فقدت دورها في الحكومة أو في حياة النخبة منذ زمن طويل، إذ كان ذلك الدور يؤدى آنئذٍ بالإغريقية حصراً. ومع ذلك فعند هذه النقطة بالذات رأت القوة المسيحية الجديدة الصاعدة أن اللغة هي أفضل وسيلة لإحراز تقدم في تنصير الشعب المصري. وبهذه الصفة جعلوها أداةً لنوع جديد من الأدب تستخدم فيه الأبجدية اليونانية لتمثيل اللغة المصرية. وبما أن اللغة المصرية أكثر تعقيداً من اليونانية في نظام أصواتها، فقد أضافوا إليها ستة أحرف جديدة (مستعارة من الكتابة الديموطية الشعبية)، وهكذا أوجدت الأبجدية القبطية. فبدأ التقليد الجديد بترجمات من الإنجيل، ثم توسّع إلى مقالات إنشائية أصلية تحكي قصة حياة آباء الصحراء المصرية، القديس باخوميوس وأتباعه. وصارت القبطية قناة كبرى لتطوير المذهب المسيحي، تكتب بها المواعظ، والرسائل، والمجادلات التي تقرأ كلها على نطاق واسع في الكنيسة المصرية.

وأخذت اللغة المصرية تُكتبُ بهذه الطريقة لمدة ألف عام أخرى. وكانت المفارقة هي أن هذا الارتباط مع الكنيسة المسيحية الذي تحقق في وقت متأخر هو الذي أنقذها، وعلى عكس ذلك فإن انتشار الإسلام بصورة صاعقة كالبرق في القرن السابع سرعان ما محق اليونانية، لغة الأسياد السابقين.

فاللغة المصرية، المعروفة عندئذ بالقبطية، نجت من الهجوم الأول. ولكن التهديد من العربية كان دائماً أشد ضرراً من تهديد اليونانية. فبعد كل شيء فإن الإسلام دين مساواة؛ فعند قبول اللغة العربية لا تبقى هناك عوائق أخرى للتفضيل الاجتماعي في ظل النظام الجديد. فعلى مدى القرون انحسرت حظوظ اللغة القبطية مع الدين الذي ارتبطت به. وكان آخر عمل عظيم كتب بالقبطية عنوانه 'تريادون'، وهي قصيدة طويلة ألفت بعد وقت قصير من العام 1300 م. وحتى بعد ذلك بمئة عام كان يقال إن المسيحيين في مصر العليا (في الوجه القبلي) لم يكونوا يتكلمون شيئاً ينكر سواها[13]، ولكن يبدو أنه عند حلول نهاية القرن السادس عشر كانت المحادثة بالقبطية قد اختفت تقريباً. ولكن ترتيلها في طقوس الكنيسة القبطية قد استمر إلى يومنا هذا.

اللغة من هوانغ ـ هي إلى يانغتسي

قال السيد:
إن التعلّم بدون تفكير غير مفيد. أما التفكير بدون تعلم فهو خطر.
كونفوشيوس، المنتخبات، 2: 15

إن النمط الأساسي لتاريخ اللغة الصينية شديد الشبه بتاريخ اللغة المصرية، وهو الحفاظ على الوحدة والاستقرار اللغوي رغم التدفقات الأجنبية المتكررة.

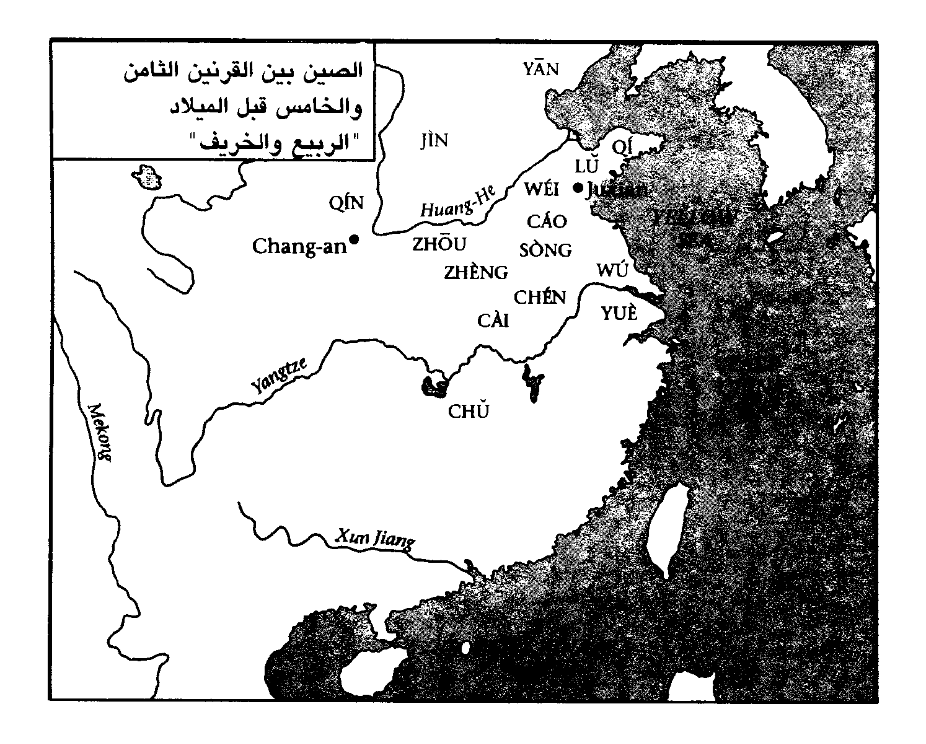
الأصول

إن أقرب أقارب اللغة الصينية موجودون في التيبت وبورما. ولكنهم ليسوا قريبين. فالصينية ينظر إليها عموماً على أنها فرع منفصل من الأسرة اللغوية الصينية ـ التيبتية، بدون أي علاقة خاصة مع أي واحدة من اللغات الكبرى في تلك الأسرة التي تشمل التيبتية والكارنية، وحتى لغات الصين الجنوبية مثل يي، وليسو، وجنغبو. فجميع هذه اللغات متشابهة جداً في التركيب الأساسي، باعتبارها لغات نبرة، إذ إن معظم الكلمات، أو جذور الكلمات، ذات مقطع واحد.

وليس فيها التواءات أو زيادات تصريفية لاشتقاق الأسماء أو الصفات أو الأفعال. ولكن هذا ليس كافياً لتحديد الأسرة: بل إنه يحدد المنطقة، إذ إن هناك لغات لا علاقة لها ومشابهة لذلك في المنطقة أيضاً، مثل لغات ثاي وجوانغ وهمونغ ومين.

لقد وجدت اللغة الصينية أولاً في وادي النهر الأصفر، أي هوانغ ـ هي. وأول سجل لها هو الآن مسألة جدلية مثيرة للخلاف. فقد تعرف الباحثون الصينيون في العام 2000 على حروف مكتوبة في العلامات على أكواب شراب عمرها 4800 عام، عثر عليها في جوكسيان، في مقاطعة شاندونغ ('جبال الشرق')، حيث يلتقي النهر بالبحر. وسواء أكان هذا التحليل صحيحاً أم لا، فإن أقدم الحروف التالية بعد ذلك طويلة العمر أيضاً وتعود إلى ما قبل 3400 عام. وقد عثر عليها على أوان برونزية، وعلى قواقع السلاحف، وعلى ألواح أكتاف الثيران (تسخن حتى تتشقق، كوسيلة لقراءة البخت)، بالقرب من أنيانغ في مقاطعة هيبي (النهر الشمالي). ورغم أن الرموز هي في الأصل كتابة بالصور، فإن الواضح أن النظام ككل يمثل اللغة الصينية. وتستخدم التوريات البصرية المرئية لإيصال الكلمات التي لها مزيد من المعاني المجردة (مثال: إن الرمز الأصلي لكلمة *Lăi* التي معناها 'قمح' يمثل أيضاً كلمة *Lai* التي معناها 'تعال')، أو في الكلمات الأكثر تحديداً (فإن كلمة *Lang* التي معناها 'ذئب' تركب من كلمتين هما *quan* التي معناها 'كلب' و*Liang* التي معناها 'جيد')(*).

(*) تغيرت مواد الكتابة على مدى آلاف السنين. فبالنسبة للفترة الأقدم فإن معرفتنا بما كان سائداً فيها تعتمد بالطبع على ديمومتها، ومن هنا يأتي البروز المبكر للبرونز والعظم. وفيما بعد (اعتباراً من الألف الأول) استخدمت الفرشاة للكتابة على شرائح الخيزران. أما المواد الأكثر مرونة، وهي اختراعات صينية متميزة، فقد جاءت في وقت لاحق فيما بعد وهي: لفافات من الحرير، من القرن الثاني ق.م.، والورق اعتباراً من العام 105 م. وكانت الطباعة أيضاً إسهاماً صينياً في التكنولوجيا اللغوية العالمية. فقد كان يتم تقطيع كتل ثابتة لطبع صفحات بأكملها منذ نهاية القرن التاسع الميلادي، وتم إدخال الطباعة المتنقلة منذ القرن الحادي عشر. وبالطبع كان هذا عملاً أشد مشقة مع نظام كتابةٍ كان دائماً يستخدم عدة آلاف من الرموز.



والتاريخ اللاحق للغة الصينية القياسية الموحدة كما هي منطوقة ينقسم بشكل اصطلاحي إلى عدة فترات هي: الصينية القديمة (حتى العام 500 ق. م ويمثلها شيجينغ أي ('كتاب الشعر')، والصينية الوسطى (من العام 500 ق. م إلى القرن السابع الميلادي ويمثلها كيون، أي 'قاموس القوافي'، والماندارين القديمة (من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر)، والماندارين الوسطى (من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر) والماندراين الحديثة بعد ذلك. وإن بروز الشعر في الجزء المبكر من هذا السجل ليس مسألة جماليات. فبناءً على العلاقة غير المباشرة بين النص الصيني المكتوب وطريقة التلفظ به، فإن الدليل على تطور اللغة المحكية يأتي على الأغلب من التحليل المفصل للشعر، وخاصة بالنظر إلى الكلمات المسجوعة المتقافية الوزن.

إن اللغة المكتوبة نفسها لا تكشف الكثير عن التطور اللغوي في الألفين وخمسمئة عام الماضية، ما دامت اللغة التقليدية الكلاسيكية المعروفة باسم

"وينيان" كانت معروفة في فترة "التشونقيو"، أي 'الربيع والخريف' (770 ـ 476 ق.م.) عندما تمت كتابة الأعمال العظيمة الكلاسيكية، مثل منتخبات كونفوشيوس الأدبية، وبقيت عملياً بلا تغيير منذ ذلك الحين. ولم تتوقف "الوينيان" عن كونها الوسيلة المعتادة للتعبير المكتوب إلا في القرن العشرين الميلادي، حيث تم التعميم الشامل لأسلوب كتابة جديد مبني على كلمات لغة الماندارين وتراكيبها. ولكن لغة "الوينيان" تشكّلت في منطقة الشمال الشرقي، وفي وقت لا يزيد على ألف عام أو نحوها بعد تقدم الصينية المتوالي عبر البلد. وبذلك فإنها تعطي خط قاعدة أساسياً مفيداً للتغيرات التي أثرت على اللهجات الحديثة المختلفة على مدى ألفين وخمسمئة عام منذ أن أصبحت هي اللغة العامية الدارجة. وعلى سبيل المثال، في واحدة من المفارقات النموذجية في التاريخ اللغوي، فإنها تظهر أن أقل لهجة صينية تعرضت للتغيير هي اللهجة الأبعد عن الشمال الشرقي: وهي اللهجة الكانتونية، المعروفة عند الصينيين باسم مملكة "يُوي" 'البربرية' المستقلة منذ زمن طويل.

إن الفجوة بين الأدلة المكتوبة والحقيقة المحكية تعني أن كمية كبيرة من تفاصيل كيفية سير التأثيرات في تاريخ اللغة لا بد أن تظل موضوعاً للحدس والتخمين. فلا نستطيع سوى أن نخمن تخميناً نعجز عن توثيقه توثيقاً كاملاً بشأن القوى التي سوف نصفها، والتي كان بعضها يعمل بشكل متقطع في اللغة الصينية لإنتاج اللهجات المسموعة المتنوعة، وخاصة في الجنوب، ولكن كانت هناك قوى أخرى أبقت الغالبية العظمى من الناطقين باللغة على تواصل وثيق مع بعضهم بعضاً حتى عندما كانت اللغة المحكية القياسية الموحدة تنتقل تدريجياً عبر العصور كلها.

إن درجة الوحدة السياسية في الصين، رغم أن صعودها وهبوطها الدوري هو دقات الساعة المعتادة في تاريخ الصين، فإنها ليست ذات فائدة خاصة في سرد رواية انتشار اللغة الصينية وتحولاتها. فحسب متابعة الأدلة الأثرية، انتشرت الثقافة الصينية إلى جميع الجهات انطلاقاً من منتصف وادي النهر الأصفر، ولكن الانتشار الأهم كان نحو الجنوب. وفي فترة شانغ (من منتصف

الألف الثاني ق. م. إلى أواخره) نجد منتجات من صنع الإنسان جنوبي اليانغتسي، وقد انتشرت عبر أعالي مجرى النهر إلى الصين الوسطى في إقليم جُو (أوائل الألف الأول قبل الميلاد). ولكننا نعرف أن هناك لغة مختلفة عن الصينية كانت لا تزال محكية في مملكة تشو (وهي سيشوان الحديثة تقريباً، في شمال اليانغتسي) في القرن الثالث قبل الميلاد(*).

فمن الناحية الجغرافية، كانت اللغة الصينية تنتقل من السهول الشمالية الباردة الجافة التي يزرع فيها القمح والدخن، إلى الأراضي المرتفعة الأكثر دفئاً ورطوبة حيث كان الغذاء الرئيسي المنتج هو الرز. فبالإضافة إلى الفرق في المناخ، كان هناك فرق في التضاريس، مما جعل التحرك في الجنوب أقسى وأصعب. فكان المثل عندهم يقول: 'القارب في الجنوب، والحصان في الشمال'. ومن الناحية العملية، فإن الممرات المائية، التي تحددها الطبيعة وليس المصدر البشري، هي طريقة السفر السهلة الوحيدة في الجنوب. ولم يكن هذا عائقاً لانتشار الثقافة واللغة الصينيتين. ولكنه كان يعني أنه لم يكن من السهل أبداً فرض التجانس الثقافي أو اللغوي هناك.

ولا شك أن الدافع وراء التحرك نحو الجنوب كان هو البحث عن تربة أخصب، ولا بد أن نجاحه قد دعمته المزايا التكنولوجية التي كان الشماليون يراكمونها، والتي ترمز إليها ملكية لغة مكتوبة، وتنظيم واسع النطاق. وإن أول انعكاس لذلك على السياسة قد جاء في العام 221 ق. م. مع الأمر الذي أصدره شي هوانغ دي، الإمبراطور الأول الذي وحد معظم الصين الوسطى، إلى نصف مليون مستوطن صيني، بأن يذهبوا ليملؤوا أراضيه الجديدة التي غزاها 'بين شعوب يُوي المختلفة'. وفي هذا الوقت كان هناك دافع سياسي يضاف إلى

(*) منسيوس (حوالي العام 250 ق.م حسب رأي بروكس 2002)، 3- 6.B. 'افرض أن ضابطاً كبيراً في مملكة تشو أراد أن يتعلم ابنه لغة قي..' من الواضح أن الطموحين كانوا يهيئون أنفسهم لتعلم الصينية. وكانت قي هي شاندونغ الحديثة تقريباً، عند مصب نهر هوانغ - هي، وبذلك فإنها في مراكز انتشار اللغة الصينية. ومن الغريب أن نصاً مكتوباً بعد ذلك بعشرة أعوام أو نحوها يركز على تشو لمقارنتها بلغة شرقية بربرية: 'فلينشأ ابن تشو بين الرونغ، أو ابن الرونغ بين تشو. وسوف يتكلم ابن تشو لغة الرونغ، بينما يتكلم ابن الرونغ لغة تشو' (لوشي تشونقيو، E-4).

الدافع الاقتصادي: كان الحاكم المستبد المطلق للصين الموحدة يرغب في فصل الأسر التقليدية عن قاعدة قوة أجدادها السالفين، وقد راح الدافع السياسي يتجدد بين حين وآخر على مدى الألف عام التالية(*).

الوحدة الأولى

إن شي هوانغ دي ('الإمبراطور الأول')، الذي حول حكمه لدولة كين(**) إلى أول سيطرة شاملة على جميع دول العالم الصيني المعروفة، كان شخصيةً هامةً لأسباب كثيرة. فقد حكم الصين أحد عشر عاماً فقط (221 ـ 210 ق. م.) ولكنها كانت سنوات عجيبة: فبالإضافة إلى إكمال السور العظيم (فقد كان المهاجمون من الشمال مشكلة آنذاك)، وإلغاء سلطة السادة الإقطاعيين، وتنفيذ تطهير فكري في حملة هياج سيئة الصيت من حرق الكتب، ووضع تماثيل الجيش الطينية في قبره في تشانغ ـ آن، التي كانت هي العاصمة آنذاك، فقد اشتهر أيضاً بتوحيد الحروف الصينية، كجزء من برنامج عام لإدخال القوانين العامة، والأوزان والمقاييس والمكاييل. وكان ذلك يعني فرض اللغة الفصحى المحلية لدولة كين (في أقصى الغرب) والتي تصادف أنها أكثر اللغات المستعملة آنذاك في النزوع إلى المحافظة. وكانت موجودة على شكلين هما: "جوناشو" المعتمد على الصور الرمزية بصورة ثقيلة والذي لا يزال يشاهد أحياناً في

(*) يمكن مقارنة هذه التحركات بعمليات الإخلاء السكانية التي كان يأمر بها ملوك آشور وبابل عقب انتصاراتهم العسكرية الكبرى (انظر الفصل الثالث: 'الاكادية - تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة'، ص 107) ولكن بما أن ملوك وادي الرافدين كانوا يرون أن أعظم التهديدات تأتي من الأجانب، فقد انتهى بهم الأمر إلى بذر بنور لغة أجنبية في إمبراطوريتهم، وهي الآرامية، وقد رأى الإمبراطور الصيني تهديداً يأتيه من السادة الإقطاعيين الصينيين، فبعثرهم (ومعهم اللغة الصينية) إلى أبعد زوايا مملكته.

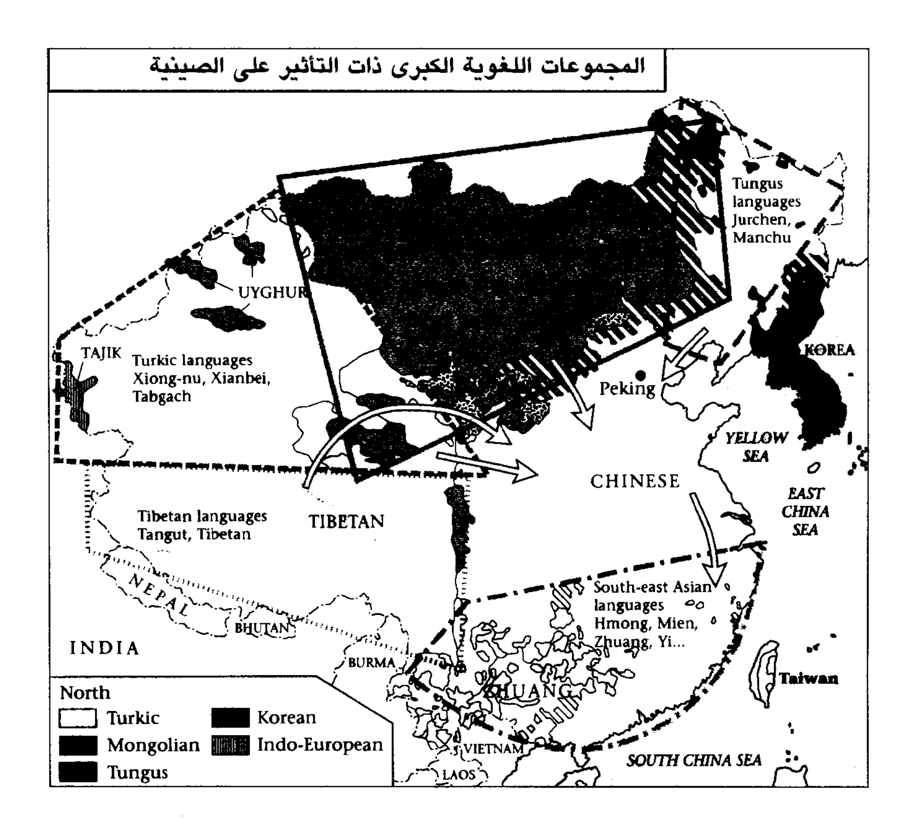
(**) كثيراً ما تقترح هذه الكلمة كاصل لغوي لتسمية الصين. وهي تسمية يبدو أنها وصلت إلى الغرب عن طريق اللغتين الفارسية والإيطالية. ولكن الصينيين يستخدمون بدلاً من ذلك أسماء أسرة هان أو أسرة تانغ كتسمية لأمتهم. ويشير شكل الاسم إلى أنه مشتق من الاسم السنسكريتي "صينا". وهذا ينطبق بالدرجة الرئيسية على منطقة التيبت، ولو أنه كان في بعض الأحيان يشمل آسام وبورما (سيركار 1971: ص 104-105). والصين ككل معروفة عند الهنود باسم "مهاصينا" أي 'الصين العظمى'. وعلى سبيل المثال فهذا هو المكان الذي قال عنه الحاج الصيني كسوان زانغ للهنود بأنه هو بلده عند زيارته في العام 629. سي ـ يو - كي، المجلد الأول (في بيل 1884، الجزء الأول: ص 216).

النصوص المزخرفة والأختام الرسمية، والشكل الأكثر تقويساً والمسمى "ليشو"، أي 'الكتابة الدينية'. وهذه الأخيرة تم الأخذ بها تحت حكم إمبراطورية هان التالية، كما تم تنظيمها وتصنيفها في قاموس في ذلك الوقت. فصار ذلك النظام أساس الكتابة الصينية، "كايشو" ('بالنصوص الفصحى') منذ ذلك الحين.

ومع الوعي بلغة عامة مشتركة في "وينيان"، وحروف كتابة مشتركة في "كايشو"، استغرق الشعب الصيني ألف عام لملاحظة افتراق بعض الناس وتباعدهم: فيتحدث أدب تانغ المبكر (في القرن السابع الميلادي) عن اختلاف الجنوب عن الشمال في "فانغ - يان" (أي كلامه الإقليمي)، وهي الكلمة العادية لوصف لهجة: وقد صار ذلك اصطلاحاً قوياً جداً قيض له أن يطبق (بعد ذلك بزمن طويل[14]) للإشارة إلى لغة أجنبية، مثل الكورية، واليابانية، والمغولية، والمانشو، والفيتنامية.

وكانت اللغات التي يتكلمها جيران الصينيين من الفرسان في شمال البلد وغربه مقطوعة الصلة تماماً بالعائلة التي تضم اللغات الصينية والصينية - التيبتية المذكورة. وعلاوة على ذلك - وفي هذا كانت تختلف عن لغات جيران الصين الجنوبيين - فإنها لم تكن تشبه الرموز الصينية كذلك. ومثل اللغات الحديثة المتحدرة منها، والمسماة باللغات الألطية(*) لآسيا الوسطى، بما فيها الأسر اللغوية التركية، والمغولية والتونغية، كانت كلها لغات متعددة المقاطع إلى حد كبير، فكلماتها، وعلى الأقل الأسماء والأفعال، يتم بناؤها واشتقاقها بشكل نظامي وإلصاقي من خيوط عناصر قصيرة. وهي ليست لغات نبرة، تتوسع في استخدام مبدأ انسجام حروف العلة، بحيث أن أصوات العلة في الحروف الملحقة بآخر الكلمة تردد صدى أحرف العلة في جذر الكلمة. ونظام ترتيب كلماتها يضع الفعل في آخر الجملة. وفي كل هذه الخصائص فإنها مختلفة جذرياً عن الصينية، التي

(*) نسبة إلى جبال ألطاي (Altai) في آسيا الوسطى، التي هي مصدر هذه التسمية، وهي نفسها تحمل هذا الاسم بسبب وجود الذهب فيها. قارن مع كلمة ألطن التركية التي معناها 'الذهب'.



هي لغة نبرة أحادية المقطع ليس فيها اشتقاق للكلمات، ولها نظام أساسي يأتي فيه الفعل كثاني كلمة في الجملة.

كان "الكسيونغنو"(*) هم القبائل البدوية الرئيسية في منغوليا وتركستان في القرن الثالث قبل الميلاد. ورغم دورهم الكبير في التاريخ الصيني، فإن من الصعب جداً العثور على دليل يوضح كيف كانت ماهية لغتهم. غير أنه يوجد نص وحيد من عشرة رسوم رمزية صينية يقدم فيها الكاهن البوذي فوتودنغ نصيحة لأحد ملوك كسيونغنو. وكان يمكن قراءة تلك الرسوم الرمزية في القرن الرابع الميلادي كما يلي:

(*) يبدو هذا شديد الشبه بالترجمة الصينية لكلمة هونو، التي تتيح لهؤلاء الناس أن تحدد هويتهم بما يعرف عند الهنود باسم هونا وعند الأوروبيين باسم هوني. ولكن لسوء الحظ فإن التشابه اللفظي يبقى هو الدليل القوي الوحيد (انظر سينور 1990: ص 177-179).

syog tieg t' iei lied kāng b'uok kuk g' iw t' uk ĩng

إذا تابعنا قراءة لويس بازن في قراءة هذا كما يلي:

أرسل جيشك إلى الخارج أيها القائد الحربي

فسوف نستنتج بأن لغتهم كانت تركية، وليست مغولية أو تونغية(15).

وقد قامت ثلاث ممالك صينية في الشمال، هي كين، وجاو، ويان، ببناء أجزاء من سور لإبقاء الكسيونغنو في الخارج. وقد تم توحيد الأسوار وإطالتها عندما ضم إمبراطور الكين كل الممالك إلى مملكته. كما تعلّم الصينيون كيف يجابهون الكسيونغنو بخطط فرسانهم التكتيكية ذاتها. واستمرت الحروب خمسمئة عام، وطيلة تلك المدة كان الصينيون ناجحين في إبقاء البرابرة خارج الصين، والحفاظ على سياسة هجومية تؤمن لهم السيطرة في جميع أنحاء المناطق الغربية المعروفة الآن باسم غانزو وكنغهاي؛ وبهذه الطريقة أمكن تأمين طريق الحرير، والوصول إلى أراضي تربية الخيول البعيدة في فرغانة على أيدي البامير، وهي حيوية للدفاع الصيني. غير أن دفاعهم كان يعتمد أيضاً على إبقاء حامية حدود فعالة، وكان إبقاء الإمدادات لحراسها عملية باهظة الكلفة. وعندما انهارت حكومة الصين المركزية بعد سلالة هان فشلت عملية الإمداد هذه. فصار من الممكن لعشائر كسيونغنو أن يخترقوا السور.

التراجع إلى الجنوب

وتلت ذلك فترة من الفوضى وسفك الدماء المتزايد، فأدت في القرن الرابع الميلادي إلى تنافس مفتوح بين عدد من الحشود التركية والمغولية للسيطرة على الشمال وفضح العجز الكلي للحكومة التقليدية هناك. فكان من أثر ذلك إبعاد مركز اللغة الصينية إلى الجنوب. وفي العام 317 م تأسست سلالة جديدة في نانجينغ 'العاصمة الجنوبية'، بينما راحت حشود تركية ومغولية مختلفة تتنازع على الشمال. وفي آخر الأمر سيطرت عشائر تابغاش على الشمال طيلة القرنين

التاليين حتى العام 557 م(*). فأثبتوا على الأقل أنهم قادرون على الدفاع عما كسبوه. وكان هؤلاء السادة الجدد ناطقين بلغة تركية، ولكنهم سرعان ما حاولوا الأخذ بأشكال محلية، فتبنوا الاسم الصيني "وايْ". ويظهر أن هذه السياسة كانت تحتاج إلى تعزيز، أو على الأقل إلى تشجيع: وبعد ذلك بستة أجيال في العام 500 م، أصدر حاكمهم كسيا أوين مرسوماً بتحريم اللغة والملابس والعادات التركية واعتبارها خروجاً عن القانون.

وكان ذلك شبيها من الناحيتين السياسية واللغوية، بما كان يحدث في الإمبراطورية الرومانية القديمة في الوقت ذاته، مع احتلال القبائل الجرمانية لقلب أراضيها في أوروبا الغربية، وتغيير لغتها، ولكن مع عدم اقتلاعها عندما راحوا يحاولون الأخذ بها، بينما أعاد ورثة السلطة الرومانية القديمة تمترسهم في الأراضي التي لم تكن رومانية تاريخياً في المناطق الشرقية، في البلقان، واليونان، والأناضول. ومع ذلك فلم تواجه اللغة الصينية منافسةً من مساوٍ محتمل لها، كما واجهت اللاتينيةُ اللغة اليونانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط. فقد سادت اللغة الصينية في جميع أجزاء البلاد، حتى ولو أن الناس أخذوا بشكل زائد يتكلمونها بلكنات شديدة الغرابة.

وفي الجنوب استمرت سلالة صينية موحدة؛ فهناك كان عدد كبير من المهاجرين الصينيين الأغنياء يوسعون نطاق اللغة الصينية بالتدريج. فقد انتقلوا للهرب من الغزاة، ولكن أيضاً ليسكنوا الأرض الأخصب التي تجففت بجوار نهر يانغتسي. وكانت لغات السكان الأصليين هناك، سواء أكانوا من الأسر الطاوية، أو الصينية ـ التيبتية، أو الهمونغ ـ مينية كلها من نمط متشابه تماماً مع الصينية ولو أنه غير متصل بها على الأغلب. فكانت النتيجة أن أخذ المتعلمون بالصينية في الجنوب بسهولة: وكانت بعض اللهجات الصينية الجديدة

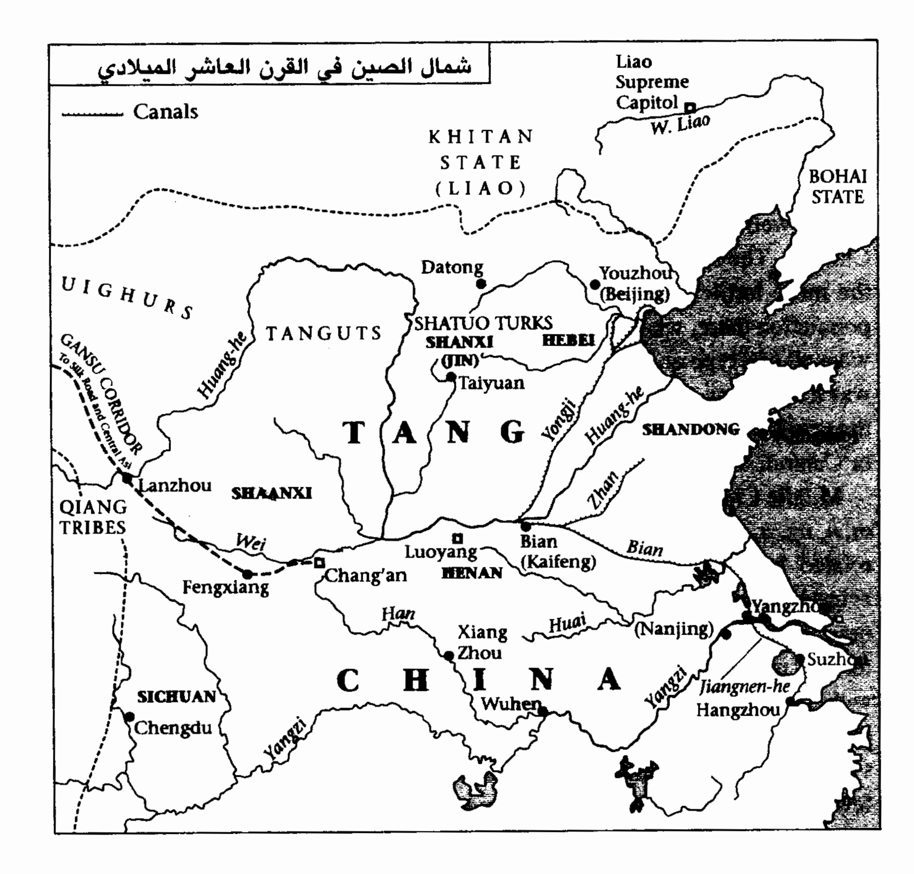
(*) يطلق عليهم باللغة الصينية الحديثة اسم "طووبا"، باستخدام حروف كانت الكلمة ستلفظ بموجبها "طاك - بؤات". وصار الاسم هو "تشوفاش" في العصر الحديث. وهو لا يزال يحدد شعباً ناطقاً بالتركية يوجد منه 1.5 مليون شخص، مبعثرين عبر روسيا وسيبيريا. (كلوسون 2002 [1962]: ص 38، وكذلك دالبي 1998: ص 134-135).

التي نشأت، وخاصة في أقاصي الجنوب، (وتدعى يُوي، أو الكانتونية)، شديدة الشبه بأصلها.

وكانت الصينية الوسطى في القرن السابع الميلادي فيها كلمات يمكن أن تنتهي بأصوات الحروف *m*، *n*، *ng*، *p*، *t*، *k*، أو بحرف علة، وكذلك هو الحال في اللغة الكانتونية الحديثة، تماماً مثل لغة جوانغ الجنوبية (المنفصلة عنها ولكنها مجاورة لها)؛ وفي لهجة الماندارين انقلبت الميم الأخيرة إلى نون، وألغيت أصوات الحروف *p* و*t* و *k*. ومرة أخرى، يتم الاستنتاج بأن اللغة الصينية الوسطى فيها ثلاثة التواءات محيطية في النبرة، ونمط منفصل لما يسمى 'بالدخول' في الكلمات المنتهية بأصوات الحروف *p* أو *t* أو *k*، . وقد انقسمت هذه فيما بعد إلى ثماني نبرات، مع بداية مرتفعة أو منخفضة، تعتمد على ابتدائها بحرف صحيح صائت أو غير صائت (أي *b-d-g-z-j* في مقابل *p-t-k-s-c*). فهذا هو أساس النظام في اللغة الكانتونية الحديثة، وكذلك في لغة جوانغ، أما الماندارين فقد سلكت طريقاً آخر، فقسمت واحدة فقط من النبرات الأصلية. ولكنها عندما ألغت الأصوات الـ p وt و k الأخيرة أحالت كل الكلمات التي تأثرت بذلك إلى واحدة من النبرات الأخرى. وانتهى بها الأمر إلى أن تكون لها أربع نبرات، بينما الكانتونية (والجوانغ) لها ثماني نبرات[16].

وفي العام 589 م ثبت أن من الممكن إعادة توحيد البلد. فبدأ عصر صيني ذهبي جديد من الازدهار، ولو لم يكن السلام فيه دائماً، تحت حكم سُوِي صُوِي ثم سلالة تانغ. وطوال تلك الفترة، استمرت اللغة الصينية بالانتشار في اتجاه الجنوب.

وقد استمرت سلالة تانغ حتى نهاية القرن التاسع الميلادي، عندما تدهورت أمورها إلى صراع على السلطة بين قادة حربيين إقليميين. ووصلت إلى الصين بعثات أجنبية كثيرة في هذه الفترة، شملت بوذيين من الهند، ومسيحيين نساطرة، وزرادشتيين ومانيكائيين ومسلمين. فكان من شأن ذلك نشر أصوات اللغات السنسكريتية، والآرامية، والفارسية، والعربية إلى المراكز الكبرى، ليتم استخدامها في العبادة، ولكن أعداد الناطقين بها فعلاً لا بد أنها ظلت ضئيلة. وعلى أية حال فعند



حلول نهاية حكم سلالة تانغ كانت تلك البعثات قد تلاشت من الوجود باستثناء البوذيين والمسلمين، وأثناء القرنين الميلاديين الثامن والتاسع كان هناك تهديد متزايد بغارات من التيبت في الغرب، ومقاومة عنيفة من أهالي نانجاو في إقليم "يونان" (’جنوبي الغيوم‘، في الجنوب الغربي)، ولكن لم تحدث خسارة أراضٍ على المدى الطويل. وشهدت هذه الفترة أيضاً (اعتباراً من العام 847 م) مجموعة أخرى ناطقة بالتركية، الأويغور، تستقر في مقاطعة غانزو الشمالية. تقيم فيها مملكة مستقلة، صديقة للصينيين، في الغرب الأقصى (كسينجيانغ الحديثة).

أما انهيار الحكومة المركزية فقد تم إصلاحه بعد ذلك بنصف قرن على أيدي سلالة صونغ (عام 960)، ولكن ليس قبل استيلاء قبيلة خيتان المغولية على أقاصي الشمال، أي منشوريا والأراضي الواقعة في شمال السور العظيم؛

وقد تمت خسارة غانزو أيضاً في الشمال الغربي، فقد غزاها التانغوت الذين كانوا يتكلمون لغة لها علاقة بالتيبتية. وتمسك التانغوت بهذه المنطقة ولكن الخيتان في عام 1115 م. تغلبت عليهم مجموعة أخرى من مكان أبعد إلى الشمال هم الجوركين، الناطقون بلغة تونغو، والذين اتخذ الصينيون قراراً خاطئاً بمساعدتهم. ورغم أن الجوركين تبنوا الاسم والأسلوب الصيني "جين" (أي 'الذهبي')، فقد انقلبوا على حلفائهم على الفور تقريباً، وبعد أن غزوا أجزاءً كبيرة من الجنوب، وكذلك من الشمال، سيطروا على وادي هوانغ ـ هي (النهر الأصفر) بكامله، في قلب الأرض الصينية التقليدي. وقد تمسكوا به (مثل التانغوت) حتى شرّدهم شخص أعظم منهم، هو جنكيز خان نفسه، الذي قاد غزواً مغولياً في العام 1211.

وكما حدث كثيراً، فقد ثبت للغزاة أن اجتياح الشمال أسهل عليهم كثيراً من اجتياح الجنوب. ولمدة جيلين حافظت سلالة صونغ على الدفاع عن الإمبراطورية الجنوبية، من موقعهم على هانغجو، حتى تمكّن المغول من أخذهم من الخلف في العام 1279 م بعد أن احتلوا يونّان أولاً (وكذلك شمال فيتنام فعلاً) في الجنوب الغربي.

ولأول مرة، سيطرت سلالة غير ناطقة بالصينية (هم المغول، الذين صاروا يعرفون آنذاك بـ"اليوان"، أي 'الأصائل') على امتداد الصين كلها. وبما أنهم كانوا في ذلك الوقت يسيطرون على معظم آسيا الباقية، فقد كان من الممكن الاعتقاد بأن من حسن حظ الصين أن الحاكم المغولي قبلاي خان قرر أن ينقل عاصمته من كارا كورم في منغوليا إلى بيجينغ (العاصمة الشمالية)، لأنه لو لم يفعل فربما كانت بيجينغ ستعاني مصير كل المستعمرات وهو تجاهل حاكمها؛ ولكن على أية حال فإن وحدة الإمبراطورية المغولية قد ضاعت في العام 1295 م. ذلك أن الخانات الغربيين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام حديثاً آنذاك رفضوا قبول سيادة خلف قبلاي خان في بيجينغ، لأنه كان بوذياً.

ولم تستمر سيطرة المغول على الصين طويلاً بعد ذلك. فرغم أن قبلاي كان مشهوراً بلطفه وكياسته، فإن خلفاءه كانوا أقل تميزاً بذلك. وممن يستحق الذكر

الحاكم الأخير من هذه السلالة طوغان تيمور (1333 ـ 1369) لأنه من بين تشريعات كثيرة معادية للصين سن قانوناً يمنع الصينيين من استخدام اللغة المغولية أو كتابتها. ومن الواضح أنه كان يجري اتباع سياسة عنصرية صارمة. ولكن بالمقارنة مع المانشو الذين قدر لهم أن يأتوا بعد ذلك بوقت طويل جداً ـ أو بالإنكليز المعاصرين في إيرلندا، الذين كانوا بالطبع غير معروفين آنذاك(*) ـ فقد كان المرء يتوقع من النخبة أن يسنوا قوانين تمنع أتباعهم من الأخذ بلغة الشعب المغلوب.

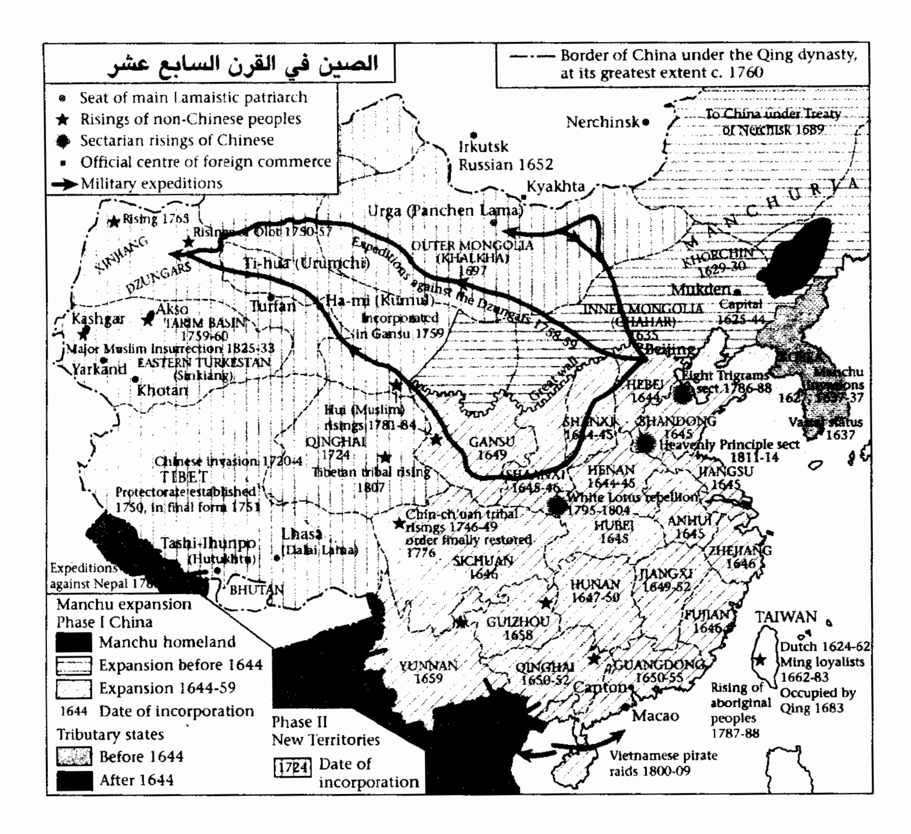
وفي العام 1369 م انتهى الأمر بطوغان تيمور وأتباعه المغول مطاردين على يد قائد حربي شعبي صيني تحوّل إلى بطل وطني نصّب نفسه كأول إمبراطور من أسرة مينغ. وبعد ذلك لم يعد هناك خارجيون يتدخلون في حكومة الصين لمدة ثلاثة قرون.

التأثيرات الشمالية

ثم حصل الجوركيون الناطقون بلغة تونغو على فرصة ثانية للسيطرة على الصين وكانوا يعرفون عندئذ باسم المانشو. فكان هذا الغزو آخر اختراق دائم للصين يقوم به ناطقون بلغة أجنبية.

ففي أوائل القرن السابع عشر الميلادي، كان المانشو قد أعيد تنظيمهم تحت إمرة قائديْن قديريْن. فتقدموا إلى داخل التخوم الشمالية للأراضي الصينية، ليؤسسوا عاصمة في موكدن. ثم شاء لهم حسن حظهم، في العام 1644، أن يتلقوا دعوة إلى بيجينغ كحركة تكتيكية في صراع بين ضابطين كبيرين برتبة لواء كانا يتنافسان على الحلول محل 'مينغ'. فاستغل المانشو الفرصة لتنصيب أنفسهم، فأضفوا على سلالتهم الجديدة اسم كنغ (أي الأنقياء)، وبحلول العام 1651 كانوا قد أخمدوا كل مقاومة لهم في باقي أنحاء الصين. ورغم أنهم جاؤوا وهم يتكلمون لغتهم الخاصة بهم، ورغم أنها ظلت لغة رسمية مكتوبة للدولة

(*) تم سن قانون كيلكني (مقاطعة في جنوب شرقي إيرلندا) في العام 1366 م، لمطالبة المستعمرين الإنكليز (في القسم الثالث) 'باستخدام اللغة الإنكليزية، وإطلاق أسماء إنكليزية على أنفسهم، والتخلّي كلياً عن طريقة التسمية التي يستخدمها الإيرلنديون...'



الصينية حتى نهاية سلالتهم في العام 1911، فإنها كانت قد تلاشت كلغة للكلام حتى في البلاط عند حلول القرن الثامن عشر. فلم تستمر تلك اللغة حيةً حتى في منشوريا نفسها، فكانت ضحية غريبة لنجاح أهلها في الاستيلاء على الصين وطريقة حياتها. وهي اليوم لغة كلام فقط، تحت اسم كسيبو، يتحدث بها المتحدّرون من كتيبة من الجنود أرسلت في مهمة من العاصمة المنشورية موكدن إلى كسينجيانغ في العام 1764 ـ فهي لغة شمالية شرقية مستعملة في الكلام الآن في شمال غرب الصين فقط.

فإلى داخل الشمال جاء الغزاة، واستمرت اللغة الصينية المحكية في الشمال لتصبح لغة البلد القياسية الفصحى. ولكن رغم أن اللهجة الشمالية تعرضت لتغيرات هامة، فلا يمكن عزوها إلا جزئياً فقط للصعوبات التي كان سيواجهها الكسيونغنو، أو التابغاش، أو الجوركيون، أو المغول، أو المانشو، عند

محاولتهم تدبر أمورهم باللغة الصينية(*). فهناك الحقيقة المثيرة للاهتمام، وهي أن الصينية الماندارينية يمكنها تمييز كلمة "ويمن"، أي: 'نحن (ما عداكم)' من كلمة 'زانمن' أي 'نحن (وإياكم)'، تماماً كما تفعل اللغتان المغولية والمانشوية؛ وهذا تجديد حدث منذ أيام اللغة الصينية الوسطى. وقد يستطيع المرء أن يشير إلى غياب عناقيد الحروف الصامتة في الصينية الحديثة؛ مع أن بعضها كان مسموحاً به في الصينية الوسطى. وعلى سبيل المثال؛ فإن كلمتي شْنيور (أي يهدئ) وتْأنورْ (أي: يُؤمن) صارتا "سْيوي" و"توُو". واللغات الألطية لا تستطيع أن تتحمل أكثر من حرف صامت واحد في بداية أي مقطع(**).

وليس هناك سوى بقايا أثرية قليلة من نوع اللغة الصينية التي كانت محكية في إحدى الفترات البينية الوسيطة قبل أن يتم امتصاص الغزاة واستيعابهم. فالترجمة الصينية لكتاب "التاريخ السري للمغول"، في القرن الثالث عشر، مليئة بالأنماط الألطية، مثل حروف الجر اللاحقة بدلاً من حروف الجر السابقة، والأفعال اللاحقة للمفعول به، والأفعال الوجودية في نهاية الجملة، وهذه كلها غريبة وغير معتادة في اللغة الصينية التي لها نظام ترتيب أساسي للكلمات أكثر شبهاً بنظام الترتيب الإنكليزي:

مثال: "عموماً ابنة ولدت لك دائماً تبقى في بيت الـ"

فهذه الجملة معناها: 'ليس هناك سبب يوجب أن تبقى ابنتك المولودة لك في البيت دائماً'.

(*) باختصار، فإن اللغة الصينية الشمالية فقدت كل حروفها الصحيحة الأخيرة؛ فأصبح كثير من الكلمات التي كانت في السابق حرة وأحادية المقطع متحجرة ومتخثرة ضمن كلمات أطول. ولا أحد يعرف لماذا. ولكن بعض التفسيرات لهذه التغييرات قد اقترحت، ولعل غموض دلالات بعض الحروف الصرفية المضافة إلى الكلمات الصينية، بعد فقدان كثير من الحروف الصامتة المميزة، كانت تعني ضرورة تعزيز كلمة بكلمة أخرى للحصول على اتصال فعال. وربما كان الضعف اللفظي الصوتي المجرد للمقاطع الجديدة الأقصر يعني وجوب حدوث الزيادة المضاعفة لإعطاء اللغة إيقاع كلام مقبول (فنغ 1998). ولعل دخول البوذية مع الترتيل بالسنسكريتية والبالية التي أدخلت كلمات أطول، والتعابير المعقدة التي نشأت عند ترجمتها إلى الصينية، قد عوّد الناس على تعدد المقاطع. وإن الاتجاهات المختلفة والتأثيرات المحتملة يناقشها ويلكنسون بوضوح في كتابه الصادر في العام 2000، (ص 31-40).

(**) ولكن هذا الاتجاه نفسه يمكن رؤيته في كل اللهجات الصينية (بل كذلك على مبعدة إلى الجنوب في لغة يي واللغة الفيتنامية).

وهناك أدلة وفيرة على حالات اختلاط بين لغتي الماندارين والمانشو في كتب الأولاد التي هي سجلات مكتوبة للمتعة القصصية التي كان المانشو يحصلون عليها في أيامهم المبكرة الأولى في بيجينغ (1736ـ1796)، رغم أنها مكتوبة أكثر بترتيبٍ صينيٍ للكلمات تبعثرت فيه مفردات من لغة المانشو.

ولا يزال هناك اتجاه في اللهجات الشمالية لمجيء المفعول به المباشر قبل الفعل، ولمجيء كلمة "مِن" التابعة لأفعل التفضيل قبل الصفات المقارنة. وهذه ملامح قد تعزى إلى تأثير اللغة الألطية. ولكن على وجه العموم فإن أسلوب اللغة الصينية المختلط هذا لم يرسخ نفسه[17]. إذْ إن الأجيال اللاحقة من أُسَرِ الغزاة التقطت الصينية وأخذت بها بشكل طبيعي من الأمهات الصينيات، والمربيات ومدراء المدارس، ولعل الأنماط الألطية كانت معاكسة للصينية إلى درجة لم تسمح بتطور أي تسوية. وهذا نموذجي بما يكفي في العلاقات اللغوية الصينية. وبصورة عامة ليست هناك كلمات مستعارة كثيرة في الصينية مقترضة من لغات أخرى في أي اتجاه. وبالتأكيد ليست هناك تأثيرات تركيبية، فكلمة "دو" (أي: عِجْل) يبدو فعلاً أنها جاءت من اللغة الألطية، فهذه خاصية مميزة لهم ما دام الشعب الألطي كان يعيش من تربية الحيوانات (قارنها مع كلمة "تويول" المغولية، وكلمة "توكشان" المانشوية، وكلمة "توكوشيو" الإيفنكية، وكلها تعني 'العجل'). ولكن الكلمات الكثيرة الموجودة في مسرحيات سلالة يوان قد ضاعت مرة أخرى منذ ذلك الحين[18].

ما وراء البحر الجنوبي

رغم أن اللغة الصينية قضت عمرها المؤلف من ثلاثة آلاف وخمسمئة عام محصورة في شرق آسيا، فإنها قد مدت إلى الخارج مجساتٍ عبر البحر إلى الجنوب. وقد أدى ذلك في الألف عام الأخيرة إلى سكنى أناسٍ صينيين في الخارج، وكان ذلك في القرنين الماضيين جزئياً رد فعل على الاستيطان الأوروبي ـ أو استغلالاً له ـ فقد تنامت التجمعات الجادة القادمة من وراء البحار، وقد يكون لذلك أهمية في نشر اللغة في المستقبل.

وكانت أول معرفة طفيفة باللغة الصينية في نان ـ يانغ، (أي المحيط الجنوبي) وهي التسمية التي أطلقها الصينيون على شواطئ بحر الصين الجنوبي، قد جاءت من زيارات التجار إلى تونكين (في فيتنام الشمالية) في القرن الثالث قبل الميلاد[19]. وقد تبعهم الجنود في العام 111 ق. م. وقامت الصين بضم تونكين، مع نان يُوي[*] (غوانغسي وغوانغدونغ الحديثتين). وقدر للصين أن تتمسك بتونكين أكثر من ألف عام، حتى العام 938 م في الحقيقة، رغم المقاومة المتفرقة والمتزايدة. وحاولت الصين أن تمتصها ثقافياً، عن طريق أخذ النخبة المحلية باللغة الصينية الفصحى الكلاسيكية، وامتحانات التنافس للإداريين، والاستعمال الرسمي للهجة "وينيان". وكانت هناك هجرة صينية، وتزوج بعض الصينيين من عوائل الأمراء، فأنجبوا كثيراً من القادة فيما بعد. وأصبحت بوذية ماهايانا، التي أدخلت تحت حكم سلالة تانغ، هي ديانة الأغلبية[20]. وبرغم هذا كله فإن اللغة الصينية لم تنتشر بشكل دائم إلى هذا الجزء من العالم.

وفي وقت متأخر إلى حد ما عن التقدم داخل تونكين، كانت اللغة الصينية قد انطلقت على مبعدة إلى الجنوب، رغم أن الغريزة الدافعة لهذا التحرك كانت كما يظهر علمية أكثر منها مادية. وفي القرن الثالث الميلادي كتب المبعوثان الصينيان كانغ تاي وجو يينْغ تقريراً عن تأسيس فونان (في كمبوديا الحديثة)[21]. وليس هناك المزيد مما يقال عنها، أو عما كان الصينيون يفعلونه هناك، ولكن الطريق عبر سري فيجايا (في سومطرة) إلى الهند أصبح مطروقاً جداً من قبل الدارسين والباحثين البوذيين الصينيين بعد ذلك بوقت قصير، من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلاديين. (انظر الفصل الخامس، 'آراء أشخاص خارجيين' ص 277).

وبعد القرن الثامن، تبرز التجارة إلى الواجهة كدافع. ولكن يبدو أن العلاقات قد حافظ عليها تجار أجانب من العرب، والفرس، والهنود. وفي

(*) 'يُوي الجنوبية'، و'نان - يُوي' بلغة الماندارين، و'فييت - نام' باللغة الفيتنامية الحديثة، وهي الكلمات نفسها ملفوظة بطرق مختلفة ومسجلة. وهكذا فإن الاسم باقٍ بشكل قوي على مدى ألفي عام، وقد تحرك إطلاقه 750 كيلومتراً إلى الجنوب الغربي.

القرن الحادي عشر فقط نجد التقارير الأولى عن تجميع التجار الصينيين رأسمال لتمويل إرسالياتهم الخاصة بهم. وكان ذلك تحت حكم سلالة صونغ التي دعمت التجار بشكل فعال. وبعد ذلك، راح دعم الحكومة للتوسع في الخارج يتذبذب ويضطرب. فكان أهل يوان المغوليون مؤيدين للتوسع بصلابة، بل لقد بذلوا جهداً لغزو جاوة في العام 1293م وفشلوا، بينما كان أهل مينغ الذين جاؤوا بعدهم في العام 1368م يفضلون العزلة: فمنعوا التجارة الخاصة. وفرضوا وجوب القيام بكل الاتصالات عن طريق القنوات الدبلوماسية. وحدث إحياء قصير الأمد لنزعة التوسّع أثناء الرحلات البحرية العالمية الشهيرة للأميرال جانغ - هي (في الفترة من العام 1405 إلى العام 1433)؛ ولكن بعد تلك الواقعة اضطر التجار الصينيون المقيمون إلى الاختفاء لفترة من الزمن.

وكان معظم الصينيين الذين اعتادوا على هذه الحياة من فوجيان، ومعهم فريق أصغر من غواندونغ، وهذه حقيقة مسجلة بوضوح في تقرير من القرن الخامس عشر بعنوان "المسح الاستطلاعي لشواطئ المحيط" كتبه ماهْوانْ، أحد البحّارة الذين كانوا مع جانغ - هي. وفيه يقول عن دولتين في جاوه: 'ويقيم هناك كثير من أهالي غواندونغ وجانغجو'، ويذكر منفيين كثيرين آخرين من فوجيان وغيرها في تلك الجزيرة[22]. وتبرز صحة هذا الكلام بوضوح من سيادة اللهجات الجنوبية الشرقية، وهي مين وهاكا ويُوي، في كلام الصينيين في الخارج حتى يومنا هذا(*).

(*) يوجد نصف مليون صيني في الفليبين، و1.8 مليون في تايلند، وكلهم تقريباً يتحدثون بلهجة مين الجنوبية. ومن بين 4.5 ملايين ناطق بالصينية في ماليزيا نصفهم يتحدثون بلهجة مين الجنوبية أو الشرقية، وربعهم بلهجة هاكا، وسدسهم بلهجة يوي. والباقي (وهم نصف مليون) يتحدثون بالماندارين. وقد تلاشت اللغة الصينية إلى حد كبير عن شفاه الستة ملايين من أصل صيني في إندونيسيا. فلم يبق سوى ثلثهم يتكلمونها في البيت، ولكن أكثر من ثلث هؤلاء يتحدثون بلهجة مين، وأقل من الثلث بقليل يتحدثون بلهجة هاكا، وأقل من العشر بلهجة يوي. والربع الباقي يتحدثون بلهجة الماندارين (غرايمز 2000).

التعامل مع الشياطين الأجانب

من القرن السادس عشر حتى اليوم الحالي، تزايد اتصال الحكومة الصينية مع اليابان ومع سلسلة من القوى الأوروبية، وتوجتها بأولى حالات التقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ فنجمت عن ذلك حروب، وزرع تجمعات أجنبية في مستعمرات تجارية. وبالنسبة للتجمعات الصينية في الخارج، كانت التأثيرات معقدة: فقد كانت تعاني أحياناً من إجراءات الصين الهادفة إلى إفقار الأجانب ونزع سلاحهم، ولكنهم استفادوا أيضاً من الفرص التي أتاحتها لهم مشاريع الأجانب الإنمائية الجديدة، وخاصة مشاريع بريطانيا. ففي أوائل القرن السادس عشر، كان القراصنة اليابانيون مشكلة ملحة. ففرضت الصين حظراً على اليابان. واستكمالاً لذلك، فإنها حظرت أيضاً كل الرحلات التجارية البحرية إلى نان - يانغ في العام 1522، وبذلك حوّلت كل الصينيين في الخارج إلى مهرّبين وقراصنة. وفي تلك الأثناء كان المستكشفون الأوروبيون يتلصصون حول بحار الصين، باحثين عن امتيازات تجارية. وفي العام 1557، مُنح البرتغاليون موطئ قدم في ماكاو على الساحل، فثبت أن ذلك كان كافياً لإبعاد اقتحاماتهم في المدى الطويل. ولكنه أضاف مزيداً من الأعباء على كاهل الصينيين في الخارج، فظهروا في وضع غير مؤات حتى في مواجهة الفرنجة الأوروبيين الغادرين ذوي الخسّة(*)؛ وفي آخر الأمر تم رفع الحظر عن الرحلات البحرية الصينية إلى نان - يانغ في العام 1566.

ورغم أن مجيء الإسبان والهولنديين في أعقاب البرتغاليين قدم أسواقاً واسعة جديدة للتجار الصينيين الذين كان قد مضى عندئذ زمن طويل على إقامتهم في جزر الهند الشرقية، فقد كان نقص الدعم لهم من الصين يعني بقاء التجار الصينيين دائماً في وضع غير مؤاتٍ. ففي لوزون، في مستعمرة الإسبان الجديدة في الفلبين، تعرّض السكان الصينيون لمجزرة في العام 1602، ومجزرة أخرى العام 1639 دون أي عقاب لمرتكبي المجزرتين على الإطلاق. ورغم ذلك،

(*) إن كلمة الفرنجة التي أطلقت أول الأمر على البرتغاليين مشتقة من الكلمة العربية - الفارسية "فرنجي" التي يعود أصلها إلى كلمة "فرانك".

فقد راحت المجموعة التجارية تعتبر قوة مفيدة: فعندما أطاح المانشو بسلالة مينغ في العام 1644، كانت آخر المرتكزات الحصينة الموالية موجودة في المجتمعات البحرية في جيجيانغ، وفوجيان، وغواندونغ، وفيما بعد، حتى العام 1682 على مبعدة من الساحل في فيتنام والفليبين. وبالطبع فقد عانوا بسبب ولائهم، مع قيام المانشو 'بتطهير الشواطئ' من جميع سكانها بدقة تامة، فنقلوهم لمسافة أميال إلى الداخل لمنع أي دعم للبحارة، وبما أن الغزاة المانشو صاروا هم السلطة الشرعية من خلال انتصارهم، تحت حكم سلالة كنغ، فلعلهم أرسوا أيضاً أساساً لشيء من عدم الثقة التي راحت حكومة الصين المركزية تشعر بها منذ ذلك الحين إزاء جاليتها المقيمة في الخارج. فكان هذا وقت بذور الجماعات الإجرامية الصينية والجمعيات السرية.

ولكن كانت هناك قوى أخرى طليقة في نان - يانغ، وكان الصينيون جاهزين للاستفادة منها. فعندما مُنع الأوروبيون من دخول تايلند في العام 1688 صار الصينيون شركاءها التجاريين ومستشاريها الاقتصاديين الرئيسيين طيلة القرن الثامن عشر. وكانوا مستقرين بشكل آمن ومريح أيضاً في مملكة جوهور بالملايو. ولكن في الفترة نفسها وجدوا فرصاً وفيرة للربح من التواطؤ مع الشركة الهولندية الجديدة (شركة الهند الشرقية)، إلى درجة أنهم تعرضوا لمجزرة كبرى أخرى على أيدٍ هولندية، في جاوة، في العام 1740. وعندما بدأ الإنكليز مشروعهم الخاص بهم في الهند الشرقية، على جزيرة بانانغ الخالية التابعة للملايو في العام 1785 كان الصينيون هم الذين تطوعوا ليأهلوا تلك الجزيرة. وبالمثل، كانوا في مقدمة عملية تنمية 'رافل' بالاشتغال بالحِرَف الوضيعة في سنغافورة بعد العام 1819. وعندما راحت السلطة البريطانية تنتشر عبر الملايو وبورنيو الشمالية والسلطة الهولندية تنتشر على مبعدة إلى الجنوب، لحقت بهما المصالح الصينية. فكان الصينيون شديدي المحبة لإقامة البريطانيين للموانئ الحرة.

وراح الضغط عندئذ يتزايد على الصين نفسها من المصالح التجارية في فرنسا وبريطانيا. فتركز الاهتمام الفرنسي على الممتلكات الصينية في فيتنام،

ولكن البريطانيين أخذوا يتعاملون بشكل مباشر أكثر شراسة مع حكومة كنغ، دفاعاً عن متاجرتهم بالأفيون المجلوب من البنغال: فكانت النتيجة فصل هونغ كونغ عن جسم الصين (في العام 1842 وتوسيعها في العامين 1860 و1898) ووصول الأجانب إلى خمسة موانئ أخرى مشمولة بالمعاهدة بما فيها شنغهاي (عام 1842). ورغم أن أبرز هذه لم تكن في فوجيان التي هي منطقة تجنيدها للعمالة التقليدية الكلاسيكية، فقد ضمن الصينيون المقيمون في الخارج عندئذٍ الوصول إلى البر الصيني الرئيسي. وتنامت العلاقات، ولأول مرة منذ القرن السابع عشر فإن الشراكة المباشرة مع البر الرئيسي صارت جزءاً هاماً من تجارة الصينيين المقيمين في الخارج. كانت نان ـ يانغ آخذة في المجيء إلى وطنها.

الأسباب والعلل

أما وقد استعرضنا المسيرة الكاملة لتاريخي اللغتين المصرية والصينية، فقد صار بوسعنا أن ننظر في ماهية الخصائص الكبرى التي قد توضح استقرارهما الذي لم يتزعزع في وجه الزمن والغزو.

هناك إمكانيات معينة واضحة يمكن إزاحتها جانباً على الفور، ما دامت المصرية والصينية فيها على طرفي نقيض.

ففي أوضح جانب لغوي، وهو النمط التركيبي للغتين، فإنهما كانتا دائماً شديدتي الاختلاف بصورة جوهرية، وقد تطورتا في اتجاهات مختلفة على مدى تواريخهما المسجلة. وعند النظر إليهما بطريقة أكثر تجريداً، فإننا نستطيع أيضاً أن نرى أنهما كانتا مختلفتين تماماً في جانب آخر من بيئاتهما اللغوية: أي درجة التشابه أو الاختلاف بينهما وبين اللغات المجاورة لهما.

فقد ظلت اللغة المصرية طيلة تاريخها كله لغة كثيرة التصاريف؛ فيها تصريفات معقدة للأفعال، ومرونة في نظام ترتيب كلماتها، رغم أنها تطورت على مدى آلاف السنين إلى حد ما ليصبح لها تركيب أكثر قابلية للإعراب، مع

أدوات وضمائر شخصية منفصلة تصبح من مكوّنات الجمل والتعابير الاسمية والفعلية، وذات نظام لترتيب الكلمات أكثر ثباتاً. وعلاوة على ذلك، فإن اللغات التي كان من المتوقع أنها قد تؤثر عليها أو تحل محلها، وخاصة الليبية والآرامية، كانت شبيهة لها في رمزيتها، تماماً كما كانت العربية تشبهها وكانت هي هلاكها النهائي. ولا يبدو أنه يوجد في التركيب اللغوي المطلق أو النسبي أي سبب يفسر استقرارها.

وعلى عكس ذلك، فإن الصينية القديمة كانت مثالاً على العزلة المفرطة، فجذورها أحادية المقطع ومتميزة بأنماط نبرات هامة تعمل ككلمات مستقلة، ونظام ترتيب كلماتها هو أهم جانب في تركيبها. ومرة أخرى كان هناك شيء من التغيير المرئي على مدى آلاف السنين: ولكن الصينية اتجهت نحو تقليل التأثر بحالات الإعراب، وتطورت فيها كلمات أطول على أساس اشتقاقها من جذور كانت في السابق قابلة للانفصال، وتغيرت بعض الجذور إلى زيادات صرفية في النحو، كي تدل على أشياء مثل صيغ الجمع، أو الأفعال الرابطة بين المبتدأ والخبر، أو الكلمات الدالة على الجمل الموصولة والفرعية أو الثانوية. وعلى عكس اللغة المصرية التي واجهت تحديات من لغات من نمطها نفسه، فإن التهديد للغة الصينية قد جاء من اللغات الألطية، التي كانت كما رأينا، من أنماط مختلفة اختلافاً جذرياً. والواقع أنه في الأماكن التي اتصلت فيها الصينية بلغات من نمط مشابه لها (في الجنوب) فقد كانت الصينية هي اللغة الداخلة إليها وكانت تميل إلى الحلول محل تلك اللغات.

إن وجهة النظر الدينية جانب هام آخر من جوانب الثقافات حيث يمكننا البحث عن أدلة على استقرارها قد تنعكس بعدئذ في اللغة. وقد رأينا (في الفصل الثالث: 'الفترة الفاصلة الثانية: درع الإيمان'، ص 138) أن الارتباط بالدين، وخاصة في الشرق الأوسط، يمكن أن يحافظ على اللغة ضد الأخطار. ولكن هنا أيضاً تفترق مصر والصين.

كان الإيمان بالحياة الأخرى هاماً عند المصريين: فكانوا يتعمدون أن يجعلوا قبورهم الجزء الأكثر ديمومة وثباتاً في بيئتهم المبنية. ونجدهم في أدبهم

شديدي الاهتمام بما يمكن أن يعرفوه عن الحياة بعد الموت، وصدور الحكم، والنجاة الفردية. ومن المؤكد أنهم حافظوا على دينهم طيلة معظم مدة حياة لغتهم، ولم يبشروا به في الخارج بقدر ما حاولوا نشر لغتهم عندما وسعوا حدود سلطتهم. ومع ذلك فإن بعض جوانب إيمانهم قد انتشرت بدون اللغة: فإلهتهم الأم إيزيس صارت واحدة من الآلهة التي لقيت أوسع تبجيل في الإمبراطورية الرومانية، وصارت تعتبر جذر الطقوس المسيحية الخاصة بمريم أمّ المسيح. ومن المفارقات أنه عندما قمع المسيحيون الطقوس المصرية، اتخذت المصرية طريقاً جديداً في الحياة باعتبارها اللغة المحلية للديانة المسيحية. ومن المؤكد أن الديانة المصرية كانت مؤاتية لبقاء اللغة المصرية ولكنهما انفصلا عن بعضهما قبل زمن طويل من النهاية.

وكان الموقف الصيني من الدين مختلفاً جداً. فكان يتميز إلى أقصى حد بأنه واقعي عملي ملتصق بالأرض. فكان هناك تقليدان رئيسيان كبيران، أحدهما يتبع كونفوشيوس (كونغ فو - زي، أي 'الملك السيد')، فيعطي للفضيلة تعريفاً اجتماعياً ودنيوياً إلى حد كبير. وكان التقليد الآخر يتبع داو (أي "طريق") لاو - زي وجوانغ - زي، بالسعي للاندماج مع الأنماط المتميزة في الطبيعة. وباستثناء الاعتقادات الشعبية الروحية، فإنه لم تكن هناك أي استجابة لأي أشواق صينية متلهفة على عالم آخر، حتى بدأت البوذية تتغلغل من الهند في الألف الأول الميلادي (فكانت البوذية بالنسبة للصينيين ديانة غربية). وقد ازدهرت في الأوقات المضطربة في القرون الثالث والرابع والخامس بعد الميلاد، ثم صارت هي العقيدة الثابتة لسلالة تانغ التي أعادت الحكومة العالمية القوية للصين، وترجمت الأعمال الكلاسيكية من لغة بالي ومن السنسكريتية إلى الصينية، فأصبحت البوذية هي العقيدة الطبيعية الصينية.

ولكن البوذية، مع تأكيدها على تحمّل الألم، والاستكانة، وعدم أهمية الجولة اليومية من الحياة، لم يكن لها أبداً تأثير إيجابي على الملوك الذين يجب عليهم أن يحافظوا على ممالكهم ضد العدوان الخارجي. فلم يستطع أي ملك بوذي في موطن البوذية في الهند، ولا حتى آسوكا، أن يؤسس سلالة تدوم أكثر من

جيلين. كما أن جاذبية البوذية الغربية للشعوب الألطية، وخاصة التابغاش، ومغول جنكيز خان، قد وضعت نهاية مبكرة لفضائلهم العسكرية كجنود عندما استقروا في الصين. وكما يلاحظ غروسيه، فإن 'هؤلاء المقاتلين الشرسين، بمجرد أن مسّتهم نعمة البوذية صاروا خاضعين للمبادئ الإنسانية في تعاليم "السرامانا" [أي الكهنة البوذيين] إلى درجة أنهم لم ينسوا صفتهم الحربية الأصلية فحسب، بل أهملوا أيضاً دفاعهم عن أنفسهم[23]'.

ولكن كان هناك جانب ديني متشابه عند المصريين والصينيين، ولعله متصل بقدرة لغتيهم على البقاء الكثيف المركّز في مواضعهما الطبيعية الأصلية على مدى آلاف السنين. وكان هذا هو الموقف الذي اتخذه كل منهم إزاء إمبراطوره، وعلاقته بأرضه، وشعبه، وآلهته.

فقد حققت كل من هاتين الإمبراطوريتين وحدة مبكرة في ظل حاكم وحيد، مصر تحت حكم المينيين Menes الأسطوريين، والصين تحت حكم الإمبراطور التاريخي شي هوانغ دي. ورغم حدوث كثير من الانقسامات بعد ذلك، وتنافس بين الممالك المختلفة، فإن الحضارتين لم تجدا أبداً أن عدم الوحدة هذا يمكن تحمّله: فتاريخهما، كما رأينا، كان يميز بصلابة بين الفترات المزدهرة، التي كان فيها بيت ملكي وحيد يسيطر على البلد بكامله، وبين فترات خلو العرش، التي ربما كانت سلمية تماماً ولكنها كانت تعاني من الخلل الأساسي المتمثل في انقسام البلد. فقد كان هذان البلدان مركزيين إلى حد كبير، وكان المركز في كل منهما بلاطاً ملكياً، ولم يكن مكاناً (فقد كان لكل منهما عدة عواصم إمبراطورية مختلفة ـ مثل طيبه، وممفيس، وتانيس، وليونتو بوليس، وسايس في مصر، وتشانغ ـ آن، ولويانغ، ونانجينغ، وهانغجو، وبيجينغ في الصين). وفي كل حالة، كان موقع الملك مقدساً في الإيمان الوطني(*). فقد كان الفرعون المصري يعتبر

(*) كانت الإمبراطوريتان في أحيان قليلة جداً تسمحان لامرأة أن تتولى منصب العاهل، ولا سيما حتشيبسوت (1473-1458 ق. م.) وكليوباطرة (51-30 ق. م.) في مصر، والإمبراطورة وو (690-705 م)، وسي إكسي (1895-1908 م) في الصين. ومن الغرائب المخيفة، أن حكم المرأة في المملكتين هو الذي أودى بهما إلى النهاية بعد عدة آلاف من السنين.

تجسيداً للملكية، محتفظاً بعلاقة مباشرة مع الآلهة نيابة عن كل شعبه في أراضي الوجهين البحري والقبلي. وبالمثل، كان الإمبراطور الصيني هو ابن السماء، الذي يضمن النظام في المملكة الوسطى.

وكان الحاكمان مطلقين مستبدين في البلدين، لا يستمدان السيادة من الشعب، بل من الآلهة. ومع ذلك فقد كان كل منهما خاضعاً لقيد معنوي واضح صريح، يسمى 'مارآت' في مصر، أي 'نظام' أو القانون الأخلاقي والطبيعي. فكان على الفرعون واجب وضع هذا القانون في محله في مملكته بدلاً من 'جازفات'، أي الخطأ. وكان على الإمبراطور الصيني واجب الحكم بالعدل والامتناع عن الظلم: فلا يستطيع أن يحتفظ بتكليف السماء له (تيان مينغ)، أي بشرعيته إلا إذا قام بواجبه هذا حسب مذهب مينسيوس (مينغ - زي) النافذ السائد: فالحاكم الظالم يكون قد تخلى عن حقه في الحكم، ويمكن للشعب أن يكون على حق في إسقاطه.

إذن فقد كان لدى مصر والصين كليهما المذهب السياسي البسيط نفسه للحفاظ على النظام، والذي أقام هوية البلد على أساس حكم إمبراطور وحيد، وأقام سيادة الإمبراطور على الحق. ولذلك فإن الفلسفة الوطنية كانت تشمل المبدأ المتأصل في داخلها لإثبات كون الله محقاً وعادلاً: فكان برهان أحقية الحاكم هو نجاحه في الحفاظ على سلالة حاكمة. وكانت الآلهة تضمن أن النجاح سيكون من نصيب الملوك المحقّين فقط، وهكذا فقد كان كل شيء صحيحاً في العالم سواء كان الملك فاشلاً أم ناجحاً، وكان المواطن المصري أو الصيني، سواء أكان دخيلاً حديث القدوم، أم مقيماً منذ زمن طويل قادراً على إعطاء ولائه للنظام.

هذا المذهب كان مناسباً بشدة لثقافة تتمتع باستقرار طويل الأمد، مع العواقب اللغوية التي رأيناها. ولكن يمكن الإصرار على أنه كان نتيجة الاستقرار الثقافي وليس بسببه.

ومن ناحية الحجم المجرّد، كانت مصر والصين مختلفتين جداً. فرغم

تشابههما من حيث الديمومة، فقد كان سكانهما ومناطقهما من نوعيات مختلفة تماماً. فسكان مصر في العصور القديمة كان عددهم يقدر بمليونين في المملكة القديمة، ثم ازدادوا إلى 8 ملايين على مدى ثلاثة آلاف عام حتى الغزو الروماني. وكانت المنطقة المأهولة في وادي النيل والفيّوم تضم مساحة قدرها ثلاثون ألف كيلو متر مربع. وعلى عكس ذلك، كانت أرقام إحصاء السكان في الصين (التي أتيحت لأول مرة في العام 2 بعد الميلاد) تظهر أن عددهم 57 مليوناً، فزادوا إلى أكثر من 80 مليوناً في العام 1000م وإلى أكثر من 1,200 مليون عند مطلع الألفية الحالية. أما منطقة 'الصين داخل السور' (باستثناء منغوليا الداخلية، ومنشوريا، والمناطق الغربية مثل غانزو وكنغهاي، القليلة السكان دائماً) فكانت مساحتها تصل إلى حوالي 5.4 ملايين كيلو متر مربع[24]. فاللغة الصينية، والتاريخ الصيني كان عدد المنتسبين إليهما أكثر من المصريين بخمسين مرة، وكانت مساحة عملهما تعادل المساحة المصرية بمئة وخمسين مرة.

غير أن هذا يؤدي إلى جانب آخر مشترك بينهما ـ وهو الكثافة السكانية العالية. ومن الأرقام المنقولة عن مصر، فإن كثافة السكان كانت 65 نسمة، وارتفعت إلى 250 نسمة في كل كيلو مترمربع على مدى تلك الفترة. ولكن الصين كانت ذات بيئاتٍ أكثر تنوعاً، غير أن أرقام إحصاء سكانها تجعل من الممكن الابتعاد قليلاً عن الوضع في البلد ككل: ففي فترة حكم سلالة هان تظهر هذه الأرقام كثافة قدرها 58 نسمة في كل كيلومتر مربع في وادي هوانغ ـ هي (أي النهر الأصفر) و12 نسمة لكل كيلو متر مربع في وادي يانغتسي الأكثر انخفاضاً. وبعد ذلك بألف عام، في العام 1250 م ربطت القنوات نظامي النهرين، ولكن الأهم من ذلك أن الشمال قد تحمل غزوات من حشود كسيونغنو، وتابغاش، وخيتان، وجورتشين، والمغول: وفي هذه الفترة تناقص سكان الوادي الأسفل للنهر الأصفر بنسبة 45 بالمئة، بينما ازداد عدد سكان الضفة الشمالية لنهر يانغتسي بنسبة 176 بالمئة، وبضعف هذه النسبة (أي 337 بالمئة) على ضفته الجنوبية. وهذا يضع منطقتي الصين على مستوى متكافئ، بكثافة قدرها 30 ـ 40 نسمة في كل كيلومتر مربع في كل منهما، أي أقل من نصف الكثافة

الموجودة على نهر النيل[25]. قارن هذا مع الكثافة في عصر قسطنطين (في القرن الرابع الميلادي)[26] المقدرة بعشرين شخصاً لكل كيلومتر مربع في إيطاليا - و19 شخصاً في الأناضول الشرقية(*).

وحسب المقاييس القديمة، فإن كثافة السكان في مصر والصين كانت شيئاً استثنائياً حقاً. ولا بد أن ذلك قد دعم استقرار لغتيهما على المدى الطويل أيضاً. فالأعداد المحضة للناطقين بهما في مناطقهما المأهولة أعطتهما مناعة ضد إغراقهما بقادمين يتكلمون لغات أجنبية، حتى عندما عجزتا عن منعهم من الدخول. فالقوة في الأعداد عززت اللغتين اللتين كانتا محصنتين بنفوذهما الثقافي كذلك، وبمؤسسة ملكية قوية ترعاها وتؤيدها السماء.

وإن طابع الاكتفاء الذاتي والمرونة وسهولة التكيف في اللغتين المصرية والصينية يتكشف في أوضاع كثيرة اضطرت فيها اللغتان، أو الناطقون بهما، إلى التفاعل مع الأجانب وتقاليدهم اللغوية. فهذان المجتمعان الكثيفان والمركزيان لم يكونا منيعين دائماً على التأثير الأجنبي، حتى في تمثيل لغتيهما واستعمالهما. ولكن طيلة آلاف السنين كان فيهما توازن كاف، أو خمول كافٍ لإبقاء الخارجيين تحت سيطرتهما الثقافية.

وفيما تبقى من هذا الفصل، سننظر في ثلاثة جوانب من ثقافتهما لا بد أنه كان للأجانب تأثير فيها: وهذه الجوانب هي تاريخ الكتابة، ومعرفتهما بالقوى الأجنبية وموقفهما حيالها، ورد فعلهما على الغزو. وفي كل حالة، كانت استمرارية اللغتين الثابتة تعتمد على رفضهما الصارم على رؤية نفسيهما، أو التصرف بنفسيهما، حسب شروط الآخرين.

(*) من أجل المقارنة، فإن كثافة السكان الحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية هي 27 نسمة لكل كيلومتر مربع، وفي إيطاليا 192 نسمة لكل كيلومتر مربع، وفي المملكة المتحدة 235، وفي اليابان 328.

التمسك الشديد بنظام للكتابة

قلّد أباك وأجدادك ... انظر إلى بقاء كلماتهم في الكتابة. وانفتح عليها، كي تتمكن من قراءة حكمتهم وتقليدها. فالرجل البارع يصبح متعلماً.

تعليمات للملك مريقار، السطر 35 (باللغة المصرية، منتصف القرن العشرين ق. م.)[27]

الكتابة لا تستطيع أن تعبر عن كل الكلمات، والكلمات لا تستطيع أن تشمل كل الأفكار.

"الأثر التقليدي للتغيرات "، الملحق التاسع والثمانون (منسوب إلى كونفوشيوس)،

1: 12 (باللغة الصينية، قبل القرن الخامس ق. م.)

إن نظام مصر الكتابي غريب في كونه ليست له إرهاصات معروفة سبقته. فأول النصوص الهيروغليفية، على الأختام، واللوحات التجميلية، والنقوش والنصب التذكارية، رغم أنها قد تكون قصيرة، فإنها متشكلة جيداً في النظام الذي قيّض له أن يستمر طيلة الثلاثة آلاف وخمسمئة عام التالية. وهذه النصوص تستخدم الصور لإعطاء دلالات لفظية، فتجعل الحروف الصامتة المميزة للكلمة الموضحة تؤدي وظائف متعددة، وكأن صورة السكين بالإنكليزية لم تعد تؤدي معنى كلمة 'knife' فقط، بل صارت أيضاً تعطي معنى 'niffy' أي شديد الجاذبية، أو 'nephew' أي ابن الأخ، أو 'enough' بمعنى الكافي. ومع ذلك، فإن الأسلوب النموذجي متصور مسبقاً في رسوم توضيحية كان الفنانون يصنعونها قبل دخول الكتابة، مما يوحي بأن النظام قد أقيم على أساس أهلي محلي[28].

والافتراض العادي هو أن الإلهام قد جاء من وادي الرافدين، حيث كانت الكتابة قد تطورت من سجلات المحاسبة وباستخدام المبادئ المستعملة في علامات اللفظ نفسها، قبل ذلك ببضع مئات من السنين. فقد كانت هناك طرق تجارية قديمة على طول وادي عربة تربط وادي النيل مع البحر الأحمر. وحسبما نعرف، فإن أصل الكتابة قد يكون من عبقرية كعبقرية الباحث الهندي الأحمر، سيكويا، الذي كان أمياً من عشيرة شيروكي (1760ـ1843 م) ولكنه في القرن التاسع عشر اعتبر معرفة القراءة والكتابة بالإنكليزية برهاناً على مفهوم أو فكرة عامة، ثم انطلق ليطور أبجدية مقطعية للغته نفسها من المبادئ الأولى.

وكيفما كان الأمر، فإن النظام سرعان ما تم توحيده في أسلوب مصري للتوضيح. ورغم أن الأشكال المقوّسة من الرسوم الرمزية الهيروغليفية قد تم تطويرها للاستعمالات اليومية، فقد تم الإبقاء على رسوم صارمة الدقة وثابتة لاستعمالها في النصوص المنقوشة على النصب التنكارية. وقد تمت المحافظة على ذلك رغم أن المواد التي استخدمها المصريون، سواء أكانت صباغاً ملونة على الجدران، أم حبراً على ورق البردي يوضع بالفرشاة، كانت تسمح بحرية كاملة في الأسلوب. ولكن ممارسة التخطيط المتدفق الرشيق لم تبدأ في مصر على الإطلاق. فالكتاب المصريون في نهجهم الثابت باطراد كانوا مختلفين جداً عن أساتذة أنظمة مثل الحروف الصينية أو صور المايا الرمزية المنقوشة النافرة.

علاوة على ذلك، وعلى الرغم من إضافة رموز هيروغليفية جديدة بين الحين والآخر فلم يتغير المبدأ الأساسي للنص المكتوب، واستخدام المعنى المزدوج في التورية في الحروف الصامتة في الكلمات المصورة موضحةً باستخدام مزيد من الصور لتحديد مدى المعنى والصوت. ونجد استخدامات تجريبية للرموز الهيروغليفية لتأسيس أبجدية في مواقع الحفريات الأثرية في شبه جزيرة سيناء؛ وكذلك الاستخدامات الجديدة بشكل جذري في آخر الأمر لمجموعة صغيرة من الرموز على أيدي الفينيقيين، شركاء مصر التجاريين، لتأسيس أبجديتهم، التي هي الجدّ الأعلى الظاهر لكل الأبجديّات في العالم اليوم. ولكن بينما كان هؤلاء الأجانب يأخذون إلهاماً منحرفاً من المصريين، فإن المصريين أنفسهم لم يحوّروا نظامهم الهيروغليفي لكتابة لغتهم نفسها.

إن هذه المقاومة لإصلاح النص المكتوب، وهي خاصية يشتركون فيها مع الصينيين، لا تبين في الحقيقة أكثر من أن هاتين الثقافتين - اللتين كانتا مبكرتين جداً حسب المقاييس الإقليمية والعالمية - قد حققتا دمجاً مستقراً للكتابة في طريقة حياتهما. فلم يكن طلب تبديل نظام الكتابة في مثل هذه الإدارة المتعلمة قابلاً للممارسة العملية أكثر من المحاولات المختلفة لإدخال إصلاح في التهجئة على اللغة الإنكليزية الحديثة. ولم يكن ذلك ليصبح عملياً وملائماً إلا إذا تعرضت أنظمة التعليم والإدارة إلى تمزق شديد القسوة إلى درجة تعطيل التتابع،

بحيث يمكن القيام ببداية جديدة. ولم يحدث هذا في مصر أبداً إلى أن استولت على البلد ثقافات لها تقاليد إدارية منافسة، هي الفارسية، والإغريقية، والرومانية. وعندئذ تقوّض استخدام اللغة المصرية في الإدارة وحلّت محلها الآرامية واليونانية. ولكن رغم ذلك فإن اللغة المصرية لم تستطع القفز إلى الكتابة بنصوص ألفبائية جاهزة إلا عندما قدمت المسيحيةُ استخداماً جديداً بكليته لمعرفة القراءة والكتابة. أما في الصين، فإن التحول إلى الكتابة بالأبجدية لم يحدث على الإطلاق، رغم إلغاء نظام الامتحانات الإمبراطوري في العام 1905، وهو النظام الذي كان بالفعل المؤسسة التعليمية والإدارية المركزية، ورغم أن التكهنات الأساسية الجذرية عن مستقبل نظام الحروف في النصف الأول من القرن العشرين، والتي شملت حتى سماح جمهورية الصين الشعبية بنظام جديد لرسمها بالحروف الرومانية، هو نظام البنْيِنْ pinyin (المستخدم في هذا الكتاب كله).

كان الكاتب المصري يمثّل منذ أقدم الأزمنة الموثقة ذروة الطموح. وهذا ما تؤكده بشكل وفير أنواع النصوص التي كانت تستنسخ في مدارس الكتّاب:

> انظر ليست هناك مهنة غير محكومة، إن الرجل المتعلم هو وحده الذي يحكم نفسه[29].

> ابدأ بالعمل وصر كاتباً، لأنك عندئذ ستكون قائداً للرجال. فمهنة الكاتب مهنة أمراء، ومواده الكتابية ولفافات كتبه تجلب المسرة والثراء[30].

وفي هجاء الحِرَف، يتفاخر الكاتب:

> لم أر نحاتاً أُرسل في سفارة، ولا سبّاك برونز يقود بعثة.

وقد ولّد هذا الرضا عن النفس نزعة محافظة شديدة لعلها كانت في آخر الأمر سبب خراب مصر. فقراءة اللغة المصرية وكتابتها ظلت محصورة في طبقة صغيرة وعالية التعليم زمناً طويلاً بعد هلاك آخر دولة مصرية مستقلة، بل إلى أن كيفت المسيحية الأبجدية الإغريقية للغة: وقد اتخذت هذه الخطوة بعد ألف عام كاملة من تبني باقي أنحاء البحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك الآشوريين والبابليين للكتابة الأبجدية.

ولكن النظام الصيني، كأنه أراد أن يظهر أنه ليس هناك حد لحياة النظام التصويري في عصر أبجدي، ظل باقياً حتى خلال هياج دوامة القرن العشرين. فقد استمر بدون أي تغير جوهري رغم بعض التبسيط في فن الخط منذ أن فرض شي هوانغ دي توحيداً قياسياً لنظام كان عمره أكثر من ألف عام، وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد. فأسس هذا النظام صورة خاصة ذات أسلوب معين، أو مجموعة من التوريات اللفظية، مضافاً إليها علامات تحديد المعنى، في صندوق وطني مربع، لكل كلمة أو جذر في اللغة. وبعد التأسيس، صارت أقل اعتماداً على رموز اللفظ من النظام المصري، وهكذا صار استخدامها العملي أقل تأثراً بالتغيرات اللفظية التي طرأت على اللغة على مدى الألفين وخمسمئة عام التالية. وراح الباحثون والدارسون الصينيون يراقبون بشيء من التسلية وعدم الاهتمام عمليات التحوير، والتشذيب، والإضافة، التي تصورها الأجانب لإنتاج رموز "كانا" اليابانية، وهي مجموعتان من ثمانية وأربعين رسماً محيطياً مبسطاً تمثل المجموعة الكاملة للمقاطع اليابانية - وكذلك الأبجدية اللفظية الكورية الحقيقية المسماة "هان - غول"، ولكنها مصممة بحيث تنسجم على الصفحة مع الحروف الصينية. وكانت كل من هاتين الحالتين حلاً أصلياً لقلة التطابق والتلاؤم بين الحروف الصينية، وبين لغتيهما المتعددة المقاطع والحاويتين على حروف زائدة ملصقة بالكلمات، وغير المعتمدتين على النبرات الصوتية - ولا بد أن هذا لم يكن يظهر كمشكلة للغة الصينية نفسها.

والواقع أن اللغة الصينية في الألفين وخمسمئة عام الماضية صارت تعي وجود عدد من النصوص الكتابية الأبجدية، التي تم تصورها بشكل مستقل تماماً عن حروفها. فالبوذيون قد جلبوا نسخة 'سيدْها' المعدلة من الأبجدية البراهمية من الهند، والمسلمون الذين أسلم على أيديهم كثير من الناس الغربيين جلبوا تنويعات من النصوص الآرامية والعربية. بل إن الإمبراطور المغولي قبلاي خان أمر باستخدام نص أبجدي لإمبراطوريته كي يُستعمل رسمياً لتعليم قراءة وكتابة كل لغاتها، المغولية، والصينية، والتركية، والفارسية. وقد أطلق على ذلك النص الأبجدي اسم 'فاغسبا'، وكان مبنياً على أساس النسخة التيبتية من اللغة

البراهمية. وقد تم الإعلان عنه في العام 1269. وكان نسخة من النص التيبتي محوّلة بحيث تكتب بشكل عمودي (رغم اختلافها عن الحروف الصينية في الأعمدة من اليسار إلى اليمين)، ولكن بشكل مربع، احتراماً ومراعاةً للذوق الصيني. غير أن هذه الأبجدية لم تنتشر، وانقطع استمرارها مع انتهاء حكم السلالة المغولية بعد ذلك بقرن واحد فقط.

إن الميزة العظمى للنظام الصيني هي تمثيله المتقن لأعلى عامل مشترك للتركيب والمعنى اللذين تتشارك فيهما كل اللهجات الصينية التي ليس في كثير منها فهم متبادل. فكل اللهجات الحديثة، وكذلك "وينيان"، مبنية على مجموعة مشتركة من المقاطع ذات المعنى، يمكن لفظها وتصفيفها معاً بترتيبات مختلفة في اللهجات المتنوعة، ولكنها مع ذلك يمكن التعرف عليها بالشكل التصويري المرسوم. وبصورة عامة، فإن كل واحد من هذه المقاطع يتمثل في الكتابة بحرفٍ وحيد، وهكذا فإن معنى نص صيني مكتوب سيكون واضحاً نسبياً لأي متعلم ناطق بأي لهجة. وعندئذٍ لم يعد هناك نص أبجدي مبني بحكم الظروف على أصوات اللغة يمكن أن يكون محايداً بشكل مناسب إزاء جميع اللهجات الصينية المختلفة، إلا إذا كان مصمماً حسب مبادئ تاريخية، مع معرفة بكل تنويعات اللغة الصينية. ومثل هذا العمل الدالّ على الألمعية لا بد أن يكون معجزة من الخفاء والغموض. وهكذا تعيش وتبقى الحروف التقليدية.

ورغم صعوبة تعلّم النظام، فإن معرفة القراءة والكتابة في الصين لم تبق إنجازاً قاصراً على النخبة وحدها كما كان الحال في مصر على الدوام. فقد كانت هناك مستويات مختلفة من التحصيل حسب ثروة العائلة والفرص المتاحة لها، ولكن العائلات الفقيرة استمرت في إنجاب نجم فكري بين حين وآخر. وكانت مهارات القراءة والكتابة لا تزال تحظى بالتقدير في الصين، ولكن على مستوى وظيفي أعلى. وهكذا فإن مكانة الكاتب في مصر تتماثل أكثر في المجتمع الصيني مع مكانة خرّيجي المستويات العليا من الامتحانات التنافسية الإمبراطورية. وكانت الامتحانات بصورة عامة تجرى مرة كل ثلاث سنوات، من عام 622 إلى عام 1905.

إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتبناه الصينيون من الأجانب فيما يتعلق

بالكتابة ليس الكتابة نفسها، بل إعراب اللفظ وتحريكه. فنظام "فانقي " التقليدي يصنف لفظ الحرف حسب الحرف الصائت الأول، ووزنه، مضافاً إلى النبرة، ولكن 'دراسة الأوزان السجعية المتدرجة'. تصنف هذه الأجزاء المكونة لفظياً. إن هذا الاختراع للباحثين الصينيين في القرنين الميلاديين السابع والثامن قد جاء إلى حد كبير تحت تأثير حركات الإعراب الصوتي الخفية للفظ السنسكريتي المستمدة من التقليد البوذي[31]. ومع ذلك فإن إعراب الجزء السجعي المقفّى من الحرف المقطعي ضمن مكوناته من أشباه حروف العلة، وحروف العلة والحروف الصائتة كان عليه أن ينتظر تعميم النهج الأبجدي الأكثر شمولاً واكتمالاً، وعلى وجه الدقة اعتماد الحروف الرومانية في القرنين التاسع عشر والعشرين[32].

وإذن فقد كان هناك تمنّع واضح عن الاستمرار في تطوير الأنظمة التصويرية المصرية والصينية نحو تقليل تعقيدها، برغم الوعي بالأنظمة الأبسط التي كان الأجانب يستعملونها. فالحضارات تُبنى على احترام التقاليد، ولا سيّما الصعوبات التقليدية في الانضمام إلى الطبقة المتعلمة التي تمسك بزمام الأمور في الحكومة.

العلاقات الخارجية

كان لدى مصر والصين في معظم الأوقات نقص في اتخاذ موقف فعال إزاء جيرانهما وإزاء الأجزاء الأخرى البعيدة من العالم.

فقد اعتمدت مصر منذ وقت مبكر على التجارة الخارجية للحصول على بعض سلعها الرئيسية، ولا سيما الأخشاب، ولكنها كانت تؤمّن ذلك عن طريق الوسطاء الفينيقين بشكل رئيسي في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، ثم عن طريق اليونانيين فيما بعد. وكانت لها سيطرة على فلسطين وسوريا في حوالي أواخر الألف الثاني وبداية الألف الأول ق. م. ولكنها كما رأينا لم تنشر لغتها (أو ثقافتها) بشكل فعّال لبناء صلات دائمة هناك. فلم تنتشر أبداً على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط باتجاه الغرب: بل كانت تحركات السكان كلها في الاتجاه المعاكس. وكانت مدينة سيرين عند تأسيسها حوالي العام 630 ق. م.

مشروعاً يونانياً، وليس مصرياً. ولعل مصر كانت أكثر نشاطاً في اتجاه الجنوب، في محاولتها لضم جزء كبير من كوش (ومناجم ذهبها) بصورة دائمة، وفي إرسالها بعض حملاتها جنوباً عبر البحر الأحمر للمتاجرة مع أراضي بانت punt الخرافية، ربما في الصومال. ورغم رؤية فائدة ثقافية في توحيد الأراضي السوداء التي كان يفيض عليها نهر النيل، والمحاطة باليباب الصحراوي على الجانبين كليهما، فإن التأثير الصافي لهذه الجهود كان قليلاً. فقد كان السكان الآهلون لهذه المناطق القاسية شديدي الندرة. ومن الناحية السياسية كانت أعجب نتيجة لافتة للنظر هي الغزو المعاكس لمصر في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد على أيدي الكوشيين المتحمسين للثقافة المصرية.

وكانت الصين في وضع مختلف جداً عن مصر. فمن سخرية القدر أنها كانت مضطرة للدفاع عن حدود مفتوحة فعلياً في الشمال والغرب، ولكنها انهمكت بشكل فعّال في التنمية والاستعمار عبر حدود مغلقة بشكل طبيعي في الجنوب. وكانت الشواطئ إلى الشرق تعتبر حداً آخر، مما ترك الصين عرضة لهجوم القراصنة، بدلاً من تقديم فرصة للتوسع البحري.

ولكن فيما وراء مناطق البرابرة المطوّقة للصين، كان هناك شعور بأنه على مبعدة إلى الغرب، في الهند وفي الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية يوجد أجانب يستحقون احتراماً أكثر إلى حدّ كبير. والواقع أن البلاط الصيني قد أرسل مبعوثاً أو اثنين لاستكشاف هذه الحضارات الغربية والإبلاغ عنها؛ كما أن البوذية، والزرادشتية، والمسيحية النسطورية، والإسلام، تغلغلت كلها في الصين تحت حكم تانغ إلى درجة أن الديانات الثلاث الأولى منها عانت من الاضطهاد الرسمي في العام 845 م. (ولم يصمد ويستمر بعد ذلك الاضطهاد سوى البوذية والإسلام). ومن المشهور أن الإمبراطور الصيني يي زونغ أثار إعجاب الزائر المسلم ابن وهب في العام 872 م. بمعرفته الحقائق الرئيسية عن اليهودية، والمسيحية، والإسلام. ولكن الصلات المادية الوحيدة مع البلدان التي أنتجتها جاءت عن طريق التجّار الأجانب الذين كانوا يزورون الموانئ الصينية. وحتى القرن السادس عشر كان هؤلاء جميعاً من اقتصادات المحيط الهندي، ومن جزيرة العرب، وفارس، والهند.

وكانت حالة الهند مختلفة. فعند وصول البوذية إلى الصين (في القرن الأول الميلادي، عن طريق مبادرة هندية) وبداية ترسيخ نفسها، فإن الكهنة الصينيين، بدءاً من فا-كسيان في أواخر القرن الرابع، قد انجذبوا للقيام بالرحلة من الصين بأنفسهم، عن طريق تجاهل القانون خلسةً في بعض الأحيان. وقد اضطر أشهر واحد فيهم، وهو كسوان زانغ إلى المغادرة خلسةً وبشكل غير قانوني في العام 627، ولكنه تمكن من العودة ليلقى ترحيباً رسمياً من الإمبراطور تاي زونغ في العام 644(*). وشاع أسلوب تمويل مراكز واسعة النطاق لترجمة الأدب البوذي. وكانت هناك أيضاً سلسلة من بعثات الكهنة الصينيين المرسلين لدراسة الأدب وتجميعه في الهند - فمن المعروف أنه كانت هناك ست وخمسون من هذه البعثات قبل القرن العاشر، سافرت أربع وثلاثون منها بحراً من غوانغ - جو (كانتون) واثنتان وعشرون براً عبر صحراء تاكلاماكان وهندوكوش[33]. وهذا كله لا بد أنه كان يمثل أكبر مبادرة مدعومة باستمرار اتخذتها الصين قبل العصر الحديث للاتصال بحضارات خارجية.

وكان هناك تأثير دائم على اللغة الصينية من ألوف الاصطلاحات الجديدة الكثيرة التي أنتجتها الترجمات، التي كانت في العادة تبنى على كلمات صينية بسيطة موجودة، ولكن تربطها بطرق جديدة. وهناك ثلاثة أمثلة نموذجية لذلك وهي: "غْوو- كو" أي 'الماضي' و"كسيان زاي" أي 'الحاضر' و"وي - لاي" أي 'المستقبل'. فكل منها مبنية من عنصرين، وهما على التوالي في الكلمات الثلاث: المرور/يذهب، والظاهر/كونه - هناك ولم يأت/بعد. وكل منها تعكس بدقة المجاز المماثل لكلمة من لهجة بالي pali: "آتيتا، باكوبانا، آناغاتا"(**). وصارت مثل هذه الكلمات مركزية للمفردات الصينية الفعالة.

وتوجد مفارقة ههنا، أو بالأحرى تماثل هام بين القواعد النحوية وبين الحكومة. فربما تكون البلدان واللغات الأخرى قد استعارت ببساطة بعض

(*) إن آراءهم في الهند يوجد بحث لها في صفحة 277 وما يليها أدناه.

(**) هذه الكلمات السنسكريتية الثلاث معناها على التوالي: 'مر وانقضى' و'حاصل في الوقت الحاضر'، و'لم يأت بعد'.

النسخ المشوهة أو المبتورة من كلمات اللغة السنسكريتية أو لغة بالي، وأكملت اللغة بهذه الطريقة. وكان هذا هو ما يحدث في جميع أنحاء جنوبي شرقي آسيا، رغم أن لغاتها كانت تختلف عن اللغات الهندية كاختلاف الصينية عنها (انظر الفصل الخامس، ص 263). ولكن حقيقة كون الكلمات الجديدة تراكيب معادة في الصينية من المفاهيم المستمدة من السنسكريتية أو من لغة بالي هي حقيقة منسجمة مع استراتيجية الصين العامة في إدارة علاقاتها الخارجية: أي محاولة إبقاء تلك الكلمات تحت السيطرة المحلية دائماً.

وكانت هذه المحاولة للحفاظ على السيطرة أيضاً إحدى ملامح إدارة الصين لأبوابها الأمامية والخلفية، لطريق الحرير حول صحراء تاكلاماكان إلى دنهوانغ والموانئ على طول ساحلها الشرقي. ورغم أن الصين كانت مهيأة للدفاع عن أمن طريق الحرير ضد البرابرة المجاورين لها من أيام الرومان فصاعداً، فإن أهمية الطريق تعرضت لكسوف تدريجي من تنامي التجارة البحرية. وكان الطريق البحري مغلقاً فعلياً أمام التجارة الخاصة أثناء القرون الثلاثة من حكم سلالة مينغ، من حوالي العام 1368، ولكن عند السماح لها تركزت هذه التجارة إلى حد كبير في غوانغ - جو (كانتون)، مع السماح لشيء من المنافسة لها من الميناء الأبعد إلى الشمال، وهو ميناء كوانغجو في فوجيان. ومن العام 1757 إلى العام 1842، ومن العام 1949 إلى العام 1979، تمتع ميناء كوانغجو بالاحتكار فاستمر يحظى بتفضيل الحكومة الصينية من أجل المراقبة وسهولة فرض الضرائب. ولكن هذا الاحتكار كسرته المصالح الأوروبية والأمريكية وفتحت الباب بالقوة في غضون القرن الواقع بين هاتين الفترتين.

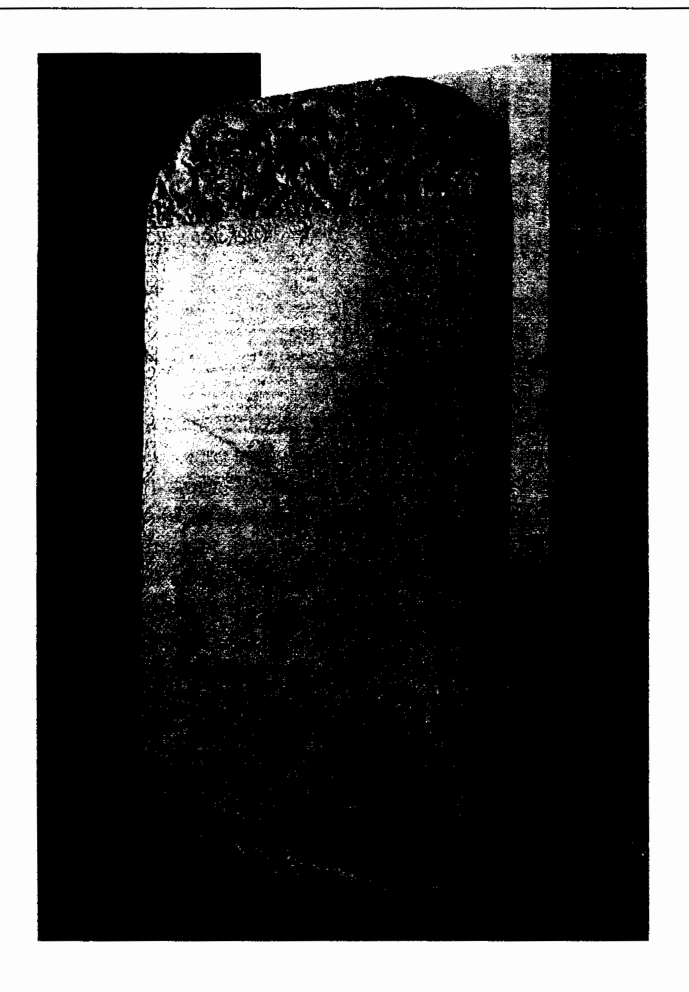
وهناك استثناء غريب من سياسة الصينيين العامة التي قدّر لها أن تسمح بالتجارة الأجنبية وفق شروط، ولكن دون أن تبادر إليها أو تسعى للاتصال السياسي بالقوى الأجنبية، وجاء هذا الاستثناء في حالة يبدو أنها فريدة، هي حالة الأميرال جنغ–هي الذي قام بسبع رحلات بحرية حول المحيط الهندي بين العامين 1405 و1433، فوصل إلى البحر الأحمر ومقديشو.

وفي شبه القارة الهندية تركز انتباه جنغ-هي على سريلانكا، حيث من المعروف أنه في رحلته الثانية في العام 1411 ترك نقشاً بثلاث لغات على لوح حجري (محضّر سلفاً في الصين) بالصينية، والتاميلية، والفارسية.

وكان ذلك النقش ينقل تحيات إمبراطور مينغ الصيني، ويعبر بلغاته الثلاث عن احترامه للبوذية، وللإله تينافاراي - نينافار ولله على التوالي، ويدرج ذكر تقديم نذور كثيفة لها من الذهب، والفضة، والحرير ...... إلخ. ولم تكن هذه البعثات بوضوح مجرد زيارات مجاملة. بل كان فيها شبه كبير بسلوك الأوروبيين الشائن في الخارج: فعندما واجه الصينيون مقاومة، خطفوا ملك سريلانكا وأخذوه بالقوة إلى الإمبراطور في نانجينغ، ولكنهم أعادوه بعد ذلك ومعه أقدس أثر في الجزيرة، وهو ضرس بوذا المقدس. ونجم عن ذلك مطالبة الصين بالسيادة على سريلانكا، التي احترمها أهالي سريلانكا بالفعل عن طريق دفع جزية حتى العام 1459.

ورغم نجاح الصينيين الظاهري، فإن مثل هذه المبادرات الإمبراطورية توقّفت فجأة بعد رحلة جنغ-هي الأخيرة، ولم تتجدد على الإطلاق. ولا أحد يعرف لماذا في الحقيقة. فقد عادت سياسة الصين الخارجية إلى موقفها النموذجي من التركيز على أوضاعها الداخلية واتخاذ موقف الدفاع.

ومع ذلك، وكما رأينا أعلاه (تحت عنوان 'ما وراء البحر الجنوبي'، ص 213)، فإن المهاجرين الصينيين قد أعطوا الصين، واللغة الصينية، رأس جسر إلى داخل جنوب شرقي آسيا لم تكن حكومتها تسعى إليه - بل كانت تثبطه على مدى قرون كثيرة. وفي جميع البلدان الكبرى في جنوبي شرقي آسيا الآن، فإن المجتمعات الناطقة بالصينية هي المصدر الرئيسي لرأس المال الاستثماري.



لوح جنغ - هي الحجري

وفي الفليبين، يشكل المهاجرون الصينيون المقيمون واحداً بالمئة من سكان البلد، ولكنهم يسيطرون على نصف سوق الأوراق المالية. أما في إندونيسيا، فإن النسبتين هما 4% و75% على التوالي، وفي ماليزيا 32% و60%. وفي تايلاند يملك المهاجرون الصينيون نصف الثروة على الأقل ... وحسب أحد التقديرات فإن الصينيين المهاجرين في الخارج، والبالغ عددهم 51 مليوناً، يسيطرون على اقتصاد قيمته 700 مليار دولار - وهذا يكاد يصل إلى حجم سكان البر الصيني الرئيسي البالغ عددهم 1.2 مليار نسمة[34].

إن الأعمال التجارية المتنامية التي يسيطر عليها الصينيون سوف تعطيها فرصة الاتصال ببعضها بعضاً بالصينية، سواء بلهجة الماندارين، أم بلهجة مين الجنوبية، وهكذا فللمرة الأولى ستكون لدى اللغة الصينية إمكانية الانتشار خارج البر الرئيسي. ولم تعد الصين تبعد نفسها عن أتباعها الصينيين الذين اختاروا كسب عيشهم في الخارج، ومن الممكن أن يصبح هذا الوجه الصيني الجديد الأكثر دبلوماسية مؤثراً بشكل مفتوح، وربما حتى مهيمناً.

تلاميذ الصين

رغم أن الصين كانت دائماً متحفظة في قبول أي تأثير من الأجانب، فإن جيرانها الأصغر الذين حققوا مستوى معيناً من الحضارة المستقرة والاستقلال الدولي لم يكن لديهم شيء كهذا التحفظ في قبولهم للتأثير من الصين. وهذا موقف اتخذته دول كوريا، واليابان، وفيتنام، وشعوبها، فكل منها ناطق بلغة لا علاقة لها بالصينية. وقد اضطرت كل دولة منها إلى مقاومة محاولات الغزو الصينية المتقطعة (ولو أن اليابان عانت من ذلك في الفورة الأولى للاستعمار المغولي فقط). ولكن كلاً منها لم تتعلم القراءة والكتابة لأول مرة بلغاتها، بل باللغة الصينية الفصحى التقليدية الكلاسيكية. وقامت كل منها بتطوير أنظمة للغاتها الخاصة عن طريق تحويل استعمال الحروف الصينية أو استكمالها.

وعلى عكس تعامل الصينية مع السنسكريتية ولغة بالي، فإن كل واحدة من لغات هذه البلدان تبنّت المفردات الصينية كما هي، بغض النظر عن عدم انطباقها بشكل جيد مع الأنظمة الصوتية في لغتها الخاصة. فبعد كل شيء، كانت الصين بالنسبة لهذه البلدان تمثل رأس ينبوع الحضارة المتقدمة(*).

(*) بصورة عامة فقد وصل إعجاب شعوب هذه الدول بطريقة عمل معاصريهم الصينيين للأشياء إلى درجة أن كوريا واليابان أدخلتا في القرن السابع الميلادي نظام الامتحانات العامة للدخول في الحكومة. (وفي تلك الأثناء كانت فيتنام تمضي الألف الميلادي الأول بكامله تحت حكم الصين المباشر). ولكنهما فعلتا ذلك على سبيل المحاكاة والتقليد، وبالتأكيد ليس لتقديرهما هدف النظام: فلم يكن اليابانيون يسمحون لأحد بتقديم الامتحان سوى للنبلاء. وفي كوريا كان أبناء أسر الطبقات الأعلى يعفون من تقديم الامتحان أصلاً.

ونتيجة لذلك صارت لغاتهم ملأى بمفردات مستعارة من الصينية، محوّرة لتناسب طريقة لفظهم، وبقيت هناك منذ ذلك الحين. وسرعان ما صار لديهم إدراك واضح يعادل إدراك الصينيين الكامل لمعاني المقاطع التي استعاروها والحروف المرتبطة بها - بل ربما كان إدراكهم أوضح ما داموا قد استخدموا الحروف نفسها لتمثيل الكلمات في لغاتهم الخاصة، المتصلة بواسطة المعاني فقط.

إن هذا التبنّي المخلص للغة الصينية ودمجها قد أعطى فسحة زمنية مفيدة من نوع ما لإجراء بحث مقارن في تاريخ اللغة الصينية. فهذه اللهجات الثلاث الأجنبية "المتلاقحة مع الصينية": الصينو - كورية، والصينو - يابانية، والصينو - فيتنامية، مكونة من مقاطع وكلمات مستعارة من الصينية. وهي كاملة إلى درجة أن من الممكن استخدامها لقراءة نصوص بكاملها بلهجة "وينيان". وبهذه الصفة، فإنها قد حافظت على صدى من الصينية كما كانت تلفظ عندما استعيرت منها تلك الكلمات. والحقيقة أنه في حالة اليابانية - المعقدة كما هي دائماً - هناك ثلاثة أصداء متميزة، هي: "غو - أون"، و"كان - أون"، و"تون - أون"، اعتماداً على ما إذا كانت الكلمة قد استعيرت في القرن السادس الميلادي، أم في القرن الثامن، أو في أوائل الألف الميلادي الثاني. وهكذا فإن كلمة "ني" nèi الماندرانية، التي معناها 'ضمن' صارت تكتب الآن "نوي" noi وتلفظ في النبرة السادسة في الفيتنامية، وتكتب "ناي" nae بالكورية و"داي" dai أو "ناي" nai باليابانية. وقد أثبتت هذه الأساليب العتيقة أنها حيوية عندما اضطلع الباحث السويدي برنارد كارلغرن في العام 1954 بعملية إعادة تركيب لأصوات اللغة الصينية في القرن السابع الميلادي[35].

وهذه التلمذة الشديدة التلهّف للصين من قبل جيرانها يمكن اعتبارها انتشاراً ثانوياً كبيراً للغة الصينية. وكثيراً ما تقارن بدور اللاتينية ضمن الإنكليزية واللغات الأوروبية الحديثة الأخرى، أو العربية ضمن الفارسية والتركية، ولكنها في الحقيقة أكثر شبهاً بالدور الأساسي للسومرية ضمن الأكادية. فقد كانت الصينية منقطعة الصلة تماماً باللغات التي تبعتها وتتلمذت عليها، وكانت مخالفة لها كلياً في التركيب. ومع ذلك فقد أصبح نظام كتابتها هو جذر تعلمهم،

وصارت كلماتها غير قابلة للانفصال عن أي نوع من المخاطبة بين المتعلمين، وتم الأخذ بأدبها كأساس لنظامهم التعليمي ذاته.

ومع نظرة الرهبة والإجلال التي حظي بها الصينيون من جيرانهم فلا بد أنه كان من الصعب عليهم أن يعتبروا تفوّقهم هذا أي شيء سوى كونه حقيقة موضوعية عالمية.

تحمل الغزوات: ثلمة في اللغة المصرية

الأجانب من الصحراء صاروا أناساً في كل مكان ... الحق أن الصحراء منتشرة في كل الأراضي. والمناطق المزروعة مدمرة. لقد جاء برابرة من الخارج إلى مصر .... فلم يعد هناك شعب في أي مكان...

نصائح إيبوار، السطور 5.1، III ص 1 وما يليها
(باللغة المصرية، أواخر الألف الثالث ق.م.)[36]

هذا النص من تحليل متشائم للمجتمع المصري، وقد أصبح نموذجاً أدبياً كلاسيكياً (والمخطوطة الوحيدة الباقية منه قد نسخت عنه بعد كتابته بألف عام تقريباً.) وهو يبين أنه حتى في وقت مبكر من تاريخه المسجل كان المحافظون يندبون التدفقات البربرية إلى داخل مصر، وحسب رأيهم فإن ذلك قد مزّق النظام الاجتماعي: 'العبيد الأقنان صاروا ملاّكين ... والتي كانت تنظر إلى وجهها في الماء صارت تلك مرآة الآن ...' وكلمة "بربري" بالمصرية القديمة هي "بيدجيتي"، أي 'النبّال' الذي يجلب موطنه الصحراوي معه، وهو يقارن بحدةٍ عدائيةٍ مع الناس الحقيقين، مع المصريين الأصلاء.

وهذا النص يسبق تاريخ أي غارات أجنبية نعرف عن دخولها إلى مصر. ولكن من الواضح أن المهاجر، وهو شخص غير مرحّب به، خاصة إذا كان ناجحاً اجتماعياً، قد صار شخصية عادية مألوفة في مصر. ومع ذلك فإن هذه النزعة إلى الانعزال في مصر القديمة تخبرنا عن المواقف الدائمة أكثر مما تخبرنا عن أي أزمة حقيقية في وجود الناس الوطنيين: فصمود اللغة المصرية

يبين أن البلد كان قادراً على امتصاص كل الهجرة الأجنبية في الألفي عام التالية بدون فقدان شخصيته المركزية وتقاليده.

ومن الملامح المثيرة للاهتمام في تاريخ مصر أنه حتى مجيء المسلمين لم يتعرض المصريون لغزوات بدوية ساحقة كاسحة تشبه مجيء العمّوريين والآراميين إلى وادي الرافدين. ومع ذلك فإننا نعرف أن الهجرة الليبية كانت هامة على مدى قرون كثيرة، ومن بين الأسر المصرية الحاكمة، فإن ملوك الهكسوس والكوشيين على الأقل كانوا أجانب نصبوا أنفسهم بالقوة. فلماذا إذن لم يكن لهم تأثير يذكر على لغة مصر وثقافتها؟ لا بد أن جزءاً من السبب كان هو كثافة المصريين على الأرض: فقد كانوا كثيرين، مستفيدين من كرم نهر النيل بحيث كان من المحتم على المتطفّلين أن يذوبوا فيهم.

وهكذا فبرغم الغارات، والانقسامات، وانقطاع الاستمرار في تقاليد الأسر والسلالات، بقيت مصر متمسكة بدينها وبمبدأ حكم الفرعون عن طريق "مارآت" أي "النظام والقانون الطبيعي والأخلاقي".

ولكن الغزوات حطّمت اللغة المصرية فعلاً في وطنها في آخر الأمر: فمصر اليوم بعد كل شيء بلد غالبيته مسلمون، مع أقلية مسيحية، وجميع الناس فيه يتكلمون العربية. فكيف فقدت اللغة المصرية في النهاية قبضتها على الناطقين بها؟

أولاً وقبل كل شيء، لا بد أنه كان هناك ضعف متواصل وتخفيف في القسم الناطق باللغة المصرية من السكان. فقد صار المجتمع بالتدريج متعدد اللغات إلى حد كبير. فقد تعرضت مصر لغزوات كثيرة في القرون الخمسة الأخيرة من وجودها المستقل، على أيدي الآشوريين، والفرس، واليونان، والرومان. وفي الفترة الإغريقية (332 ـ 30 ق.م.) كان هناك فيض كبير من اليهود أيضاً، وكانت لغتهم المشتركة هي اليونانية. ولم يأت أي من هؤلاء الغزاة بلغة قدّر لها أن تحقق مكانة اللغة العامية الدارجة في مصر. ولكن كما رأينا، فإن الآرامية المرتبطة بالآشوريين والفرس قد انتشرت فعلاً في صفوف المصريين فيما هو أبعد من المجال الرسمي. وقد جلبت كل واحدة من هذه

القوى المتعاقبة وغذّت ورعت مجموعات جديدة كانت تنطق بشيء غير اللغة المصرية.

ومع ذلك، فعندما استولى العرب على البلد في فورة اندفاع الإسلام الأولى في منتصف القرن السابع الميلادي، كانت المصرية لا تزال هي اللغة الرئيسية المحكية في الشوارع والحقول.

ولم يكن العرب أول قوة من البدو الرحّل تتغلغل في مصر. فقد قام بذلك الليبيون، وربما الهكسوس قبل ذلك بكثير في الألف الثاني قبل الميلاد. وربما كانت هناك غارات كثيرة أخرى بأحجام أصغر على مدى الفترات الوسطى الثلاث الضعيفة التدوين في التاريخ المصري. ولم يكن العرب أول قوة تستخدم لغة أجنبية في الأغراض الحكومية: فقد فعل ذلك قبلهم جميع الفرس، واليونان، والرومان. ولم يكن العرب أول قوة كبيرة ذات مركز في الخارج تستولي على مصر وتحكمها كمستعمرة: بل لقد حدث ذلك من قبل على أيدي الفرس لمدة قرنين، وعلى أيدي الرومان لمدة سبعة قرون. بل إن العرب لم يكونوا حتى أول من أدخل ديناً جديداً: فقد قام المسيحيون بمحاولة ناجحة لذلك في فترة حكم الرومان.

فلماذا إذن كانت العربية أول لغة تنجح في الحلول محل اللغة المصرية في بلد موطنها؟ لا بد أن الجواب يكمن في مجموعة من كل هذه الظروف. فقد تم تدمير نقاط القوة في اللغة المصرية واحدة بعد واحدة.

أولاً، أوجدت الحروب الآشورية والبابلية في فلسطين مجتمعاً كبيراً من المهاجرين الناطقين بالآرامية في منطقة الدلتا. فكان ذلك نهاية احتكار اللغة المصرية في البلد، ولم يكن هذا حدثاً هاماً جداً في حد ذاته. ولكن البلد بعد ذلك اخترقه وتغلغل فيه كثير من اليونانيين ذوي العقلية التجارية الذين أدخلتهم أسرة سايت لتقوية تحالف ضد قوى أخرى في الشرق الأدنى، ثم منحت الناطقين باليونانية مركزاً تجارياً لتوزيع سلعهم في نواكراتيس في الدلتا. فأصبحت مصر عندئذ مجتمعاً متعدّد اللغات إلى حد كبير. وراحت لغات الأجانب ترتبط أكثر فأكثر بنفوذ وامتياز عالٍ. فالغزو الفارسي، ثم تعاقب سلسلة من الحكام الأجانب

من فارس، وفي وقت لاحق من اليونان (بعد الإسكندر)، كان معناه آنذاك أن المستوى الأعلى من الإدارة صار يشغل بلغة أجنبية غريبة عن مصر: باللغة الآرامية لمدة مئتي عام، ثم باليونانية لمدة ألف عام(*).

من الناحية اللغوية لم يتغير شيء كبير عندم قام الرومان بطرد اليونانيين في العام 30 ق.م. سوى تدفق صغير للناطقين باللاتينية ممن كانوا جنوداً بشكل رئيسي. ولكن هذا التغيير في الحكومة قدّر له أن يثبت بأنه كان أعمق نقطة تحول في مصير اللغة. فلم تعد مصر محكومة من قبل ملوكها أنفسهم ولمصلحتها نفسها بل صار يحكمها حكّام إقليميون باعتبارها سلة خبز مفيدة لروما. وصارت مصر (على نحو متزايد؟) مقصداً للسياح الأثرياء.

وكان الشيء المشترك بين جميع الغزوات هو أنها لم تكن حركات بدوية لقبائل رحّالة: بل كانت أموراً عسكرية تتولاها جيوش جيدة التنظيم تسعى وراء أهداف سياسية عالمية لقوّادها. فكان الهدف من السيطرة على مصر هو الارتباط بمجدها القديم والاستيلاء على ثروتها الزراعية الحالية. وفيما عدا ذلك تركت مصر محافظة على تقاليدها، وهكذا فإن الحركات السكانية الوحيدة كانت حركات النخبة ومجموعات صغيرة مثل اليهود. غير أن الحضارة المصرية قد أصبحت مظهراً أجوف. فلم يعد هناك فرعون يمسك بالبلد عن طريق 'النظام والقانون الطبيعي الأخلاقي'، ويقوم بتقديم الأضاحي، إلا إذا تصادف قيام الإمبراطور الروماني بزيارة للبلد. وعند حلول القرن الثالث الميلادي كان حتى هذا التظاهر قد تم تركه.

(*) فيما عدا أداء كليوباطرة اللغوي المعروف بالبراعة والثقة بالنفس، لا يجد بيريمانز (1964) أي دليل على ثنائية اللغة في مصر البطالسة، بل يجد أدلة كثيرة على تمسك الإغريق وسكان مصر المحليين كل بلغته الخاصة. غير أن بعض مشاهير المصريين مثل مانيثو، كبير الكهنة ومؤرخ مصر باللغة اليونانية، قد وصلوا إلى مكانة عالية فيما بقي إلى النهاية طبقة عالية في التسلسل الهرمي ناطقة باليونانية. ولكن كثيراً من الوثائق العامة كانت ثنائية اللغة (وكان أشهرها حجر رشيد، ولكن منها أيضاً البلاغات والإشعارات القضائية المتصلة بالقضايا والدعاوى الخاصة) بحيث لا يمكن القول إن عامة السكان لم يكونوا ثنائيي اللغة. وينقل بيريمانز في كتابه نصاً عن رسالة مؤثرة: "لقد كنت سعيداً بالنسبة لك ولنفسي لمعرفة أنك تتعلم الكتابة باللغة المصرية، لأنك تستطيع الآن أن تأتي إلى المدينة، وتعلم أطفال فالو...طبيب الحقن الشرجية، وبذلك تحصل على وسيلة لكسب عيشك تعينك في شيخوختك"(ص57). ورغم ذكر الكتابة فإن من المفروض أن المعلّم الخصوصي المذكور هنا كان مستخدماً لتعليم اليونانية لأطفال الطبقة الوسطى المصرية، وليس العكس.

وكان النشاط النخبوي الوحيد الذي حافظ عليه المصريون هو الدين. وقدمت لغتهم صلة بين الكهنة وبين عامة الشعب. ومع ذلك، فبعد ثلاثة قرون من الحكم الروماني قدّر لهذه الصلة أن تضعف. كانت الجماعة المسيحية المحلية قد نمت في وجه الاضطهاد الروماني أولاً، وبعد ذلك عن طريق الدعم الرسمي، وأخذت بالمصرية بدلاً من اليونانية كلغة لها. وبهذه الطريقة قدمت بؤرة تركيز جديدة للولاء المصري، من نوع روحي. ولكن نمو هذه الجماعة تميز بنزعة نمونجية من عدم التسامح، وخاصة إزاء الدين القديم. فكيف كان بوسع المسيحيين أن يعرفوا أنهم بتدميرهم لذلك الدين القديم سوف يزيلون بالتشذيب أعمق الجذور التي ارتكزت عليها وتعززت هويتهم المنفصلة؟ فعند حلول القرن الرابع الميلادي، كانت مصر قد أصبحت بلداً مسيحياً يتكلم سكانه اللغة المصرية، ولكن إدارتهم وحياتهم الثقافية كانت تتم باللغة اليونانية. وكان لا يزال صحيحاً أن النشاط النخبوي الوحيد في مصر هو الدين، ولكنه كان عندئذ هو النسخة المحلية من الإيمان المسيحي.

وفي العام 641 م، عندما انتقلت السيطرة السياسية إلى الناطقين بالعربية، لم تعد هناك نسخة للأنشطة النخبوية باللغة اليونانية. وسرعان ما ذبلت هذه اللغة وأنشطتها، رغم أن بعض الاستخدام الرسمي لليونانية قد استمر بعد ذلك لمدة زادت على قرن. أما الدين فقد قدر له أن يخضع ببطء أكبر من ذلك بكثير. ولكن هذا لم يكن مجرد غزو سياسي آخر: فالإسلام، على عكس الإسكندر وأغسطس قيصر، كان يتطلع إلى كسب كل شيء. وعندما فعل تمت إزالة آخر دافع للاحتفاظ باللغة المصرية. فقد انتقل معتنقوه إلى مجتمع عقائدي إيماني آخر، ناطق بالعربية وعالمي. وتركت المصرية كلغة طقوس للذين صمّموا على التمسك بإيمانهم المسيحي، وهم أقلية راحت تتقلص بالتدريج.

وحتى عند إعادة النظر في الأمور بعد وقوع الأحداث، فإن من الصعب القول إن كانت المسيحية نعمة أم نقمة على اللغة المصرية. فقد قدمت بؤرة تركيز على الطقوس للمجتمع الناطق باللغة المصرية تحت الحكم الروماني العلماني، ولكنها كانت متصلبة في قطع صلات تلك اللغة بماضيها الوثني،

وقدمت هوية جديدة مركبة، هي هوية 'المسيحي المصري'، أو القبطي، لتحل محل الهوية القديمة. وقدر لهذه الهوية الجديدة أن تستمر عدة قرون، ولأقلية صغيرة حتى يومنا الراهن. ولكن الدافع اللاهوتي لطائفة مصرية منفصلة من المسيحية، التي كان يجري نشرها وتعزيزها كعقيدة إيمانية عالمية، كان معدوماً تماماً. وبالمثل، كانت اللغة المصرية أضعف عندما واجهت تحدي اعتناق المجتمع الناطق بالعربية: فأي أساس بقي للحفاظ على الهوية المصرية بعد أن تم نسيان آلهة أرض مصر وطقوسها منذ زمن طويل؟

وفي آخر الأمر لم تستطع اللغة المصرية أن تحافظ على نفسها عندما لم تعد لغة الأكثرية في بيئتها الوحيدة، وهي أرض مصر. فقد كانت تلك اللغة، مثل الديانة الفرعونية، رمزاً للهوية المصرية. وكان باستطاعتها البقاء في ظل حكومة تتكلم بلغة أجنبية، ما دامت ديانتها مستقرة بمصر. ولكنها لم تستطع البقاء في ظل حكومة أجنبية وديانة عالمية حقاً، لأن الناطقين بالمصرية لم يبق لهم شيء وطني كمرتكز لهويتهم. فمن الأفضل أن يصبحوا مسلمين عرباً، كبقية الناس جميعاً(*).

تحمّل الغزوات: فقدان الاستقرار في اللغة الصينية

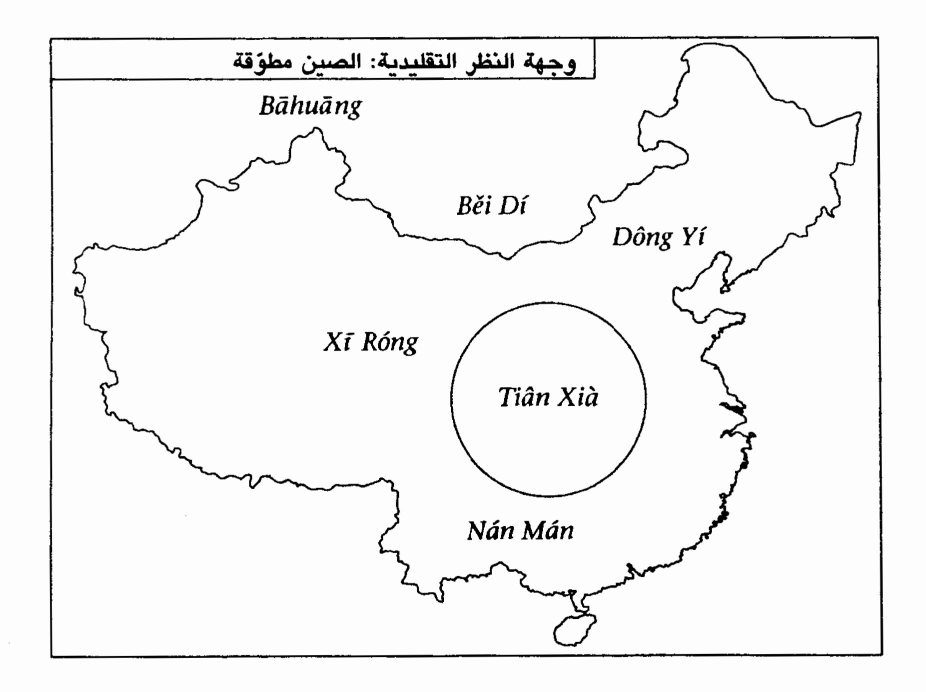
'رسن ولجام'
'استخدِم البرابرة لمهاجمة البرابرة'
'استخدِم البرابرة للسيطرة على البرابرة'
'حوِّل البرابرة إلى صينيين'
'المصالحة والألفة الحميمة: اتحاد بالزواج'
استراتيجيات صينية معترف بها لإدارة الحدود[37]

(*) [ملاحظة: يبدو أن أهم نقطة يتجنب المؤلف ذكرها هنا هي كيفية تنصير مصر. لقد فرضت عليها المسيحية بالقوة والعنف والعدوان في القرنين الرابع والخامس. وكان هناك سفك دماء على نطاق واسع، لعل أبرز ضحاياه الفيلسوفة اليونانية هيباشيا، ابنة عالم الرياضيات ثيون. فقد قاد أسقف الإسكندرية سيريل مظاهرة من الغوغاء قتلتها وقطعت جثتها إرباً ـ المترجم].

يمكن فهم الانحطاط الأخير للغة المصرية على أنه أثر طويل الأمد لفقدان الشعور بمركزها ذاته.

فبعد الغزو الروماني كانت مصر في أفضل الأحوال شيئاً غريباً على حافة عالم روما في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم تعد مسؤولة بنفسها عن مصيرها، بل أخذت تنظر بأمل إلى الغرب. وبعد ذلك بأربعة قرون، لم يكن هناك أي تأثير يذكر لتغير بؤرة التركيز من روما إلى بيزنطة، فقد تمت المحافظة على هوية مصر بواسطة إسهامها في العقيدة المسيحية الجديدة الآخذة بالنمو. وبعد ذلك بثلاثة قرون أخرى، تعرضت هويتها المنفصلة لصدمة أكبر مما تستطيع تحمله، وهي اندماجها في إمبراطورية غريبة مختلفة تماماً، وهي إمبراطورية كان مركزها إلى الشرق من مصر (في دمشق، ثم في بغداد بعد ذلك). ولأول مرة ولآخر مرة، أخذت اللغة المصرية بالانحطاط.

وكانت الصين ترى نفسها دائماً كمركز لعالمها، وتقليدياً باعتبارها "السماء في الأسفل"، محاطة من كل جانب بأناس أقل شأناً منها، ومتخلّفين عنها في الثقافة والأخلاق. وقد بدا أن الكلمة الحديثة للبلد: "جونغ - غوو"، أي 'المملكة الوسطى'، تصف ذلك كله. ولكن كانت هناك طريقة أخرى للإشارة إلى البلد ككل وهي: "سيهاي جيني"، أي 'ضمن البحار الأربعة'، وذلك بالعودة إلى أيام كونفوشيوس على الأقل. فقد كان الصينيون يرون أنفسهم بأنهم يعيشون في تسع قارات ضمن أربعة بحار. وكانوا يرون أن كل واحد من تلك البحار الأربعة هو مأوى شعب بربري هو ما يسمى "سييي". وكانت تلك البحار هي 'في الشرق يي، وفي الشمال "دي"، وفي الغرب "رونغ" وفي الشرق "مان"'. وهذه الفكرة التي تعتبر السهوب المحيطة بأرض الصين الداخلية بحاراً، برغم غرابتها لدى أي شخص ينظر إلى خارطة حديثة، كانت لها حقيقة مؤكدة عندما كانت تلك السهوب مأهولة ببدو رعاة يجوبون السهوب المعشبة ليفترسوا الفلاحين المستقرين الذين يعيشون حول الواحات، التي هي جزر في هذا المحيط. وفيما وراء البرابرة في وجهة النظر التقليدية إلى العالم كانت تقع "الباهوانْغْ"، أي 'مفاوز اليباب الثماني'، وهكذا كان من المفهوم أن الصينيين التقليديين لم يكن



لديهم ما يغريهم بالاكتشاف أبعد إلى الخارج(*).

وضمن هذه الحلقة من الأعداء كان الصينيون يرون أنفسهم في مركزها،

(*) يختلف الصينيون عن معظم المجتمعات اللغوية المسيطرة الأخرى المبحوثة في هذا الكتاب بطريقة واحدة. فهم لم يجمعوا كل الناطقين بلغات أخرى تحت اسم سلبي واحد ينتقص من قدرها. فمصطلح 'البرابرة' الوحيد لا مهرب منه في الترجمة الإنكليزية. ولكن اللغة الصينية فيها كلمات كثيرة، وكلها ذات دلالات مختلفة من حيث المبدأ. فهناك في القاموس الذي ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد مصطلح "إيريا"، أي 'أمثلة على الاستعمال المصقول'، ومصطلح "سيهاي" يعرف بأنه: 'الـ 9 يي، والـ 8 دي، والـ 7 رونغ، والـ 6 مان' ("إيريا"، تحت كلمة *"sidi"* في ويلكنسون 2000، ص 710). وكان هناك مصطلح آخر هو "فان"، وهو منقسم من وجهة النظر الصينية إلى "شينغفان"، أي 'النيء' و"شوفان"، أي 'المطبوخ'، وذلك يعتمد على كون مستخدميه قد بدؤوا يستقرون ليعيشوا حياة متحضرة حسب الطرق الصينية. ولم يكن تعدد المعاني هذا يشير إلى أي تمييز خاص أو احترام للأجناس أو السلالات المتخلفة. ورغم أن الكلمات المختلفة كانت جزءاً من اللغة، فإنها كثيراً ما كانت تكسس معاً، مثل "رونغدي، ييدي" *Rongdi, Yedi*، أو تستخدم بلا تمييز. والحقيقة أن المصطلحات الشاملة ذات المقطع الواحد تستكمل بمصطلحات أدق لكل قبيلة معينة. وكثيراً ما كانت كتابتها كلها، كنوع من النكتة الصينية الخاصة، بحروف ذات طابع مهين، مثل كلمة nú أي 'العبد' في كلمة كسيونغنو، وwō، أي 'قزم' في كلمة wōgūo أي 'مملكة الأقزام' أي اليابان. ومع الخبث الحضري، فقد تصادف أن هذه الكلمة تلفظ في اليابانية مطابقة لكلمة و wa أي 'الانسجام'، وهو المصطلح الذي يفضله اليابانيون عندما يشيرون إلى أنفسهم.

مع مفهوم مشترك عن القيم المتحضّرة، وتطلع ثابت وملحّ لضم الجيران الراغبين إلى حظيرتهم.

وكانت هناك ثلاثة ملامح للوضع الصيني لم تُبقِ مجتمعهم الكبير مركزياً فقط، بل أبقته كذلك متحداً، اجتماعياً ولغوياً. فكان الملمح الأول "حقيقة" عن بيئتهم البشرية، وهو ملمح جاء حرفياً مع الإقليم الذي سكنوا فيه. وكان الملمح الثاني 'مؤسسة' اخترعها الصينيون بشكل متميز تماماً، فأثبتت أنها ثابتة بشكل رائع لافت للنظر. وكان الملمح الثالث هو "النتيجة المتناقضة" للغزوات البربرية عندما جاءت.

فكانت الحقيقة هي الفورة الدورية من البدو المغيرين المعادين من الناطقين بلغات مختلفة جذرياً عن الصينية، والذين يغزون الفلاحين الصينيين المستقرين. فكان لذلك تأثير موضوعي على اللغة، وتأثير ذاتي على وعي الصينيين. ومن الناحية اللغوية، فإن الفورات الدورية أبقت سكان الصين الشمالية متحركين، ومنعتهم من الاستقرار في مناطق لهجات متميزة، ولكن حتى عندما جوبه التهديد البربري مجابهة فعالة طيلة قرون في كل مرة، كما حدث في العصور الذهبية لحكم سلالتي هان وتانغ، فإن الوعي بوجود البرابرة عند البوابة ظل قائماً رغم ذلك، فكان من الطبيعي أن يسبب لدى السكان شعوراً أعظم بالوحدة. فالتهديد الخارجي بالغزو أبقى الصينيين مركّزين على ما لديهم من أشياء معرضة للخسارة؛ كما أن حالات الفشل الجزئي المتكررة في دفاعات المركز ضد هذا التهديد أبقت شمال الصين في حالة تدفق مائعة، وبذلك حافظت بشكل معاكس على تلاحم لغتها المحكية وتماسكها.

أما المؤسسة فكانت هي نظام الامتحانات العامة، الذي بقي مستمراً على مدى ثلاثة عشر قرناً، وكان النجاح فيها مفتاح حياة مهنية في الحكومة. وكان معنى ذلك أنه منذ فترة مبكرة جداً كان بوسع الصين أن تتفاخر بخدمة مدنية متشكلة رسمياً. وعندما كانت تعمل كان لها تأثير على النظام الاجتماعي شبيه بتأثير تدفقات الغزاة على النظام اللغوي. فكان التأثيران يميلان إلى تقليل المجموعات المحلية والتأكيد على ولاءاتٍ أعلى مستوى. فالخدمة المدنية التي

تعطى فيها أوسع سلطة لصاحب أعلى كفاءة تبني ولاءات للدولة، وتقلص الولاءات الشخصية التي تميل، عند ضعف الحكومة المركزية، إلى النمو وتمزيق البلد إلى قواعد قوى لقادة حربيين متنافسين. ولكن الخدمة المدنية كان لها تأثير آخر، مرتبط باللغة الصينية.

كان المنهج أدبياً بصورة كلية تقريباً، يشمل نظم شعر كلاسيكي فصيح (تم إدخاله تحت حكم الإمبراطورة وو (Wu) عند نهاية القرن الثامن)، و'المقالات ذات السيقان الثمانية' سيئة الصيت، التي كانت تستدرج بقوة تعبيراً واضحاً عن أفكار من نصوص كلاسيكية وتطبيقها على مشاكل معاصرة. وبهذه الصفة كانت نتيجتها الوحيدة تعزيز المستويات الوطنية للغة الكبرى التي ألّفت بها، أي "ونيان" اللغة الصينية الفصحى).

وبهذا المعنى فإن من الإنصاف أن نقول إن الدولة الصينية، خارج البلاط الإمبراطوري، كانت مؤلفة كمظهر سياسي للنخبة الأدبية الصينية. وقد لاحظ كاي كسيانغ، وهو نفسه نتاج لامع للنظام، بصورة سلبية في منتصف القرن الحادي عشر:

> في هذه الأيام، عند تعيين الناس، يمكن الملاحظة بأنهم يتقدمون بشكل رئيسي على أساس مهاراتهم الأدبية. فحملة أعلى المناصب أدباء، والذين يخدمون العرش أدباء، والذين يديرون الشؤون المالية أدباء، والقادة الرئيسيون لدفاعات الحدود أدباء، وجميع مفوضي المواصلات الإقليمية أدباء، وجميع الحكام في المقاطعات أدباء[38].

وكانت أوصاف نظام الامتحانات مليئة بتوضيحات تحذيرية عن المسافة الفاصلة بين نظرية إعطاء أعلى المناصب لأكفاء الناس وبين حقيقتها الأرستقراطية والبلوتوقراطية (أي إعطاء تلك المناصب للأثرياء). وما كان الأمر غير ذلك في مؤسسة دامت أكثر من ألفي عام، وكانت تهمل بين مدة وأخرى ثم يعاد تركيبها. ومع ذلك ومهما قد تكون غير مرضية في أحيان كثيرة للعدد الكبير من الأفراد اللامعين الذين عجزت عن تفضيلهم (وعلى سبيل المثال فقد

كانت النساء كلهن مستبعدات)، فإنها لم تكن أبداً مؤسسة مهملة أو غير فاعلة: بل كانت موجودة دائماً كوسيلة محتملة يمكن إحياؤها أو إصلاحها لتجلب موهبة جديدة إلى السلطة والنفوذ، وكانت محرضاً متأصلاً لرواسب المؤسسة الصينية الحاكمة، وحبّة رمل دائمة في محارة الحكومة.

ومثلما كان غزو الحشود الألطية يبقى سكان الصين الشمالية في حالة غليان واستعداد، كان نظام الامتحان، والتعيينات المبنية على أساسه، يبقي تركيبات السلطة مفتوحة. ولذلك فإنه قد عزز تلاحم الكيان السياسي ككل، بلغة مشتركة كانت مستوياتها بوضوح يحددها منهج الامتحان.

فكانت النتيجة المتناقضة أنه رغم عجز الصين في آخر الأمر عن كبح الضغط من البدو الرعاة المتعسكرين، واضطرارها إلى تسليم العرش للمغول وللمانشو، فقد بقيت الصين صينية. فقد كان الصراع مع البرابرة، في التحليل الأخير، نتيجته هي الخسارة ـ ومع ذلك لم تؤثر تلك الخسارة على مستقبل اللغة، ولا على الثقافة التي نقلتها. وبطريقة ما، أظهرت اللغة الصينية أنها تستطيع أن تسمو على أقسى اندحار أساسي وتتجاوزه.

ومن الناحية الاستراتيجية، فإن هذا يمكن وصفه ـ في المصطلحات الصينية كما يلي:

اسرقوا الدعائم، غيّروا الأعمدة[39].

إن هذا المبدأ الأساسي من "الخدع الحربية الستة والثلاثين" الصينية يشير إلى أسلوب تخدير الخصم تدريجياً بحيث يشعر بثقة زائفة، ويظن أن هياكله التي يعتمد عليها لا تزال سليمة رغم أنها في الحقيقة قد تقوضت وخانته. ومن الواضح أنه لكي يتحقق ذلك، يجب على الاستراتيجي أن يكون على علاقة وثيقة بتنظيم عدوه، وقد يكون كذلك فعلاً بعد أن يكون قد عانى من اندحار يبدو كاملاً وقَبِلَ الاستسلام لذلك العدو. وفي حالة المغول (الذين لم يقبلوا الاستخدام الجاد لنظام الامتحان، وهكذا صاروا عرضة لنمو زعامات محلية) ثبت أن من الممكن في غضون قرن من الزمن بناء قواعد قوة إقليمية كافية للإطاحة بالحكومة

المركزية(*). أما في حالة المانشو، فقد كان الأمر أصعب، إذ إنهم كانوا واعين بقلة أعدادهم، فاستخدموا المؤسسات الصينية استخداماً فعالاً، مثل نظام الامتحان، لتجنيد كوادر موظفين موالين لهم. وركزوا أنفسهم في المناصب العسكرية أيضاً. ورغم ذلك، ونظراً لأنهم لم يكونوا يشكلون سوى اثنين بالمئة من السكان، فقد ثبت أن من المستحيل عليهم أن يعيشوا مع الصينيين دون أن يمتصهم الصينيون. فقد منعهم القانون من التزاوج مع الصينيين أو الأخذ بالعادات الصينية، ولكن دون جدوى. وأرغموا قسراً على التعلم بلغة المانشو، ولكن دون جدوى، رغم أن تلك اللغة بقيت في أوراق الحكومة حتى سقوط سلالة المانشو في العام 1911: ومع ذلك، ففي غضون قرن ونصف من نجاح غزوهم للصين، كان جميع المتحدرين من أجداد من المانشو يتكلمون اللغة الصينية[40].

وهذا يقودنا كذلك إلى الاستجابة الصينية الحالية للتحدي من العالم الغربي. فمن الغريب أن الصين تعود مرة أخرى إلى تبني هذه الاستراتيجية التقليدية، وهذا أمر له دلالته الكاشفة.

فبعد تجربتها الجارحة المؤلمة على أيدي القوى الغربية في القرن التاسع عشر، ألغت الصين نظام الامتحان في العام 1905، وألغت الملكية الإمبراطورية نفسها في العام 1911. وساد جوّ لمحاولة تحديث البلد على الطراز الأوروبي. بل كان من بين المقترحات التي تم بحثها اقتراح بإلغاء اللغة الصينية نفسها لصالح لغة الإسبرانتو المصطنعة التي ستصبح دولية، والتي ابتكرها بولندي وشكّلها من جذور كلمات أوروبية مشتركة في أواخر القرن التاسع عشر، وشاعت لها شعبية رائجة آنذاك. وفي آخر الأمر أثناء عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، أعيد تحديد الشكل الرسمي للغة الصينية: ففي مكان لهجة "الونيان"، التي تعود إلى القرن الخامس ق.م. جاءت لهجة "بيهاو"، أي 'كلام البيض'، وهو الشكل العامي الدارج للهجة الماندرين كما هي محكية في بيجينغ. وهي تكتب بالحروف، وتمثل

(*) [ملاحظة: ويمكن أن نضيف في هذا الصدد بأن هؤلاء المغول أنفسهم بعد أن أسقطوا الدولة العباسية ودمّر هولاكو بغداد في العام 1258م، اعتنقوا الإسلام في غضون عشرين عاماً فقط، في العام 1278م، ثم أسسوا إمبراطورية إسلامية في الهند عاشت أكثر من أربعة قرون ـ المترجم].

القواعد النحوية للغة العامية ومعجمها، ولكنها بالطبع محايدة في اللفظ الفعلي. ولم تكن تلك صدمة كبيرة أكثر من اللازم، ما دامت اللهجة دارجة، بل ومستخدمة في الأدب الشعبي(*) منذ منتصف الألف الميلادي الأول على الأقل، ولكن لم يكن أحد في السابق يشعر أنها لغة القضايا الجدية(**).

إن الصين تمر الآن بفترة من التطور الاقتصادي السريع للغاية، وقد تبنت الطرق الغربية عن وعي. وبمعنىً ما، فإن هذه هي الثورة الثالثة المستلهمة من الغرب خلال قرن منذ تأسيس الجمهورية في العام 1911، فالثورة الشيوعية في العام 1949، والشروع في الإصلاحات الرأسمالية بعد وفاة ماو كانت كلها تطبيقات لأفكار غربية. وكل هذا في بلد لم يأخذ في الداخل بأي فكرة غربية كبرى منذ أخذه بالبوذية الواسعة الانتشار في القرنين السادس والسابع الميلاديين. وإذا نجحت الصين في تبنّي هذه الأفكار والتكيّف معها حسب مصالحها الخاصة الطويلة الأمد، فإنها ستكون قد قلبت انتصار خصمها الحاسم في الظاهر إلى انتصار لها على المدى الأبعد. إنها دعامات وأعمدة جديدة حقاً.

ولكن إذا عدنا ثانية إلى مقارنتنا مع الحالة المصرية، فإن مستقبل اللغة الصينية على المدى البعيد قد يكون معلقاً في الميزان. فالسمة المشتركة التي وجدناها، والتي تفسر استمرار بقاء اللغتين المصرية والصينية على امتداد عدة آلاف من السنين، هي الحفاظ على مركز متميز للهوية والولاء ضمن المجتمع اللغوي.

(*) لقد كتبت بهذه اللهجة من اللغة الصينية كل القصص المشهورة فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ولا سيما قصة "هونغولومنغ" 'حلم الغرفة الحمراء' من تأليف كاو كسوقين، و "سانغوجي يانيو" 'قصة الممالك الثلاث' من تأليف لو غوانجونغ، و "إكسيوجي" 'رحلة إلى الغرب'، من تأليف ووتشنغ- إنْ.

(**) كان هناك أيضاً عدد من المحاولات لإحلال الحروف الرومانية محل الحروف الصينية، ولكن مع الاعتراف بصعوبة العثور على نظام يمكنه أن يكون محايداً فيما يتعلق باللهجات المختلفة، فلم تنجح أي محاولة منها في أن تصبح أي شيء أكثر من مجرد مساعدة للمتعلمين والأجانب. وإن حروف بِنْيِنْ pinyin الرومانية المستخدمة في هذا الكتاب تمثل لهجة الماندارين الفصحى الموحدة، وهي الآن على وشك أن تصبح مقياساً دولياً. وقد تم تطويرها بمساعدة باحثين روس، وتم طبعها ونشرها رسمياً في العام 1957.

فاللغة المصرية فقدت تدريجياً جوانب من مركزها التاريخي، أولاً في شكل ملكيتها، ثم في استقلالها السياسي، ثم في ديانتها الوطنية الخاصة بها، وأخيراً في مسيحيتها بشكلها الوطني، وراحت تضعف باطراد مستمر عبر العصور، فأصبحت الآن، كلغة تتلى في الطقوس الدينية فقط، قريبة من الاختفاء كلياً. فإذا كان القياس صحيحاً، فإن اللغة الصينية، رغم وجود مليار من الناطقين بها، قد تعتبر نفسها أنها دخلت الآن في ممر خطر. فمن أجل التعامل مع التحدي من العالم الحديث المستلهم من أوروبا، تخلت هذه اللغة عن العلاقة مع نظامها الملكي الذي كان مثالاً حددت بموجبه هويتها طيلة أكثر من ألفي عام. ولم تتخلَّ عن استقلالها السياسي، ولكنها تخلت عن ديانتها الخاصة، رسمياً على الأقل: فمنذ سقوط الملكية لم تعد الصين تحافظ بشكل فعال على قيمة الأفكار الكونفوشيوسية ـ كما أن محافظتها على الأفكار الطاوية أقل حتى من ذلك.

إن استقلال الصين السياسي قد ينقذ لغتها من الانزلاق إلى الدرك الذي تعرضت له اللغة المصرية. فحتى تحت الحكم الأجنبي، أظهرت الصينية أن فيها مرونة تمكّنها من النهوض، ومن الامتصاص أكثر بكثير مما كانت عليه اللغة المصرية في سنواتها الألفين الماضية. فقد كان لدى الصينية ميزة لم تمتلكها اللغة المصرية أبداً، وهي ليست فقط ميزة الكثافة العالية، بل كذلك حجم السكان الواسع المطلق. ففي نموذج اللغة الصينية المكتوب، ليس هناك شيء في تاريخها يشبه فقدان اللغة المصرية لنظام كتابتها الأهلي البلدي وأخذها بالحروف الإغريقية، رغم أن الأخذ بالحروف الرومانية قد يأتي في وقت لاحق.

والخلاصة أن حالات التراجع الثقافي التي حددنا أنها أدت إلى هلاك اللغة المصرية لها نظائر شبيهة بها في تاريخ الصينية الحديث، باستثناء الغزو السياسي. وربما كانت النذر واضحة من الآن ضد اللغة التي يتكلمها اليوم خُمْس سكان المعمورة من البشر.

5

شيء جذّاب كنبات معترش: المستقبل الثقافي للسنسكريتية

भाषा प्रशस्ता सुमनो लतेव
केषाम्न चेतांस्यावर्जयति।

bhāṣā praśastā sumano lateva
keṣām na cetāṃsy āvarjayati

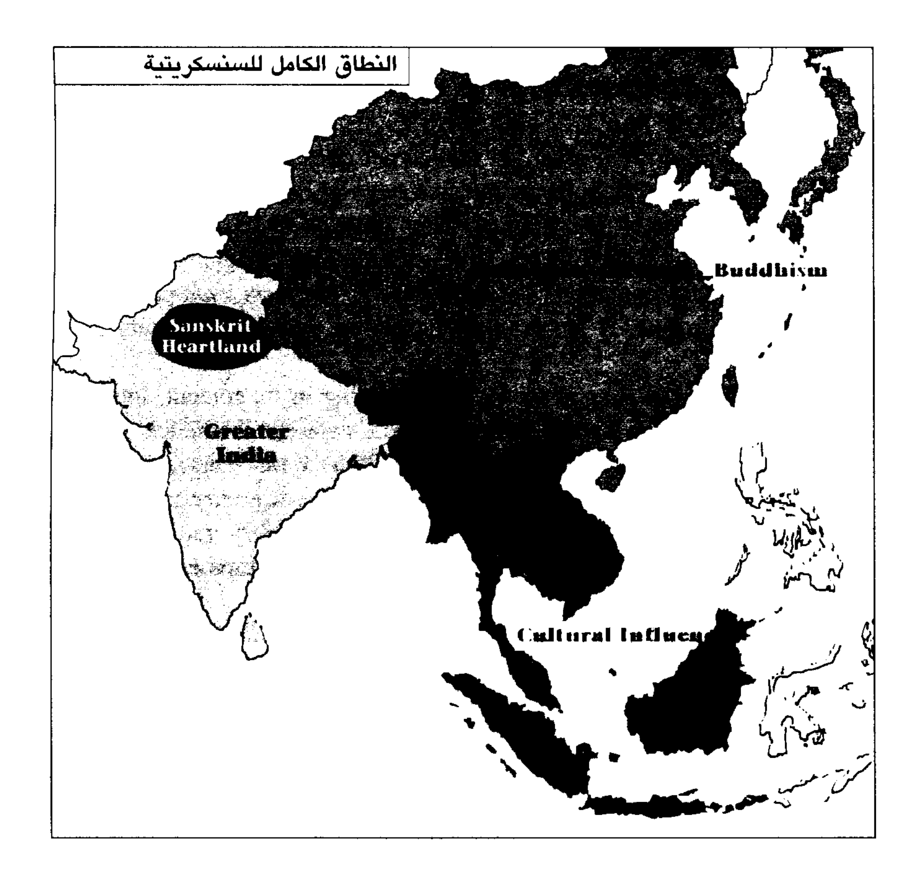
اللغة، سعيدة، فاتنة، كنبتة معترشة، فما هي العقول التي لا تكسبها؟(*)

(سوكتا ـ حكمة تقليدية)

القصة باختصار

هناك صورة ثابتة بإصرار للسنسكريتية، كنبتة تعريش زاحفة، خصبة مترفة، ومتفتحة الأزهار بشكل تام. فعلى مدى ألفي عام نشرت نفسها حول المراكز السكانية الآسيوية، من شمال شبه القارة الهندية إلى جنوبيها، ومن هناك إلى جنوب شرقي آسيا وجزر الهند الشرقية، إلى هضبة التيبت وإلى الشرق الأقصى.

(*) في الحروف الرومانية المستخدمة لكتابة السنسكريتية، فإن الحرف c يلفظ تْشْ كما في كلمة *church* الإنكليزية، وحرف الجيم J كما في كلمة *judge* الإنكليزية. ووضع نقطة تحت الحرف t أو d أو n يعني أنها يجب أن تلفظ بإرجاع اللسان إلى الوراء في انثناء خلفي. والنقطة تحت الحرف h معناها أنه متبوع بصدى حرف العلة السابق... والنقطة تحت حرف r أو حرف l معناها أنه يلفظ مستقلاً، كما في كلمتي *bitter* و*little* ملفوظتين باللهجة الإنكليزية الأمريكية. والنقطة تحت حرف الميم m معناها أنه يلفظ مع إخراج حرف العلة السابق له من الأنف كما في كلمة *aham*، وحرف الـ l يشبه اللفظة الأمريكية uhuh؟ وكل حروف الوقف الحلقية الصحيحة (k,g,c,j,t,d,p,b) يمكن لفظها بملء النفس كحرف الهاء h وهذا موضح بجعل حرف h يتبعها. وهناك ثلاثة أحرف صافرة هي الشين ś والسين ṣ والصاد s، والأولان منها قريبان من صوت *sh* الإنكليزي كما في كلمتي *sheet* و*push* على التوالي.



وكلمة سنسكريت (سمسكرتا) معناها 'المؤلَّفة' أو 'المركَّبة'. إنه اصطلاح عن اللغة كما هي مصاغة في كتب القواعد النحوية، بعكس اللهجات العامية الدارجة المعروفة باسم براكريتس (براكرتا)، أي 'الطبيعية'. وهو اصطلاح يميزها عن الشكل القديم، الذي يسمى أحياناً 'الفيدي' المأخوذ من استخدامه في "الفيدا"، وهي ترانيم للآلهة يظهر أنها تعود إلى أقدم أيام اللغة كما هي محكية في الهند، في القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد، ولكنها لا تزال ترتل بلا تغيير في الطقوس الهندية اليوم. ومعظم اللغات الحديثة في الهند الشمالية والوسطى متحدرة من السنسكريتية، وهي نسخ مطورة من البراكريتية، تشبه كثيراً اللغات الرومانسية المتطورة من أشكال عامية من اللاتينية. ولكن السنسكريتية خارج شبه القارة الهندية لم يؤخذ بها أبداً كلغة شعبية؛ فبقيت

مجرد وسيلة اتصال بين المثقفين المتعلمين، وتعبير مقدّس هو أقوى ما يكون حيث يكون الدين السائد قادماً من الهند.

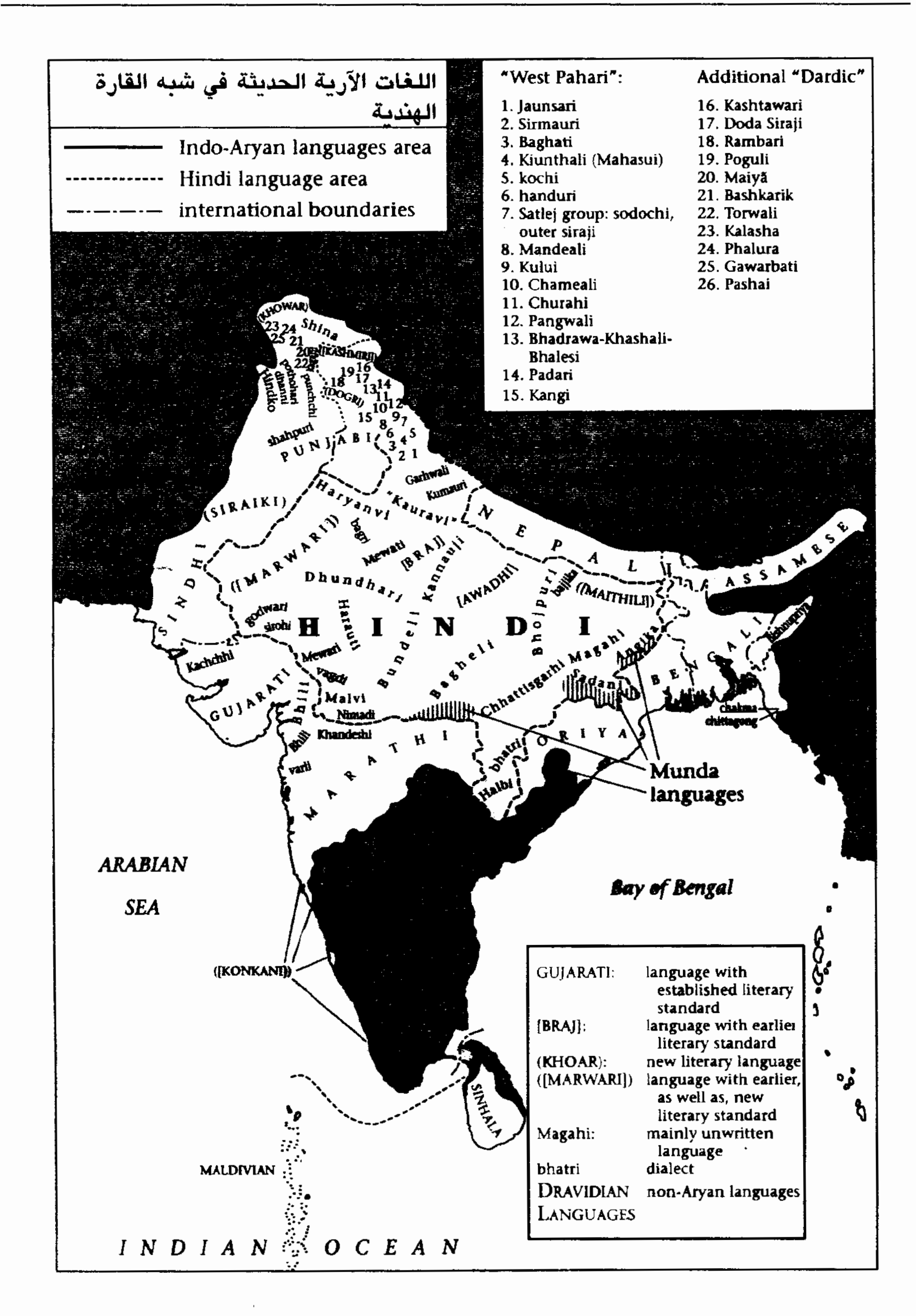
ورغم أن التقليد الديني هو الذي أثبت أنه أفضل ما يعوّل عليه لحفظ السنسكريتية في كثير من "الآفاتارا" (أي الأشياء 'المنزّلة'، مثل كائن إلهي من السماء)، ورغم الارتباط الثقيل للغة في الغرب اليوم بالنزعة الروحية المتسامية، فإن السنسكريتية لم تكن أبداً مجرد لغة طقوسية.

فحتى المجموعة الفيدية الكاملة تحتوي على استحضار مرح، ومع ذلك فإنه ساخر "للماندوكاه"[1]، أي 'ضفادع'، بما يشبه بشكل مضاعف طبقة الكهنوت البراهمانية: فهم يحلفون يميناً بالتزام الصمت لمدة عام (حتى موسم المطر). وحتى عندما يشرعون في الكلام فإن 'كل واحد منهم يعيد حديث الآخر، مثلما يعيد المتعلم كلام معلمه'. وذلك يجلب لنا الإشفاق على الذات بطريقة ساخرة عند المقامر المدمن[2] الذي تستعبده حبّات الجوز البنية اللون التي كانت آنئذٍ تستخدم كنرد . "فحتى الملك ينحني أمامها"، ويتابع معتذراً، وأنا أريه يدي الفارغتين: "أنا لا أخفي عنك شيئاً ـ فهذه هي الحقيقة، كما أقول لك".

وفيما بعد صارت السنسكريتية واسعة الانتشار جداً في قارتها فشملت أعمالها المعروفة على أوسع نطاق ملهاةً خياليةً رومانطقية، ولغوياتٍ نظريةً، واقتصاداً، وشيئاً من الجنس (ولا سيّما "كاما سوترا")، وأشعاراً غنائية، وتاريخاً، وخرافات أخلاقية، إلى جانب إنتاج مستمر من شعر الملاحم، وكراسات دينية وفلسفية. وهو تقليد أدبي شديد الوعي بالنفس، ومليء بالإشارات المثقفة، وقبل كل شيء أعقد تطوير مصقول للتورية معروف في أي مكان على وجه الأرض.

ونبدأ بتخطيط بياني لكيفية نشر السنسكريتية عبر آسيا.

كانت لهجة هندية ـ فارسية قد سُمعت أولاً في منطقة سوات الحدودية الشمالية الغربية وشمالي البنجاب (في باكستان الآن) يحكيها أناس من الواضح



أنهم جاؤوا من الشمال أو من الغرب، ويحبون أن يطلقوا على أنفسهم لقب "آريا" (وهي كلمة عامة صارت فيما بعد تعني 'السيد النبيل'، وكلمة البوذيين

المفضلة دائماً والتي تعني نبل الروح المحض). وبطريقة ما، انتشر المتحدّرون منهم، بل وانتشرت لغتهم أكثر عبر سهل الإندوغانج الشاسع، وكذلك عبر التخوم الجنوبية لجبال الهملايا (بيت الثلج). وهكذا فعند بداية القرن الخامس قبل الميلاد، كانت اللغة محكية في منطقة تمتد شرقاً حتى بيهار، وجنوباً ربما حتى النارمادا. والأدب السنسكريتي من هذه الفترة، وبصورة رئيسية الملحمة الشعرية "مهابهاراتا"، أي 'بهاراتا العظيم'، و"الرامايانا"، أي 'مجيء راما'، مليء بالمنجزات العسكرية والغزوات.

والنتيجة هي الوضع الحالي في يومنا هذا: أرض داخلية هندية شمالية، تمتد من البحر إلى البحر، من لغات تتصل بطريقة أقرب أو أبعد بالسنسكريتية. وهذا المركز معروف في الهند دائماً باسم "آريافارتا"، أي (موطن الآريين). كما كسبت السنسكريتية، فرعاً ممتداً في سريلانكا في الجنوب البعيد، بإيجاد مجتمع "سيمهالا"، أي 'الأسود' هناك: فحسب التقاليد، جاءت هذه الجماعة من غوجارات، على الساحل الشمالي الغربي، في القرن الخامس ق.م. ويستمر تقدم اللغة الآرية إلى هذا اليوم في المناطق الشمالية، في آسام ونيبال، حيث اللغتان الرسميتان (الآسامية، والنيبالية أو الغوركالية) هما آريتان، ولكنهما لم تصبحا بعد اللغتين العاميتين الدارجتين لأغلبيات كبيرة من السكان.

ولم يكن كل انتشار السنسكريتية عن طريق الأخذ الكامل بها كلغة دارجة. وعندما صمدت اللغات الموجودة قبلها في مواقعها، مثل لغات تيلوغو، وكانادا، والتاميل، فقد تخللتها في العادة مصطلحات من السنسكريتية. ومن الممكن تماماً لهذه الكلمات المستعارة (المسماة "تات - ساما"، أي 'تلك بنفسها') أن تكون كثيرة بصورة ساحقة في لغات قواعدها النحوية غير آرية. وعلى عكس ذلك، ففي الأوردو، وحتى الهندي، وهما لغتا الأغلبية في الهند الشمالية، فإن الجذور الآرية ربما تكون خفية تحت التأثير القوي لاستعارات لاحقة من الفارسية والعربية (وقد كانت هذه الاستعارة الواسعة الانتشار التي اجتلبتها الثقافة نقمةً على الدراسات اللغوية التاريخية الهندية لأنها شكلت أكبر صعوبة لعملية غربلة الجزء الموروث من اللغات لفصله عن الاستعارات الأجنبية، من أجل تجميع تاريخ هذه اللغات).

ولم تتوقف عملية تعميم السنسكريتية عند حدود شبه القارة. فعلى مسار الألف الميلادي الأول، هبط التجار البحريون أو المبشرون الهنود على بر الأرض اليابسة، ليس في سريلانكا فحسب، بل كذلك في أماكن كثيرة على طول سواحل جنوب شرقي آسيا. فانتشرت السنسكريتية هناك قبل كل شيء كلغة للنخبة الحضارية والدينية (سواء أكانت هندية أم بوذية)، ولكن التأثير كان عميقاً، وكذلك دراسة السنسكريتية باعتبارها أداة لحضارة عليا. فالمنطقة معروفة باسم الهند الصينية، وهي تسمية صحيحة تماماً، لأنها صارت بوتقة للتأثيرات الثقافية الهندية والصينية المتنافسة.

ولكن عندمت أخذت السنسكريتية طريقها نحو الشمال، حول جبال الهملايا إلى التيبت، والصين، وكوريا، واليابان، فإن جاذبية التعاليم البوذية قبل كل شيء كانت هي التي سبّبت انتشار اللغة. وقد عاش بوذا في القرن الخامس قبل الميلاد، في الوادي الأسفل لنهر الغانج، ناطقاً بلغة براكريت تعرف باسم ماغادي. وفي القرنين التاليين، انتشرت العقيدة التي أسسها في جميع أنحاء الهند وسريلانكا، وكذلك في داخل بورما، وكتبت نصوصها إلى حد كبير بلغةٍ وثيقة الصلة بالبراكريت، وهي لغة بالي، ولكنها كتبت أيضاً بالسنسكريتية الكلاسكية بشكل متزايد أكثر فأكثر مع مرور الزمن، وإلى جانب الانتشار في جنوب شرقي آسيا، كان أكثر الطرق تأثيراً هو الطريق الذي سلكته البوذية إلى كشمير ثم رجوعاً إلى موطن السنسكريتية نفسها في البنجاب وسوات.

ومن هنا، فإن البوذية، مع نصوصها الدينية المرافقة لها، راحت تنتشر إلى الشمال في القرن الأول الميلادي. ولعلها راحت تتحرك مرة أخرى ببطء ومشقة على الطريق التاريخي الذي كان قد استخدمه الناطقون بالسنسكريتية لدخول الهند قبل ذلك بأكثر من ألف عام. ولكن بعد عبور باكتريا فإن البوذية بدلاً من الاتجاه يساراً إلى داخل سهوب آسيا الوسطى، استدارت إلى اليمين، والتقطت طريق الحرير متجهة إلى داخل الصين. فاستقبلتها سلالة تانغ الناشئة وراحت تنشرها في آخر الأمر، فأخذت البوذية تتمدد وتتسع متعايشة مع الثقافة الصينية، ومن ثم انتقلت، ومعها نصوصها باللغتين السنسكريتية والبالية، إلى

كوريا واليابان، كموطنين لها في أقاصي الشرق، فوصلت عند نهاية القرن السادس الميلادي.

أما المناطق الأخرى الأقرب فقد استغرقت وقتاً أطول حتى تلقت هذا المذهب الذي حملته إليها ـ كما هو المعتاد على الدوام ـ الأداتان اللغويتان البالية والسنسكريتية، فكانت نيبال جزءاً من الانتشار الهندي المبكر للبوذية تحت حكم آسوكا، في القرن الثالث قبل الميلاد. ولكن أول راهب هندي دعي إلى التيبت، وهو سانتاراكسيتا، جاء في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، أي بعد ألف ومئتي عام كاملة من معيشة بوذا على بعد مئتي ميل فقط إلى الجنوب (عبر الهملايا) في ماغادها، ولم تترسخ البوذية بثبات في التيبت إلا في القرن الحادي عشر الميلادي.

وكانت آخر منطقة تتعرض للبوذية (وبالتالي للسنسكريتية المقدسة) على نطاق واسع هي منغوليا، آخر موطن لها في أقصى الشمال. فطيلة قرون عديدة كانت هناك صلات قوية بين التيبتيين والمغول، الذين حققوا هيمنة على الصين من العام 1280 إلى العام 1368م. وعلى سبيل المثال فإن قبلاي خان، إمبراطور الصين المغولي المعروف في الغرب باعتباره مضيف الرحّالة الإيطالي ماركو بولو، كان حريصاً على نشر البوذية إلى موطنه المغولي في أوائل القرن الرابع عشر. ولكن هذا الهدف لم يتحقق بشكل دائم إلا بعد ذلك بوقت طويل على أيدي مبشّرين صينيين: ففي العام 1578 تقبل حاكم منغوليا ألطاي خان نسخة من التقليد البوذي التيبتي، نيابة عن مملكته بكاملها.

فللسنسكريتية إذن تاريخ مترامي الأطراف. فقد كانت على اتصال بثقافات تدار بلغات أخرى في جميع أنحاء آسيا الجنوبية والشرقية والوسطى. ويبرز تعميم مثير للاهتمام. وهو أن هذا الاتصال اللغوي لم يؤدِ إلى فقدان أو تبديل لتقليد لغوي في أي مكان، رغم أن السنسكريتية كانت دائماً مركزية في التطورات الثقافية الجديدة حيثما وصلت. وهذا سجل يقدم نقيضاً مدهشاً للتأثير المدمّر في الغالب الأعم من لغات الحضارات ذات الحملات الواسعة النطاق، مثل الإغريقية، واللاتينية، والعربية، والإسبانية، والفرنسية، والإنكليزية.

ولكن بطريقة أخرى، فإن هذا الاعتناق الواسع النطاق للثقافة الهندية يذكرنا كثيراً بالحماسة للأشياء الأمريكية الذي أَسَرَ العالم بكامله، وسيطر بالتأكيد على منطقة جنوب شرقي آسيا، في النصف الثاني من القرن العشرين. ففي ذلك التقدم المندفع أيضاً كانت الحوافز الأساسية الأولى هي تنامي الأرباح عن طريق التجارة، والشعور بأن ثقافة الترابط العالمي وحرية التجارة التي جاءت مع الأجانب كانت سترفع مستوى المعيشة لكل الذين يأخذون بها. وكما حدث في تقدم نزعة تعميم تقليد الهند في الزمن القديم، فلم يكن هناك أي استخدام يذكر للقوة العسكرية لتعزيز تقدم انتشار مايكروسوفت، أو مايكل جاكسون، أو ميكي ماوس. فلم يكن هناك أي شعور بأن هذا التقدم قد خططت له أو نسقته قوى سياسية في مركز الابتكار سواء في الهند في ذلك الزمان أم في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. والتأثيرات اللغوية متشابهة أيضاً: فالإنكليزية، مثل السنسكريتية، تقدمت كلغة مشتركة للتجارة، والأعمال التجارية الدولية، وتعزيز الانتشار الثقافي.

ومن الفوارق الكبرى غياب أي عنصر ديني في الحركة الأمريكية. فليس فيها أي شيء موضوع في مواجهة طقوس الآلهة الهندية، أو حقائق بوذا النبيلة الأربع، أو الطريق النبيل ذي الشُعَب الثماني. وقد تكون لهذا أهمية بالنسبة لمستقبل اللغة الإنكليزية، ما دمنا سنرى بأن الدين وحده، سواء أكان هندياً أم بوذياً، هو الذي قدر له في آخر الأمر أن يحافظ على دور السنسكريتية في خارج الهند. ولكن مع هذا التوضيح التحذيري، يبدو أن المقارنة ستكون مفيدة أكثر منها مضلّلة بين تصاعد المدين الفائضين - مد الثقافة الهندية في أوائل الألف الميلادي الأول، ومد الثقافة الأمريكية عند نهاية الألف الثاني.

إن القسم الباقي من هذا الفصل ينظر بتعمّق أكثر في نوعية اللغة السنسكريتية، وكيف تم تلقيها بهذا الحماس عبر آسيا الجنوبية والشرقية.

شخصية اللغة السنسكريتية

حقاً لقد تركت نباتات الغابة المعترشة عرائش الحدائق متخلّفة وراءها في الفضائل

كاليداسا، التعرف إلى شاكنتالا، 17:1

الصفات الجوهرية

إن الثقافة الهندية فريدة من نوعها في العالم في إعرابها القوي للغتها الخاصة بها، التي جعلتها أيضاً هي النظام المركزي الضابط لثقافتها. فالكلمة السنسكريتية التي تعني 'قواعد النحو' هي "فياكارانا". وبدلاً من أن تكون مبنية على كلمة "الكلمة" أو "الكتابة"، مثل كلمة "غراماتيك" اليونانية، فإنها تعني "الإعراب" فقط: وهكذا فإن اللغة هي موضوع الإعراب بامتياز.

إن باتانجالي، العالم النحوي البارز في القرن الثاني ق.م. قد كتب في بداية كتابه المعنون "مهابهاسيا"، أي (التعليق العظيم)، أن هناك خمسة أسباب لدراسة النحو: هي الحفاظ على الفيدا [كتب الهندوس الدينية الأربعة]، والقدرة على تحوير الصياغات من الفيدا لتناسب وضعاً جديداً، وتحقيق الالتزام الديني، وتعلم اللغة بالسهولة المستطاعة، وحل الشكوك في تفسير النصوص[3]. وهكذا فإنه من الواضح أنه حتى في هذه المرحلة، أي بعد ألف عام كاملة من تأليف كتب الفيدا، عندما كانت اللغة قد تغيرت كثيراً، كان توسيع استعمال اللغة لأغراض دينية لا يزال يعتبر هو النقطة المركزية في النحو.

وقد ظلت الاستعمالات الدينية موجودة دائماً بشكل كبير في طابع شخصية اللغة السنسكريتية في العالم. فالطقوس الهندوسية كانت ترتل بهذه اللغة على مدى فترة استمرت متواصلة ثلاثة آلاف وخمسمئة عام، لعلها عمر أقدم الترانيم في فيدا ريغ Rig. والآلهة الذين اختيروا ليكونوا بؤرة تركيز العبادة تغيروا عبر آلاف السنين من آغني، (أي 'النار')، وسافيتري، (أي 'الشمس') وفارونا ورودرا في كتب الفيدا إلى سيفا، وكريشنا، وغانيشا وكالي (وآخرين

كثيرين) اليوم، ولكن بعض الآلهة لا يزالون معنا (وخاصة فيشنو)، بينما لم يحدث في اللغة تغيير يذكر. والحقيقة أن فيدا Rig فيه ترنيمة واحدة هي استحضار ڤاك، أي 'الكلام' نفسه. وههنا اثنان من أشعاره:

[1]
عندما قام سيد العالم الحكيم بتأسيس
مبدأ اللغة الأول الذي يعطي الأسماء
فإن ما هو ممتاز فيها، وما هو نقي،
كامن في أعماق داخلها، خرج إلى الضوء من خلال المحبة.

[4]
كثير من الناس المبصرين لا يرون الكلمة
وكثير من الناس السامعين لا يسمعونها
ومع ذلك فإنها تكشف نفسها لآخرين، مثل
عروس متألقة تستسلم لزوجها.

تكشف الكلمات الأخيرة امتزاجاً للصور الجنسية والصوفية الموجودة كثيراً في السنسكريتية؛ ولكنها تبين أيضاً أن مهارات اللغوي قد تم إدراكها في وقت مبكر. وهذا مثير للاهتمام على وجهٍ الخصوص لكون علم النحو كما تطور لم يكن بالدرجة الأولى إعراباً للغة الدينية في كتب الفيدا، بل كان إعراباً للهجة مختلفة أبسط منها قليلاً، ولذلك يفترض أنها جاءت فيما بعد، في وقت لاحق. وإن "بانيني" العميد الأصيل لعلم النحو السنسكريتي في القرن الخامس ق.م.، قد اضطر لوضع قواعد إضافية لتوليد الصيغ المستعملة في كتب الفيدا (والمسماة "تشاندا") من قاعدة في السنسكريتية العادية (توصف باسم "بهاسا" - أي 'لغة الكلام') (ولعل بانيني قد عاش في المجتمع العلمي الأكاديمي في "تاكصاشيلا"، المعروفة عند الإغريق باسم تاكسيلا، قرب روالبندي الحديثة، في أقصى الشمال الشرقي من شبه القارّة، وهي الآن جزء من باكستان).

وعلاوة على ذلك، فإن علم النحو الذي حدده التقليد كان نظاماً واسعاً من القواعد المجردة، مكوناً من مجموعة من المبادئ الأساسية والحكم السائرة المليئة بزبدة المعاني الجوهرية (المسماة "سوترا"، ومعناها الحرفي هو

’الخيوط‘) المكتوبة برطانة مصطنعة. وهذه الخيوط لا يشبهها شيء أكثر من القواعد في علم نحو محوسب للغة حديثة، كالذي يمكن استخدامه في نظام ترجمة آلية: فبدون أي عنصر صوفي أو طقوسي، فإنها تطبق حسب المبادئ الرسمية المجردة(*).

وقد أصبحت الصياغة في الخيوط من الملامح الأساسية في النصوص الأكاديمية السنسكريتية، ولكن باستخدام الحكم والأمثال في السنسكريتية

(*) ليس هذا مجازاً، ولا مفارقة تاريخية في تفسير قواعد النحو السنسكريتي في الزمن غير الصحيح، ولكنه وصف مباشر بسيط لعمل الخيوط في نظام بانيني. تأمل تطبيق خيط واحد:

إيكو يان آسي iko yan aci

فالكلمات الثلاث التي تكوّن الخيط ليست كلمات من السنسكريتية نفسها، بل من لغة ماورائية مصطنعة تشير بإيجاز جامع إلى خيوط أخرى من النحو. ومع ذلك فإنها تعامل وكأنها أسماء من جذور حروف صحيحة، مع النهاية المنتظمة الدالة على الجنس (as-) وحالة الرفع (النهاية العارية) والظرف المكاني (i-). (وهناك تعقيد بسيط، في كون النهاية في الحالتين هي جزء ظاهر الصوت في النطق، فالنهاية as- تتحقق بلفظها على شكل θ-. وهذا مبدأ منتظم للوصل والربط في السنسكريتية، وهو نفسه جزء شديد التعقيد من النحو). وهكذا فإن الخيط يمكن إعرابه وظيفياً كما يلي:

[ik] دالة على الجنس [yan] في حالة الرفع [ac] الظرف المكاني

وفي سياق الخيط (سوترا) فإن هذه الحالات الإعرابية لها تفسير خاص، يشير على التوالي إلى المدخل، والمخرج، وسياق اليد اليمنى من قاعدة صوتية كلامية. ولذلك فإن الخيط يجب فهمه كما يلي:

[ik] → [yan]/_[ac]

ولكن ما هو مرجع إشارة الكلمات الغريبة نفسها؟ ينبغي فهمها على أنها تطبيقات لمجموعة أخرى من الخيوط (المعروفة باسم خيوط سيفا) وهي مجموعة تلعب دور نظام لتحديد طبقات الصوت الطبيعية في السنسكريتية. وهو يبدأ كما يلي

a i u N; r l k; e o N; āi āu ā C; h y w r T; l N ...

وليس هناك تمييز بين الحالة الإعرابية العليا أو الدنيا في السنسكريتية وليست فيها فواصل منقوطة، ولكن استخدام تنضيدات الطباعة الرومانية المناسبة هو لإظهار ما يتعلمه دارس النحو البانيني عن طريق الأمثلة، وهو أن الحروف المكتوبة هنا بالبنط الكبير الأعلى تعمل كحروف ضبط. فأي مصطلح يتكون من أحد الحروف الصغيرة الدنيا a متبوعة بأحد حروف الضبط b يشير إلى سلسلة من الأصوات الكلامية البادئة بحرف a والمنتهية قبل الحرف b مباشرة. وهكذا فإن ’aC‘ مثلاً تشير إلى مجموعة علة، و’haT‘ تشير إلى مجموعة من أشباه حروف العلة باستثناء الحرف l. وهكذا يمكن أن نرى أن الخيط الذي يجري إعرابه ليس أقل من بيان للقاعدة:

(i, u,r, l}→ (y, w, r l) before {a, i, u, r, l, e, o, āi, āu}

وهذا مختصر فعلاً. ولكن يجب التذكر أن هذا المستوى من التلخيص المركّز هو ممكن فقط لأن عدداً من المبادئ الضابطة يمكن اعتبارها تحصيل حاصل، مثل التفسير الضمني داخل الأقواس: فالأصوات الكلامية الأربعة الأولى ترسم خريطة على التوالي على الأصوات الكلامية الأربعة الثانية، ولكن هذا يحدث قبل أي من الأصوات التسعة في البيئة. وإن قسماً من وظيفة تقليد التعليق التي تتابع ما كتبه بانيني هو توضيح الطبيعة الدقيقة للباريبهاسا، أي (المبادئ المساعدة) التي يرتكز عليها التفسير الصحيح للخيط (السوترا).

الدارجة، وليس في هذه اللغة المعقدة المتسامية إلى الأعالي. وبينما كانت النصوص التعليمية الغربية حتى العصر الحديث تصاغ في تقليد إغريقي كمجموعة من البديهيات والنظريات (على غرار إقليدس) أو في حالات أكثر على شكل شعر تعليمي (على غرار هسيود) فقد كان النهج المفضل في التقليد السنسكريتي هو تغليف الرسائل كسلسلة من الحكم والأقوال المأثورة السهلة الحفظ، مصوغة في العادة على شكل بيتين من الشعر. وقد ساد هذا النهج إلى درجة أن هناك خيطاً يحدد مواصفات الخيط الجيد (سوترا)، وهي أن يكون:

مختصراً، وغير غامض، وفيه معنىً مركز، وعالمي
وبلا حشو زائد، وبلا عيب هو الخيط الذي يعرفه الحكماء.

وكان هذا النهج إلى حد كبير جزءاً من جانب متميز آخر من جوانب الثقافة اللغوية السنسكريتية، وهو ازدواجية قوية حول قيمة الكتابة. فقد كان الاعتماد على اللغة في صيغتها المكتوبة يعتبر معيقاً، ولا يعطي سيطرة حقيقية على المحتوى اللغوي. ومن هنا جاء المثل:

المعرفة في كتاب ـ مال في يد شخص آخر[4]

هكذا كانت الهند القديمة مثل ثقافات كثيرة، مقسمة كانقسام الكهنة القدامى في بلاد الغال في القرن الأول قبل الميلاد[5] وانقسام غواتيمالا الحديثة (حيث يلاحظ أهلها الأصليون من هنود المايا أن الأشخاص الخارجيين يدوّنون ملاحظاتهم عن الأشياء لا ليتذكروها بل لكي لا يضطروا إلى تذكرها)[6]. فحتى سقراط يتذكر قصة عن الإله توت عندما عرض حرفة الكتابة على ملك مصر، فلم يعجب ذلك الملك، فوصف الكتابة بأنها 'سوف تضع النسيان في أذهان المتعلمين، بسبب نقص ممارسة التمرين في الذاكرة'[7]. وقد أخذ عمداء الثقافة الهندية هذا التأثير الجانبي للتعلم من الكتب على محمل الجدّ إلى حد كبير.

ورغم أن اللغة كانت قد تعرضت لإعراب كامل للأصوات الكلامية عند حلول القرن الخامس قبل الميلاد، وهو إعراب اندمج حتى في نظام الترتيب الرسمي للحروف الهجائية، فإن الاعتماد على النصوص المكتوبة للوثائق الهامة (وخاصة

الهامة من الناحية الروحية) كان عرضةً للشجب القاسي، ومن هنا جاء قول آخر:

إن بائعي الفيدا، والمسيئين في قراءة الفيدا،
وكتّاب **الفيدا**، يذهبون جميعاً على الطريق إلى جهنم[8].

وعلى نقيض ذلك، كان الوضع المثالي هو تعلم جميع النصوص الرئيسية بحفظها عن ظهر قلب، من خلال استخدام أساليب تقوية الذاكرة. وعندئذ فإن هذا الحفظ يجعل التعامل مع جميع جوانب النصوص ممكناً، بما في ذلك تأليف نصوص وتعليقات جديدة، قد تستفيد حقاً من تدوينها كتابةً.

إن طابع شخصية اللغة التي لقيت هذا الاهتمام قد تم عرضه في النصوص المقتبسة. كانت لغة هندية ـ أوروبية قديمة نموذجية، فيها أسماء، وصفات، وضمائر، وأفعال، كلها متأثرة كثيراً بالتصريف الإعرابي في نظام مليء بشواذ استثنائية خاصة، رغم تأثره بالإعراب البارع (كما أوضحه بانيني وتقليده النحوي). وكانت الكلمات تميل إلى أن تكون متعددة المقاطع، وكثيراً ما كان طولها يزداد بسبب ميل اللغة إلى التسامح مع كلمات مركبة لها طول يكاد يكون غير محدود. وهذا أحد الملامح التي صارت شديدة في السنسكريتية (في جميع أجناس الأدب) مع مرور السنين بالقرون والألوف من الأعوام.

ومفردات اللغة واسعة: ففيها أكثر من عشرة آلاف جذر اسمي (أي غير فعلي) في موسوعة الشعراء التقليدية ("آماراكوصا"، أي 'المخزونات الخالدة'، وهي منظمة بالطبع في خيوط سوترا لتسهيل حفظها في الذاكرة). وعند السماح بإدخال الأفعال والكلمات المركبة، فإن عدد البنود المدرجة في قاموس مونيه وليامز (المطبوع في العام 1899) يصل إلى مئة وثمانين ألف مادة(*). ومعنى هذا أن هناك موارد واسعة من الكلمات المترادفة أو ذات المعاني المتقاربة: ففي الجانب الأقصى، يدّعي جون بروف أن هناك خمسين اسماً مترادفاً لزهرة النيلوفر، وهي من المفاهيم المفضلة في الشعر السنسكريتي بمعناها الحرفي

(*) قارن هذا مع 215,000 مادة في آخر طبعة من قاموس تشيمبرز الإنكليزي، وأكثر من نصف مليون مادة في آخر طبعة من قاموس اكسفورد الإنكليزي.

والمجازي(9). وعلى أية حال فإن الكلمات تميل إلى أن تكون لها معانٍ متعددة. فأبسط كلمة مباشرة عن زهرة النيلوفر هي "بادما"، وبادما هذه لها أحد عشر معنى إضافياً في الجنس المحايد (الزخرفة الشبيهة بزهرة النيلوفر، نوع من النيلوفر، جذر زهرة نيلوفر، العلامات الملونة على وجه فيل وخرطومه، تشكيل عسكري لجيش، العدد تريليون (10^{12})، الرصاص، طاقة روحية صوفية، ثؤلول أو شامة على الجسم، بقعة أو لطخة، جزء من عامود) وثمانية معانٍ أخرى بصيغة المذكر (معبد، ربع فيل، جنس من الثعابين، راما (بطل ملحمي هندوسي)، كنز كوبيرا، طراز من المتعة الجنسية، وقفة تأمل، كنز له علاقة بالسحر). فهذه الموارد المعجمية تستغل استغلالاً كاملاً في الشعر السنسكريتي، الذي هو مليء بالإشارات والحشو المسهب، ومدمن على استخدام التورية.

ولكننا قد لاحظنا من قبل أن إحدى المواصفات الخاصة للغة السنسكريتية هي النظام المعقد من الزوائد المرتبطة بالكلمة. وهذا شيء معروف باسم "ساندهي"، أي "التجميع". ومعناه أن حدود الكلمات كثيراً ما تمحى ليصبح هناك مسيل وحيد من المقاطع المتدفقة كما هي ملفوظة أو حتى مكتوبة، وعرضة لتفسيرات متعددة. إن النتيجة المركبة من هاتين الخاصيتين من خصائص السنسكريتية هي فرصة لاستخدام التورية على نطاق لا يكاد يكون تصوره ممكناً. وهي فرصة استغلت بشكل كامل وفير في المؤلفات الأدبية. وقد تحقق الحد الأقصى في هذا المجال على يد الشاعر "كافيراجا" ('الشاعر الملك')، الذي وضع لنفسه مهمةً في قصيدته "راغافابادافيا" (في القرن الثاني عشر الميلادي) هي إعادة رواية قصة الملحمتين الهنديتين العظيمتين "الرامايانا" و"المهابهاراتا" في الوقت نفسه في أشعار غامضة (وكثيرة الزخارف). وبطريقة ما، يمكن اعتبار ذلك إطلاقاً للمعنى من التعبير عنه بكلمات، لأن من الصعب تصور الطريقة التي يمكن بها فهم هذا العمل في أي واحد من معنييه بدون معرفة المستمعين المسبقة والفعّالة والمفصلة بالحكايات التي تروى فيه. فالمؤلف والمستمعون يتشاركون في القصص، ولكنهم يركزون حصراً على التفاصيل الحرفية الشفوية للتعبير عنها. ومن الناحية العملية فإن ذلك لا يوجب استخدام

مصطلحات غامضة فحسب، ولكن يوجب أيضاً عقد مقارنة قياسية بين تدفق السرد القصصي في الملحمتين. وهكذا نقتبس بيتين من الشعر:

> عند طوافه حول **مملكة**/قوات العدو، وصل إلى **أجمة من أشجار الآسوكا**/ عكس الحزن:
> وكأنما في لحظة، تحققت مهمته، برؤيته **لبنت الأرض**/للأبقار

إن أولى الترجمتين المختلفتين هنا (بالحرف الأسود الغامق) تنطبق على شخصية هانومان الباحث عن سيتا. أما الترجمة الثانية (بالحرف المائل) فتنطبق على آرجونا في حملته لسرقة المواشي خلف خطوط العدو. ولكن من أجلِ الحفاظ على سرد قصصي متماسك تبقى العبارات ترجمة غير غامضة.

إذن فالسنسكريتية لغة خصبة الزخارف بكل معنى الكلمة. فالسير وليام جونز، قاضي قضاة الهند ومؤسس الجمعية الآسيوية الملكية، وصفها وصفاً جديراً بالذكر في العام 1786: 'إن السنسكريتية مهما كان مدى قدمها، ذات تركيب رائع، فهي أكثر كمالاً من اليونانية، وأكثر وفرة من اللاتينية، وأكثر صقلاً وعذوبة من كليهما'.

السنسكريتية في الحياة الهندية

اجتماعياً:

إن مسألة من الذي، أو ما الذي، يقدم نموذجاً لأفضل ما في السنسكريتية قد تمت الإجابة عليها بطرق مختلفة على مدى حياتها الطويلة. فقد كانت هذه المسألة مشحونة ومليئة أكثر من مسألة مستوى اليونانية أو اللاتينية، لأن هاتين اللغتين لم تحملا عبء المعاني الإضافية الدينية التي بقيت مع السنسكريتية طيلة حياتها.

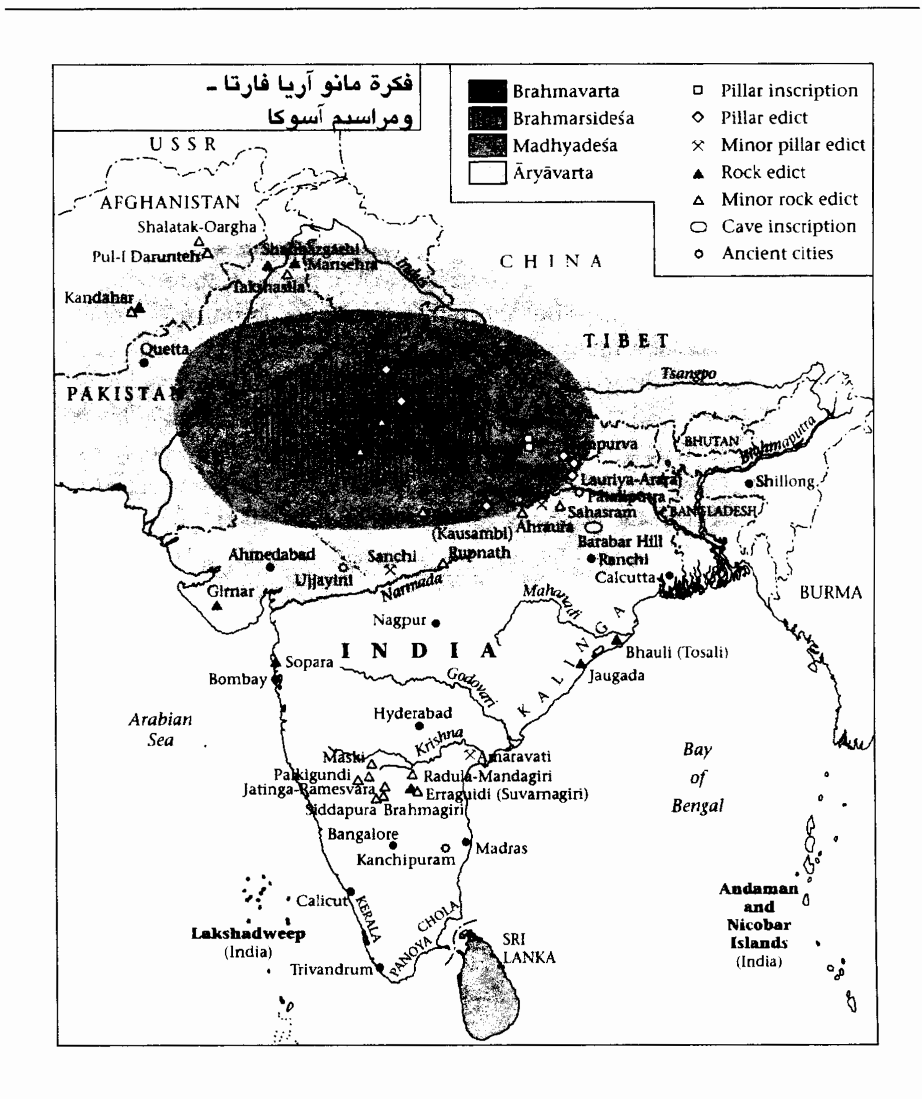
ففي الأصل، كما رأينا، كان التركيز دينياً محضاً، وكان الهدف المروّج له هو تلفظ أشعار كتب الفيدا بشكل واضح ومناسب. أما ما يعتبر الآن

قضية لياقة اجتماعية وتقوى فقد كان متمثلاً بطريقة أخرى في الهند القديمة. فرغم كل شيء، كانت تراتيل أشعار الفيدا تقام لإعطاء قوة خارقة للطبيعة. وقد أعطى العالِم باتانجالي مثالاً على خطورة النحو السيئ الذي قد يهدد الحياة: فالشيطان فريترا قدم أضحية للحصول على ولد يكون قاتلاً "لإندرا"، عدوه اللدود من بين الآلهة. ولسوء حظه فإنه لفظ عبارة "قاتل" إندرا بنبرات مغلوطة، مشدداً على المقطع الأول منها بدلاً من المقطع الأخير، وهكذا أوجد ولداً سيقتله إندرا[10].

وهذه الحكاية من باتانجالي في القرن الثاني قبل الميلاد تبين أن بعض ملامح اللغة على الأقل حسبما حددتها قواعد بانيني النحوية كانت قد توقفت عن كونها شيئاً روتينياً. وقد عاش بانيني في القرن الخامس ق.م. في أقاصي الشمال الغربي من المنطقة الناطقة بالسنسكريتية أو البراكريتية. وعند مجيء عصر باتانجالي كانت تلك المنطقة قد سقطت تحت سيطرة شعوب "المليكا"[*] وهم أجانب غير ناطقين بالهندية (ولا السنسكريتية)، وهم "اليافانا" (أي اليونانيون) و"الساكا" (أي السكان الناطقون بلغة فارسية شبيهة بالباشتو) من الغرب ومن الشمال.

إن الدوافع الدينية التي أكد عليها باتانجالي لضمان صحة استخدام المرء للسنسكريتية تطورت بصورة طبيعية في مجتمع الهند ذي المراتب الكهنوتية المتسلسلة هرمياً، فأصبحت معالم اجتماعية، بل رموزاً للمكانة. وقد شعر باتانجالي بالقلق من وجود تداول في رغبته الطبيعية لتحديد أفضل استخدام يقوم به المتعلمون لما تصفه القواعد النحوية. فبعد كل شيء، كيف يعرف النحوي ما الذي يتعين عليه أن يصفه؟ وهكذا فإنه يلجأ إلى استخدام "الآريافارتا" المحددة جغرافياً: ويتضح أن هذه المنطقة هي الهند الشمالية، التي تحدها الهملايا في الشمال وجبال فنديا في الجنوب، والبنجاب في الغرب والله آباد في

(*) هذه بالضبط هي الكلمة السنسكريتية التي تعادل كلمة "بارباروس" عند الإغريق، وهي تحدّد أو تعرّف الشخص غير الناطق بالسنسكريتية.



الشرق(11). وقدر لهذا أن يكون هو الرأي الوارد من المركز الآري، رغم وجود تحسينات عليه في مدونة قانون مانو، التي ربما تكون قد كتبت بعد ذلك بسبعمئة عام، أي في حوالي العام 500 م. والأراضي الوسطى محددة بهذا التعريف - وهي من الناحية الفعلية هاريانا وأوتر براديش الحديثة -، بينما توسعت "آريافارتا" لتضم شمال شبه القارة بكامله. وفي تلك الأثناء فإن منطقة صغيرة حول دلهي (بين النهرين المقدّسين "ساراسفاتي" و"درصادفاتي")،

حددت باسم "براهمافارتا"، حصلت على الجائزة العليا: 'إن جميع الناس في العالم يجب عليهم أن يتعلموا السلوك اللائق من كاهن براهماني مولود في ذلك البلد'[12]. [براهما معناها الذات العليا لروح الكون وجوهره في الفلسفة الهندوسية].

سياسياً

يضع باتانجالي حدود "آريافارتا" بطريقة مناسبة على وجه العموم عند حدود إمبراطورية صونغا التي كان هو أحد مواطنيها[13]. ولكن ذلك لم يكن مناسباً إلى هذا الحد قبل ذلك بقرن من الزمن، عندما كان العالم السياسي يدور حول إمبراطورية الموريا، التي كانت أوسع بكثير، ولكن موقعها كان أقل مركزية. وكان مركزها في "باتاليبوترا" (باتنا الحديثة) التي هي في الهند الشرقية، وراء تخوم ما كان "آريافارتا" آنذاك. وعلاوة على ذلك فإنها كانت تمتد إلى الشرق حتى براهمابوترا، وإلى الشمال والغرب حتى الجزء الجنوبي من أفغانستان، وإلى الجنوب حتى تصل إلى ميسور الحديثة وتلال نلجيري. وهذه الحدود معلّمة بنقوش على نصب تذكارية مقامه على أعمدة، أو محفورة في الصخور الرواسي. وقد وضعها أعظم أباطرة موريا، وهو "آسوكا" (أي 'غير الحزين' - أو، كما كان يحب أن يسمي نفسه "بياداسي"، وبالسنسكريتية "بريادارسين" التي معناها 'ذو الجانب الوديّ').

أما دور السياسة في انتشار السنسكريتية عبر الهند فإنه يظل غامضاً. ومن المحتمل جداً أن عملية الغزو العسكري والإخضاع لحكم السلالات في القرن الثالث ق.م. لم تنشر السنسكريتية بحد ذاتها، بل نشرت لغة ماغادي براكريت، التي كانت لغة بلاط موريا؛ أما السنسكريتية فقد اتخذت موقعها فيما بعد، فرسّخت نفسها هناك، وفي أماكن أخرى بلا شك، كلغة مشتركة للخطاب المثقف لجميع الناطقين بإحدى لهجات البراكريت الهندية كلغة يومية دارجة. وقد ظل هذا هو موقعها في الهند منذ ذلك الحين، رغم أن لغات أخرى، ولا سيما الفارسية (تحت حكم المغول) والإنكليزية (تحت حكم البريطانيين) قد دخلت شبه القارة وراحت تنافس على هذه المكانة كلغة أساسية أولى للمثقفين المتعلمين.

والواقع أن نوع التقدم اللغوي الذي تحقق بالغزو العسكري يبدو أنه كان مؤقتاً على وجه الخصوص وغير دائم. فهناك مجموعة من مراسيم آسوكا حول ريتشور، على حدود كارناتاكا وآندرا براديش الحديثة؛ ولكن هذه الآن هي ذات قلب المنطقة التي تحكى فيها لغتا كانادا وتيلوغو، وكلاهما لغتان درافيديتان لا علاقة لهما بلغة ماغادي، أو بالسنسكريتية. وفيما بعد، نشأت وسقطت سلسلة من الإمبراطوريات الناطقة بالآرية على الضفاف الدنيا لنهر الغانج (مثل إمبراطورية آسوكا): وقد حدث ذلك في القرن الثاني قبل الميلاد، وبعد كل سقوط كانت بيهار، المنطقة المتمركزة على الجانب السفلي لنهر الغانج تنتكس وتعود إلى لغة موندا (وهي بالمثل غير ذات صلة). ويبدو أن شرق الهند ووسطها لم يخضعا للاتجاه الآري إلا تدريجياً وبشكل متقطع: فخضعت البنغال في القرن الرابع الميلادي، وأوريسا في القرن السابع. وعلى مبعدة أكثر إلى الغرب لم يتم الخضوع إلا في القرن الرابع عشر، وكانت النصوص الرسمية "لمهاراشترا"، أي 'المملكة العظيمة'، لا تزال بلغة كانادا، ولكنها أصبحت بعد ذلك منطقة ناطقة بالآرية كلياً، وبلغة تعرف باسم ماراثي(*). ويبدو أن الطبقات الاجتماعية لا بد أنها كانت تتكلم بلغات مختلفة لفترة من الوقت، بحيث كانت اللغة الآرية (في هذه الحالة على الأقل) هي المفضلة كثيراً في صفوف الطبقات الأدنى.

إن نصوص أوساكا المدونة، وهي أقدم نصوص اللغة الآرية الباقية التي يمكن تفكيك رموزها، ليست بالسنسكريتية بل بلغة ماغادي براكريت. وإن هذا الغياب للسنسكريتية عن النصوص، أو بالأحرى اقتصار حضورها على الزخرفة الأدبية، مع إعطاء محتويات الرسالة الداخلية بلغة براكريت، قد استمر قروناً عديدة، بحيث لا نعثر على النصوص الأولى بالسنسكريتية إلا بعد ذلك بمئتي عام، على مبعدة إلى الغرب، في آيوديا وماثورا (جنوب دلهي). وهناك تقسيم واضح للوظائف بين السنسكريتية والبراكريت يمكن مشاهدته في هذه النصوص المكتوبة المحتوية على النوعين: فالسنسكريتية مستعملة في الشعر، والبراكريت

(*) من الغريب أن هذا لم يحدث إلا بعد الغارات الإسلامية التي جاءت بالفارسية الغريبة تماماً وجعلتها اللغة الجديدة للنخبة.

للتخصصات النثرية. وفي آخر الأمر قدر للسنسكريتية أن تسيطر بل وأن تصبح لغة النصوص بشكل حصري. ولكن هذا التقليد لم يترسخ بصورة تامة إلا بعد مئتين وخمسين عاماً أخرى، بدءاً من العام 150م. بالنصوص المنقوشة على الصخر عن ملك صغير الأهمية هو "رودرا دامان" في "جوناغاد"، أي 'القلعة اليونانية' على الساحل الغربي في غوجارات.

وهناك شيء من تقسيم الوظائف نفسه بتخصيص السنسكريتية بالاستخدامات العليا، والبراكريت بالاستعمال اليومي تظهره التقاليد اللغوية في المسرحيات الدراميّة السنسكريتية. فقد كانت كل تمثيلية متعددة اللغات أو متعددة اللهجات. ومن القرن السادس الميلادي كان الرجال النبلاء يتكلمون السنسكريتية، والسيّدات يتكلمن "السوراسيني" (لهجة ماثورا براكريت) ولكنهن يغنين بلغة "مهاراشتري"، وفي تلك الأثناء كانت الشخصيات الأدنى تكتب النصوص بلهجة ماغادي (ومن سخرية القدر أنها متحدرة من اللغة التي كانت لها معان إضافية ملكية قبل ذلك بتسعمئة عام). ولا يسعنا إلا أن نفترض بأن النكسات السياسية التي وقعت بين هاتين الفترتين (مثل صعود ملوك "ستافاهانا" في منطقة مهاراشترا على مدى القرون الأولى قبل الميلاد والقرون الأولى بعد الميلاد) كان لها على وجه العموم تأثير دائم على المكانة المتصورة للهجات(*).

وعندما وضع "راجاسيخرا" توصياته في حوالي العام 900 م حول الشاعر المثالي قال إنه يجب أن يكون لديه خدم يتكلمون بطلاقة لهجة "آبابرامسا" (لغة الهبوط والتلاشي، وهو اصطلاح شائع الاستخدام تماماً ويعطي صفة سلبية لصيغ متأخرة من لهجة سوارسيني البراكريتية، التي كانت آنذاك في

(*) هناك قصة مشهورة حقاً عن الحرج الذي وقع عندما تبين أن ملكاً يدعى ساتافاهانا كانت معرفته بالسنسكريتية أقل من معرفة إحدى السيدات: ففي معركة مائية، توسلت به إحدى ملكاته أن يكف عن قذفها بالماء (موداكايه، من ما أوداكايه، أي 'ليس بالمياه'). ولكنه ردّ برشقها بالحلويات (موداكايه، أي 'بالحلويات'). وعندما أوضحت له غلطته، اصيب بخزي جرح مشاعره إلى درجة أنه لزم فراشه، ثم شرع في دورة عاجلة مكثفة لدراسة القواعد النحوية (سومادیفا، في كتاب كاثا - ساريت - ساغارام، المجلد الأول - القسم السادس، ص 108-122).

طريقها لكي تصبح اللغة الهندية الحديثة)، وخادمات يتكلمن لغة ماغادي وما شابه، ولكن على زوجاته أن يتكلمن السنسكريتية، وإلا فالبراكريتية، التي بالنسبة له تعني اللغة المهاراشترية، وأما أصدقاؤه فليتكلموا كل اللغات[14]. فقد صار الموجب الاجتماعي للسنسكريتية شيئاً لا مهرب منه، رغم تحمس الشاعر نفسه للغته البراكريتية المحلية. ولكن مكانة اللهجات يبدو أنها صارت إلى حد كبير منفصلة تماماً عن الوعي بأصولها المحلية، أو تاريخها.

دينياً

ومن المثير للاهتمام أن الماغادي ربما كانت هي لهجة غواتاما، مؤسس البوذية، ولو قبل ذلك بحوالي ألف عام (وقد عاش في تلك المنطقة أيضاً معاصره "ماهافيرا"، مؤسس الجانية Jainism). وكانت ماغادا أيضاً هي منطقة أقدم المجالس البوذية، التي أسست الخطوط العريضة لهذه العقيدة من أجل الأجيال اللاحقة. وكان أشهر المعتنقين المبكرين للبوذية وأكثرهم نفوذاً هو الملك آسوكا نفسه، وكان هو الآخر من سكان ماغادا، في مدينتها الرئيسية "باتاليبوترا" (باتنا الحالية في ولاية بيهار على نهر الغانج).

إن هذه الصدفة الجغرافية ربما كان من المتوقع أن تجعل البوذية تفضل اللغة الماغادية. فقد نصح بوذا كهنته أن يعلموا بلغتهم نفسها (سكايا نيروتيا). ويبدو أن رأيه هنا لم يكن ينطوي على احترام اللغة العامية الدارجة فقط، بل كذلك على اعتقاد إيجابي بأن طبقته الاجتماعية الوراثية المغلقة، طبقة "الكساتريا" المحاربة، متفوقة على الطبقة الكهنوتية البراهمانية بارتباطاتها بالسنسكريتية. وكان ذلك جزءاً من إعادة تحديده المُقْنِعَة لنظام الطبقات بكامله، ومعنى أن يكون آرياً حقيقياً ـ رغم أن هذه الكلمة تترجم في البوذية الإنكليزية على أنها تعني "النبيل" ـ بناء على قيمة المرء الذاتية، وليس عن طريق الولادة.

ولكن الكهنة بدورهم لم يضفوا صفة الامتياز على الكلام العادي لبوذا ومنطقته. بل لقد أعلنوا أنهم يفضلون أي شكل من اللغة العامية الدارجة. وهناك قصص عن كون ذلك قد سبب شيئاً من القلق بين الكهنة البراهمانيين الذين

خشوا أن القواعد النحوية واللفظية سوف تشوه أقوال بوذا. غير أنه مع مرور الزمن جاءت لهجة معينة من البراكريتية لتفرض سيطرتها فعلاً: وكانت تسمى "بالي" pali (أي 'اللهجة القانونية الكهنوتية القويمة'). وكانت لهجة مختلطة. ورغم ادعاءات التقليد البوذي (الذي زعم أيضاً أن هذه اللغة قد تكلمها بوذا، وأنها كانت إلى حد كبير هي اللغة الأصلية لكل الكائنات: "ساباساتانام مولابهاسا")(*) فلم تكن لغة ماغادي هي الغالبة على لهجة بالي، بل كانت تلك اللهجة تحتوي على عناصر غربيّة متميزة، تذكرنا بلهجة سوراسيني: ولا بد أنها نشأت كلغة بوذية آرية مختلطة عن طريق عملية من التسوية فيما بين الكهنة الناطقين بلهجات براكريتية متنوعة.

وفيما بعد، عندما تطورت العقيدة، وصارت قائمة على المؤسسات بشكل أثقل، راحت بالتدريج تتبنى أسلوب لغة أرقى وأفخم بصورة متزايدة، أقرب في صياغته إلى السنسكريتية الفصحى الكلاسيكية، المعروفة بأنها السنسكريتية البوذية الهجينة. وهذا ينطوي نموذجياً على الأخذ بالتراكيب النحوية للبراكريتية، التي هي أبسط وأكثر إعراباً من تراكيب السنسكريتية، وعلى إعادة كسوة الكلمات بعلامات التصاريف الإعرابية ونهايات الأفعال التي تذكرنا بالسنسكريتية الفصحى الكلاسيكية، ولكنها كثيراً ما يساء تطبيقها من وجهة نظر علم النحو الكلاسيكية التقليدي.

وعلى وجه العموم، فطوال التاريخ اللغوي الهندي ظلت مكانة السنسكريتية تميل إلى الارتفاع في استخدامها الدنيوي والديني معاً بحيث إن التفضيل السابق للغة الدارجة على أيدي ملوك موريا، والبوذيين، والجينيين Jains، خضع في آخر الأمر للاحترام الذي كانت تحظى به السنسكريتية. فقد كانوا يعترفون بها على أنها لغة "سامسكرتا" مصطنعة، ولكن ذلك إن نجم عنه أي شيء فقد أدى إلى رفع مكانتها، وصار استخدامها يعتبر محكاً لغوياً لاختيار نوعية النص.

(*) يحصل المرء على فكرة عن مدى كثرة أو قلة اختلاف لغة البالي عن السنسكريتية بمقارنة المعادل السنسكريتي لهذه العبارة، وهو: "سارفاساتام مولابهاسا".

آراء أشخاص خارجيين

إن من المثير للاهتمام إجراء مقارنة مختصرة لبعض الملاحظات الحسية الخارجية على السنسكريتية ودورها في المجتمع. فهناك تقليدان من أناس خارجيين تركوا سجلات عن مواجهتهم مع هذه اللغة: فبالنسبة للقرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد لدينا تقارير من اليونانيين، وبالنسبة لمنتصف الألف الأول الميلادي، تقارير من الصينيين في الشمال الشرقي.

إن نظرة إلى الخريطة تبين أنه في عصر السفر براً ومشياً على الأقدام، لا بد أن مبعوثي الحضارتين الإغريقية والصينية كانوا مضطرين لتمييز أنفسهم فيما يتعلق بتصميمهم حتى قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى مراكز الثقافة الهندية: فقد كانت اليونان على بعد أكثر من خمسة آلاف ميل (رغم أن اليونانية كانت قد ترسخت كلغة مشتركة في معظم تلك المسافة). أما الصين فرغم أنها كانت أقرب حسب أقصر المسافات بخط مستقيم، فقد كانت عملياً منقطعة عن الهند، ليس بصحراء تاكلاماكان فحسب، بل كذلك بالجبال الممتدة من بامير إلى أقاصي جبال الهملايا البعيدة.

اليونانيون

لم يكن اليونانيون يعرفون شيئاً يذكر عن الهند إلى أن أوصلتهم حملة الإسكندر إلى حدودها في العام 327 ق.م. وفيما بعد كانت هناك مبادلات دبلوماسية بين بعض حكام الهند العظام في الشمال وبين السلوقيين، الحكام اليونانيين الذين سيطروا على شرق ما كان يدعى الإمبراطورية الفارسية. ومن العام 302 إلى العام 288 ق.م. خدم ميغاستينيز كسفير للسلوقيين عند الملك تشاندراغوبتا في باتاليبوترا (باتنا) التي قدمها للعالم الإغريقي باسم باليبوثرا. وترك دراسة استطرادية عن الطرق الهندية بعنوان "إنديكا". وعند أخذها مع بعض تقارير أونيسكريتوس ونيركوس، الضابطين اللذين كتبا مذكرات عن خدمتهما مع الإسكندر، يتشكل منها جوهر المعرفة اليونانية بالهند حتى نهاية العالم القديم (في العام 476 م).

ولم يعش كتاب "إنديكا "، ولكن من الممكن إعادة تركيبه من الاقتباسات المستفيضة الظاهرة في أعمال مؤلفين آخرين، مثل سترابو وبليني، اللذين كانا يكتبان (في إيطاليا) بعده بقرنين. وليس فيه شيء يذكر عن الجوانب السياسية والأدبية في الحياة الهندية. ولكنه يحتوي فعلاً على تحليل لنظام الطبقات الاجتماعية المغلقة عند الهندوس، محدداً ما لا يقل عن سبع 'قبائل'، أو 'أنساب'، يمكن رسم خريطة جيدة لها على التقسيم الرباعي الذي ظل محترماً منذ أبعد الأزمنة، والمكون من البراهمانيين (الكهنة والفلاسفة)، والكاشاتريين (الملوك والمحاربين) والفيزيين (التجّار) والسودرا (العمال). ويبدو أن هذه الدراسة تلحظ سيادة طقوس سيفا وكريشنا، ولكن باستخلاص غير مباشر: فبالطريقة الإغريقية ـ الرومانية المعتادة، فإن الدراسة لا تعطي سوى أسماء الآلهة اليونانية التي اعتبرها المؤلف متماثلة مع الشخصيات الهندية، وهكذا يقال إن الهنود يعبدون هيراكليس (ما دام يحمل هراوة مثل كريشنا) وديونيسوس (ما دام يشبه سيفا في ارتباطه بحياة النبات المزدهرة النمو، وبجبل ميرو، حيث ولد ديونيسوس من فخذ زيوس في ميرو الإغريقية، وما دام شخصية وحشية جامحة، تُعْبَدُ مع الموسيقى والرقص).

ويتعامل ميغاستينيز بصراحة أكثر مع الجوانب الأكثر عقلانية للديانات الممارسة في إمبراطورية موريا في زمانه، فيميز البراهمانيين ("البراخماني " أو "البراغماني ") والصرامانيين ("سارماني ") باعتبارهم نوعين مختلفين من الفلاسفة. فالصراماني هي بالفعل كلمة سنسكريتية تستخدم أحياناً كوصف دقيق للكهنة البوذيين، ولكن ليس هناك ذكر صريح للبوذية، التي كان عمرها مئتي عام في ذلك الوقت. (إذا إنها تأسست بالضبط في نفس المنطقة التي كان ميغاستينيز يعيش فيها).

ويميل التعليق إلى التركيز على مستوى شديد السطحية. وعلى سبيل المثال، فإنه يذكر وجود الحكماء العراة، وكون الطلبة الذكور والإناث على قدم المساواة كأتباع للصرامانيين. والظاهر أن ميغاستينيز لم يفهم أبداً أن البراهمانيين هم في الحقيقة إحدى القبائل، أي الطبقات الاجتماعية المغلقة التي

كان قد ميّزها، ولا أن "سكان الغابة" (الذين كان مضيفوه يسمونهم "فانابراستا") لم يكونوا جنساً من الصرامانيين، بل هم الذين بلغوا فترة معينة من الحياة سواء أكانوا براهمانيين أم صرامانيين.

ولقد ظلت الهند مصدراً خرافياً للمنتجات الغريبة بالنسبة لليونانيين وبعدهم للرومان. والواقع أن أصحّ عناصر المعرفة التقليدية السنسكريتية التي امتصوها كانت أسماء بعض موادهم المفضلة، مثل قماش القنّب canvas (اليونانية karpasos، و'القطن'، من karpasa)، والزنجبيل (اليونانية zingiber من srangavera، المأخوذة من اسم مدينة على نهر الغانج)، والفلفل pepper (اليونانية peperi من pippali التي هي ثمرة 'عنبية' berry)، والسكر (اليونانية سكهرون، من sarkarā، أي 'الحُبَيْبَات الخشنة') - التي وصفها الأميرال نيركوس، أحد أتباع الإسكندر، بأنها عسل يأتي من القصب بدون مساعدة النحل[15].

إن مذكرات ميغاستينيز، التي قدر لها أن تشكل معرفة أوروبا بالهند حتى عصر النهضة، كانت بطريقة ما تفتقر إلى الفهم، ولم تقدم أبداً أي تقدير للفلسفة، أو اللغة، أو الأدب. وفي إحدى الحالات نكّت أحد الحكماء بأن المحادثة ما دامت تجري عن طريق ثلاثة مترجمين، فإن احتمال الحصول على فكرة واضحة عن الفلسفة المعروضة يشبه احتمال تنقية الماء عن طريق إمراره عبر الطين[16].

ولكن هذا لم يكن يعني أن اليونانيين الذين كانوا يعيشون على مقربة أكثر كانوا يفتقرون إلى الفهم بالمِثْل. والواقع أن أحد ملوك البنجاب اليونانيين، وهو الملك مناندر (في القرن الثاني ق.م.) قد خلّده اهتمامه الثاقب بالبوذية على شكل كراس بلغة بالي الكلاسكية عنوانه "ميلندا بانها"، أو 'أسئلة الملك ميلندا': 'كثيرة كانت هي الفنون والعلوم التي يعرفها - التقليد المقدس والقانون الدنيوي العلماني، وأنظمة الفلسفة، والحساب، والموسيقى، والطب، وكتب الفيدا الأربعة، والبورانا [الأعمال الأسطورية الهندوسية المقدسة المدونة بالسنسكريتية] والإيتهاساس *Itihasas* والفلك، والسحر، والعلل والمعلولات، ... وفن الحرب، والشعر، ونقل الملكية، - وبكلمة واحدة: العلوم التسعة عشر كلها'[17].

وهناك هندي - إغريقي من الفترة ذاتها يعلن عن نفسه باسم هليودورس،

السفير اليوناني ("يونادوتا") من الملك آنطيالكيدياس. وقد ترك نصاً منقوشاً بلغة براكريت كاملة على عمود لا يزال قائماً في بيزناغار في ماديا براديش. وهو ينتهي بالمبدإ الروحي القائل:

ثلاث خطوات إلى الخلود، عند اتباعها بشكل صحيح،
تؤدي إلى السماء: الانضباط، والكرم، والاهتمام.

الصينيون:

على عكس الكتّاب اليونانيين، الذين كانوا في الهند إلى حد كبير باعتبارهم تجاراً، أو غزاة، أو ممثلين للسلطة، فإن الصينيين قد جاؤوا كطلاب جادين لدراسة ثقافة انهند، ولا سيّما البوذية. ومن الواضح أن بعضهم قد تعلموا السنسكريتية (مع البالي وماغادي براكريت) بتعمق أثناء إقامتهم. ولذلك فإن أوصافهم فيها قوة حجة واختراق أكثر مما في الشهادة اليونانية بكثير. فهم يقدمون في حالات كثيرة أفضل الأدلة التي نملكها عن تفاصيل الحياة الهندية في ذلك الوقت، إذ إن من اللافت للنظر أن الهنود أنفسهم لم يهتموا بوضع أوصاف مباشرة وصريحة لحياتهم اليومية نفسها.

وتأتي الشهادة الصينية من أربعة حجّاج باحثين عن نصوص دينية بوذية أصلية صحيحة. وقد كافح معظمهم عبر صحراء تاكلاماكان وعبر جبال هندوكوش لدخول الهند من خلال هذا الطريق الشمالي. وجاؤوا على فترات مدتها حوالي قرن. وقد أحضر كل منهم كميات من المخطوطات البوذية التي عكفوا بعدئذٍ على ترجمتها، وتابع كل واحد منهم إلى جانب ذلك فكتب مذكرةً عقب عودته إلى الصين.

أما فا ـ كسيان، الأول الذي بقيت حكايته منهم، فقد سافر إلى الهند عبر هندوكوش من العام 400 إلى 414 م. وعاد عن طريق البحر. ولمدة ثلاثة من هذه الأعوام كان في باتاليبوترا 'يتعلم قراءة الكتب باللغة السنسكريتية(*)

(*) وقد أطلق عليها اسم فان fan، ولعل ذلك تحريف صيني لكلمة براهمان.

والتحدث بها، واستنساخ تعاليمها،[18]. (وقد أعجب رفيقه دو ـ جينغ بالحياة المقدسة للصرامانا الهنود إلى درجة أنه قرر أن لا يعود إلى موطنه). ثم انتقل فا ـ كسيان نزولاً إلى وادي الغانج إلى مدينة كبرى أخرى، هي تشامبا (قرب باغالبور الحديثة)، حيث أمضى عامين آخرين وهو يسعى بصورة رئيسية للحصول على نصوص بوذية[19]، قبل أن يبدأ رحلة مليئة جداً بالأحداث عائداً إلى وطنه عبر 'يي ـ بو ـ تي'، أو يافا ـ دفيبا (جاوه). وهو يقول إنه أقام في الهند مدة مجموعها ستة أعوام[20].

وفي العام 518 م جاء صونغ ـ يون. فلم يتغلغل إلى أبعد من "ناغاراهارا" (جلال آباد) و"بوروشابورا" (بيشاور) على طرفي ممر خيبر، الذي يصل أفغانستان وباكستان الآن، وعاد إلى الصين من الطريق نفسه بعد ثلاثة أعوام.

ثم في العام 629 م وصل أشهرهم جميعاً، كسوان ـ زانغ إلى الهند خلسةً (فقد كانت الحدود مع الصين مغلقة آنذاك)، وبعد رحلة مدتها ثلاثة أعوام أقام عشرة أعوام قضى معظمها كطالب في جامعة "نالاندا" خارج باتاليبوترا، ولكنه اضطلع أيضاً برحلة حول معظم جنوب شبه القارة.

وبعد ذلك بجيل من الزمن، في العام 671 م اتبع كسوان ـ زانغ حاجّ يدعى يي ـ جينغ، الذي سافر عن طريق البحر من كانتون، ولكنه توقف في مملكة سري فيجايا المهنّدة (بالمبانغ) في سومطرة الجنوبية لمدة عامين لدراسة السنسكريتية (وقد كتب: 'إذا رغب كاهن صيني في الذهاب إلى الغرب ليفهم ويقرأ هناك، فإن من الحكمة أن يقضي عاماً أو عامين في فو- شي [فيجايا]، ويتدرب على القواعد اللائقة هناك، وبعد ذلك يمكنه متابعة سفره إلى الهند الوسطى'). ثم تابع هو رحلته إلى جامعة نالاندا، حيث درس لمدة عشر سنوات. وبعد ذلك عاد عن طريق البحر إلى سري فيجايا، حيث أمضى وقته حتى العام 695م في تنظيم ترجمة نصوص بوذية من السنسكريتية إلى الصينية، وفي كتابة مذكرتين هما: "حول الكهنة البارزين الذين بحثوا عن القانون في الغرب"، و"حول القانون الروحي المرسل من البحار الجنوبية"[21].

كانت الهند بالنسبة لهم هي مواطن الاستنارة البوذية، لكنها كانت أيضاً بلداً فاتناً آسراً بحد ذاته. وروايتهم عن وقتهم هناك يستغرقها وصفهم لرحلاتهم، ولكن كسوان ـ زانغ على وجه الخصوص أورد تفاصيل عن الحياة الفكرية التي التقى بها، والتي أسهم فيها أثناء إقامته؛ فكتب:

> إن حروف أبجديتهم قد رتبها "براهماديفا"، وأشكالها انتقلت بالتوارث من البداية حتى الآن. وعددها سبعة وأربعون. وهي مجموعة بحيث تشكل كلمات حسب المفعول به، وحسب الظروف [أي الأزمنة، والحالات المحلية]: وهناك صياغات مستعملة أخرى [أي التصاريف الإعرابية]. وقد انتشرت هذه الأبجدية في مختلف الاتجاهات، وشكلت فروعاً متنوعة حسب الظروف؛ ولذلك فقد كانت هناك تحويرات طفيفة في أصوات الكلمات [أي اللغة المحكية]، ولكن في ملامحها الكبرى لم يكن هناك تغيير. وتحافظ الهند الوسطى على طابع اللغة الأصلي بتمامه سليماً. فاللفظ هنا ناعم ومؤاتٍ، ومثل لغة الديفا [أي الآلهة(*)]. ونطق الكلمات واضح ونقي، ومناسب كنموذج لجميع الناس. وإن أهل الحدود قد التقطوا عدة طرق خاطئة في اللفظ، لأنه بحسب عادات الناس في عدم الالتزام بالقواعد سوف تتشوه طبيعة لغتهم[22].

وعند الحديث بشكل صارم ودقيق، فإن تصور مانو المعاصر للأرض الوسطى، كما رأينا، سوف يستبعد ماغادا ومنطقة وادي الغانج الأدنى باعتبارها بعيدة إلى الشرق أكثر من اللازم، ولكننا من الناحية العملية نستطيع أن نستخلص من كسوان ـ زانغ أن كلام الهند الوسطى في أيامه كان يشمل لغة باتاليبوترا، العاصمة القديمة لعدة إمبراطوريات هندية، ولغة نالاندا، التي كانت حتى في ذلك الوقت الجامعة البارزة في المنطقة.

(*) إن أوسع الأبجديات استعمالاً في هذه المنطقة من الهند لا تزال تعرف باسم ديفاناغاري، أي [نص] الآلهة الحضري.

انتشار السنسكريتية

السنسكريتية في الهند

تبدو السنسكريتية لنا، مثل معظم أخواتها من اللغات الهندية - الأوروبية، باعتبارها كلام محاربين غزاة قادرين جيداً على استخدام الخيل والعربات ذات العجلات، لترسيخ سيطرتهم على جيرانهم وتحويلهم إلى أقنان ورعايا. وطريقة الحياة معروفة من الشعر البطولي للشعوب الهندية - الأوروبية في كل اتجاه: رجال يقاتلون من المركبات، ويتكلمون بشكل مباشر وفوري، ويهتمون بشرفهم الشخصي أكثر من الحياة نفسها. وفي ملحمة "مهابهاراتا" السنسكريتية، عندما يقوم كريشنا بإعلام آرجونا حول واجبه في ذلك اليوم، فكأنه يخاطب آخيل اليوناني عند مهاجمة طروادة (قبل ذلك الهجوم بألف عام) أو الإيرلندي كوهولين الواقف ضد مضيفية في كوناخت (بعد "المهابهاراتا" بألف عام):

وعند النظر إلى واجبك أيضاً، يجب أن لا تحجم،
لأنه ليس عند الكشاتريا شيء أفضل من قتال محق.
ومباركون هم الكشاتريون الذين يكسبون قتالاً كهذا،
فيقدمون دون طلب، يا بارثا، كباب مفتوح إلى السماء.
ولكن إذا اخترت أن لا تخوض هذا الصراع المحقّ،
ثم أهملت الواجب الشخصي والمجد، فستقع في الخطيئة
وسوف تتحدث الكائنات عن عارك الأبدي
وعند الرجل المحترم، فإن العار أسوا من الموت.

البهاغافاد جيتا، 2:31-4

وبما أن كريشنا إله هندوسي، فإنه يتابع بإرساء هذا العرض لقانون البطولة ضمن لاهوت إعادة التقمص ونظرية للمعرفة تحيل عالم العمل إلى تمثيلية من ظلال المظاهر. ولكن الأخلاق الأساسية للبطولة، المعبر عنها من خلال الشجاعة والبسالة العسكرية، واضحة.

ويفترض في العادة أن هذا الموقف من الحياة، ومعه التقنيات السائدة للخيول الحربية، والمركبات ذات العجلات، والأسلحة المعدنية، هو الذي نشر السيطرة الآرية ولغتها عبر الهند الشمالية، ثم أبقى الممالك المختلفة في دوامة عكرة من الحروب المتبادلة بشكل يكاد يكون دائماً على امتداد هذه الفترة. (وبرغم كل شيء، فإن هذا النموذج من انتشار اللغة مشهود عليه جيداً في كثير من أنحاء العالم في العصور التاريخية المدوّنة، كما حدث عندما جاء النورمان باللغة الإسبانية إلى أمريكا الوسطى والجنوبية).

ولكن إلى جانب المعارك المروية حكاياتها في الملاحم السنسكريتية ليس هناك دليل يذكر من الآثار، أو النصوص المكتوبة، أو حتى من التقاليد الأهلية، على أن اللغة قد نشرت بالنار والسيف. وفي الهند على وجه الخصوص، هناك اعتقاد متأصل بأن الهندوسية والسنسكريتية ليستا نتيجة غزوات غريبة، ولكنهما تطورتا بشكل كلي ضمن شبه القارة. بل لقد كانت هناك محاولة حديثة لإعطاء هذه القصة دعماً كاملاً شبه أسطوري، بتطوير النظرية القائلة بأنه إذا كانت هناك علاقات لغوية ووراثية مع باقي الأسرة اللغوية الهندية الأوروبية، فإن ذلك يعود إلى انتشار الآريين حول أوروبا قبل عودتهم إلى موطنهم الحقيقي في الهند[23].

ومهما كانت حقيقة تجوال الآريين في عصور ما قبل التاريخ، فإن هناك الكثير مما يبين أن الخيول كانت هامة عندهم منذ البداية. ففي المكتبات الحثية في أناضوليا الوسطى (على بعد 2500 ميل إلى الغرب من نهر الإندوس) نجد كتيباً يدوياً عن الفروسية وسوق المركبات، كتبه كيكولي الميتاني في منتصف الألف الثاني ق.م: وفيه يذكر أن مهنته هي "آسوساني"، التي يمكن معادلتها بكلمة "آسفاساني" السنسكريتية الواردة في كتب الفيدا، ومعناها 'الذي يحرز الخيل أو يقودها'(*). ونص هذا الكتيب مليء بالكلمات المستعارة التي من

(*) [ملاحظة: أليست "اسوساني" هذه أقرب إلى كلمة "سايس" العربية؟ إن هناك أدلة على أن أصل الخيل في العالم كله من جزيرة العرب، وأن العرب هم أول من دجّن الحصان في تاريخ العالم - المترجم].

الواضح أنها هندية ـ آرية. فمضمار الخيل قد يكون مؤلفاً من شوط واحد، أو ثلاثة أشواط، أو خمسة، أو سبعة، أو تسعة. وهذه باللغة الحثية هي يكاوارتانا، تيراوارتانا، بانزاوارتانا، ساتاوارتانا، وناورتانا، وهي بالسنسكريتية بالضبط: إيكا، تراي، بانيسا، سابتا ونافا فارتانا. وكان معظم الميتانيين يتكلمون لغة مقطوعة الصلة بالسنسكريتية تماماً، هي اللغة الحورية. ولكن في نص آخر مكتوب بهذه اللغة في الوقت نفسه تقريباً (من مدينة نوزي ـ يورغان تيب ـ في شمال العراق) فإن ألوان الخيل معطاة بكلمات قريبة من السنسكريتية: "بابرو" (بابهرو)، أي 'الكستنائي'، "باريتا" (باليتا)، أي 'الرمادي'، و "بنكارا" (بنغالا)، أي 'الأغبر' (الأحمر المشوب ببياض).

فهنا نجد أن ثقافة الفارس النخبوية الآرية قد فرضت على أناس يتكلمون لغة أخرى. وتنبع الأدلة من زمن طويل سابق ومن مكان نائي البعد، ولكن وضع الأيام المبكرة من اللغة الآرية في الهند ربما كان شديد الشبه بهذا الوضع. ويمكن رؤية ذلك حتى ضمن تركيب السنسكريتية نفسه.

إن السنسكريتية واللغات الهندية ـ الآرية المتصلة بها تختلف عن جميع أقاربها في الشمال والغرب، في فارس وروسيا وأوروبا، بامتلاكها لسلسلة إضافية من الحروف الصامتة المعروفة عند نحاة السنسكريتية بأنها أصوات "موردانيا"، أي 'أصوات في الرأس'، وهي عند الغربيين وقفات مع الانثناء إلى الخلف حسب وضع اللسان عند النطق بالحروف التالية: الطاء والذال، والثاء والضاد والنون، حيث يكون اللسان منطوياً إلى الوراء على سقف الحلق، على عكس حروف التاء والدال، والثاء والضاد والنون، حيث يلمس اللسان مؤخرة الأسنان الأمامية. وهكذا فإن كلمة "باطاتي"، أي 'يشق' مختلفة عن "باتاتي"، أي 'يسقط'. وكلمة "منضاح"، أي 'الرغوة، أو القشدة'، تختلف عن "منداح"، أي 'الغبي، أو الباهت'. وهذه الأصوات هي أيضاً من خصائص اللغات الدرافيدية المحكية الآن إلى الجنوب من اللغات الآرية في الهند، وكذلك الجيران الآخرين، مثل لغات موندا المنتشرة حول شمال شرق الهند. وبينما لا تملك لغة هندية ـ أوروبية أخرى هذه الأصوات (مما يجعل من غير المحتمل أن تكون من ملامح أي لغة قد

نبعت منها كلها)، فإن هذه الأصوات موجودة بانتظام في اللغة الدرافيدية إلى درجة أنها قد تكون قديمة كقدم الأسرة. فيظهر إذن أنها قد رسخت نفسها في السنسكريتية والآرية 'كطبقة سفلية' من ترسبات ملامح اللغات التي يتكلمها أول الآخذين باللغة السنسكريتية، فلم يستطيعوا التخلص منها عندما تعلموا اللغة الجديدة.

وهناك أيضاً بعض الأدلة الثقافية في فيدا Rig تشير إلى كيفية شعور الغزاة الآريين بأنهم مختلفون عن شعوب "داسا" و"داسيو"(*) الذين جاءت لغة الغزاة لتسيطر عليهم، لأنهم اعتبروهم ذوي بشرات داكنة أكثر 'من أصل أَسْوَد'، "كراصنا يونيح"(24)، وهذا ينطبق مع الكلمة السنسكريتية المستخدمة تقليدياً للتقسيم الرباعي إلى طبقات اجتماعية وراثية مغلقة، هي البراهما، والكشاتريا، والفيشيا، والشودرا، (أي الكهنة والفلاسفة، ثم الملوك والمحاربون، ثم التجار، ثم العمال، على التوالي). وهذه الكلمة السنسكريتية هي "فارنا"، أي 'اللون'. والداسيو يمثلهم في ملحمة المهابهاراتا الولدان الأصغران لباندو (أي 'الشاحب')، وهما ناكولا وساهاديفا، اللذين ولدتهما زوجته الثانية مادري، التي يقال إن عينيها كانتا سوداوين، وبشرتها داكنة. وطيلة الملحمة، يتصرف هذان الوالدان كمؤيدين مخلصين (ولكن ينقصهما الخيال) لإخوتهما الأكبر غير الأشقاء الذين يظهر أنهم أنبل منهما لأنهم آريون، وهم يودهشيترا ('الثابت في القتال') وبهيما ('الرهيب')، وآرجونا ('المتألق').

وقد رأينا أن عملية الاستيعاب وامتصاص مختلف المجموعات المحلية قد استمرت حتى وقت طويل من الألف الميلادي الثاني، ويبدو أنها قد شملت تعاقباً من اللغات المختلفة الأشكال والألوان في بعض أنحاء الهند الشمالية والوسطى. ومن أجدر اللحظات بالتذكر ـ من الناحية السياسية على الأقل ـ في هذه

(*) هذان المصطلحات صار معناهما على التوالي 'العبد الرقيق' و'الشيطان، اللص، قاطع الطرق'. قارن كلمة *slave* الإنكليزية من *slav* والطريق المعاكسة التي يظهر أن كلمة صرب Serb قد سلكتها من الأصل اللاتيني *servus*. أما مؤنث كلمة *dâsa!* وهي *dâsi* فصار معناها 'عاهرة' (فكلمة *devadasi!* أي أمة الإله، كانت هي مومس المعبد)، وإن من أكثر الإهانات وروداً بشكل روتيني في السنسكريتية عبارة "داسيا بوتراه" التي تعادل عبارة 'ابن العاهرة'، أو 'ابن المومس'.

السلسلة الطويلة من الأنماط المتغيرة لحظة حدثت في حوالي العام 260 ق.م. عندما غزا أسوكا مملكة كالينغا الشرقية (وهي منطقة أوريسا الحديثة تقريباً). فكان هذا الغزو هو أقصى حدٍّ لامتداد الوحدة الإمبراطورية في الهند، وهو حدّ لم يتم تجاوزه طيلة ألفي عام. وقد كتب آسوكا ما يلي عن تجربته إلى جميع باقي أنحاء إمبراطوريته (بثلاث لغات هي الماغادية والآرامية واليونانية): 'في السنة الثامنة من عهده، قام بياداسي بغزو كالينغا. فأسر مئة وخمسين ألف شخص هناك وأبعدهم، وقتل مئة ألف آخرين، وهلك عدد يكاد يساويهم. ومنذ ذلك الحين، سيطرت عليه الرحمة والشفقة، فقد سحقته تلك التجربة..'

فوضعت هذه الرحمة نهاية لحروب غزواته، وجعلته يلتفت بدلاً منها إلى تعزيز "الدهاما" ("دهارما" بالسنسكريتية) التي لها ترجمات متنوعة هي 'الفضيلة'، أو 'الواجب' أو 'القانون'. ويقال إنه وقف على التلّ في دهولي ورأى نهر دايا يجري محمراً من الدماء. فكتب إلى أهالي كالينغا بالذات في نقش على صخرة في تلك البقعة، كما قال، بدلاً من سرد قصة حملته: 'كل الرجال أبنائي. وكما أرغب لأطفالي أن يتم تجهيزهم بكل أنواع الرفاهية والسعادة في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة، فإني أرغب بالشيء نفسه لكل الناس. ولكنكم لا تعرفون إلى أي مدى تذهب نيتي في هذا الصدد. ولعل قلة من بينكم تفهم ذلك، ولكن حتى هؤلاء يفهمونه جزئياً وليس كلياً ...'

والواقع أن التأثير اللغوي لغزو آسوكا لكالينغا ـ إن كان هناك أي تأثير ـ يظل مبهماً وغير واضح.

فأوريسا الآن هي منطقة ناطقة بالآرية بصورة رئيسية (مع رشّات قوية من لغات "آديفاسي"، أي لغات 'السكان الأصليين' غير ذات الصلة): وأقدم النصوص المكتوبة بهذه اللغة تعود بتاريخها إلى القرن العاشر الميلادي. واللغة هي أوريا، الوثيقة الصلة بالبنغالية المحكية على مبعدة إلى الشمال. ولكن لا يعرف شيء يذكر عن تاريخها المبكر. ولقد اقتُرِحَ بأن أوريسا كانت لا تزال غير آرية، حتى في القرن السابع الميلادي[25]. وقد تعرف الحاج الصيني كسوان ـ زانغ على ثلاثة بلدان متميزة في هذه المنطقة: هي "أودرا" (أصل اسم

أوريسا)، التي قال إن فيها ‘كلمات ولغة مختلفة عن الهند الوسطى’، و"كونيودا" ‘التي حروفها هي نفس الحروف المكتوبة في وسط الهند ولكن لغتها وطريقة لفظها مختلفة تماماً’، و"كالينغا"، حيث ‘اللغة خفيفة ورشيقة، ولفظهم متميز وصحيح. ولكنهم في المجالين، أي في الكلمات والأصوات المنطوقة، مختلفون جداً عن وسط الهند’[26]. وهذا النوع من الأدلة مثال واحد فقط على ما يجعل من الصعب جداً إعطاء أي وصف مفصل للخريطة اللغوية للهند في القرون الماضية.

وقد تغلغل نفوذ السنسكريتية مسافة أبعد إلى الجنوب، مع الانتشار الثقافي للهندوسية، حتى اُتْخمَت السنسكريتيةُ بالكلمات المستعارة ثلاثاً من اللغات الكبرى غير الآرية هي لغات تيلوغو، وكانادا، ومالايالام. أما لغة التاميل، في أقصى الجنوب الشرقي، فكانت أقل تأثراً من الناحية اللغوية، رغم أن مجتمعها في آخر الأمر لم يكن أقل هندوسية. وإلى جانب هذا التصدير التدريجي للكلمات كان هناك في منتصف الألف الأول قبل الميلاد عملية نقل وإعادة زرع لمجتمع بكامله، مع لغته الآرية، إلى أقصى الجنوب. وهذا يفسر وجود سنهالا في سريلانكا. وإن تاريخ حركة الشعب الذي جاء بهذه اللغة غير مدون، ولكنه قد يكون منعكساً من خلال الأسطورة في ملحمة "رامايانا"، التي تصل إلى ذروتها في حملة عسكرية إلى هذه الجزيرة[*]. وبعد ذلك بحوالي مئتي عام، في أواخر القرن الثالث ق.م. تعززت العلاقات بين سريلانكا والشمال الآري عندما أرسل آسوكا ابنه ماهندا إلى الجزيرة كمبشّر بوذي، وبذلك أسّس مذهب ‘ثيرافادا’ البوذي الذي استمر حتى يومنا هذا.

السنسكريتية في جنوب شرقي آسيا

يمكن اعتبار الحركة إلى سريلانكا بداية لانتشار السنسكريتية إلى ما وراء الشواطئ الهندية. وهذا التوسع المنقول بحراً يجعل أهميته أكبر بكثير للقصة

(*) كان الهدف هو إنقاذ سيتا؛ زوجة راما المخطوفة - وهذا شبيه بدافع الحرب الطروادية في ملحمة هوميروس، حيث ينطلق أسطول يوناني لإنقاذ هيلين، زوجة مينيلاوس.

العالمية، لأن السنسكريتية هي أول مثل في التاريخ للغة تنتقل على شبكة بحرية من خلال إقامة صلات تجارية وثقافية مع الشعوب على الجانب الآخر. وفي هذا يمكن اعتبارها بشيراً بانتشار اللغات الأوروبية الغربية في القرون الخمسة الأخيرة.

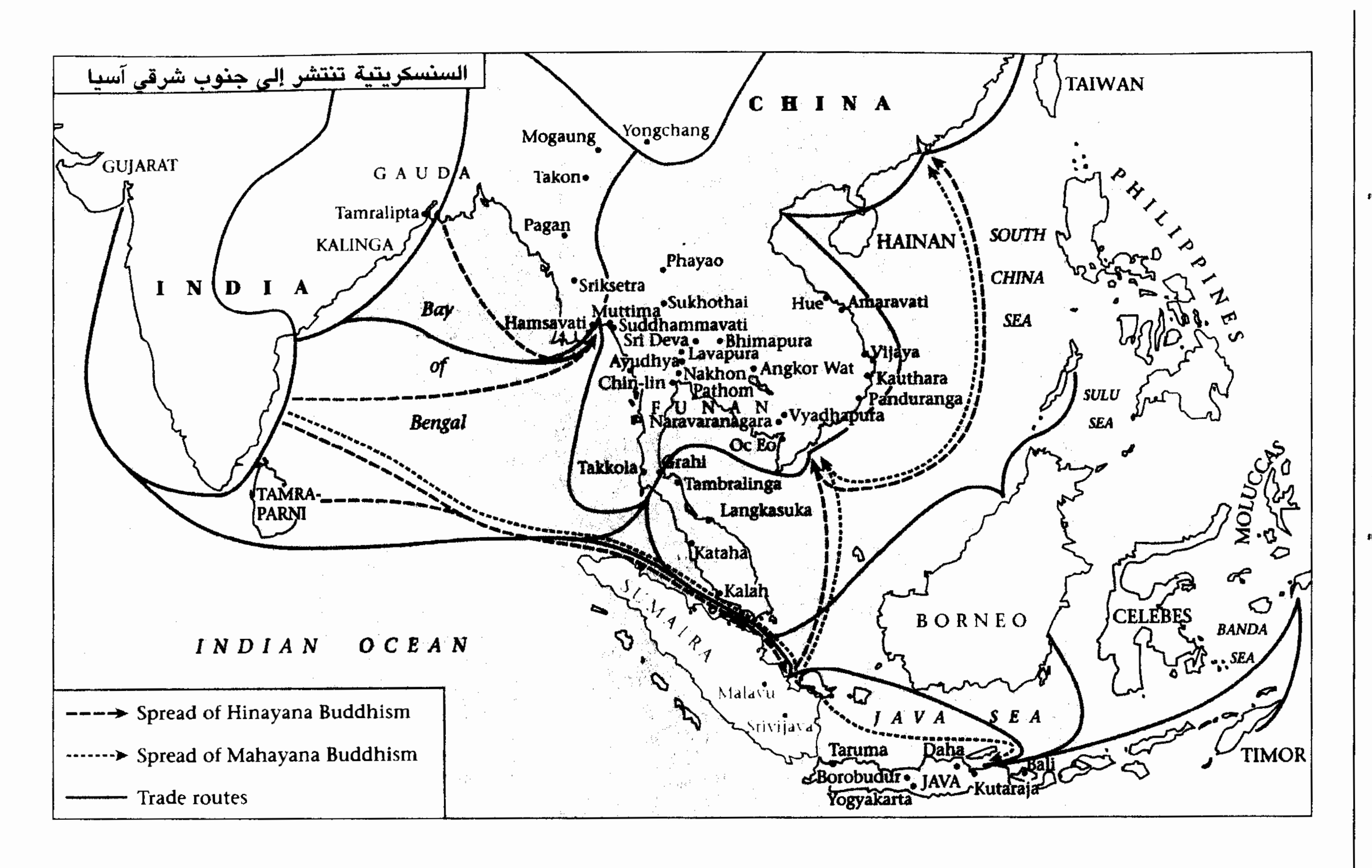
فعند حلول منتصف الألف الأول الميلادي، كانت السنسكريتية قد ترسخت باعتبارها السمة الرسمية المميزة لحضارة مدموغة بالطابع الهندي، بما في ذلك في جميع أنحاء جنوب شرقي آسيا، بما فيها الجزر الرئيسية في ماليزيا وإندونيسيا الحديثتين. وليس هناك سجل واضح عن كيفية حدوث ذلك. ولكن أحد جوانب انتشار السنسكريتية واضح: لم يكن التوسع عسكرياً. فلم تكن هناك أي حركة للهنود تشبه الحرب إلى داخل آسيا، حتى من قبل الإمبراطوريات الهندية النموذجية في قصر عمرها، والتي لم يكن يبدو أنها تعيش أكثر من بضعة أجيال، حتى في شمال الهند.

ولكن إذا تركنا الطموح العسكري جانباً، فإن الدوافع المقترحة لحالات النجاح الهندية تستغرق كل إمكانية أخرى: اللجوء من الحروب الإمبراطورية، من أباطرة موراي وآسوكا فصاعداً، وغارات القراصنة، وروح المغامرة، والسعي السلمي للتجارة، والرغبة في نشر التعليم المقدس، والبوذية بالتأكيد، وربما حتى الهندوسية قبل ذلك(*).

فكل واحد من هذه الاحتمالات فيه شيء يزكيه. وهي لا تستبعد بعضها بعضاً بصورة متبادلة. فلا بد أن هناك معنى ما - على سبيل المثال - لكون اسم الهند الشائع بين الملايويين والكمبوديين هو "كلنغ"، أي كالينغا، المملكة الساحلية في شرقي الهند، التي تعرضت لغزو دموي على يد آسوكا. وهناك، وخاصة في منطقتها الشمالية، "تامراليبتا" (أي 'الملطخة بالنحاس'، تاملوك الحديثة في البنغال الغربي)، كان هناك تقليد لإنتاج "سارتافاها"، أو "سادهافا"،

(*) على عكس ذلك كلياً، قدر للهندوسية فيما بعد أن تتخلى حتى عن إمكانية السفر بحراً إلى الخارج. فقد كانت تعتبر جالبةً لدناسة لا تمحى على الطبقات العليا. كما في مجموعة القوانين في أواخر القرن التاسع عشر من قبل "همادري" (3-2: ص 667).

السنسكريتية تنتشر إلى جنوب شرقي آسيا



أي 'التجار' الذين كان يجري الخلط الخاطئ بينهم وبين "الساهاسيكا"، أي 'القراصنة' الذين كان يضرب المثل بشجاعتهم وعنفهم باللغة السنسكريتية. وفي محفوظات الحكمة العملية من القرن السادس الميلادي المعنونة "بانكاتانترا"، هناك ملاحظة تقول:

> إن التجار ـ القراصنة يعتبرون الخوف الذي يبثه ذوو النفوذ الثقيل خفيفاً مثل القشة(27).

إن حكايات "جاتاكا" الشعبية عن حيوات بوذا السابقة، والتي تم تأليفها في حوالي هذا الوقت، مليئة أيضاً بالتجار الباحثين عن الثراء في "سوفارنابهومي".

وهناك تلميح إلى الدافع التجاري أيضاً في الأسماء السنسكريتية التي أعطاها الهنود لأجزاء من هذا العالم الشرقي. فسريلانكا كانت معروفة باسم "تامرادفيبا"، أي 'جزيرة النحاس' أو "تامرادبارني"، أي 'رقائق النحاس'. والأرض التي وراء المحيط الشرقي كان اسمها "سوفارنادفيبا" أو"سوفارنابهومي" أي 'جزيرة الذهب' أو 'أرض الذهب'. وعاشت هذه الأسماء حتى أخذ بها المستكشفون اليونانيون أو ترجموها. فأعطوا سريلانكا اسم "تابروباني"، وأعطوا جنوب شرقي آسيا اسم "خريسي خرسونيسوس"، أي 'شبه جزيرة الذهب'. وليس هناك شيء في جيولوجيا هذه البلدان يوحي بأن هذه التسميات كانت في محلها. ولكن من الواضح أن البحث عن المعادن النفيسة كان جزءاً من أسطورة مثل هذه الملاحة القديمة. وإن إحدى أكثر الحكايات إيحاءً في السنسكريتية عنوانها "كاثاساريتساغارام"، أي 'قصة محيط الجداول'، وهي تعادل "ألف ليلة وليلة"، وهي تحكي عن بحث كاهن براهماني عن أحبابه المفقودين في "كاناكابورتي"، أي 'مدينة الذهب' الواقعة في مكان ما وراء "الجزر". وأحد التجار الذين يلتقي بهم في طريقه له أب يعود غنياً من رحلة بحرية طويلة إلى جزيرة نائية، وقد حُمِّلت سفينته بالذهب على وجه التحديد.

وبصورة أكثر واقعية، كان هناك مجال لتحقيق ربح هائل في أعمال

المراكز التجارية لتوزيع السلع، بمبادلة الصمغ العطري الهندي (بما في ذلك الكُنْدُر والمُرّ) بالحرير الصيني، أو بالحصول على منتجات محلية مثل الكافور من سومطرة، أو خشب الصندل من تيمور، أو القرنفل من جزر ملقة الإندونيسية[28].

وقد انطلق الهنود إلى أرض الذهب من جميع أنحاء شبه القارة. ومن الواضح أن أقصر رحلة كانت من "غودا" (البنغال الحديثة) وكالينغا: فنحن نعرف أن فا ـ كسيان ويي ـ جنغ قد ركبا السفينة من تامراليبتي، ولكن الرياح السائدة في خليج البنغال من حزيران/يونيو إلى تشرين الثاني يكون اتجاهها جنوبياً غربياً، وهكذا فإن أسهل إبحار مباشر يجب أن ينطلق من السواحل الجنوبية، وهذه هي منطقة جميع الموانئ التي يذكرها اليونانيون[29]. وهناك حفنة من النصوص باللغة التاميلية ظهرت في سومطرة وشبه جزيرة الملايو تؤكد هذا الطريق. وكانت هناك حصة لموانئ الساحل الغربي أيضاً كمنطلقات للمغادرة باتجاه الشرق: وهناك مَثَلٌ قديم في غوجارات يذكر ثراء البحارة العائدين من جاوة[30].

وهناك شيء يثير اهتمامنا أكثر من دوافع التجار الهنود، وهو كيف كانوا يبدون للناس الذين يستقبلونهم، والذين كان الهنود يعرفونهم باسم "دفيبانتاراه"، أي 'أهالي الجزر'. وكان هؤلاء الناس، وهم البورميون في الشرق، والأستراليون ـ الآسيويون في الجنوب (من عشائر مون، أو الخمير، أو التشام)، والملايويّون في الجزر، يستعملون البرونز، والأبقار والجواميس المدجّنة. وكانت لهم سفنهم وقواربهم الخاصة بهم. ولم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة. وكان الهنود يقدمون أنفسهم للزعماء المحليين على أنهم شخصيات زائرة رفيعة المقام، وربما كانوا يزعمون أن لهم علاقات ملكية في موطنهم عبر المحيط، ويقدمون هدايا، وربما أدوية وتعاويذ سحرية. وعندما يكسبون حظوة عند رجال النخبة، كان بعضهم يتزوج من بناتهم، وبذلك بذروا بذور سلالات جديدة.

BURMESE: ပါဠိအရေးအသားသည် မြန်မာစာအရေးအသားကို အတော်ပင် လွှမ်းမိုးခဲ့ဟန်တူသည်။
palí- 'əjè 'əθàði mjãmasa 'əjè 'əθàgo ətɔbĩ hlũmmògɛ́hãtuði
يبدو أن الكتابة البالية كان لها أثر كبير على الكتابة البورمية (في ميانمار).

THAI: คำภาษาไทยให้เขียนตามหลักเกณฑ์นิรุกติศาสตร์
kham pha:sǎ: thay hây khǐan ta:m làk ke:n nirúktisà:t

إن الكلمات باللغة التايلاندية يجب كتابتها على أساس مبادئ أصل الألفاظ وتاريخها.

LAO: ຄຳພາສາລາວໃຫ້ຂຽນຕາມສຽງເວົ້າ
khám pha:sǎ: law hây khǐan ta:m sǐaŋ

إن الكلمات باللغة اللاوسية يجب كتابتها حسب طريقة اللفظ.

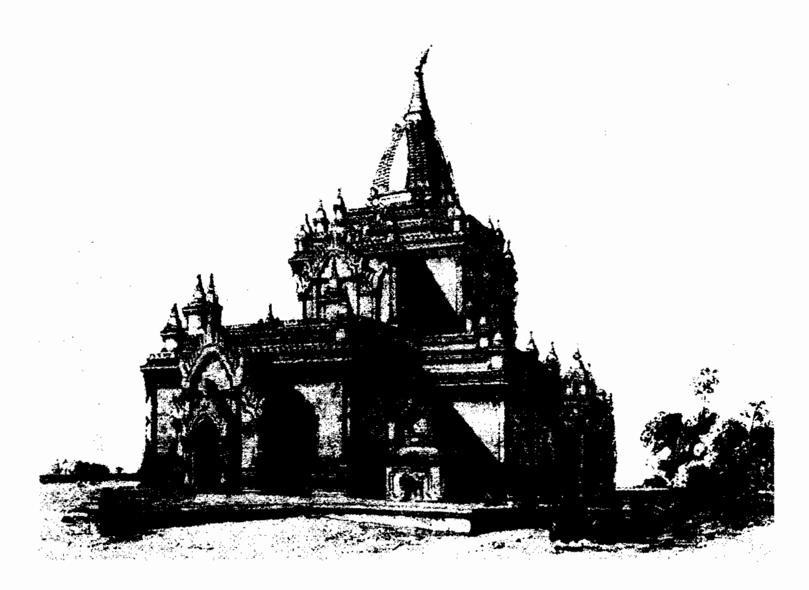
KHMER: ពេលនោះគាត់រុតបានត្រីរស់មួយហើយនិងបានទន្សាយលង់ទឹកមួយ
pe:l nuh koạt rut ɓa:n trəi rɒh muəy haəj nəŋ ɓa:n toạnsa:j loəŋ tɨk muəj

بلغة الخمير: في ذلك الوقت، صاد تري - راه (وهي نوع من السمك)، وبعد ذلك حصل على أرنب كان قد أخذ يغرق في الماء.

نصوص من جنوب شرق آسيا هندية الأصل

وقد جلب الهنود معهم معرفة القراءة والكتابة، وثقافة قديمة تملك مجموعة كبيرة من القواعد (وهي حِكَمٌ دينية هندوسية مختصرة أو محاورات تحتوي على تعاليم بوذا) تصلح لكل مناسبة. وكانت هناك الأساطير الهندوسية كلها، فصارت شخصياتها (مثل آغاستيا وكريشنا وراما والإخوة باندافا) تظهر كأسماء شائعة يتكرر ذكرها في بيوت العائلات في جنوب شرقي آسيا منذ ذلك الحين. وكانت هناك الفكرة المتميزة عن تكامل الأدوار بين الملك والكاهن، ولو بشكل محير بلا نظام أو ترتيب، غير أنه كان في آخر الأمر يعطي دلالة أعلى على علاقة واضحة من الدعم المتبادل. وهذه العلاقة يمكن أن تضمن شرعية الحكام وتجعلها دائمة. وهكذا فإن الحكام الذين كان الهنود يلتقون بهم كان يسعدهم أن يصبحوا أصدقاءهم، أو شركاءهم التجاريين، أو أصهارهم. وكان الجيل الذي نشأ من هذه الزيجات المختلطة هو أول جيل يتلقى تعليمه بالسنسكريتية بشكل تام.

وكانت إحدى خصائص الحضارة الهندية التي جلبها التجار معهم هي الاتجاه إلى تحوير الأبجدية وتعديلها حسب حاجات الزبائن. وبالضبط مثلما



الهندسة المعمارية لمعبد في جنوبي شرق آسيا

يوجد الآن عشرة نصوص مكتوبة كبرى على الأقل(*)، مستمدة من الحروف البرهمية في الهند (منتشرة في جميع أنحاء شبه القارة من أيام آسوكا)، فإن هناك تسعة أخرى تطورت في جنوب شرقي آسيا، وإندونيسيا، والفليبين(**)، وكلها مشتقة من نصوص هندية، والعديد منها عن طريق نصوص بلغة بالافا من الجنوب. وإن أصل هذا التنوع يكمن في تنوع مواد الكتابة المتوفرة في أماكن مختلفة، ولكن من الواضح أن الأساليب المختلفة قدّر لها أن تصبح أيقونات وطنية. وعلى الأعمدة الكمبودية التي تحمل قواعد تنظيم الأديرة، كانت السنسكريتية المكتوبة بحروف لغة الخمير على أحد الجوانب، تقابلها على الجانب الآخر سنسكريتية مكتوبة بحروف النصوص الهندية الشمالية، فربما كان يقيم هناك أتباع من شمال الهند، وكذلك من الخمير[31].

(*) باللغات الدفاناغارية، والغوجاراتية، والبنجابية، والبنغالية، والأوريائية في الشمال؛ والتيلوغية، والكانادية، والتاميلية، والمالايالامية، والسنهالية في الجنوب. وهناك أبجدية أخرى ذات علاقة بها، مستخدمة على مبعدة في الشمال من أجل اللغة التيبتية.

(**) هي البورمية، واللاوية، والتايلاندية، والخميرية (في كمبوديا) على البر الرئيسي، والجاوية، والبالية، والطاغالوغية (في الفليبين) والباتاكية (في سومطرة) والبوغية (في سولاويسي).

وهذه علامة واحدة فقط من علامات كثيرة على وجود مرور ثقافي مزدحم يتحرك في الاتجاهين بين الهند والهند الصينية أثناء هذه الفترة. وكان هناك مثال آخر قدمته حياة آتيشا، وهو راهب ولد في البنغال العام 982 م، ثم أصبح واحداً من مؤسسي البوذية في التيبت في الستينيات من عمره. وكان قد قضى أيام دراسته كطالب في سري فيجايا، في سومطرة.

وبطريقة ما، فإن الثقافة، كما جاء بها الهنود، ستظل غامضة بالنسبة لنا. إن فخامة تألق شوي داغون في بورما، وبوروبودور في جاوة، وآنغكوروات في كمبوديا، وكذلك الروائع الجميلة في باغان، وتشامبا، ولاوس، وبالي، وسومطرة، التي بنيت على مدى ألف عام، اعتباراً من حوالي العام 500 م، كانت كلها نابعة من أفكار الهنود المنطوية على بذور تطور مبشرة في المستقبل، ولكن فيما يتعلق بالهندسة المعمارية على الأقل، ليس هناك شيء مثل هذه الروائع في الهند نفسها الآن. ولا نستطيع سوى أن نتكهن بأن طرازات العمارة التي نفذت في الحجارة في بورودوبور وأنغكوروات ربما كان فيها صدى من الهندسة المعمارية للمباني الخشبية التي اختفت من الهند الجنوبية منذ زمن طويل.

ومع ذلك، فإن التعداد التفقدي للغات والحضارات التي أخذت بداياتها من الهند يذكرنا بمدى اتساع هذا التأثير، وتنوعه، وطول بقائه. بل إن هذا التأثير كان أكثر لفتاً للنظر لأنه لم تطبق أي قوة عسكرية في أي مكان لإدخال هذا المجتمع الهندي الجديد الأكثر تنظيماً. وهذا يتناقض تناقضاً حاداً مع سجل الغارات من الحضارات المتطورة الأخرى إلى جهة الشمال. فمنذ القرن الأول الميلادي، كانت الصين تمارس ضغطاً مستمراً على المملكة الآنامية لفيتنام الشمالية، وتغزوها بين فترة وأخرى، وتصر على اعترافها بإمبراطور الصين كسيد أعلى لها.

إن أقدم مملكة مهنّدة يرد ذكرها في الوثائق ـ والتوثيق صيني ـ قد أقيمت في القسم السفلي من وادي الميكونغ، في كمبوديا وفيتنام الجنوبية الحديثتين، ربما في القرن الأول الميلادي. وفيتنام معروفة في العادة باسم فونان، الذي هو النسخة الصينية من اسمها. وكانت تسمى بلغة الخمير "بْنَامْ"، أي 'الجبل'(*)،

(*) تلفظ الكلمة نفسها "فنوم" كما في اسم العاصمة الكمبودية "فنوم بينه".

وكان ملكها يسمى "كورونغ بنام"، وهو لقب يعني ’ملك الجبل‘. وكان سيقيم طقوساً للإله سيفا، في مكان عال، وبذلك يوفق بين شرعيته كملك هندي، وبين الروح الأهلية البلدية للأرض[32].

وهذا ما تؤكده أسطورة تأسيس فونان، عند قراءتها من نص سنسكريتي مكتوب في تشامبا[33]. فقد تلقى برهمي يدعى كوندينيا (وهو اسم مشتق من "كوندين"، أحد ألقاب سيفا) رمحاً من برهمي آخر، بطل من المهابهاراتا اسمه "أسفاتامان"، وقذف به ليعرف الموقع الصحيح للمدينة. وقد تزوج أميرة محلية اسمها سوما، ابنة ملك "الناغاس"، وهي أفاعي الكوبرا المتعددة الرؤوس التي كانت معبودة باعتبارها حارسة لثروات الخمير.

وبعد ذلك، أقيمت دول كبرى ناطقة بالسنسكريتية في جميع أنحاء جنوب شرقي آسيا وسومطرة، وجاوا[*]. وكانت أسماؤها نفسها بالسنسكريتية، وهي تُظْهِر إما علاقة عاطفية مع أماكن هندية مقدسة بعيدة، أو محاولة لإضفاء طابع هندي على أسماء محلية. وكثيراً ما يكون من الصعب الآن تحديد مواقعها بالضبط. ففي الملايو، هناك "لانكاسوكا"، التي تُشرف على الطريق الوحيد الكثير الاستعمال من خليج البنغال إلى خليج سيام، إلى جانب "تامبرالنغا" (ليغور) و"تاكولا" (تاكوابا) و"كاطاها" (كيداه)؛ وفي تشام، جنوب فيتنام الحديثة، هناك "آمارافاتي" (دونغ ديونغ) و"فيجايا" (بينْهْ دينْهْ)، و"كوثارا" (نها ـ ترانغ) و"باندورانغا" (فانرانغ)؛ وفي جاوا، هناك "طاروما" (حول جاكارتا) و"كوتاراجا" في الشرق؛ وفي سومطرة هناك "مالايو" (جامبي) و"سري فيجايا" (بالمبانغ)؛ وفي بورما هناك "سودهامافاتي" (ثاتون)، و"شريكسترا" (بروم أو ثايخيطايا)،

(*) اسم جاوا مشتق من "يافادفيبا"، أي ’جزيرة الشعير‘، وسومطرة: "سامودرا"، ’البحر‘، ومالايا في الحقيقة من كلمة درافيدية، "مالاي"، أي ’تل‘ في جنوب الهند قرب مالابار. أما كمبوديا (كامبوجا) فهي توحي باسم مملكة في ممر خيبر، ولكن للفظها تفسير آخر منافس وهو: المولود من كامبو سفايامبهوفا، وهو ناسك اتحد مع الحورية السماوية ميرا ليؤسسا عرق الخمير (كوديز 1968، ص66). وتشامبا تشترك في اسمها مع مملكة وادي الغانج الأسفل، ولكنها قد تكون من الاسم العرقي تشام بصيغة سنسكريتية. ونهر إراوادي في بورما فقد دعي باسم "إرافاتي" أي ’الذي فيه ماء للشرب‘، وهو الاسم القديم لنهر رافي في البنجاب. [وهو قريب من عبارة ’وادي الري‘ بالعربية ـ المترجم].

و"هامسافاتي" (بيغو)، و"سري ديفا (سي ذيب)؛ وفي منطقة تايلاند الحديثة هناك "دفارافاتي"، شمال بانكوك.

كما أن أسماء الحكام سنسكريتية بصورة نموذجية. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك أن أكثر من ثلاثين ملكاً كمبودياً تنتهي أسماؤهم بكلمة "فارمان"، أي ’المعقل‘، من "جايافارمان"، الذي مات في العام 514 م، إلى "سريندرا جايافارمان" (1307 ـ 1327)، وملوك ماجاباهيت في إندونيسيا، من "راجاسا" في 1222 ـ 1227 إلى "سوهيتا"، 1429 ـ 1447(*). وقد أدى هؤلاء إلى مزيد من أسماء الأماكن بالسنسكريتية، إذ كانت هناك عادة تسمية مدينة ما باسم الملك الذي أسسها. ونعطي مثالاً من عشرات الأمثلة، فإن مدينة "شريستابورا" (التي معناها الحرفي: ’أحسن المدن‘)، عاصمة كمبوديا، قد سميت على اسم مؤسسها، الملك "شريستا فارمان" (أي ’أحسن معقل‘). ومن المحتمل كذلك أن "سري فيجايا"، المملكة المسيطرة في سومطرة الجنوبية قد سميت على اسم الملك "فيجايا"، أي ’المنتصر‘.

وهذه مجرد عينة من الأسماء المعروفة أكثر من غيرها، وكما يمكن توقعه، فإن تاريخ علاقات هذه المدن وهؤلاء الملوك على مدى ألف عام هو موضوع واسع ومتشعب، وهو لن يطرح هنا.

ومن السهل تجاهل مدى التغيير الكبير الذي لا بد أن إدخال السنسكريتية قد أحدثته في حياة الشعوب المحلية. فالسنسكريتية، كنمط لغوي، كانت مختلفة عن اللغات المحلية بصورة مخيفة، المصنفة الآن على أنها بورمية، وأسترالية ـ آسيوية، وأسترالية ـ أندونيسية. فالسنسكريتية لغة متعددة المقاطع، وكثيرة التغير بالصرف والإعراب. ولها نظام معقد من الحروف الصامتة لا ينفر من عناقيد الكلمات الطويلة. ونظام ترتيب الكلمات حرّ. وكان يأخذ بهذه اللغة ناطقون بلغات أخرى كلماتها قصيرة، وكثيراً ما تميزها النبرة، وهي مكونة من مقاطع بسيطة، بحرف صحيح واحد في بدايتها ونهايتها. وكانت تصاريف الإعراب فيها

(*) وهذا مستمر الآن إلى حدٍ ما، وهكذا فإن ميغاواتي سوكارنو بوتري، رئيس إندونيسيا أثناء تأليف هذا الكتاب له اسم ترجمته هي: ’الغائمة، ابنة الرحيم‘.

غائبة، ولكن ترتيب الكلمات ثابت جامد. فكان التغيير جذرياً إلى درجة تعادل جذرية إدخال اليابانية كلغة نخبوية في مكان لا يعرف فيه الجميع في السابق سوى الإنكليزية أو الهولندية. أما مدى كون إدخال السنسكريتية انقلاباً عنيفاً مفاجئاً فيمكن رؤيته في البقايا المشوهة لبعض الأسماء السنسكريتية: فقد تغيرت تسمية "شريكسيترا" إلى 'ثايخيتايا'، وصارت "سري ديفا": سي ذيب.

ورغم ذلك فإن نوعية السنسكريتية المكتوبة التي حصل عليها أهالي هذا الجزء من العالم لم تكد تنحرف أو تبتعد عن نوعيتها في الهند. فنحن لا نرى 'تأثيراً مادياً سطحياً' في النصوص المكتوبة هنا. وعند الحديث عن كمبوديا، يلاحظ ر. ك. ماجومدار أن نصوصها المعروفة من العام 475 إلى العام 1327 'مؤلفة بأسلوب شعري لا يكاد يكون فيه أي عيب ـ وبعضها نصوص مطولة جداً ... وقد استخدمت كل الأوزان العروضية السنسكريتية تقريباً في هذه الأشعار. وهي تعرض معرفة تامة بأكثر القواعد والتقاليد تطوراً في الخطابة والعروض السنسكريتيين'[34]. كما أن النصوص مليئة بالإشارات المثقفة، وحتى البارعة الذكاء، على كتب الفيدا وكل فروع المعرفة الثقافية الهندية، وخاصة القواعد النحوية.

وكانت هناك براعة وضلاعة على نحو خاص لدى الملكة إندراديفي، زوجة الملك جايافارمان السابع (الذي حكم كمبوديا من العام 1181 إلى حوالي العام 1218): فقد كانت بوذية ورعة، ودرّست الراهبات البوذيات في ثلاثة أديرة. وقد تركت نصاً مكتوباً فيه مدح لشقيقتها الصغرى، وهي باحثة أخرى من المحزن أنها ماتت وهي شابة. وهذا النص مؤلف من مئة بيت وبيتين من الشعر في عدة أوزان عروضية مختلفة[35].

إن بعض الأعمال الأدبية المكتوبة في الهند الصينية قد انضمت إلى مجموعة المؤلفات السنسكريتية التقليدية الكلاسيكية. فقصيدة "مجموعة الأشياء الجوهرية" التي ألفها فاراروسي يمكن اعتبارها نقداً قوياً فعالاً: فلكي يبين كيف يمكن أن تختلف الآراء، يستحضر صورة نهد امرأة ـ كما يبدو في عيني طفلها، وفي عيني زوجها، ثم يصور جسدها الميت كما يراه زاهد، ثم كما يراه عشيقها،

ثم كما يراه كلب. وفيما بعد، يستبق فاراروسي رهان باسكال، بنصيحته للملحد المنكر لوجود الله والعالم الآخر: إذا لم يكن هناك عالم بعد الموت، فليس هناك شيء مخيف على أية حال. أما إن كان هناك عالم بعد الموت، فإن الملحدين هم الذين سيعانون العذاب[36] .

ويظهر أن النصوص السنسكريتية قد لعبت دوراً هاماً في تأسيس طوائف هندوسية جديدة ربما تكون قد أقيمت لتحصين دول حديثة الاستقلال: وهكذا فعندما حرّر جايافارمان كمبوديا من السيطرة الجاوية في القرن الثاني عشر، دعا كاهناً برهمياً اسمه "هيرانيادااما" (أي 'الحبل الذهبي') لإجراء طقوس تانترية لضمان هذا التحرير تحت حكمه. فنتجت عن ذلك طائفة "ديفاراجا"، أي 'الإله - الملك' التي دامت مئتين وخمسين عاماً، وكانت تقوم بوضوح على أربعة نصوص "شاسترا" مسمّاة. ولم يكن ذلك ممكناً بدون السنسكريتية، والوصول إلى الحكمة القديمة المنطوية عليها ضمنياً.

وبين حين وآخر، فإن الشعور بقوة روحية خارقة للطبيعة تنشر السنسكريتية كان يؤدي إلى حنين روحي غير سويّ. إذ يقال أن غانغاراجا، أحد ملوك تشامبا قد تنازل عن عرشه كي تتاح له فرصة لفظ أنفاسه الأخيرة على ضفاف نهر الغانج المقدس. وفي مجال روح عامة أكبر، هناك دليل من نص عُرِضَ في فات لونغ كاو في لاوس يذكر أن ملكاً يدعى "سري ديفانيكا" قد خطط لإقامة "كوروكشيترا" جديدة في موطنه كبديل عن القداسة المحضة "للكوروكشيترا" الحقيقية في شمال دلهي. وباعتبار هذا المكان موقع معركة "المهابهاراتا" العظيمة، فقد كان مزاراً مقدساً لا نظير له بين المزارات، ولكن المحزن أن الوصول إليه كان مستحيلاً. ويستشهد هذا الملك بنص مقتبس من الملحمة:

> على الأرض هناك نيميشا المبارك، وفي الأثير هناك بوشكارا
> ولكن في العوالم الثلاثة فإن كوروكشيترا تمسك بالتاج[37].

ولم تصل سنوات التأثير الهندي الطويلة إلى نهايتها إلا بعد ألف عام كاملة. وكانت قد حدثت صدمة كبرى في القرن الثالث عشر، عندما نهب المغول باغان

والممالك البورمية الأخرى في الشمال. ولكن أحد الباحثين البارزين قد اقترح، دون أن يغيب عنه الحنين إلى الماضي، بأن الحضارة الهندية كانت ضحية شعبيتها المتزايدة نفسها: 'إن الأسباب الكامنة وراء هذا الانحطاط كانت قيام أعداد كبيرة ومتزايدة من الأهالي الأصليين بتبني الحضارة الهندية، فدمجوا فيها عاداتهم الأصلية بصورة أكثر فأكثر، وكذلك الاختفاء التدريجي للأرستقراطية المصقولة المهذبة، حارسة الثقافة السنسكريتية'[38].

وعلى أية حال، فإن فيتنام في القرن الخامس عشر وسعت نفوذها إلى داخل تشامبا، وضمت إليها جنوب الهند الصينية بصورة دائمة، وفي الوقت نفسه تقريباً، قامت مجموعات من الشعوب الجبلية، مثل الشان في بورما، والتايلانديين في سيام، بتأسيس ممالك جديدة أزاحت جانباً القوى القديمة في باغان وآنغكور. ومع ذلك، فعندما أسس التايلانديون عاصمتهم الجديدة لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من تسميتها آيوتهايا، في تكريم مباشر لآيودهيا، التي كان يقيم فيها راما، البطل الهندوسي.

السنسكريتية تنقلها البوذية: آسيا الوسطى والشرقية

لقد تحدثنا عن السنسكريتية حتى الآن إلى حد كبير كأداة للهندوسية. ويبدو أن هذا كان إلى حد كبير هو ما نقلته أول الأمر إلى جنوب شرقي آسيا. فعندما عاد فا ـ كسيان إلى الصين عن طريق يببوتي (يافادفيبا) في جزر الهند الشرقية في أوائل القرن الخامس الميلادي أبدى ملاحظة قال فيها: 'في هذا البلد يزدهر الهراطقة والبراهمة، ولكن قانون بوذا ليس معروفاً كثيراً'[39].

وحتى يومنا هذا، لا تزال الهندوسية باقية في جزيرة بالي، إلى الشرق من جاوة. غير أن الصورة في أماكن أخرى من جنوب شرقي آسيا مختلفة جداً الآن، فقد حلت البوذية محل الهندوسية منذ زمن طويل. وكانت هذه نتيجة تاريخ طويل ومعقد ولو أنه ليس دموياً على وجه الخصوص، من الصراعات المذهبية بين العقيدتين. فالعلاقات الوثيقة للطوائف الهندوسية بالسلالات الحاكمة راحت تعمل ضد تلك الطوائف في آخر الأمر عندما سقطت تلك السلالات. ولكن كانت

هناك أيضاً منافسات بين سلالات بوذية، منها "التانترا"، التي تعني في الأصل 'النول'، أو 'الإطار' و"المهايانا"، أي 'المركبة العظيمة'، و"الثيرافادا"، أي 'مذهب الكبار'. وفي آخر الأمر فإن الثيرافادا، محصنة بعلاقات مع السنهالا في سريلانكا، انتصرت في جنوب شرقي آسيا. ومع ذلك فإن كل هذه الصراعات وقعت على أرضية خلفية من الثقافة الهندية لم تلق تحدياً.

فالمبشرون البوذيون جاؤوا في الحقيقة بعد وقت قصير جداً من التجار والقراصنة الهنود الأوائل، إن لم يكونوا معهم. فالمسارد التاريخية السيلانية الزمنية تذكر أن آسوكا بعث راهبين هما "صونا" و"أوتارا" إلى "سوفانابهومي" في القرن الثالث ق.م.[40]، رغم أن أول السجلات الأثرية للنشاط البوذي في جنوب شرقي آسيا (في مناطق بورما وتايلاند الحديثة) تعود إلى القرن الخامس الميلادي. وقد كانت الهندوسية دائماً ديانة يحتمل أن تعجب الملوك والنخب الحاكمة، ولكنها لم تكن تعجب الطبقات الدنيا طوعاً، مثل السودرا، والمنبوذين، المسحوقين بشكل فريد في نظام الطبقات الهندوسي؛ وعلى العكس، فإن البوذية، بتأكيدها على المساواة الشخصية في السعي إلى الاستنارة، كان من الممكن أن تعجب الناس على نطاق أوسع من حيث المبدأ. ويبدو أن من المحتمل أن الديانتين كانتا ممثلتين في أوائل التقدم الهندي إلى داخل المنطقة؛ بل إن جاذبيتيهما المتبادلتين قد عملت كل منهما على دعم الأخرى، بينما كانتا تعززان الترويج للثقافة الهندية بين الأجانب.

وكان للتميز الديني دائماً بعض التبعات اللغوية الضمنية، فكان الهندوس يفضلون السنسكريتية الفصحى الكلاسيكية، بينما كان البوذيون يفضلون لهجة بالي ذات الصلة الوثيقة بها ولكنها أبسط إلى حد ما. ومع مرور الزمن كان هناك أيضاً توجه لإعادة إلباس لهجة بالي صيغاً سنسكريتية عتيقة، مما أوجد أسلوباً خاصاً من السنسكريتية المهجنة بالبوذية. وكانت الثقافة الحقيقية والابتكار الإبداعي بالسنسكريتية الفصحى الكلاسيكية تميل إلى أن تكون في أفضل حالاتها في المناطق الهندوسية، مثل تشامبا، وكمبوديا، وجاوة، وبالي.

ورغم أن بوذا كان في الأصل يحث أتباعه على أن يتركوا وراءهم القوانين

اللغوية الصارمة، وأن يعملوا بأي لهجة عامية دارجة من أجل إيصال رسالتهم إلى الناس، فإن النصوص الدينية البوذية بقيت بلهجة بالي في جنوب شرقي آسيا، حيث لم تكن هناك أي محاولة كبرى لترجمتها إلى اللغات المحلية ـ على عكس الحالة في الصين والتيبت. فصارت الباليّة لغة طقوسية سرية تقتصر معرفتها على قلة من الناس ولا يعرفها عامتهم، ولكن دون أن يكون لذلك تأثير ضار على انتشار البوذية كما يبدو.

كما لم يكن هناك أي ميل معاكس للأخذ بالبالية أو بشكل من أشكال السنسكريتية كلغة للاتصال العام خارج نطاق الطقوس والمناقشات البوذية. فليس هناك أدب دنيوي علماني بالبالية، رغم أن حكايات "جاتاكا"، التي تروي اسمياً حيوات بوذا السابقة تشبه الكتب القصصية الأخرى مثل خرافات إيسوب، أو العمل الهندي المعادل لها والمعنون "بانكاتانترا". وفي جنوب شرقي آسيا، حيث يستمر بقاء البالية كلغة طقوسية، ليس للهجة المحلية الدارجة علاقة بها: فاللغات البورمية، والتايلاندية، والخميرية، والآسيهينية، والملاوية، والجاوية، كلها لا علاقة لها بالبالية، رغم أن هذه اللغات مثقلة بالكلمات المستعارة من اللغات الهندية.

لقد أثبتت البوذية أنها عقيدة ذات جاذبية لافتة للنظر من الهند إلى الخارج، نحو الشمال والشرق، وهكذا فإن البالية والسنسكريتية معروفتان بصورة جيدة للغاية في هذه الأصقاع الشاسعة. ولكنهما بقيتا كلغتين للطقوس لا أكثر. ونتيجة لذلك، فإن التأثيرات اللغوية للبوذية كانت أضعف بكثير من تأثيرات المسيحية والإسلام. فبرغم كل شيء، فإن اللاتينية، لغة المسيحية الغربية، قدمت الأساس لنمو لغة مشتركة في الأديرة، ثم في جامعات أوروبا في هذه الفترة نفسها (500ـ1500م). كما أن الإسلام عزز نشر العربية في جميع أنحاء شمال إفريقيا، والجزيرة العربية، وفلسطين، ووادي الرافدين، فاستمرت إلى يومنا هذا، بشكلها غير المتغير كلغة مشتركة للمثقفين، وكأساس لعدة لهجات عامية دارجة، مع تحويرات محلية. وليس هناك اتحاد لغوي مماثل للبوذيين في لغاتهم اليومية.

أما بالنسبة لكيفية استخدام اللغة في هذا الجزء من قصة السنسكريتية فليس هناك الكثير مما يمكن أن يقال. ففي الهندوسية، فإن الفضيلة الضمنية

الكامنة في صوت كتب الفيدا نفسه قد انفصلت منذ زمن طويل عن الحاجة لفهم معناها. ومرة أخرى بالنسبة للبوذيين الآن، بعدما لم تعد اللغة مفهومة على نطاق واسع، ولكنها لا تزال مسموعة على نطاق واسع في الأناشيد والاحتفالات، فإن مادتها وصوتها راحا يكتسبان قيمة صوفية بحد ذاتهما. وصارت السنسكريتية لغة تراتيل دينية، وتعاويذ، و"مندالة" (دائرة تطوق شكلاً مربعاً كرمز مقدس للكون عند الهندوس والبوذيين). وفي اليابان في العصور الوسطى، كان تكرار ترنيمة "نامو آميدا بوتسو"، وهي صيغة من تعويذة "ناما آميتابها بوذا"، التي معناها: 'أنحني لك أيها المتألق المستنير'، وسيلة لا تخطئ للوصول إلى الأرض الطاهرة بعد الموت. وحتى يومنا هذا ينشد ملايين التيبتيين ترنيمة "أوم ماني بادمي هوم"، أي 'تحية للجوهرة في وردة النيلوفر'، وهي عبارة صوفية من البوذية التانترية، وقد صارت صورتها الجنسية الأصلية الآن منسية تماماً.

ومن ناحية عملية أكثر نزوعاً إلى الذرائعية، فان التكنولوجيا والأنظمة المرتبطة بكتابة السنسكريتية وإعرابها قدمت أساساً لتعلم القراءة والكتابة بلغات أخرى. وبهذه الطريقة، فإن اللغات المقدسة، غير المتاحة للاتصال المباشر بين الناس، يمكنها مع ذلك أن تستمر في إلهام تطورات في اللهجات الدارجة المحلية.

إن مجيء السنسكريتية المعروفة باسم "فانوين"، أي 'الكتابة البراهمانية' إلى الصين، ومجيء "البونغو"، أي 'الكلام البراهماني' إلى اليابان لم يكن له سوى تأثير ضئيل على نظام الكتابة القائم على الحروف والمستعمل في شرق آسيا، إذ إن النظام كان قد ترسخ جيداً في الصين على مدى أكثر من ألف عام، بل إن الحروف الصينية هي التي كثيراً ما تستخدم (ولو بطريقة لفظية فقط) لتمثيل اللغة السنسكريتية نفسها في الممارسة البوذية لهذه البلدان.

وكان من آثار السنسكريتية الفعلية تأثيرها على الطريقة الصينية لتصوير الألفاظ الكلامية. فالباحثون الصينيون في فترة حكم تانغ (في القرنين الميلاديين السابع والثامن)، بمعرفتهم للتقليد الأبجدي السنسكريتي، كانوا قادرين على تحديد الحروف الصامتة في بداية الكلمات، فأطلقوا عليها اسم "زيمو"، أي

'أمهات الكلمات'، وهي تسمية يظهر أنها محاكاة للاصطلاح السنسكريتي "ماتركا"، أي 'الأمومة'، وهو أيضاً أحد حروف الأبجدية. وكانت هذه الحروف مستخدمة للتنظيم المنهجي للممارسة التقليدية للدلالة على اللفظ في القواميس. فقد كانت المعاجم الصينية تقوم بذلك دائماً عن طريق ما يسمى "فانكي"، بربط حرف مع حرفين آخرين، أحدهما له الحرف الصحيح نفسه في البداية، والآخر له النغمة المسجوعة أو القافية نفسها في النهاية. فكان وضع هذا في خريطة ترتيب منهجية خطوة متواضعة جداً في الفهم اللغوي، ما دام لم يتخذ أي تصريف إعرابي آخر للجزء المسجوع في القافية (لتحويلها إلى حروف علة وحروف صحيحة مثلاً)[41].

وهناك أيضاً غرابة مثيرة للاهتمام في أحد الأنظمة الكتابية الأخرى المستخدمة في هذه المنطقة الشاسعة من آسيا[*]. فاليابان مدينة في ترتيب رموز مقاطعها اللفظية، المسماة "كانا"، أو "غو ـ جو ـ أون" أي 'الأصوات الخمسين' لترتيب الحروف في الأبجديات الهندية. فترتيب الحروف السنسكريتية هو تقليدياً كما يلي:

a ā i ī u ū ṛ ṝ ḷ
e āi o āu
ḥ ṃ
k kh g gh ŋ
c ch j jh ñ
ṭ ṭh ḍ ḍh ṇ
t th d dh n
p ph b bh m
y r l v
ś ṣ s h

وهذا ليس ترتيباً اعتباطياً كترتيب أبجديتنا الإنكليزية... A B C D[**]، بل إنه

(*) هناك تنويع بديل يدعى "سِيدْها ماتركا"، أي 'الأبجدية المستقرة'، أو فقط سِيدْها ببساطة، هو نسخة الألفباء المكتوبة المستخدمة عموماً في التقاليد البوذية في آسيا الشرقية، (المسماة ماهايانا).

(**) إن الدافع لذلك هو تاريخي محض. فهذا الترتيب في آخر الأمر يعود إلى طريقة الترتيب العشوائية التي عينها الفينيقيون على شكل أَلِفْ بَيْت، جَيمْل، دَالِتْ، (اي الف باء جيم دال او 'ابجد').

يحتكم إلى خصائص متنوعة لفظية محضة للأصوات الممثلة. وهكذا فإن جميع الحروف الصامتة مثلاً توضع بترتيب يتقدم فيه اتصال اللسان من الخلف إلى الأمام في تجويف الفم. فالحروف الصامتة الأنفية (كالميم والنون إلخ) تأتي دائماً مباشرة بعد الحروف الصامتة الأخرى التي تتشكل في مكان التمفصل نفسه. والترتيب الغريب لحروف العلة يتكيف جزئياً بحقيقة كون معظم أمثلة حرفي الـ e والـ o في السنسكريتية مشتقة من إدغامِ حرفَيِ عِلّة لصياغة صوت واحد، مثل ai وau، وهكذا فإنها تصنف في الترتيب مع حروف العلة الطويلة المعادلة لها.

والآن فإن رموز "كانا" اليابانية تمثل مقاطع كاملة، وليس حروفاً صحيحة مفردة. وقد تغيرت طريقة لفظها بالتأكيد على مدى الألف عام الماضية. ولكن باستخدام أقدم لفظ يمكن إعادة تركيبه نستطيع أن نقول إن الترتيب التقليدي لها هو كما يلي:

a	i	u	e	o
ka	ki	ku	ke	ko
sa	si	su	se	so
ta	ti	tu	te	to
na	ni	nu	ne	no
fa	fi	fu	fe	fo
ma	mi	mu	me	mo
ya	(yi)	yu	(ye)	yo
ra	ri	ru	re	ro
wa	wi	(wu)	we	wo*

ونلاحظ على الفور أن الترتيب العشوائي لأحرف العلة (a i u e o) هو بالضبط كتركيبها في السنسكريتية، رغم أن ذلك ليس له دافع في القواعد النحوية اليابانية. وعلاوة على ذلك فإنه رغم وجود عدد من الحروف الصامتة في

(*) البنود الموضوعة بين قوسين غير موجودة بشكل منفصل في التهجئة أو في اللغة، وذلك لأسباب لفظية كلامية.

اليابانية أقل بكثير مما في السنسكريتية، فإنها تقع بالترتيب نفسه تقريباً كما هي في الألفباء السنسكريتية. والواقع أنه ليس هناك سوى استثناء واحد ظاهر هو حرف السين s الذي يقع حيث يجب أن يكون الحرف c أو الحرف t، فهو ليس في الأخير، كما هي الحال في الحروف الصافرة في السنسكريتية. والحقيقة أن هناك سبباً للاعتقاد بأن لفظ هذا الصوت هو مثل "sh" أو الـ "ch" بالإنكليزية عندما تم وضع الترتيب التقليدي، مما يعني أنه أقرب ما يكون إلى حرف c السنسكريتي [الذي يعادل ch بالإنكليزية]

إن هذا الاقتراض العقلي الكامل تماماً عند جذور نظام الكتابة يبين أن انتشار السنسكريتية إلى اليابان لم يرافقه انتشار صوت الأناشيد البوذية فقط، بل كذلك العناصر التقليدية للتصاريف الإعرابية في اللغة.

ومن الأمثلة الأخرى على تأثير السنسكريتية الفكري على تكنولوجيا الكتابة الحروف الهجائية التيبتية، التي نراها مستعملة لأول مرة في القرن الثامن الميلادي، مستمدة مباشرة من أبجدية سِيدْها. وإن أول استخدام معروف لها على عمود حجري في زول، قرب لهاسا يعود إلى العام 764 م[42].

وليس من الواضح تماماً إن كانت التيبتية مدينة في معرفة القراءة والكتابة للبوذية أم لمحاولات تحديث الإدارة. فإن فترة أول نصوص باقية من هذه اللغة هي بالضبط وقت مجيء البوذية إلى التيبت مع الراهب "سانتاراكسيتا". ولكن ليس هناك ذكر للبوذية فيما هو منقوش على العمود الحجري في زول، الذي هو سجل لمنجزات وزير ملكي[43].

ومهما يكن الدافع، فإن من الواضح أن الألفباء التيبتية فد استلهمت من نموذج هندي، وهو نموذج كان يستخدم لكتابة السنسكريتية أو البراكريتية(*).

(*) ومع ذلك فقد تم تحوير الحروف برشاقة كي تمثل بفعالية اكبر ملامح التيبتية الغريبة عن اللغات الآرية التي كلف بها الراهب البرهمي وكل خلفائه. ومن الملاحظ أنها تستطيع تمييز حروف العلة الأولية التي لها وقفات حلقية أمامها والتي ليس لها مثل هذه الوقفات (ففي السنسكريتية مثل الإنكليزية، يتم إدخال رعشة حلقية بصورة تلقائية عندما يبدأ أي لفظ منطوق بحرف علة) وقد استعار الصينيون التيبتية فيما بعد (في القرن الثالث عشر)، في بلاط قبلاي خان، ليخلقوا منها نصوص فاغسبا للغة

وعندما ترسخت التيبتية، تم الأخذ بها إلى حد كبير مع ترجمة النصوص البوذية التقليدية الكلاسيكية من السنسكريتية أو البالية. وصارت هذه صناعة هامة بحيث كانت هناك في أوائل القرن التاسع الميلادي لجنة ملكية تيبتية لإقامة قواعد دقيقة للمعادلات (مقارنة 'باللغة الخاضعة للسيطرة' المستخدمة في بعض الترجمات الصناعية اليوم). فكانت النتيجة انخفاض البراعة الأدبية المعروضة في الترجمة. ولكن العمل المنجز كان شديد الدقة إلى درجة أن من الممكن في كثير من الحالات إعادة تركيب الأصول السنسكريتية المفقودة بالاعتماد ببساطة على أساس نسخها التيبتية.

إن هذه الأسس الدينية لثقافة التيبت السنسكريتية ارتفعت عليها بنية فوقية من أدب كلاسيكي أوسع نطاقاً في القرن الثالث عشر، إذ إن الفاتحين المسلمين عندئذ دمروا كل مراكز التعليم العالي في الهند الشمالية، فهرب كثير من الباحثين إلى الشمال، إلى داخل التيبت مع كتبهم. وقد رافق تسعة علماء سنسكريتيين "الخاتشي بانتشين ساكيا سريباندرا" إلى التيبت في العام 1206م. وبعد ذلك بخمسين عاماً كان هناك تعاون على تأليف المسرحيات، والأشعار، والدراسات النقدية للشعر بالسنسكريتية بين العالم الهندي "لاكشميكارا" والباحث التيبتي "صون - ستون ردو - ردجي رغيال مستان"[44].

إن من المطمئن إلى حد ما التفكير بأن التيبت كانت قبل ثمانمئة عام ملجأ للبوذيين الهاربين من المغيرين على الهند الشمالية - وهذا بالضبط عكس ما عرفناه في الجزء الأخير من القرن العشرين.

اقتلاع السنسكريتية

بدأت الغزوات الإسلامية من غزنة في أفغانستان في أواخر القرن العاشر. وقد

المغولية. بل إنهم اعلنوها ابجدية رسمية للإمبراطورية في العام 1269. وقد استخدمت ايضاً لكتابة الصينية (انظر الفصل الرابع: 'التمسك الشديد بنظام للكتابة'، ص 225).

استغرقت "سلطنة دلهي" الإسلامية ثلاثمئة عام للسيطرة على السهل كله من الإندوس إلى الغانج، وقرناً آخر للاستيلاء على معظم باقي شبه القارة. ولم تكن وحدة المسلمين مدعومة أو طويلة البقاء. ولكن وجودهم في الهند استمرت أهميته، وخاصة بعد العام 1505، عندما قاد بابور جيشاً آخر من أفغانستان، وأسَّسَ الإمبراطورية المغولية.

وقد عرف الهنود هؤلاء القادمين باسم "توروشكا"، أي 'الأتراك'. فقد جلبوا معهم حضارة جديدة واثقة من نفسها. وكانوا يتحدثون بنوع من اللغة التركية الشرقية (جغطاي)، ويؤدون صلواتهم بالعربية، ولكنهم قبل كل شيء كانوا يجيدون القراءة والكتابة بالفارسية. إن ثقتهم بأنفسهم من الناحية الثقافية، ومفاهيمهم الغريبة كلياً عن السلوك اللائق والمحتشم وعن غاية الحياة، وقبل كل شيء أنظمتهم الإدارية المتقدمة التي تعمل بالفارسية، كانت كلها تعني أنه كان لديهم تأثير لغوي أكبر بكثير من تأثير الغارات السابقة غير المذهبية التي جاءت من الاتجاه نفسه، من شاكا، وكوشانا، وهونا، ولأول مرة، تم اقتلاع السنسكريتية كلغة للنخبة في الهند.

ومن المفارقات أن نجاح المسلمين في غزو القارة كان إلى حد كبير نتيجة مهارتهم في الفروسية، والخيول الأفغانية المؤصلة التي جلبوها معهم. وهكذا استطاعوا في آخر الأمر أن يتغلبوا على الأحفاد البعيدين للغزاة الآريين القادمين على صهوات الخيل في الألف الثاني بعد الميلاد وفي اللعبة التي عُرِفَ الآريون بإتقانها.

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، فإن بعض حضارات جنوب شرق آسيا الناطقة بالسنسكريتية راحت تعتنق هذا الدين الجديد نفسه ولكن لدوافع مختلفة تماماً.

فلم يكن هناك غزو عسكري، ولا ثورة اجتماعية لصالح الطبقات الدنيا. ومع ذلك فإن بعض الموانئ في سومطرة الشمالية اعتنقت الإسلام في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وفي أوائل القرن

الخامس عشر أسلمت مَلقَا، أهم مركز تجاري واقع في شبه جزيرة الملايو(*). وانتشر الإسلام على نطاق واسع بين شركائه التجاريين، وبصورة ملحوظة في جاوا، وسيليبس، وجزر أرخبيل ملقا الإندونيسية وميناناو. ومن المفترض أن التأثير قد جاء من التجار المسلمين الذين خرجوا من الهند، ولعله كان كتأثير تساقط أحجار الدومينو، بحيث إن مملكة إثر مملكة راحت تقدر أنه لن يتاح لها الحفاظ على علاقاتها بالهند إلا إذا اعتنقت الإسلام - أو ربما كان اعتناقها له استجابة لاندفاعة إسلامية يائسة للتبشير به قبل وصول البرتغاليين(45). ومهما كانت الصلة، فإن الدين الجديد خلق مناخاً اجتماعياً جديداً ووضع نهاية لعهد سيادة السنسكريتية كلغة ممثلة للثقافة هناك(*).

جاذبية السنسكريتية

جذور جاذبية السنسكريتية

السوارات لا تزين الإنسان، ولا القلائد البراقة كالقمر،
ولا الاستحمام، ولا مستحضرات التجميل، ولا أكاليل الورد قادرة على أن تضيف ذرّة.
إن زينة الإنسان الحقيقية الوحيدة هي الحفاظ على لغة كاملة:
فالحليّ لا بد أن تفنى. وما يخلد هو صقل اللغة الجميلة.

بهارترهاري، 2: 17ـ20

(*) إن دور ملقا كمركز تجاري لتوزيع السلع قد رسخ اللغة الملايوية بقوة كلغة مشتركة للمنطقة. واستمر ذلك حتى يومنا هذا (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 549). وكانت ملقا نفسها مستعمرة لسري فيجايا (بالمبانغ) على سومطرة، وهي الأخرى مركز تجاري كبير. وهناك تم العثور على أقدم النصوص المكتوبة بالملايوية (من القرن السابع الميلادي)، وكان أحدها نصاً خاصاً من مدينة جامبي، المعروفة سابقاً باسم ملايو (هول 1981، ص 47 -48). ومن المفارقات أن كلمة "بهاسا" ليست سوى الكلمة السنسكريتية بهاشا، أي 'اللغة'.

(**) [ملاحظة: لا يريد المؤلف أن يعترف بأن الإسلام في جنوب شرقي آسيا، وخاصة في إندونيسيا وماليزيا قد انتشر بالقدوة الحسنة، والأخلاق الطيبة، والصدق والإخلاص في التعامل مع الناس. وموقفه هذا يدل على تعصب حاقد إذا رأى حسنة دفنها وإذا رأى سيئة أذاعها! - المترجم].

هناك لغة بدأت كفرع من اللغات الهندية ـ الأوروبية، فاستقرت في زاوية هادئة من العالم بالتأكيد هي سفوح هندكوش، وانتشرت كلغة دارجة في جميع أرجاء السهل الهندي ـ الغانجي، وكلغة للنخبة حملها الدين الهندوسي إلى باقي شبه القارة الهندية. ومن هناك انتشرت شرقاً عبر البحر عن طريق التجارة، وصارت طيلة ألف عام الإلهام الثقافي لشبه قارة جديدة وأرخبيل بكامله. كان هذا هو النمو الذاتي المستقل للغة السنسكريتية.

ولكن أحد الأديان التي بدأت في الألفية الأولى للسنسكريتية استمر ينمو خلال ألفيتها الثانية فالثالثة: فقد انتشرت البوذية أولاً بالسنسكريتية واللهجات البراكريتية عبر الهند والهند الصينية. ثم أظهر هذا الدين أنه قادر على تجاوز الدولة الوطنية، موطنه في الثقافة الهندية فتحرك نحو الشمال، وفي آخر الأمر نحو الشرق. فكسب أتباعاً وازدهر في مجتمعات صينية، وكورية، ويابانية، وتيبتية، ومغولية. ورغم أن الدين تعرض لتغيرات صارخة أثناء تقدمه عبر العالم، فإن السنسكريتية والبالية قد رحلتا معه دون أي تغير هام، كملحقين مساعدَيْن للتعليم البوذي العالي حيثما أخذهما ذلك الدين. فكانت هذه هي التوصيلة المجانية للسنسكريتية، وكانت وسيلتها هي البوذية بأشكالها الكثيرة.

لقد حان الوقت الآن للنظر في الأسباب التي جعلت السنسكريتية تنمو، وما إذا كانت البوذية نفسها مدينة بشيء لهذا الشكل الكامل الجاذبية من أشكال التعبير الإنساني.

فللسنسكريتية مزايا كثيرة. فقد كانت لغة النخبة الواعية بذاتها من البراهمة والكشاتريين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مستحقين للسيطرة على الشعوب الأخرى التي اتصلوا بها، وأن لديهم الوسائل التقنية لفرض هذه السيطرة. وعلاوة على ذلك كانت لغتهم في قلب صورتهم عن ثقافتهم نفسها، ما دامت قواعدهم النحوية هي ملكة علومهم. فقد كانت البراعة بالسنسكريتية تعتبر السمة الرسمية المميزة للوجود المتحضر، ولمكانة المرء في العالم كإنسان آري نبيل، ولكنها كانت أيضاً شيئاً قابلاً للتدريس، فكانت تُدَرَّس.

وقد تغيرت المعتقدات حول القيمة الحقيقية لهذه المعرفة تغيراً تدريجياً على مدى القرون، من الحاجة إلى ضمان دين الآلهة، إلى صيانة النظام الاجتماعي، ثم إلى توسيع تقدير العراقة الثقافية التي يزيدها القِدَمُ جمالاً.

وقد روّجت بعض القوى الاجتماعية أشكالاً من السنسكريتية أقل نخبوية، على المستوى الدنيوي (كما في ممارسات ملوك مثل آسوكا)، وعلى المستوى الروحي (كما في مواقف بوذا مثلاً)، ورغم ذلك فقد خسروا أمام جاذبية اللغة الكاملة، المثقفة، الواعية بذاتها، وصاحبة الأسلوب الخاص بها: فنظراً لأوصافها المتقنة المحكمة وقدرتها على الإعراب عن نفسها، كانت قادرة على الدوام على إظهار الأفضل وتفسير سبب أفضليته. وبذلك جعلت نفسها جذّابة بشكل لا يقاوَم للمؤسسات المتحركة إلى الأعلى: مثل الممالك الهندوسية (كمملكة رودرادامان) الساعية للحصول على اعتراف أوسع في الهند، والسلالات الحاكمة في الهند الصينية (مثل "سيلندرا" في بنام) الساعية إلى إظهار شرعيتها، والمدارس البوذية الراغبة في إضفاء الهيبة والاحترام على نصوصها الإيمانية.

وكانت النزعة الطبيعية إلى المحافظة في المؤسسات تعني أن رموزها سوف تميل إلى التحجر ـ ويشهد على ذلك مصير اللغة البالية بين البوذيين. فقد بدأت كلغة مشتركة منفتحة وواسعة الأفق لكل الناس وانتهى بها الأمر إلى أن تصبح لغة كلاسيكية تقليدية أخرى. كما أن الهند، بنظام الطبقات المغلقة السائد فيها لم تكن سوى موطن للمؤسسات المحافظة. وكانت مثل هذه النزعة المحافظة تفيد السنسكريتية دائماً وتضرّ بنفسها، لأنها كانت تدافع عن نفسها من خلال تعاليمها ومستواها اللغوي الجامد الذي تعتبر أي تغيير فيه مؤدياً إلى التدهور والانحطاط.

أما السنسكريتية فكانت محددة بشكل ملموس في كتب القواعد النحوية، فكانت سهلة التعلم بصورة بارزة، بل كان من الممكن الاعتقاد أنه ما دام المستوى واضحاً جلياً، ولو كان معقداً وعميقاً، فإنه يشجع الاستعراضات الصريحة لذكاء كذكاء المحامين، ولو في مجال غير عملي إلى حد غريب،

ومنفصل عن العقوبات الإلزامية المعتادة، وعن الملكية والقوة العسكرية. فلم تكن هناك حروب قائمة على نتائج مجادلاتها، رغم أنها كثيراً ما كانت تثير خصومات ساخنة (ولا تزال كذلك). فقد كانت تصاريف الإعراب النحوي تقدم منبراً طبيعياً للرياضة الفكرية ومناقشة الحجة بالحجة، مع الاهتمام ببساطة بإقرار ما هو صحيح في عالم اللغة، وأفضل سبيل لإعطائها الصيغة الرسمية. فكانت هناك مقولة تؤكد:

إن النحويين يبتهجون بإنقاذ نصف قاعدة قياسية كفرحهم بولادة ابن لهم.

وكانت إحدى النتائج أن المهارات البراهمانية لا يمكن أن تهبط أبداً لتصبح مجرد تعلم روتيني قائم على الحفظ بلا فهم وعلى الاشتراط، ما دامت مبنية على تركيب فكري محكم بقوة.

ومثلما هو الحال في العلوم اللغوية، كان الحال في السلسلة الكاملة للعلوم الهندية. فالحضارة القائمة على السنسكريتية، في لجوئها إلى المبدأ المجرد بدلاً من اعتمادها على تقليدها الثقافي بالذات مختلفة عن الحضارتين الإغريقية والرومانية الواقعتين إلى الغرب منها. والثقافة الهندية لا تدور حول ملاحمها ومنجزاتها الأدبية الكلاسيكية رغم إعزازها لهذه المدخرات. كما أن فلسفتها لا تؤكد على نظريات ذات فائدة اجتماعية، كالسياسة، والأخلاق، أو فن الإقناع. بل إنها تضع نظريات حول الأوضاع الحياتية القائمة وأساليب الإدراك الحسي. وهناك شعور معين بأن التنظير السنسكريتي يعجز عن الارتباط بالعالم العملي. وكما يلاحظ باشام، فإن:

... المعرفة الجغرافية لدى المتعلمين تتصف بأشد أنواع الغموض. فحتى ضمن الهند نفسها، فإن المسافات والاتجاهات، كما هي واردة في النصوص، هي عادة غير دقيقة، وغامضة جداً. فالغزاة الذين قادوا جيوشهم ألوف الأميال في حملاتهم، والتجار الذين كانوا يحملون بضائعهم من أقصى الهند إلى أقصاها، والحجاج الذين كانوا يزورون الأماكن المقدسة من الهملايا إلى رأس كومورين لا بد أنهم كانوا يملكون معرفة سليمة بالجغرافية الهندية، في حين أن المعرفة التي كانت لدى المبحرين

> من سوقطرة إلى كانتون كانت معرفة أوسع، ولكن ليست هناك أصداء تنكر لهذه المعرفة في أدب ذلك العصر[46].

كانت اهتمامات السنسكريتية معنويّة غير مادية، فوق الولاءات المحلية والتفاصيل الشخصية، فحققت مكانةً لا تزال تتمتع بها ضمن الحضارة الهندية كلغة شبه عالمية، رغم أن في بعض أنحاء الهند الآن أصواتاً ملحةً تتنكر لها، وتؤكد على أصولها كلغةٍ محلية للشمال. وقد تمتعت شقيقتها الصغرى، اللغة البالية، بشيء يشبه هذه المكانة، ولو بين البوذيين فقط، وإلى حد كبير خارج الهند نفسها. وإن إحدى علامات كون كل من هاتين اللغتين ذات مكانة في عموم الهند، بل في عموم آسيا تقريباً هي أنهما ـ على عكس جميع اللغات الأخرى في الهند والهند الصينية، يمكن كتابتهما بكل الأبجديات المختلفة المتحدرة من البرهمية بلا فرق. وهكذا فإن كلاً منهما 'لغة محلية عالمياً' ضمن السياق الهندي، فهي في موطنها لغة مقدسة، مهما كانت العامية الدراجة.

ولكن من الغريب أنهما كلغتين تقليديتين كلاسيكيتين كانتا دائماً غير مباليتين بوجود مكتوب، بأية أبجدية. وقد لاحظنا الصفة النموذجية لعدم الوثوق بالكتابة في الثقافة الهندية. وهذه في الحقيقة لا تنطبق على هذه اللغات الآرية فقط بل هي صفة عامة: والواقع أن أول نص مقدس مكتوب في أي مكان في الهند هو كتاب السيخ المعنون "غورو غرانت صاحب"، الذي أنتج في القرن السابع عشر. (والعقيدة السيخية تعتبر الإسلام ـ بتقديسه لنص القرآن المكتوب ـ مصدراً كبيراً للإلهام).

ولعل هذا الاحترام الزائد للنصوص المحفوظة والمتناقلة شفهياً قد أبقى السنسكريتية سهلة الوصول لجمهور واسع من عامة الناس كلغة للصلوات والورع، وكذلك كلغة للأعمال الأدبية القديمة. ويمكن التقاط مثال واحد: ترنيمة شعبية محلية: 'أنا أحييك، أيتها الأم أوريسا'، وهي ترنيمة معبّر عنها بالسنسكريتية، رغم أن الذين ينشدونها لا يكادون يلاحظون ذلك.

وفي هذه الأثناء، فإن حفظ السنسكريتية بوسيلتين، عن طريق تدوينها مباشرة في تقاليد المخطوطات المكتوبة، وكذلك بشكل متميز من خلال التقليد

الشفهي للنحاة، ربما تكون طريقة لفظها قد منعتها من التعرض لأي تغير يذكر على مدى أكثر من ثلاثمئة عام من حياتها في مجال الطقوس(*).

وأحد جوانب هذه القصة يشبه بقاء اللغة العبرية: تقليد مقدس، مبني على ترتيل نصوص لغة لم يعد أحد يتكلمها، حفظ اللغة متماسكة على وجه العموم. ولكن الجانب الآخر لا يشبهه شيء على وجه الأرض. فكأن التقليد العبري لحساب الجمّل، الذي يعين قيماً رقمية للحروف، وبذلك يضيف إليها عند جمعها أهمية صوفية للعبارات(**)، قد حدد، في مجموعة من المعادلات، وسيلة بديلة لتمثيل اللغة العبرانية كلها، وبذلك حافظ على قواعدها النحوية، وطريقة لفظها بشكل مستقل تماماً عما هو مكتوب في التوراة والتلمود.

ورغم هذا كله فإن جاذبية السنسكريتية والثقافة الهندية التي تعبر عنها عند الأجانب تبقى محيّرة. فقد سألت بعض الأصدقاء الهنود عن ذلك، وأشرت إلى الاستعداد الذي يبدو غير معقول عند المونيين والمونديين والمغول لتقبل الثقافة واللغة، والديانة الآرية عند عرضها عليهم بدون إكراه. فأشاروا إلى ضآلة ما كان يطلب من المتقبّلين أن يأخذوا به كعادة جديدة، أو أن يتركوه جانباً من عاداتهم القديمة. فالنذور تقدم للآلهة، ولكن الواجبات الواضحة للملتزمين بالهندوسية أو بالبوذية قليلة. ويظهر أن الهندوسية تستطيع أن تجد ضمنها مكاناً لكل العقائد الإيمانية الأخرى: فالولاءات القديمة يمكن دمجها ببساطة، كما في حالة أسطورة تأسيس فونان. وكانت بوذية ماهايانا قادرة على الاستيعاب كالهندوسية، بحيث كان في نطاق نشاطها عدد لا ينتهي من العوالم والآلهة. وكانت هناك أشكال أخرى من البوذية ذات توجّه مختلف عن ذلك اختلافاً كاملاً، فتقدم إرشادات حول الأخلاق والتنوّر الشخصي، ولكنها تترك الاعتقادات والولاءات القديمة كما هي فلا تمسها.

(*) رغم أننا نعرف أن بعض الملامح قد فقدت على الطريق، مثل لهجة النبرة الصوتية، وطريقة لفظ حروف العلة الشديدة الطول.

(**) وأشهر مثال على ذلك عبارة NRWN KSR (أي 'نيرون الإمبراطور') فمجموعها 666، وهو رقم الوحش في كتاب رؤيا يوحنا اللاهوتي.

ولكن هذا هو مجرد غياب العائق: فهو لا يفسر لماذا اختار الناس في سياقات كثيرة مختلفة أن يتبعوا المثال الهندي بدلاً من التمسك بطرائقهم القديمة. ولا شك أن قرار الأخذ بثقافة جديدة منقولة بالسنسكريتية كثيراً ما كان يتخذه المنتمون إلى النخبة، ثم يفرضونه على عامة الناس أو يقنعونهم به. أما قرار اعتناق البوذية فقد كان اتخاذه في أغلب الحالات متروكاً للأفراد. ولكن مهما كان مستوى اتخاذ القرار فلا بد أن صنّاع القرار قد شعروا بأنهم يقومون بخطوة نحو عالم أرحب وأكثر انفتاحاً - فيقيمون صلات مع الثروة المقدرة للهند والعالم الغربي، وحكمتها القديمة الواسعة.

ولا يتخذ القرار بشكل نهائي حاسم، ولا بمعرفة مسبقة بالتغييرات الجذرية التي سيحدثها في الهند الصينية، والصين، والشرق. ولكن القرار على وجه العموم، وحيثما اتخذ، كان يظل ثابتاً. وإن غياب أي إقناع عسكري، سواء في البداية، أم بعد سنوات وقرون، عندما يكون الهنود ومقلدوهم واعين ببعضهم بعضاً هو دليل يثبت أن الاستيعاب الثقافي كان معترفاً به على نحو ما على أنه شيء له قيمة جيدة، ويستحق المتابعة والتطوير.

تحديد نقاط الضعف

ومع ذلك فإن العالم الإنساني للسنسكريتية لم يكن خالياً من العوائق أو العيوب.

فهي عسكرياً لم تنشئ مركزاً يمكن الدفاع عنه، بل كانت تميل إلى الاعتماد على العوائق الطبيعية التي كان الغزاة يخترقونها من الشمال الغربي بين حين وآخر. واجتماعياً، ظلت السنسكريتية محافظة ومرتبة على شكل طبقات منغلقة، وتفضل التنظير بأن أفضل شيء للمجتمع هو أن يكون منغلقاً وجامداً، بدلاً من استخدام مواهبها للابتكار عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. وفي الدين، كانت الهندوسية والبوذية تميلان إلى خلق نظام قيم للعالم الآخر، وبذلك تنتقصان من الاهتمامات العملية الخاصة بالولاء، والتلاحم الاجتماعي وتعقّدان نقاط الضعف الأساسية في الدفاع والمرونة.

وكان المجتمع السنسكريتي ينطوي ضمنياً على كل هذه المشاكل. فقد

انتشرت نبتة التعريش بشكل أخّاذ، ولكنها مع الزمن راحت تميل إلى التصلب لتصبح شبكة شديدة التعقيد من الأغصان القاسية بلا مرونة وفي الوقت المناسب تشذبها أيد قاسية غير متعاطفة.

ونبدأ بمجالات الحرب، والدبلوماسية، والحكومة.

لقد رأينا (من سجلات النصوص) أن السنسكريتية، التي كانت في أول الأمر لغة مقدسة لم ترسخ نفسها كلغة خارجيّة للبيانات السياسية إلا في منتصف القرن الثاني الميلادي، بعد 650 عاماً من تأسيس النحوي بانيني لقواعدها. ففي السابق، يبدو أن لغة الحكومة كانت هي اللهجة الدارجة في المدينة الحاكمة، ولا سيّما البراكريتية الماغاديّة في باتاليبوترا: فبعد بانيني بمئتين وخمسين عاماً، عندما أقام آسوكا نُصُباً تذكارية في جميع أنحاء الهند الشمالية والوسطى، كتبت النقوش عليها بهذه اللغة البراكريتية الماغادية. ومع ذلك فهناك بعض الأدلة على تغلغل السنسكريتية إلى أعلى المستويات في الدولة: فالكتيّب العظيم "آرثاشاسترا" عن فن الحكم الهندي الذي ألفه كوتيليا مكتوب بالسنسكريتية، وليس بالماغادية. وهو منسوب تقليدياً للوزير الرئيسي كاندرا غوبتا (ʻسرّ القمرʼ) موريا، جدّ آسوكا، الذي كان قد أسس إمبراطوريته الهندية الشمالية بعد وقت قصير من غزوة الإسكندر المختصرة على طول وادي الغانج. ولكن هذا الكتيّب كان يمكن كتابته في أي وقت في القرون الخمسة الممتدة حتى العام 150م. فعند حلول ذلك العام، كانت أولية مكانة اللغة السنسكريتية في السجلات السياسية قد تأكدت[47].

وبغض النظر عن الوحدة الثقافية التي أشارت لها السنسكريتية، فإن الهند لم تكد تصل إلى النجاح الذي حققته روما وفارس في غربها، أو الصين في شرقها، في تأسيس وحدة سياسية واسعة النطاق تستطيع الدفاع عن حدودها، وتأمين تعاقب الحكّام بانتظام على مدى بضعة أجيال على الأكثر. فمن القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادي، فإن السلالات الحاكمة الأهلية مثل آل ناندا، وموريا، وشونغا، وستافاهانا، وغوبتا، نهضت وسقطت بإيقاع ملحّ، وكانت عاصمتهم غالباً هي باتاليبوترا، ولكن بدون إحساس بتعاقب مباشر: ففي

العادة، كانت هذه الإمبراطوريات الأكبر تنهار في جيلين من الصراع اللامركزي الإقطاعي الصاخب، قبل أن يأتي "مدير العجلة" التالي الذي يسمونه "كاكرافارتين"، أي 'الملك العالمي'. وفي بعض الأحيان، كانت غارات كبرى من الشمال الغربي تصل إلى باتاليبوترا، وعلى سبيل المثال فعندما قام ملوك يافانا (مثل مناندر ـ ميليندا البوذيين) بالانقضاض من سواتْ، أو عندما قام كانيشكا، الفارسي الناطق باللغة الباكترية، بتأسيس إمبراطورية كوشان من القرن الأول إلى القرن الثاني للميلاد، فإنهم جميعاً لم يستمروا أطول من ذلك أبداً(*).

وكان كل الغزاة في هذه الفترة ـ ومن بينهم أيضاً السكيثيانيون ("شاكا") الناطقون بالفارسية وكسيونغنو ("هونا") الناطقون بالتركية ـ يشبهون نمط المغول في الصين، أو القبائل الجرمانية في أوروبا الغربية. فهم لم يؤسسوا حضارتهم الخاصة بهم، واستقروا كأرستقراطية جديدة، بدون تأثيرات لغوية دائمة. وهكذا فإن السنسكريتية واللهجات البراكريتية قد نقلت إلى أجيال جديدة وشعوب جديدة، ولم يكن التقليد موحداً من الناحية السياسية، رغم أن "الآرثاشاسترا" تظهر أنه كان عالي التنظيم وواعياً بنفسه، قانونياً واقتصادياً.

ولم يكن هناك أي تجديد أو ابتكار تقني أو عسكري في هذه الفترة. ولا بد أن الاتصالات ظلت صعبة. وهذان سببان يفسران لماذا احتفظت المدن والمناطق المختلفة بهذا القدر الكبير من الاستقلال بحيث ظلت السلطة المركزية "للكاكرافارتين" إلى حد كبير حلماً غير متحقق.

وكان "للآرثاشاسترا" نظرية معقدة التفاصيل حول السياسة الخارجية، تنطوي ضمناً على عدد كبير من الدول الصغيرة. وكانت معظم الدول ملكية، ولكن كانت هناك في الحقيقة جمهوريات كذلك تحكمها مجالس من الرجال ذوي الحيثيات والممتلكات. فجماعة الليتشافي التي كانت تعيش في "فيسالي"، في شمال الغانج كان يقال إن فيها 7,707 "راجات"، أو 'ملوك'، كلهم في مجتمع

(*) ومن المفارقات أن أكثر إسهامات حكم كانيشكا ديمومة كانت فترة "شاكا"، وهي نظام تاريخ لا يزال مستعملاً في الهند، يجري من العام 78م، بل إنه مستعمل في كثير من النصوص السنسكريتية في جنوب شرقي آسيا.

القبيلة العشائري. بل إن بوذا نفسه قد نشأ في مجتمع كهذا، غير بعيد بين "الساقيا" على سفوح الهملايا. ويقال إن هذا التقليد قد ألهم إلى حد كبير الممارسة الديمقراطية لدى "السانغها"، أي التجمع الكامل للرهبان البوذيين.

أما بالنسبة للقيود الاجتماعية في المجتمع الهندي فيجب النظر إليها باعتبارها مرتبة بصورة ساحقة على شكل طبقات منغلقة، بحيث إن طبقة المرء، وبالتالي مكانته، تتحدد بالولادة. وإن المنظّرين الناطقين بالسنسكريتية الذين يشيرون في مراجعهم إلى كتب الفيدا لم يكونوا يجيدون أي صعوبة في تبرير وعقلنة حالات عدم المساواة السافرة - حتى ولو حدث بين حين وآخر أن قام القادة الطبيعيون الذين يتصادف أنهم من طبقات دنيا بتنصيب أنفسهم ملوكاً دون تردد أكثر من اللازم إزاء قوانين الحظر والتحريم الهندوسية. كما أن أوضاع النساء لم تكن موضوعاً للنقاش. فكلمة "ساتي" السنسكريتية هي في الأصل الصفة المؤنثة التي تعني 'الصادقة، والصحيحة، والطيبة' صار من المفهوم أن أفضل تطبيق لها هو على الزوجة التي تقبل أن تحرق نفسها على ركام الحطب الجنائزي مع جثة زوجها.

وكان الإسهام الأهلي الحقيقي في تحطيم جمود نظام الطبقات المغلقة هو البوذية. وهذا صحيح في النوعين المختلفين من البوذية اللذين تطورا في هذه الفترة. فتقليد "الهينايانا" الأقدم منهما كان يشجع كل شخص على السعي لتنوير نفسه، ولو أنه يتوجب على الناس أن يتخلوا عن الدنيا كرهبان أو راهبات من أجل تحقيق هذه الاستنارة. وقبل ذلك كانت البوذية قد منحت النساء مكانة متساوية مع الرجال أو شبيهة بمكانتهم على الأقل في السعي لتحقيق حياة من التأمل. وكانت بوذية المهايانا اللاحقة فيما بعد أقل تقشفاً، باعتبارها أقرب إلى كونها دين الحياة اليومية. فسمحت لأتباعها بتنمية علاقة شخصية مع الشخصيات البوذية المقدّسة (بوديساتفا). كما كانت هناك جاذبية في أخلاقها الاجتماعية الأقوى القائمة على الرحمة العامة، والإيثار.

ولا يبدو أنه كان هناك شيء كبير من العنف أو عدم التسامح الديني بين العقائد المختلفة. وحيثما كان الناس يشعرون بالكراهية فالظاهر أنها كانت نتيجة

العناد والخرافات أكثر من كونها قائمة على الورع أو التقوى. ففي المسرحيات والقصص الخيالية السنسكريتية التي كُتِبت في ذلك الحين كان اللقاء صدفة بكاهن يعتبر علامة على سوء حظ قادم. وفي الفترة ذاتها كان البوذيون يبنون لأنفسهم سمعة رهيبة من الدقة العقلية الصارمة وكذلك السمو الفكري.

وكان الدير الأعظم في نالاندا، على بعد مسيرة يومين على الأقدام إلى الجنوب من باتاليبوترا، هو الصرح الأعلى للتعليم البوذي. وقد أسس آسوكا الجزء المركزي من الدير على موقع كان بوذا يفضل التردد عليه في القرن الثالث قبل الميلاد. وقامت جميع السلالات الكبرى التي ازدهرت أثناء فترة حياة هذا الدير بمنحه أوقافاً وإعادة بنائه كمقر للتعليم: وكان من هذه السلالات آل غوبتا في القرن الخامس، والملك هارشا في القرن السابع، وآل بالا في القرن التاسع. وبالإضافة إلى نصوص بوذية المهايانا، وطوائف الهينايانا الثماني عشرة، كانت مواضيع التدريس تشمل القواعد النحوية السنسكريتية، والمنطق وما وراء الطبيعة، والطب، والتكنولوجيا، بما فيها الميكانيك، والين yin واليانغ yang (أي مبدأ الأنوثة والذكورة في الفلسفة الصينية، فالأنوثة مظلمة وسلبية وخاملة، والذكورة مضيئة وفعّالة وإيجابية، وهما يتحدان ليؤثرا على كل شيء في العالم) وكذلك التقويم، وكتب الفيدا كما يظهر، و'الدراسات المتنوعة'، التي يفهم منها عموماً الأدب الدنيوي العلماني. وقد قام كسوان ـ زانغ، الذي سجل كطالب ثم أصبح بعد ذلك معلماً في القرن السابع، بوصف هذه المؤسسة بطريقة شديدة التذكير بجامعة نخبوية حديثة:

> إن الكهنة الذين يبلغ عددهم عدة آلاف لديهم أعلى القدرات والمواهب. فتميزهم عظيم جداً في الوقت الراهن. وهناك مئات منهم انتشرت شهرتهم بسرعة عبر مناطق نائية... وهم ينهمكون في المناقشات من الصباح إلى الليل؛ والعجائز والشباب يساعد كل منهم الآخر بشكل متبادل. والذين لا يستطيعون أن يناقشوا مسائل من "الترييبيتاكا" لا يحظون بالاحترام، ويرغمون على إخفاء أنفسهم خجلاً. أما الرجال المتعلمون من مدن مختلفة لهذا الغرض، والراغبون في اكتساب شهرة سريعة في المناقشة، فإنهم

يأتون هنا بأعداد كبيرة لإيجاد حلول لشكوكهم، ثم تفيض جداول حكمتهم في أماكن بعيدة وعريضة. ولهذا السبب فإن هناك بعض الأشخاص الذين يغتصبون أسماء طلبة نالاندا. وبترددهم جيئة وذهاباً يحظون بالتكريم لاحقاً. وإذا أراد أشخاص من أحياء أخرى أن يأتوا ويشاركوا في النقاش، فإن حارس البوابة يطرح عليهم أسئلة صعبة، فيعجز كثيرون عن الإجابة ويتراجعون. فعلى المرء أن يكون قد درس بتعمق كتباً قديمة وحديثة قبل أن يسمح له بالدخول. ولذا فإن هؤلاء الطلبة الذين جاؤوا إلى هنا كغرباء عليهم أن يظهروا مقدرتهم بمناقشة صعبة؛ وتصل نسبة الفاشلين إلى الناجحين إلى سبعة أو ثمانية من عشرة[48].

ورغم أن هناك إنتاجاً مستمراً لأعمال جديدة، أو لتعليقات على أعمال قديمة على الأقل، فإن مثل هذه التركيزات الواسعة النطاق على قوة النيران الفكرية (مثل حالة معاصريها في أوروبا والعالم الإسلامي) كانت نزعتها محافظة بشكل عميق: كانت تهدف إلى الحفاظ على الأمر الواقع الديني والسياسي، رغم أنهم قد يدافعون عنه بحجج جديدة[*].

وفي آخر الأمر لم تعد "المهافيهارا" (أي 'الأديرة الكبرى') تغذي البونية وتعززها في الهند. وكانت البوذية قد أخذت تخسر الأتباع في أيام كسوان ـ زانغ. فمن القرن العاشر امتصتها الهندوسية واستوعبتها، وكأنها طائفة أخرى. فقد تمت إعادة قولبة بوذا بصورة خيالية وكأنه مظهر أرضي لفيشنو، على قدم المساواة مع البطلين الهندوسيين راما وكريشنا. فأدى ذلك إلى إغلاق الفجوة في نظام الطبقات المغلقة، وإلى إبقاء الطبقات الدنيا والمنبوذين محكومين بالبقاء في وضع النقص والتخلف. فصار الكثيرون منهم مستمعين متلهفين عندما بدأ المسلمون غزواتهم، جالبين معهم أخباراً عن عالم جيد يتساوى فيه الجميع أمام الله.

(*) إن مكتبات نالاندا الخرافية الثلاث: "راتنودادهي" ('بحر الجواهر')، "وراتناساغارا" ('محيط الجواهر')، "وراتنا رانجاكا" ('المزدانة بالجواهر') قدّر لها أن تحترق بكاملها. ولعل من المهم أنه حسب الروايات البوذية التيبتية عن نهاية هذه المكتبات فإن الحرائق نجمت عن تعاويذ سحرية ألقاها عليها زوار شعروا بالإهانة من المعاملة الغليظة غير المهذبة التي استقبلهم بها الباحثون الدارسون في نالاندا.

ولم تبق الأديرة الكبرى سليمة عندما اجتاح الغزاة الهند الشمالية ونهبوا كنوزها عند نهاية القرن الثاني عشر. وقد احتفظت السنسكريتية بجوانب جاذبيتها، ولكنها مثل كثيرين ممن يملكون هذه الميزة لم تستطع الدفاع عن نفسها جسدياً ضد الذين لم يستطيعوا تقدير جوانب تلك الجاذبية.

إن السيدات البارعات المصقولات كهؤلاء، يجب عدم الإمساك بهن من شعرهن؛
لأن العرائش النامية في البساتين لا تستحق تقطيع أوراقها.

سودراكا: العربة الطينية الصغيرة، 8: 21

السنسكريتية لم تعد وحدها

بعد الفتوحات الإسلامية، صارت الهند مكاناً مختلفاً جداً.

من الصعب تصور ماهية النقائص المتعارضة المتصارعة بقسوة، في الحياة اليومية وفي القيم التي تحظى بإيمان عميق، التي يجب التوفيق بينها لخلق الهند المعروفة لدينا الآن.

فقد تصور الهنود أنفسهم أنهم في مركز عالمهم بشكل ثابت، وأن آلهتهم تديره، وأن نظامهم الاجتماعي معقد ولكنه ثابت لا يمكن تغييره، لأنه مقدر على أعلى المستويات. وحتى محلل نفسي متقشف مثل بوذا أطلق على أعلى الممرات اسم طريق آريا (أي الطريق النبيل). وكان الهنود يعلمون فكرياً أنهم ليسوا وحيدين في العالم. ولكن الدور الوحيد الذي رأوه للأجانب هو كونهم خارجيين وأفضل أمل لهم هو المشاركة في النعم المباركة التي تستطيع الهند تقديمها سواء في التجارة أم في التبني. وكانوا يلبسون ملابس خفيفة، كما هو مريح في مناخهم، ولكنهم كانوا يزخرفون أنفسهم بزينة مبهرجة بقدر ما تسمح به مداخيلهم وطبقاتهم. وكانت علاقاتهم بآلهتهم قضية ولاء شخصي كبير، إلّا في أوقات الأعياد. وقد بنوا نصبهم التذكارية بعناية محبة بالتفاصيل المعقدة، وتزيين واضح السخاء في زخارفه. وكانت أديانهم صريحة في تقلبها لكل جوانب الحياة

والطبيعة، مع كون التدمير على قدم المساواة مع الخلق، والناحية الجنسية معترف بها بشكل مفتوح باعتبارها مركزية لكل شيء.

وكان حكامهم حينئذٍ أجانب ولهم رؤية غريبة وحاسمة بدون مساومة. فقد كانوا ذوي إيمان ثابت بأنه لا يوجد إلا إله واحد له السيطرة على الكون كله. وأن عبدة الأصنام لا يصلحون إلا لاعتناق دينهم أو الموت. وكانوا يعتقدون أن الناس جميعاً سواسية روحياً أمام الله، وأن عليهم أن يعبدوه علانية وبشكل جماعي. وكان طراز لباسهم تغطية الجسم بكامله، وكانوا يؤمنون بأن التواضع يتطلب ذلك. وكانت مبانيهم متقشفة، وكانوا يعتقدون أن كل تصوير منحوت أو منقوش يعادل الكفر. وكانت فكرتهم عن أعمال الدنيا متقشفة ومجردة: فليس للجنس أي دور في الخلق، والإناث (والمتع المرتبطة بهن) يجب أن يبقين بعيدات عن الأنظار باحتشام وراء الستارة والحجاب.

وبطريقة مّا، في حوالي منتصف الألف الميلادي الثاني، تم التوصل إلى تسوية، أو طريقة تعايش مؤقتة على الأقل بين هذه الأشياء الكائنة على طرفي نقيض.

فمن الناحية اللغوية، كان أثر ذلك مرئياً في اللغة الوحيدة المحكية والأوسع انتشاراً في الهند الآن، وخاصة في مناطقها الشمالية. ولها اسمان هما الهندية والأوردو، لأن هناك شعوراً بأنهما لغتان مختلفتان. فالهندية تكتب بحروف ديفاناغار، التي تشبه 'نشر الغسيل على الحبل' والمشتقة من التقليد البرهمي، وهي تحب استعارة الكلمات من السنسكريتية. أما الأوردو فهي تكتب بالحروف الفارسية (التي هي عربية في الأصل)، وتستمد من اللغتين الفارسية والعربية. والأوردو هي اللغة الرسمية لدولة باكستان، بينما الهندية والأوردو معاً مكرمتان كلغتين رسميتين في الدستور الهندي.

ولكن أياً منهما لا تستطيع التمسك بمثلها الثقافي الأعلى في الحصول على مفرداتها، وعند التكلم بهما فإن الهندية والأوردو هما عملياً لغة واحدة(*).

(*) إن تسمية الأوردو هي اختصار لعبارة فارسية هي "لغة المعسكر المعلّى" حيث تكون الكلمتان الأولى والأخيرة من أصل عربي، والكلمة الوسطى تركية وحرفا الـ e الرابطان هما فارسيان صافيان في هذه العبارة *zaban e urdu e mualla*. أما الهندية، فهي اختصار لكلمة هندي أو هندفي التي معناها

وهذا الحفاظ على تميز بدون فرق هو تعبير بليغ عن الحضارة الهندية بعد الغزوات الإسلامية، مع اعتقاد كل جانب بأنه يحافظ على مقاييسه بينما هو في الحقيقة يتمشى مع مقياس مشترك أوسع يوحد الجانبين في مجتمع مشترك.

وقد حافظ الغزاة الأتراك بقوة وتصميم على مثلهم الإسلامية ـ وعلى الاستخدام المثقف للغة الفارسية إلى أن استولى الإنكليز على الهند من المغول بعد مضي جزء كبير من القرن التاسع عشر ـ ومع ذلك فإن هؤلاء الغزاة الأتراك وقعوا في آخر الأمر في النمط القديم لفاتحين أخذوا بلغة البلد المفتوح وصاروا يتكلمونها. فإذا كانت التسميتان "الهندية" و"الأوردو" قد أخذتا من الجانب الفارسي من تراث اللغة، فإن مادة اللغة نفسها اتضح أنها آرية صرفة، بحيث إن المفردات الأساسية، والنهايات الإعرابية للأفعال، والصفات، والأسماء يمكن تتبع أصلها إلى شيء يشبه السنسكريتية، ولو مع تبسيط جذري لها. ومن الناحية التاريخية، فإن من الواضح أنها استمرار للغة البراكريتية، المحكية حول دلهي، والتي كانت تعرف على التوالي باسم "سوراسيني" ('لغة سوراسينا'، المنطقة الواقعة إلى جنوب المدينة، و"آبابهرامسا" ('اللغة الساقطة')، و"كاري بولي" ('الكلام الدارج').

وبطريقة مختلفة وغير متوقعة، فإن سقوط السنسكريتية في عالم لم يعد يعتبرها المقياس الأوحد للتميز اللغوي قد جاء لإغناء فهم العالم كله للغة. فالسادة المسلمون الجدد، رغم معرفتهم المستقلة للعربية والفارسية والتركية، لم يميزوا أنفسهم بكونهم باحثين لغويين. ولكن عندما خلفهم الإنكليز في القرن الثامن عشر، فإن حضارة جديدة غريبة قد تعرفت على الثقافة الهندية، ومن خلالها على السنسكريتية. فقد اقتربوا منها عن طريق منظور جديد من معرفة لغات أوروبا الكلاسيكية، واليونانية، واللاتينية، واندهشوا فيما بعد من شبه السنسكريتية بهاتين اللغتين إلى حد لافت للنظر. بل إن السير وليام جونز، قاضي القضاة في الهند، تجرأ على إطلاق حدس عشوائي جامح في العام 1786

'الكلام الهندي' وهي كلمة استخدمها المسلمون في الأصل، إذ إن كلمة هند نفسها هي نسخة فارسية لاسم نهر سندهو المعروف عند الإغريق (والأوروبيين) باسم الإندوس.

بأن اللغات الثلاث كلها قد 'نبعت من مصدر مشترك، ربما لم يعد موجوداً'.

وكان هذا أصل علم اللغويات التاريخي المقارن. وكان تطبيقه على اللغات في جميع أنحاء العالم إحدى المغامرات الفكرية العظيمة في القرنين التاسع عشر والعشرين. وكانت النتيجة المباشرة لذلك أننا نعرف الكثير عن تدفق اللغات البشرية، وبالتالي عن التاريخ البشري، قبل زمن طويل من الوثائق المكتوبة. وعند إعطاء ثلاثة أمثلة فقط فإن هذه هي الطريقة التي نعرف بها أن الهنغاريين قد جاؤوا من سيبيريا الشمالية، وأن مدغشقر قد تم استعمارها من بورنيو، وأن الغجر الأوروبيين أصلهم من مكان بعيد هو الهند.

وبرغم كل امتياز تقليد السنسكريتية النابع من ذاتها، فإنها لم تكن تستطيع التحرك في هذا الاتجاه الجديد وحدها. فقد كانت تحتاج إلى مواجهة مع لغات أخرى بعيدة خارج نطاق المشهد الهندي، وإلى القدرة على النظر إلى هذه اللغات أيضاً على قدم المساواة مع السنسكريتية بطريقة مّا. وهذا شيء آخر كان التقليد سيجده غير قابل للتصور.

وكان تاريخ السنسكريتية اللاحق بعد ذلك هو تاريخ البقاء، وليس تاريخ انتصار جديد. فهي في الهند لا تزال لغة النخبة التقليدية، ولكن هناك الآن إنكاراً لدورها القديم ودورها في العصور الوسطى باعتبارها الأداة الرئيسية للخطاب الفكري في الهند. فهذا الخطاب يجري الآن باللغات العامية الدارجة، أو بالإنكليزية بشكل أكبر. فثقافة اللغة السنسكريتية كانت تقوم دائماً على الرأي الملطف بأهميتها نفسها، وهو الرأي الذي يعتبر الهند الجزء الهام الوحيد من العالم. فلم تتكيف مع عالم ينبذ هذا الرأي ولا يعترف به حتى في الهند نفسها. فهذا العالم الذي أثر فيه الهنود، وكل آسيا الشرقية والجنوبية، كان ذات مرة ينظر إلى الهند حسب تقييمها لنفسها، ولكن هذا الرأي لم يعد قائماً.

ولعله كان من الممكن رغم ذلك تحقيق ثورة في وجهة النظر التي تحتاج إلى دمج المعرفة والثقافة الغربية. فحتى أوائل القرن التاسع عشر كانت شركة الهند الشرقية، مثل المغول من قبلها، تقدم رعاية أبوية للثقافة الهندية كما

وجدتها، بالعربية/الفارسية والسنسكريتية معاً. وعندما تشكلت لجنة للتعليم العام في العام 1823 لصرف مبلغ قدره مئة ألف روبية على 'إحياء الأدب وتحسينه وتشجيع الأهالي الهنود وإدخال وتعزيز المعرفة بالعلوم بين سكان المناطق البريطانية في الهند' حصل انقسام لمدة عشر سنوات حول ما إذا كان ينبغي على هذا المشروع أن يتوجه إلى التعليم التقليدي أم إلى الدراسات الحديثة باللغة الإنكليزية. وفي آخر الأمر كان القرار لصالح الإنكليزية. فكان ذلك نقطة انفصال ثقافية حاسمة. ولم تجر بعد ذلك أي محاولة جادة لسد الفجوة بين تقاليد الهند وبين العلوم الآخذة في التطور بسرعة، والعقائد والتقنيات التي أوجدت العالم الحديث في العصر الفكتوري [1837 ـ 1901]. وتحولت السنسكريتية أكثر فأكثر إلى رمز لأديان معينة، وثقافات معينة، وفلسفات معينة ـ مثيرة لاهتمام المختصين بالدراسات الإنسانية، ولكنها بطريقة ما لم تعد تقدم تحدياً لعالم العلماء(*).

وتستمر السنسكريتية في التمتع بمكانة محسودة كلغة وضعت قواعدها وقوانينها قبل 2500 عام، ولم تتعرض لأي تغيير هام سوى قبولها لكلمات جديدة منذ ذلك الحين. وفي العام 1947، تم تبنيها كواحدة من لغات الهند الرسمية. وادعى مئتا ألف شخص أنهم لا يزالون يتكلمونها في الإحصاء السكاني الهندي للعام 1971 ـ ولو من بين سكان وصل تعدادهم آنذاك إلى 400 مليون نسمة.

وفي مفارقة أخيرة، كسبت السنسكريتية قيمة رمزية جديدة في العقد الأخير من القرن العشرين، عندما تبناها 'حزب الشعب الهندي'، الذي كثيراً ما كان في الحكومة، باعتبارها طوطماً للهوية الهندوسية. وهكذا فعلى سبيل المثال، تم الإعلان عن العام 1999 باعتباره عام السنسكريتية في الهند. وعقد 'مؤتمر السنسكريتية العالمي' في نيودلهي بتمويل من الحكومة. وهناك شيء شديد الغرابة في ذلك بالتأكيد. إذ إن السنسكريتية، خارج استخدامها في الصلوات

(*) للإطلاع على وجهة النظر من الجانب الإنكليزي، انظر الفصل الثاني عشر 'منظور متغير - الإنكليزية في الهند'، ص 681.

والتراتيل المتكررة في المعبد كما رأينا، كانت دراستها على الدوام اختصاصاً نخبوياً. كما أن التسلسل الصارم للهندوسية الذي يحرم الطبقات الدنيا من أي مكانة، قد شجعهم على هجر تلك اللغة لصالح الإسلام دين المساواة الكلية. أما الآن، فإن هذه الشارة للمفكرين البراهمانيين يجري استعراضها كشعار وراية لحركة شعبية جماعية كثيفة تهدم المساجد كي تؤكد السلطة الهندوسية بطريقة بسيطة وغبية ولا تعبأ بمشاعر الآخرين.

ولم تنته سيرة حياة السنسكريتية، رغم أن النظرة الهندية الحصرية إلى العالم، التي تكمن تحت طابعها المتميز طيلة الثلاثة آلاف وخمسمئة عام الماضية، ربما تكون قد انتهت. ومع ذلك فإن السنسكريتية تتعايش في الهند مع أسرة كبيرة من بناتها من اللغات، وتستمر بحد ذاتها كلغة مقدسة لديانتين عالميتين، هما الهندوسية والبوذية.

إنها لغة تناقص ظاهري. فربما تكون قد انقرضت من الناحية التقنية، ما دام لا يوجد سوى عدد ضئيل من الأطفال الذين يلتقطونها باعتبارها لغتهم الأولى. ومع ذلك يستمر نقلها إلى الجيل التالي بواسطة نظام مصطنع من التعلم الاستظهاري بالحفظ عن ظهر قلب، وبالتصريف الإعرابي في قواعد النحو الذي أثبت أن له قوة كقوة الطريقة الطبيعية - وأنه أقل قابلية بكثير لإدخال التغيير.

لقد كانت السنسكريتية دائماً نوعية عادية مبتذلة من اللغات. ولكنها في المناخ المداري الذي ازدهرت فيه، كان المهتمون بها دائماً يختارون تشجيع جانبها الخصب المنمق المترف.

> حقاً تلمع شفتها السفلى كورقةٍ طرية، وذراعاها يشبهان أغصاناً مرنة والشباب، ساحر كبرعم، يشرق في كل أساريرها وقسماتها.
>
> كاليداسا: التعرف على شاكونتالا، 1: 21

6

ثلاثة آلاف عام من الأنانة:
مغامرات اللغة الإغريقية

الإسبارطيون للأثينيين (يحثون على تحالف لمقاومة الفرس، 480 ق.م):

ليس لدى البرابرة شيء جدير بالثقة أو صادق.

الأثينيون للإسبارطيين (كجواب):

لا يوجد في أي مكان ذهب كثير أو بلد متفوق في الجمال والقيمة بحيث نرغب في الحصول عليه كجائزة لقاء الانضمام إلى الميديين وبالتالي استعباد اليونان. والواقع أن هناك أشياء هامة كثيرة تمنعنا من ذلك حتى لو أردناه ... ثم هناك أيضاً كوننا يونانيين، من الدم نفسه واللغة نفسها، مع اشتراكنا في المزارات المقدسة، وطقوس الآلهة، والعادات نفسها، التي لن يكون من الصحيح أن يخونها الأثينيون.

هيرودوتس 8: 142 ـ 144

والآن ماذا سيحل بنا بدون البرابرة؟ لقد كان هؤلاء الناس نوعاً من الحل.

قسطنطين كافافيس، بانتظار البرابرة، 1949، المجلد الثاني ص35ـ36

بعد مهابة السيطرة على الذات في اللغتين المصرية والصينية والإسهاب الحسي في السنسكريتية، والتجريد الابتكاري المطلق في لغات الشرق

الأدنى، فإن اللغة الإغريقية تترك انطباعاً مألوفاً أكثر، إن لم نقل عصرياً أكثر. فهذه لغة الناس الذين جلبوا النبيذ، وزيت الزيتون، ومعرفة القراءة والكتابة إلى عالم البحر الأبيض المتوسط، والذين اخترعوا المنطق، والمسرحيات المأساوية التراجيدية، والحكومة المنتخبة، والذين اشتهروا بالألعاب التنافسية والفنون الرمزية المجازية للواقعية المدهشة. وقد أصبحت أوروبا كلها من تلاميذ اللغة الإغريقية بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فمعاجم اللغات الأوروبية كلها مليئة بالكلمات المستعارة من الإغريقية للتعبير عن مفاهيم إغريقية أو صناعات إغريقية. كما أن قواعد تلك اللغات، عندما تمت كتابتها، نظمت حسب مبادئ إغريقية.

ومع ذلك، فإن تاريخ اللغة الإغريقية نفسها معقد ومضلل أكثر مما يوحي به تأثيرها الصافي. إذ إنه فَقَد قوته في الشرق الأدنى كما في حوض البحر الأبيض المتوسط، في مناطق تم تطهيرها تقريباً من أي آثار من آثار اللغة الإغريقية. ومثل الإنكليزية، انتشرت الإغريقية بوسائل متنوعة - مثل تجارة المضاربة، والاستعمار السافر، والإغراء الثقافي، وكانت الوسائل مختلفة جداً عما حققته من حيث الديمومة على المدى الطويل.

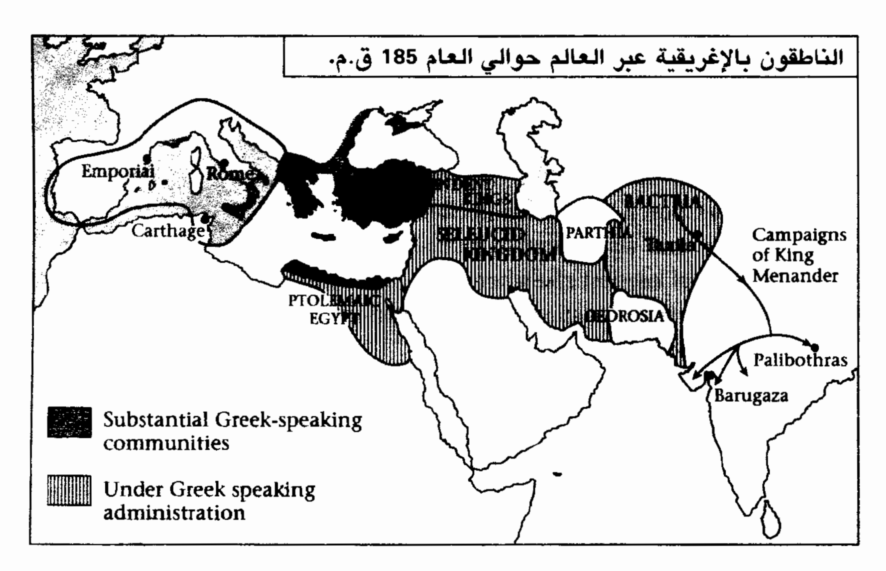
وقبل كل شيء، تقف الإغريقية كمثال على لغة كلاسيكية اتخذت مجراها الطبيعي، معززة بغطرسة من احترام الذات التي ظل جيرانها أكثر من ألف عام سعداء بتأييدها، يقدمون لها دعمهم العسكري أثناء تقبلهم لفوائد ثقافتها وتقانتها الأكثر تقدماً. وكان هؤلاء الجيران الأقوياء، ولكن المعجبون بها، يشملون الإمبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية. ولم ينكسف تأثير الإغريقية إلا عندما لم يعد لديها حلفاء جدد، فأرغمت على أن تواجه وحدها عدواً غير متعاطف يستمد دعمه الثقافي من مكان آخر. وهذا مثل فيه تثقيف وتنوير على ما يمكن أن يحدث للغة متميزة النفوذ عندما يتوقف مجتمعها عن الإبداع والابتكار، فيلحق به باقي العالم.

الإغريقية في أوجها

إن النقطة العليا في توسع الإغريقية جاءت لمدة قرن أو نحو ذلك قرب نهاية الألف الأول قبل الميلاد. ففي ذلك الوقت كان يمكن سماع هذه اللغة على شفاه التجار، والدبلوماسيين، والجنود من إمبورياي (آمبورياس الحديثة)، وهي مركز تجاري في الزاوية الشمالية الشرقية من إسبانيا الحديثة، إلى باليبوثراس ("باليبوترا"، باتنا الحديثة) في الهند، وهذه مسافة طولها 8,000 كيلومتر، أي ما يقرب من ربع محيط الكرة الأرضية. وضمن هذا المدى، وعلى طول أكثر من 80 بالمئة من امتداده، كان هناك شريط متواصل من الأرض تحت إدارة ناطقة بالإغريقية، وكله إلى الشرق من الوطن اليوناني، في جنوب البلقان ويمتد إلى ما هو اليوم باكستان. وهذا الامتداد الكلي لليونان العظمى، للعالم الهيلينستي على مدى حوالي سبعمئة عام، بدون الاستفادة من أي تكنولوجيا سوى السفينة، والحذاء، والعجلة، والطريق، والحصان، والكتابة.

وكانت لغة الأمر الواقع العالمية هذه متداولة في حوالي بضع إمبراطوريات وممالك متميزة في ذلك الوقت. فالإغريقية الفصحى، لهجة مدينة آثينا الخاصة والمعروفة بأنها 'اللغة الشائعة لعامة الناس' أصبحت شائعة في جميع أنحاء شرق الأبيض المتوسط. وفي اليونان أيضاً راحت تحل تدريجياً محل جميع اللهجات العشرين التي كانت قد ازدهرت حتى القرن الرابع ق.م. ولعل عملية هدم تلك اللهجات بدأت عن طريق النفوذ التجاري لآثينا نفسها، بحيث إن ميناءها بيرايوس أعطي صبغة لغوية من لهجة آتيكا لمحور التجارة اليونانية الداخلية. كما أن بريكليس، الذي ترأس أيام آثينا المجيدة في منتصف القرن الخامس ق.م. كان قد تفاخر لقومه الآثينيين بازدهار أتاح لهم الاستفادة من إنتاج الكرة الأرضية كلها. وعندما شعر مزيد من الناس الخارجيين بالحاجة إلى تعلم اللغة اليونانية، وبدأ اليونانيون أنفسهم يملكون تطلعاً أوسع من مدينتهم نفسها، بدأت اللهجة الإغريقية الآتيكية تنتشر.

ورغم الوسائل المختلفة التي حققت انتشارها، فإنها كانت تستدعي مواقف مماثلة لتلك التي تستحضرها الإنكليزية اليوم. وقد زعم كتيب سياسي من القرن



الخامس أنه بينما كان اليونانيون على وجه العموم يستخدم كل منهم لهجته الخاصة، فإن أهل آثينا كانوا يتكلمون خليطاً من اللهجات كلها، وجميع اللغات البربرية أيضا[1]. وفي مسرحية هزلية كتبت في القرن الثاني ق.م. من تأليف المقدوني بوسيديبوس، يوجه شخص من ثيساليا (من شمال اليونان) اللوم للآثينيين على اعتبارهم اللغة الإغريقية كلها آتيكية. وكانت للآثينيين مشاكل تمنعهم من أخذ باقي اليونان على محمل الجد تشبه تماما المشاكل التي تمنع اليونانيين عموماً من أخذ باقي العالم على محمل الجد. فإذا فشلوا في النطق باليونانية الصحيحة، فإنهم، رغم كل شيء، ليسوا أفضل حالاً من البرابرة(*).

من هو الإغريقي؟

ما هو أحدٌ مّا؟ ما هو لا أحد؟ حلم ظِلٍّ هو الإنسان

بندار: قصائد بيثيا الغنائية، 8: 95 ـ 96

حتى استقلال اليونان في العام 1821 م، لم يكن اليونانيون يتحدون سياسياً

(*) وبالصدفة، فإن هذا التفوق للهجة آتيكا كان نتيجة سيطرة ثقافية وتجارية، لا عسكرية. فقد كانت آثينا منذ زمن مبكر مركزاً تجارياً كبيراً. ولكن حتى القرن الخامس الميلادي كان الأدب الإغريقي هو الإنتاج المشترك لكثير من اللهجات المختلفة.

على الإطلاق إلا في أعقاب غزو مشترك يتعرضون له معاً على يد بعض الأجانب الخارجيين. وقد حدث ذلك لأول مرة في القرن الرابع ق.م. عندما كان الخارجي هو فيليب، ملك مقدونيا على حدودهم الشمالية. ومع ذلك فعلى مدى ألف عام قبل ذلك التاريخ كانت الحضارات الأخرى التي تواجه الإغريق تعتبرهم على ما يبدو أفراداً في مجموعة عرقية واحدة.

وبطريقة ما، فقد كان هذا شيئاً غريباً، ما دام الخارجيون كانوا يعرفونهم ببساطة بالاسم القبلي للمجموعة التي يتصادف أن يقابلوها. وكان الاسم المشترك الذي يطلقه الإغريق على أنفسهم: "الهيلينيون" غير منتشر خارج اليونان أبداً(*). فكان الفرس يعرفونهم باسم "يونا"، لأن مواجهتهم كانت مع الإغريق الآيونيين، الذي يسمون *láwones* في أشعار هوميروس، أقدم إغريقي في هذا التقليد(**). وعلى الطرف المقابل من العالم الإغريقي، فإن الرومان قد عرفوا الإغريق باسم *Graii*. فقد كانوا يلتقون بمستعمرين إغريق من إيبويا بويوتيا، وهم يقيمون مدينة كايم الجديدة في إيطاليا (التي عرفها الرومان فيما بعد باسم كوماي). والحقيقة أن *Graii* كانت كما يبدو إحياء لذكرى مدينة صغيرة في بويوتيا الجنوبية تدعى "غرايا"(***). وتأتي كلمة "إغريق" من خلال غريكوس اللاتينية *Graecus* التي هي صفة مباشرة صيغت من هذا الاسم (من كلمة *Grai-icus*) ثم حلت محل الأصلية *Graii*(****).

فما هو الإغريقي إذن بموجب أي تسمية من هذه التسميات؟ فرغم أن

(*) كان هذا هو اسم بعض قوم آخيل في إلياذة هوميروس (2: 684)، وبما أنه كان أعظم بطل في أعظم الأعمال الشعرية اليونانية هذه، فربما كان هذا كافياً لإطلاق الاسم على العرق بكامله عن طريق الترابط.

(**) إن حرف w الذي يكتب على شكل *F* في بعض الأبجديات الإغريقية قد سقط من اللفظ (وبالتالي من التهجئة) في معظم اللهجات. ومن هنا فإن الحرف w في هذه الكلمة الهوميروسية هو تخميني بالمعنى الدقيق. وإن *Iōnes* هي الكلمة نفسها، مع تقليص شائع لحرف العلة الطويل a+o ليصبح ô. وفيما بعد صار الهنود يسمون الإغريق *yavana* أيضاً. رغم أن أول مواجهة كبرى لهم كانت مع قوة حربية مقاتلة يقودها المقدونيون

(***) قرب أوربوس، الكائنة على الساحل المواجه لإريتريا، حسبما يقول المؤرخ الجغرافي اليوناني سترابو (9 - 2: 10)

(****) هناك تسميتان عرقيتان أخريان للإغريق، يبدو أنهما أقدم من هذه التسميات بكثير وهما *Danaoi* و*Akhaioi*. وهما الكلمتان اللتان يستخدمهما شاعر العرق اليوناني هوميروس، الذي كان يكتب في

اللغة هي المعيار الأساسي، فقد كان هناك شعور عام بان الإغريق لديهم أشياء مشتركة أكثر من اللغة بكثير. ففي قطعة مشهورة لهيرودوتس فإنه يجعل الآثينيين يوضحون لماذا يخونوا اليونان أبداً[2]. فهم يعلنون عن إغريقيتهم ("تو هيلينيكون") التي يحددونها بامتلاكهم الدم نفسه، واللغة نفسها، والمزارات المقدسة والآلهة المشتركة، والطقوس المشتركة، والعادات المتشابهة. وبالطبع فإن الدم المشترك لم يكن شيئاً يمكن إثباته أو التأكد منه موضوعياً، ولو أن هناك شعوراً بملامح السحنة، ولون البشرة بلا شك. أما اللغة المشتركة فكانت واضحة من خلال إمكانية الفهم المتبادل لكل اللهجات الإغريقية. وأما بالنسبة للعبادة المشتركة للآلهة المشتركين، فإن الهيكل المكرس لكل الآلهة على الجبال الأولمبية قد اثبت صحته السرد القصصي في ملاحم هوميروس، وذكره في ترانيم دينية أخرى، حتى عندما قد تكون الممارسة الفعلية للعبادات في أماكن مختلفة فريدة من نوعها تماماً. وكانت هناك مؤسستان كبريان أخريان تربطان الإغريق معاً، وهما احترام العرّافين المشتركين الذين يمكن البحث عندهم عن نبوءات متعمقة، ولا سيما عراف آبولو في دلفي، وحضور الألعاب الأولمبية كل

وقت ما من أوائل الألف الأول ق.م. فتسمية *Danaoi* لها ارتباطات مع مدينة آرغوس، التي كانت مدينة كبرى في زمن وصف هوميروس لليونان. وكان داناوس ملكاً أسطورياً عليها. أما *Akhaioi* فعند استخدامها بدقة فإنها إما أن تشير إلى أهل منطقة إلى الشمال من البيلوبونيز، بدون أي ادعاء معين لمكانة تمثيلية خاصة، أو أنها تشير إلى أهالي فثيوتيس، الوارد ذكرها عند هوميروس أيضاً باعتبارها جزءاً آخر من مملكة آخيل (الإلياذة 2: 684). ويظهر من صيغتها اللاتينية *Achivi* أنه كان فيها حرف W في آخر جذع الكلمة (ومن هنا فإن الكلمة هي في الحقيقة *Akhaiwoi*). ولكن في هذه الصيغة، مع قلب الـ A والـ ا كما في *Ahhiyawa* يبدو أنها تظهر فعلاً كمصطلح لمملكة كبرى في وثائق أخرى هي المراسلات الملكية (بخط مسماري على ألواح طينية مخبوزة) من الحثيين الذين كانوا يسيطرون على بلاد الأناضول في الألف الثاني قبل الميلاد. وهكذا يبدو أنه في وقت مبكر، كان الإغريق معروفين في الخارج باسم آخر كذلك. وربما استخدم المصريون هذين المصطلحين كليهما. فهناك نص مكتوب. في حوالي العام 1370 ق.م. (على قاعدة تمثال في معبد جنائزي للملك آمنوفس الثالث) يذكر الـ TNY مع تشكيلة متنوعة من الأسماء الأخرى التي يمكن تحديد مواقعها في جزيرة كريت. فالأبجدية الهيروغليفية في العادة تحذف حروف العلة. وحرف الـ ا أو الـy بين حروف العلة كثيراً ما تفقد في اللغة الإغريقية. وهكذا فإن هذه قد تكون إشارة إلى الـ *Danaioi*. وفي نص آخر من حوالي العام 1186 ق.م. فإن الـDNYN مذكورون باعتبارهم أحد شعوب البحار التي تهاجم مصر. ولكن في نص مكتوب آخر من حوالي العام 1218ق.م. يأتي ذكر الـ IKWS الذين يمكن أن يكونوا بالضبط هم الـ *Akhaiwoi* أو *Ahhiyawa* باعتبارهم حلفاء في المقاومة ضد شعوب البحار (سترينج 1980، وكذلك موهلي وشركاه، 1982).

أربع سنوات (حيث تعود سجلات الفائزين فيها إلى العام 776 ق.م.)(*)

والواقع أن الإغريق كانوا يشعرون أن هناك أساساً عقلانياً يفصلهم عن البرابرة، أي بقية البشر، الذين يمكن اعتبار كلامهم المختلف مجرد 'بربرة' ضوضائية لا تستحق التمييز بينها وبين أصوات ضجة الحيوانات(**). فكان الإغريق يشعرون أن أي شيء أجنبي هو بطريقة ما شيء سخيف.

وهكذا فإن المؤرخ هيرودوتس يصف لغة "سكان الكهوف" في أثيوبيا بأن صوتها يشبه زعيق الخفافيش[3]. وفي وسط مسرحية تراجيديا مأساوية جادة[4]، تتكهن كليتامنسترا (ملكة إسبارطة)، وهي صورة من الغطرسة المتعالية، بأن كاساندرا أميرة طروادة ربما تتكلم لغة غير معروفة تشبه أصوات السنونو. وحتى سترابو نفسه، الجغرافي العالمي لحوض الأبيض المتوسط في أيام يوليوس قيصر، يكتب في وسط معجمه الجغرافي عن شعوب إسبانيا (3 ـ 7:3): 'إنني أكره أن أستمر في الحديث عن الأسماء، لأنني أعي بشاعتها عند كتابتها، إلا إذا كان هناك شخص ما يستمتع بسماع أسماء مثل بليوتوريو، أو بارديتاي أو آلوتريغيز أو غيرها من الأسماء الأكثر حتى من هذه عفونةً وعدم معنى'.

إن هناك نصوصاً تقليدية كلاسيكية ذكر فيها اليونانيون مثلهم العليا. ومن أبرزها رواية ثوسيديديس لخطاب بريكليس لقتلى الحروب الذي ألقاه في العام 431 ق.م[5]. كان بريكليس قائد آثينا الذي بنى البارثينون (معبد الإلهة آثينا) وقاد المدينة في حربها العظمى ضد إسبارطة. وكان خطابه هذا محاولة لتلخيص إسهام آثينا في الحضارة، وليس الادعاء بأن المدينة كانت تشبه المدن الأخرى، ولكن بتقديم النموذج القدوة لها. وفيه يتحدث عن نهج للتعامل مع السياسة

(*) لم تكن هذه الألعاب الهيلينية الجامعة الشاملة الوحيدة. بل كانت هناك مباريات بيثيا في دلفي (على اسم كاهنة معبد أبولو) والمباريات البرزخية، التي كانت تنظم في كورينث.

(**) إن الحالة الوحيدة المعروفة التي لم يعبر فيها الإغريق عن وجهة نظر عنصرية مركزية في لغتهم كانت في مصر. فهناك خربشات سوداء يعود تاريخها إلى العام 591 ق.م. كتبها مرتزق يوناني على ساق تمثال في أبي سنبل، يشير إلى اليونانيين في فريقه على أنهم "يتكلمون لغة أخرى"، أي غير اللغة المصرية. كما أن هيرودوتس يستعمل هذا المصطلح أيضاً لوصف الإغريق في مصر (2: 154). قارن ذلك مع الموقف النموذجي لسترابو (4 - 1:2) الذي يعتبر الرومان في إيطاليا لا يزالون برابرة، على عكس اليونانيين هناك.

مفتوح للجميع، مهما كانوا فقراء، وعن التسامح في الحياة الخاصة، وعن التمتع بوسائل الترفيه العامة. ويتفاخر بأمجاد منجزات المدينة العسكرية، ولكنه يتفاخر بالدرجة نفسها بأن أهل آثينا (على عكس عدوتهم الرئيسية إسبارطة) لا يجعلون الجاهزية العسكرية صنماً معبوداً. فكل شيء يكمن في الحفاظ على التوازن الصحيح، وبعبارة يونانية جداً يقول بريكليس:

> نحن محبون للجمال مع شعور بالاقتصاد، ومحبون للحكمة بدون تساهل.

وقال، إن مدينة آثينا على وجه العموم هي تثقيف لليونان[6]. فالفن، وقيمة المال، والحكمة، والشجاعة المادية، هي الأشياء التي تحب آثينا أن تعتقد أنها تمثلها. (وأما بالنسبة لحب الحكمة، فإن اللغة اليونانية لا تميز بسهولة بين الفلسفة وبين تقدير البراعة).

ومن الواضح أن هذه العبارات كانت تعكس بياناً متفائلاً عن المثل الآثينية العليا. فلم تكن الأعمال الجميلة والحكيمة بارزة للعيان في إدارة الحرب التي أعقبت ذلك الخطاب، والتي استمرت فيها آثينا حتى خسرتها. ورغم ذلك فقد كان بريكليس على صواب في رؤيته لآثينا كثقافة لليونان؛ فرغم أنها خسرت أهميتها السياسية بالتدريج في غضون القرن الذي تلا خطابه، فإنها لم تخسر مكانتها أبداً كمركز للثقافة الإغريقية. فقد بقيت المدينة التي يأتي إليها الطلبة الجادّون ليدرسوا فيها طيلة الألف سنة التالية، ودائماً باللغة اليونانية، حتى ولو جاؤوا من أي مكان في الإمبراطورية الرومانية أو ما وراءها.

والواقع أن قيادة آثينا الفكرية استمرت حتى جاءت المسيحية لتسخط على استمرار ثقة آثينا بنفسها وعلى ولائها لانفتاحها العقلي الذي سبق المسيحية. وقد أغلق الإمبراطور الروماني جستنيان مدرسة آثينا في العام 529 م. ولكن تفوق لغتها في جميع أنحاء شرقي البحر الأبيض المتوسط بقي بعد ذلك حوالي ألف عام(*).

(*) [ملاحظة: لو كان هذا صحيحاً لما احتاجت أوروبا كلها ـ ومنها اليونان ـ إلى تسمية هذه "الألف عام": عصور الظلام ـ المترجم].

ما نوع اللغة؟

نوعية الإنسان تتميز من كلماته

مناندر[7]

الشخصية بالنسبة للإنسان هي القدر

هراقليطس[8]

إن اللغة التي وحّدت العالم (الغربي) المعروف، وخاصة أبناءه المتعلمين طيلة كل هذه القرون كانت كائناً عضوياً معقداً لا يقدم أي تنازلات تذكر للمتعلمين الأجانب. فكلماتها متعددة المقاطع، مع عناقيد معقدة من الحروف الصامتة (مثل: "*pʰtʰárthai*" أي: 'يجب تدميره'، و"*tlẽmonéstatos*" أي 'تعيس جداً'، و"*spʰrãgídion*" أي: 'الخاتم المنقوش' و"*stengís*" أي: 'المكشطة التي تستخدم مع الزيت وقت الاستحمام' و"*gliskʰrós*" أي: 'لاصق').

وكان الناطقون بهذه اللغة محتاجين إلى تمييز حروف العلة الطويلة من القصيرة، والحروف الصامتة البسيطة من الحروف الحلقية التي تخرج مع النَفَس، وأن يكونوا قادرين على إدارة أنظمة معقدة من السوابق واللواحق التي تزاد على الكلمة، بحيث إن 'الاسم' العادي تصبح له تسع صيغ مختلفة، والصفة تصبح لها تسع عشرة صيغة، والفعل تصبح له أكثر من مئتي صيغة. وكانت هناك بالطبع قياسات ثابتة باطراد في النظام، ولكنها كانت تخوض معركة خاسرة. فقد كانت هناك عشرة أنماط كبرى للأسماء، وعشرة أنماط أخرى للصفات، بالإضافة إلى عشرة أنماط مختلفة للأفعال، كان هناك أكثر من ثلاثمئة وخمسين فعلاً شاذاً عن القواعد القياسية في مكانٍ مّا. وهذه التصاريف الإعرابية المعقدة، عند أخذها مع الميل لتأليف المصطلحات وتركيبها (كما رأينا في ملاحظات بريكليس المقتبسة أعلاه) كانت تعني أن الكلمات يمكن أن تصبح طويلة جداً، وهذه خاصية كانت أحياناً تسلي اليونانيين أنفسهم: وكانت أطول كلمة مسجلة مؤلفة من ثلاثة أسطر طويلة مليئة بالحروف المتلاصقة يزيد عددها على

مئة وستين حرفاً، وهي اصطلاح عن 'فن حسن الأكل'، وقد وردت في ملهاة مسرحية في القرن الخامس ق.م[9]:

lopadotemakhoselakhogaleokranioleipsanodrimhypotrimmatosilphiok arabomelitokatakekhumenokikhlepikossuphophattoperisteralektruono ptokephalliokinklopeleiolagōiosiraiobaphētraganopterúgōn.

ولكن هناك كلمات طول الواحدة منها عشرة أحرف أو تزيد ترد في كل جملة من كل نص تقريباً. وأسماء الأعلام، التي من الواضح في حالات كثيرة أنه يمكن إعرابها باعتبارها كلمات مركبة، هي نفسها من الوزن الثقيل على وجه الخصوص.

وإلى جانب تعقيد الكلمات المفردة تأتي مرونة الأسلوب الإغريقي: فضمن عبارة واحدة كان ترتيب الكلمات حراً بشكل كلي تقريباً، وهكذا كانت نهايات الأسماء، والصفات، والأفعال، التي تشير إلى الجنس، والحالة الإعرابية، والعدد، والشخص، هي التي تحدد العلاقات بين معاني الكلمات إلى حد كبير. فكان الشيء الذي يقال عملياً هو: مَنْ فَعَلَ ماذا بمن. وهنا بدأ الفن يحل محل الطبيعة. فكان إتقان أسلوب النثر الإغريقي على أيدي السفسطائيين (أي الأشخاص الحكماء ـ كما كان البارعون يسمون أنفسهم) يعني أن الجملة، وخاصة في الكلام البليغ الصقل تميل إلى أن تطول وتتشعب أكثر، بعبارات متوازنة فنياً فيما يسمى 'الأسلوب المقيّد' الذي كان المستمعون الإغريق يعجبون به على نطاق واسع.

إن لغة تلك القرون قبل الميلاد يختلف صوتها كثيراً عن الإغريقية المحكية اليوم. والسبب الرئيسي في ذلك أنها كانت نغمية، فكانت كل كلمة تعطى لحناً متميزاً من الأنغام العالية والمنخفضة، بطريقة هي أقرب ما تكون شبهاً اليوم بالنبرة في اللغة اليابانية. وقد تحطم هذا النظام تدريجياً في القرون الميلادية القليلة الأولى، ولكنه تحوّل بدلاً من أن يختفي: ففي هذه الأيام يشدد اليونانيون على لفظ المقطع نفسه الذي كانت تعطى له نغمة عالية.

وعلى وجه العموم، يبدو أن تعقيدات تركيب الصوت، وليس قواعد النحو، هي التي كانت أشد وطأة في ضغطها على المتعلمين. فمعظم الأخطاء التي نجدها في المراسلات من حوالي بداية الألف الميلادي الأول (عادة على صفائح من البردي محفوظة في مصر) هي في الإملاء. فقبل كل شيء، كان المتعلمون يجدون صعوبة في التفريق بين حروف العلة العالية وحروف العلة المدغمة من حرفين لتشكيل صوت واحد *(i, ei, e, oi, u)*. ومن المؤكد أن كل هذه الأصوات المتميزة قد اندمجت لتصبح هي الـ i في اللغة الحديثة. وقد صمدت أنظمة الأسماء والأفعال بشكل لافت للنظر. فقد تم تبسيطها إلى حد مّا، ولكن حتى يومنا هذا لا يزال للاسم النموذجي باللغة الإغريقية خمس أو ست صيغ، أما الفعل فله عشرون صيغة(*).

إن أحد ملامح المجتمع اللغوي حتى القرن الثاني قبل الميلاد كان عدم وحدته. ففي الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد، تطورت اللغة اليونانية في مجتمعات صغيرة في جميع أنحاء جنوب البلقان، وجزر بحر إيجة وخطه الساحلي. وكانت كثير من هذه المجتمعات معزولة بالبحر والجبل، ولا بد أن حجمها ظل صغيراً حتى بدأت بتطوير اقتصاديات متخصصة. فكان الاتجاه هو نحو تطور اللهجات الفردية وتحركها في اتجاهاتها الخاصة بها، وهذا نمط ازداد تعقيداً عندما أدت هجرات واسعة النطاق إلى خروج الإغريق الدُوريين *Doric* من الشمال إلى وسط البيلوبونيز (شبه الجزيرة التي تشكل البرّ اليوناني الرئيسي). وبقي اليونانيون قادرين على التواصل فيما بينهم طيلة تلك المدة. ولكنهم ظلوا مستقلين إلى أن وقعت أحداث القرن الخامس ق.م. في مجتمعاتهم الفردية، فازدهر بينهم التفاخر بالأصل المحلي، ومعه الوعي الذاتي باستخدام اللهجات المحلية. وقبل أن يكون هناك تهديد خارجي مشترك، أو أي قوة ذات تفوق عسكري يكفي لإغراق استقلالهم، ظلت الروابط بين اليونانيين على مستوى شعورهم بأجداد مشتركين وديانة مشتركة. وكانت حفلات أعيادهم المشتركة

(*) قارن هذه الأرقام مع أرقام الإنكليزية الحديثة: صيغتان لمعظم الأسماء هي المفرد والجمع (كلمة، كلمات) وأربع صيغ لمعظم الأفعال (نتكلم، يتكلم، تكلّم، يتكلمون).

وأدبهم المشترك تنكرهم بتراثهم المشترك، ولكن زمام المبادرة ظل في أيدي فرادى المدن، ولكل مدينة أرضها الداخلية من المزارع، والمراعي، ومصائد الأسماك الخاصة بها.

وبصورة نموذجية، فعندما كان إغريق العالم القديم يبحثون عن معرفة تاريخهم، كانوا يتجهون إلى الشعر، وخاصة إلى هوميروس، الذي كانت "إلياذته" و"أوديسته"، ومعهما عدد كبير من الترانيم الدينية الموجهة إلى آلهة معينين، هي التي تحدد تصورهم عن ماضيهم إلى حد كبير. وهناك المزيد من أمثال هذا الأدب منسوباً إلى هسيود Hesiod، الذي كانت شخصيته أقل إحاطة بظلال الغموض من حوالي 700 ق.م. ولكن كان هناك تنازع كبير في العالم القديم حول الشخصية الأقدم. إذ يقال أن هيلين، الجدّ الرمزي الأعلى للإغريق، كان له ثلاثة أولاد، هم آيولوس، وكزوتوس، ودورس. وقد كتب هسيود[10]:

> وللملك المحب للحرب هيلين وُلِد ثلاثة أبناء: دوروس، وكزوتوس، وآيولوس المحارب ذو المركبة.

ثم أنجب كزوتوس ولدين، هما إيون وأخايوس. وهذا يفسر بشكل متقن أصل مجموعات اللهجات الأربع الكبرى المعترف بها في العالم القديم. وهي الأيولية، والدورية، والأيونية، والأخايوية. فكان هناك شعور بأن التجمعات الكبرى تحدد أعلى مستوى من القرابة بين اليونانيين ككل، ولديهم شيء مشترك باللهجة التي تعترف بها علاقات القرابة عند بداية الدراسات الموضوعية للنصوص الإغريقية المكتوبة، وذلك في العصر الحديث: وعلى الأقل، فإن الأيونية، والأيولية، والدورية هي مجموعات كبرى. والتكملة الرئيسية المطلوبة هي الاعتراف بالمجموعة الأركادية ـ القبرصية، ما دامت اللهجتان الأركادية في شبه جزيرة بيلوبونيسيا والقبرصية متطابقين تقريباً، ومختلفتين كثيراً عن اللهجات الدورية في إسبارطة وكريت. أما النظريات حول طريقة احتلال المجموعات المختلفة لأجزائها المختلفة من بلاد اليونان فتبقى مجرد تكهنات محضة.

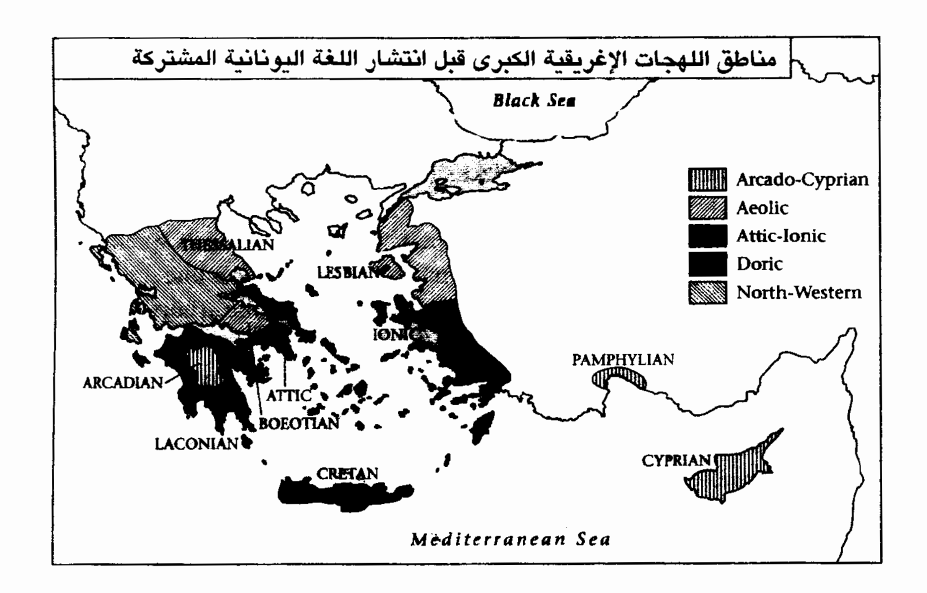
وكان من بين الملامح الهامة للثقافة الإغريقية الاتجاه نحو إضفاء الطابع

الرسمي على منتجاتها اللغوية، وبذلك يتم خلق أساليب وأجناس يتابع الكُتّاب تأليفهم بموجبها وعلى غرارها عن وعي. وهكذا تم تجميع أغاني البطولة ودمجها، مما أنتج الأسلوب الملحمي الذي نفذه هوميروس فعلياً. وتم تنظيم حكايات الرحالة ثم تقديمها على أنها أول الأعمال في مجالي الجغرافيا والتاريخ. أما أغاني الكورس الجماعية التي كانوا ينشدونها لبث الحماسة في التجمعات العامة، مثل دورات الألعاب الرياضية، فقد تم الاحتفاظ بها كأشعار غنائية. كما أن الطقوس الدينية التي كانوا يؤدونها بانتظام لتفسير وتمثيل أساطير آلهة معينين فقد تحولت إلى مسرحيات درامية، بحيث إن المحتفلين بها يظهرون كممثلين، ولم تعد كلماتهم طقوساً وشعائر، بل حالات تفحص للأوضاع التي أوجدتها القصص القديمة. وأدى هذا إلى نشوء التمثيلية المأساوية الأولى. وقبل كل شيء، فإن مناقشات سياسة المدن، والتحقيقات مع المشتبه بارتكابهم جرائم، أصبحت منتظمة في ممارسة الخطب العامة: فأخذ المهتمون بهذه الأمور يقدمون تدريبات عليها، وبذلك تم إيجاد ميدان الخطابة، الذي ربما كان أكثر علوم الفكر تأثيراً في تاريخ الغرب القديم. أما الأحاديث الأخرى، حول المواضيع العامة، فقد أصبحت عند كتابتها وتدوينها هي أساس الفلسفة(*).

ومن بين الملامح المثيرة للدهشة في معظم منتجات الأدب الإغريقي المبكرة هذه طابعها 'العام' (وكانت كلها قد ترسخت عند حلول نهاية القرن الرابع ق.م.): فهي نابعة من لغة مستخدمة في سياق عام، وهي إلى حد كبير مختصة بمسائل ذات اهتمام عام(**). وهذا متجانس مع السياق السياسي

(*) إن انقسام الكلام الإغريقي في ذلك الحين إلى لهجات متفرقة كان له تأثير مثير للاهتمام على هذه الأساليب والأجناس. فبعد بضعة قرون من بدء الأدب المكتوب، صار كل أسلوب أو جنس منها مرتبطاً بلهجة معينة وبصورة نموذجية بممارسيه الفعليين الأوائل، حتى ولو كان الأدب مشتركاً إلى حد كبير. وهكذا صار من اللازم كتابة الشعر الملحمي بلهجة هوميروس التي هي خليط من اللهجتين الأيونية والأيولية، والشعر الغنائي باللهجة الدورية، والتاريخ بالأيونية في أول الأمر، والمسرحية المأساوية بلهجة أتّيك (Attic). وهذا ما لعب دوراً في إدامة المعرفة باللهجات. حتى بعد تزايد وحدة العالم الإغريقي التي راحت تدفعهم على استخدامها الفعلي في الحديث. وهذا مثال جيد على نحو خاص على كمية النكهة اللغوية التي تأتي من مجرد الربط.

(**) إن مجال اللغة اليونانية المبكرة مختلف جداً عن أجناس الأدب الأوروبي في العصور الوسطى والحديثة. فلم يكن فيه قصص، ولا مقالات، ولا أدب خيالي، ولم يكن فيه أي أدب مخصص للورع



للتاريخ اليوناني القديم. فرغم أن تكوين المجموعات المختلفة كان شديد التنوع، وكانت قلة قليلة منها ديمقراطيات تسودها المساواة، فإن الخاصية المشتركة لهذه المجتمعات كانت الانفتاح. فكانت الاجتماعات العامة المفتوحة كثيرة الحدوث. وكان التوقع هو أن جميع المواطنين سيشتركون فيها بشكل فعال (مع استبعاد النساء، والأطفال، والعبيد، والأجانب) - حتى لو كانوا من الدهماء من عامة الناس - للإسهام في حياة المجتمع السياسية. ولذا فإن اللغة اليونانية بدأت انتشارها كلغة لذوي الروح العامة. وبطريقة تشبه كثيراً ما يراه المرء في وسائل الإعلام السياسية في الديمقراطية الحديثة، فإن متابعة الشؤون العامة تصبح هي مادة المتعة والتسلية الجماعية: ففي إحدى المناسبات المشهورة اتهم أحد الخطباء في

الديني. وكان ما حدث هو أن الأنواع الثلاثة الأولى من هذه الأجناس كانت كلها اختراعات يونانية أيضاً، ولكن من فترة متأخرة كثيراً بعد العصر القديم، وفي القرون الميلادية الأولى، عندما كانت اليونان جزءاً منضماً بالقوة إلى الإمبراطورية الرومانية، ولم يكن هناك أي توقع جاد لمهنة عامة في الكتابة أو لمسؤوليات عامة. فكان الأفراد من ذوي الغِنى والبحبوحة أحراراً في استكشاف اهتماماتهم الشخصية أكثر، وفي كتابة القصص والحكايات الخيالية، ووصف المغامرات الشخصية. وبالمثل، فقد كانت حالات استكشاف التجربة الدينية الفردية غريبة عن الروح الإغريقية في تلك الأيام المبكرة، رغم أن هذه الحالات صارت فيما بعد مركزية الأهمية في انتشار المسيحية. فالتدفقات الدينية من الفترة الأقدم تتخذ شكل ترانيم للآلهة الأولمبيين، مع التركيز على رواية أساطيرهم.

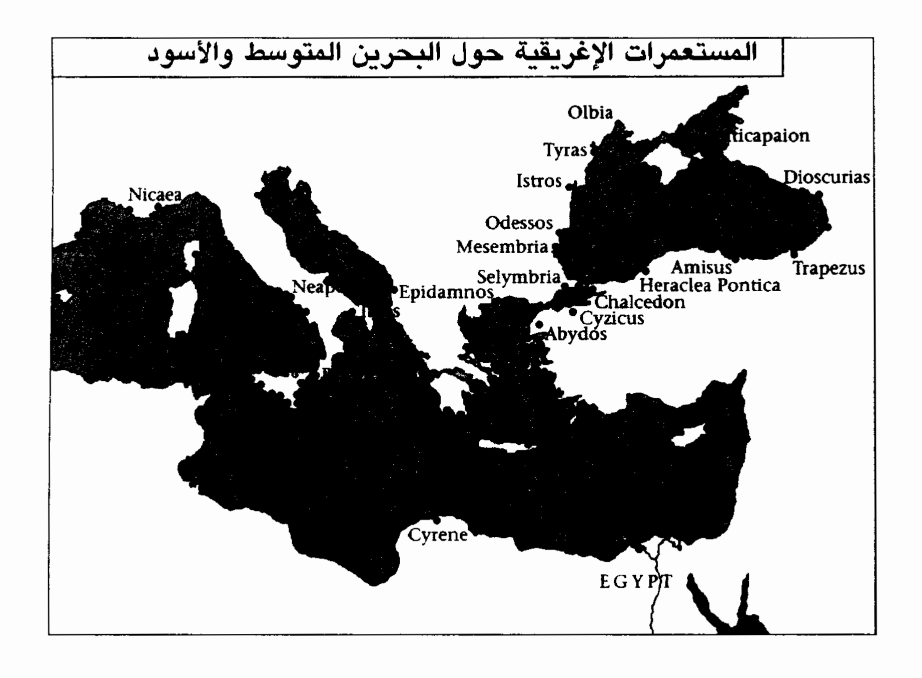
الجمعية الآثينية عامة الناس المستمعين بأنهم مجرد 'مشاهدين للخطب، ومستمعين للأحداث'، أي أنهم يُبدون اهتماماً بما يقال لهم، وبالأسلوب الذي يقال به، أكثر من اهتمامهم بأفكارهم البديهية وإحساسهم العام(11).

إن طبيعة التطلع إلى الخارج في المجتمع الناطق بالإغريقية جديرة بالمقارنة مع لغة أخرى ذات نفوذ متميز كانت آخذة بالانتشار في الوقت نفسه - وهي السنسكريتية. فقد طورت اللغتان نظريات هامة حول استخدام اللغة. ولكن نظرية السنسكريتية، كما رأينا، كانت تهدف إلى الحفاظ على تفاصيل النصوص الدينية. وبهذه الصفة، فإنها كانت تركز على تفاصيل قواعد اللغة النحوية وطريقة لفظها، فلم تقدم شيئاً يذكر لتحسين الاتصال مع الشعوب الأخرى. أما النظرية اللغوية الإغريقية، فقد بقيت (حتى سيادة المتطلبات المدرسية في الإمبراطورية الرومانية(*))، مركزة قبل كل شيء على الاستخدام الفعال للغة لإقناع الآخرين: مع الميل إلى الافتراض بأن الناطقين الأهليين بلغة يتقنون تفاصيل قواعدها، بينما يتحدث المنظرون بدلاً من ذلك عن كيفية بناء قضية أمام القانون، أو (إذا كانت ميولهم فلسفية) عن صيغة الحجة الجدلية الصحيحة. ويستطيع المرء أن يقول إن النظرية اللغوية الهندية هي ممارسة للإعراب بصورة موضوعية محايدة، ولكن النظريات الإغريقية هي دائماً قريبة من التطبيق العملي.

أوطان من الوطن: انتشار الإغريقية عن طريق الاستيطان

انتشرت اللغة اليونانية من موطنها التاريخي في شبه جزيرة البلقان الجنوبية وجزر بحر إيجه عن طريق عمليتين، إحداهما متقطعة، وطويلة الديمومة، ومتفشية في اتجاهها، والأخرى منظمة، وفجائية، ومتماسكة بطريقة تبهر الأنفاس. وتعرف إحداهما عادة بالحركة الاستعمارية الإغريقية، أما الأخرى فهي غزو الإسكندر للإمبراطورية الفارسية.

(*) كان إعراب قواعد اللغة قد اكتمل بصورة جوهرية عندما كان ديونيسيوس الثراسي، الباحث الدارس في الإسكندرية، هو المركز الفكري لليونان في ذلك الوقت، وقام بنشر مجموعة أعماله الرواقية والإسكندرية تحت عنوان "تيخني غراماتيك" في بداية القرن الأول قبل الميلاد.



المستعمرات الإغريقية حول البحرين المتوسط والأسود

أما العملية الأولى، وهي استعمار سواحل البحرين المتوسط والأسود بالمدن اليونانية، فقد استمرت من منتصف القرن الثامن إلى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد. ولم يجب أحد أبداً عن السؤال التالي: من بين كل سكان هذه السواحل، لماذا كان الإغريق والفينيقيون فقط هم الذين أقاموا مراكز مستقلة بهذه الطريقة؟ من الواضح أن الأسس خدمت تشكيلة متنوعة من الأغراض، فعملت كصمامات أمان سياسية ومواقع تجارية للمواد الأولية، وفرص لتطبيق الزراعة اليونانية على تربة أوفر وأقل سكاناً، ومن الجدير بالذكر أن هذه المراكز ساحلية حصراً، فلا تنتقل إلى الداخل أبداً، إلا في جزيرة صقلية. وقد جاء التوسع اليوناني بعد فترة المستوطنات الفينيقية (من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد)، وهكذا فربما كان العامل الأهم هو مَنْ يسيطر على البحر. ورغم أن جميع سواحل الأبيض المتوسط المتاحة تقريباً كانت مأهولة عند نهاية هذه الفترة، فقد كان الطرف الغربي هو الأبرز في التصور الإغريقي لما تم تحقيقه: فإيطاليا الجنوبية وصقلية شكلتا بامتياز 'اليونان العظمى'، التي أطلق عليها باللاتينية عادة لقب "ماغنا غريسيا".

وكانت المدن المختلفة تميل إلى التخصص بقطاعات مختلفة من الخط الساحلي. فمن بين الأيونيين، ذهب التشالسيون والإريتريون إلى جنوب غرب إيطاليا وشمال شرق صقلية، أما فوكايا (التي كانت هي نفسها مدينة على حافة ليديا)، فقد أخذت سواحل إسبانيا الحديثة، وكورسيكا وفرنسا، بما فيها ماساليا (التي هي الآن مرسيليا)(*). وقامت مدينة ميليتوس الإيجيّة الجنوبية بتغطية محيط حوض البحر الأسود كله بتسع عشرة مستعمرة.

وقد استولى الأخايَوِيُّون على ساحل إيطاليا الجنوبي الشرقي إلى حد كبير. بل إن هناك فرضية شائعة شعبياً بأن الإغريق هم الذين أعطوا هذا البلد اسمه. فكلمة "إيطاليا" تعني بالإغريقية أرض "ويتالوي" *(w)italoi*، أي 'صغار البقر التي عمرها عام'، وهي لهجة تنويعية من كلمة "إيطالوي" *etaloi*، التي استعارتها اللغة اللاتينية فيما بعد فحرفتها إلى "فيتولي" *vituli* التي لا تزال موجودة معنا في كلمة *veal*، أي "العجل".

ومن بين الدوريين، قامت كورينث، وميغارا، ورودس باستهداف صقلية مرة أخرى، ولكن من الجنوب الشرقي والجنوب هذه المرة. فوضعت إسبارطة مستعمرة واحدة فقط عند مدخل إيطاليا (هي تاراس، أي تارانتو الحديثة)(**). أما ميغارا، فبالإضافة إلى دورها في صقلية، فقد تخصصت أيضاً بجنوب شرقي البحر الأسود، بما في ذلك أكثر المدن التأسيسية، "بوزاس" (عند مضيق البوسفور)، التي اختيرت بعد ألف عام كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية

(*) ولفوكايا أيضاً مستعمرة على الساحل الأناضولي للبحر الأسود، اسمها آميسوس، وهي سامسون الحديثة.

(**) رغم أن التأثير القرطاجي أو الفينيقي لم يفرض حظراً على بحر الأدرياتيك، فإن المستعمرين الإغريق لم يولوا هذا البحر اهتماماً يذكر. فلم يعرف باسم حاضرة معينة أو مدينة أو مستعمرة. غير أنه كان منطقة دورية بحكم الأمر الواقع. وكانت توجد هنا ثلاث مدن كبرى هي إبيدامنوس، التي صارت فيما بعد ديراكيوم (وهي الآن دورازي في البانيا)، وقد تأسست على أيدي كورينث وجزيرة كورسيرا المجاورة في حوالي العام 625 ق.م. وكذلك مدينة أتريا في دلتا نهربو، التي تأسست في أواخر القرن السادس قبل الميلاد على يد آيجينا (وهي مدينة دورية قامت آثينا فيما بعد بإخلائها وإعادة إسكانها)، ثم مدينة أنكونا وهي مدينة لأهالي بيسيني الأصليين أعيد تأسيسها فيما بعد على أيدي لاجئين يونانيين من سيراكيوز في العام 387 ق.م. (لم يتم استغلال وعد بحيرة مدينة البندقية الضحلة في العصور القديمة.)

باسم بيزنطة(*) أو القسطنطينية. وكان من الأشياء الفريدة أن ثيرا اتجهت جنوباً لتؤسس مستعمرة سيرين على الساحل الإفريقي(**).

ورغم أن المستعمرات ("أبويكياي" - ومعناها الحرفي "أوطان من الوطن") كان يقودها عموماً 'باني وطن' من 'المدينة الأمّ'، أو "المتروبوليس" - توجد معه رابطة تاريخية أو عاطفية، ولو لم تكن رابطة سياسية أو عسكرية - فإن سكانها المؤسسين يمكن تجنيدهم وجلبهم من عدد من المدن، بحيث إن الأسس الجديدة يمكن أن تكون مأهولة بخليط متنوع من السكان، رغم أن اللهجة أقل تنوعاً. وتوحي النصوص المدونة بأن اللغة المحكية كانت قريبة من لهجة المدينة الأم بشكل يكاد يكون دائما[12]. ويستطيع المرء أن يقارن السيطرة المستمرة للغة الإنكليزية في أمريكا الشمالية رغم أن الناطقين بلغات أخرى كانوا متفوقين عددياً على المستعمرين الإنكليز في القرن التاسع عشر (انظر ص 668).

ومن الممكن أن يجادل المرء بأن التأثيرات المباشرة لهذه الحركة كانت ثقافية أكثر منها لغوية. فالمناطق لم تكن غير مأهولة قبل وصول القادمين الجدد. كما أن سكانها المحليين (ومن بينهم أهالي بلاد الغال - أي فرنسا الحالية - والإتروسكانيون، والرومان، والسكايث، والأرمن) لم يتلاشوا مع مرور الزمن(***). ورغم أن الإغريق قد سيطروا على مناطقهم الساحلية، ورغم أن

(*) رغم كل فخامة صوت الاسم الرنان (بوزانطيون) فإنه ليس سوى الاسم المصغر لمدينة بوزاس، مثلما أصبحت كلمة هونكرز هي الاسم الرسمي لهونغ كونغ.

(**) إن سيرين، التي تأسست حوالي العام 630 ق.م. تخصصت في تنمية وتصدير السيلفيون، وهي نبتة طبية. ولكن اللغة الإغريقية كانت مسموعة أيضاً على مبعدة إلى الشرق منها على الساحل الإفريقي، حيث تم تأسيس نوع مختلف من المشاريع. فمدينة نوكراتيس، أي 'ملكة البحر' كانت مركزاً تجارياً كبيراً لليونانيين عموماً في دلتا النيل، للمتاجرة مع السوق المصرية، في امتياز تجاري سمح به الفرعون. وقد جاءت المبادرة هنا من الإغريق الأيونيين، من ميليتوس وساموس، الواقعتين إلى الشمال تماماً بشكل مناسب (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب).

(***) كانت صقلية استثناءً لهذا الاتجاه لبقاء السكان الأهليين الأصليين بعد الاستيطان اليوناني. فلا بد أن الحضور اليوناني فيها كان كثيفاً على وجه خاص. فقد كانت لليونانيين على الجزيرة ثلاث عشرة مستعمرة منفصلة. وكان طرف الجزيرة الغربي في يد قادم أجنبي آخر هو قرطاجة التي كانت لها ثلاث مستعمرات. ومع ذلك فإن السكان السابقين من السيكانيين والإيليميانيين والسيسيليين كانوا عاملاً هاماً إلى حد كبير عند البحث عن الأرض لإقامة مدن جديدة فيها.

مستعمرات كثيرة قد خرجت منها فروع لإيجاد مستعمرات جديدة في المنطقة نفسها، فإنها لم تصبح بؤرة مركزية لدول على نطاق أوسع. (قارن هذا مع تضخيم الذات القوي الذي قامت به قرطاجة، التي كانت ذات يوم مستعمرة فينيقية، على مدى هذه الفترة وفيما بعد). كانت المستعمرات، وخاصة في صقلية وإيطاليا الجنوبية مشهورة بثرائها وبثقافتها العملية. إذ إن بارمنيدس، وزينون، وفيثاغورس، وكزينوفانيس، وإمبدوقليس، وآرخميدس، كانوا كلهم يونانيين من الغرب. فلم يكن الإبداع السياسي نقطة قوة على وجه خاص(*).

والواقع أن المستعمرات صارت رؤوس جسور للثقافة الإغريقية إلى غرب الأبيض المتوسط والبحر الأسود، واستمر هذا الحضور الإغريقي المنفصل المبعثر ما يقرب من ألف عام. فقد كتب سترابو عن نهاية القرن الأول ق.م: 'ولكن الآن تمت سيطرة البرابرة(**) على [اليونان العظمى كلها] باستثناء تاراس وريجيون ونابوليس [تارانتو وريجيو ونابولي]"، وبعض الأجزاء أخذها اللوسيان والبروتيان، وأجزاء أخرى أخذها الكامبانيان، ولكن بالاسم فقط، والواقع أن المسيطرين هم الرومان، فهذه المناطق صارت رومانية'[13]. والمدن الثلاث المذكورة يفترض أنها احتفظت بإغريقيتها بعد ذلك بقرنين من الزمن. ولا تزال الإغريقية محكية حتى هذا اليوم في منطقتين محصورتين عند أقصى طرف إصبع القدم والكاحل الإيطاليين: وهما بوفيسيا وكالابريا (جنوب شرق ريجيو)، والقريتان كاليميرا ومارتانو، جنوبي لِيْس في بوغليا.

وقد لعبت المستعمرات دوراً أساسياً في تعريف الشعوب المجاورة بالكتابة في بلاد الغال وإيطاليا: فمن ماساليا على الريفييرا الفرنسية تعلم أهل الغال أن يكتبوا لغتهم نفسها بحروف إغريقية. وقامت كل من بيثوكوساي (إسكيا) وكوماي

(*) كانت الشهرة السياسة التي حصلت عليها هذه المستعمرات مرتبطة بتجارب من جنون العظمة الاستبدادي، وخاصة على أيدي كل من ديونيسيوس السيراكيوزي (367 - 430 ق.م.) وأغاتوكليس من أكراغاس (284 - 361 ق.م.)، فقد نظما حروباً إغريقية ضد قرطاجة كانت حصيلتها الصافية صفراً.

(**) 'إكبيباربباروستاي': في القرن الأول ق.م. كان قد مضى مئتا عام على غزو روما لليونان، ومحاولة الرومان امتصاص الثقافة الإغريقية. ومع ذلك فإن شخصاً يونانياً - تثقف في روما - (وهو سترابو) كان لا يزال عندئذ يصنف الرومان كبرابرة.

على الساحل الجنوبي الغربي بتعليم الأتروسكيين من كامبانيا أولاً، ومن ثم إيطاليا الوسطى والشمالية بكاملها، وعلى مبعدة ميلٍ إلى الجنوب، استطاعت بيستوم (بوسيدونيا) أن تمرر معرفة القراءة والكتابة على الأوسكان في لوكانيا. وفي الكعب الإيطالي، مررت تاراس هذه المعرفة إلى الميسابيين في كالابريا. وكان الأهم من هذه كلها الممر غير المباشر لهذا التعليم، وكذلك ممرات أخرى كثيرة في شمال إيطاليا (مثل الغاليين من أهالي إنسوبريا على سفوح جبال الألب). فقد استمر الإتروسكان فعلموا خصومهم الكبار من الرومان القراءة والكتابة. وخلال سلسلة مدروسة مفصلة من الغزوات وحالات التغلغل التجاري على مدى سبعة وعشرين قرناً بعد ذلك، صارت الأبجدية الرومانية هي الأوسع استعمالاً في العالم كله.

إن الأبجديات التي تم تمريرها بهذه الطريقة لم تكن هي الأبجدية الإغريقية اليوم، التي قدر لها أن تصبح قياسية موحدة بشكل فعال في آثينا في العام 403 ـ 402 ق.م(*). ثم الأخذ بها في جميع أنحاء اليونان في الجيل التالي(**). وفي هذا الوقت الأبكر من التاريخ اليوناني (من القرن الثامن ق.م.)، كانت لا تزال هناك تنويعات بديلة متنافسة تفضلها لهجات مختلفة. فكانت معظم المدن ذات المستعمرات في إيطاليا تفضل ما يسمى الأبجدية الغربية، التي كان فيها حرف H يمثل حرفاً صحيحاً يلفظ بملء النفس 'إيتش' (aitch)، وحرف X يمثل الصوت [ks]، وقد أسقطت الحروف الإغريقية Ω Ψ ϕ Ξ Θ ولكن حرفي F وQ تم الاحتفاظ بهما(***). فكانت هذه هي الأبجدية التي اخذ بها الإيطاليون ولو بنسخ محلية متنوعة، كما كانت العادة في عصر ما قبل إنتاج

(*) كانت تلك سنة هامة بالنسبة لآثينا. فهي أول سنة من إعادة الديمقراطية بعد انحدار آثينا الحاسم على يد إسبارطة في حرب بيلوبونيزيا.

(**) اخذت آثينا بالأبجدية الأيونية كما هي مستعملة في ميليتوس، ففضلتها على أسلوبها الاتيكي Attic الذي لم يكن يميز حرف E (مثل H-eta) وحرف O الطويل (Ω -omega) من نسختيهما القصيرتين.

(***) كان الحرف Q (كما في qoppa) في الأصل [k] خلفي، يستعمل قبل حرف علة خلفي مثل [o] و[u]. وتستخدم النصوص المبكرة FH لتمثل الصوت [f]، لأن f كانت في الأصل رمزاً للحرف [w] أو [v]. ومعظم اللهجات الأيونية (بما فيها لهجتا ميليتوس واثينا) قد فقدت هذا الصوت، ومن هنا جاء اختفاؤه من الأبجدية الإغريقية الرسمية. ولكن هناك التواءً شديد الغرابة هنا. فإن تشالسي وأريتريا، اللتان أسستا بيثيكوساي وكوماي، كانتا في الحقيقة تتكلمان اللهجة الأيونية، وهكذا فربما كان من المتوقع أن تسقطا حرف F في الكتابة أيضاً.

الكتابة بكميات كبيرة بالجملة (فقد كانت الليبونتية، والإتروسكانية، والأوسكانية، والأومبرية، والفالسكية، والميسابية، كلها لهجات لها أبجديات متميزة عن اللاتينية).

وكان النبيذ نعمة ثقافية واقتصادية أخرى من نعم انتشار الإغريقية، فقد راح يمرّر آنذاك إلى مكان شديد الترحيب به هو غرب البحر الأبيض المتوسط، ومعه سائل مترف آخر هو زيت الزيتون. ويتصور جوستين (43: 4) أن الفوكائيين الذين أسسوا ماساليا لم يعلّموا الفرنسيين المحيطين بهم الحياة المدنية والحضرية فحسب، بل علموهم أيضاً كيف يهتمون بكرومهم(*). وهنا أيضاً ربما كان التأثير غير المباشر أقوى من المباشر، لأن من المعروف أن الرومان قد تعلموا زراعة الكروم من اليونانيين الذين كانوا فعالين جداً في تعزيزها وترويجها عندما انتقلوا إلى بلاد الغال، وتفوقوا على اليونانيين بإيصالها إلى أماكن بعيدة فيما وراء ساحل الأبيض المتوسط.

وعلى الطرف الآخر مما كان يشكل آنذاك العالم الإغريقي، يظهر أن المستعمرات حول البحر الأسود لعبت دوراً أكثر تكاملاً في الحياة اليونانية على البرّ الإغريقي الرئيسي، لأنها راحت تزوده بالقمح (المزروع في حقول سكيثيا/ أوكرانيا الشاسعة) ومادة 'الأوبسا' أي توابل النكهة المصنوعة من السمك المجفّف، والتي تستهلك بكميات كبيرة، فكانت من أكثر التوابل رواجاً لدى الهيليين الذين يسعون بجدٍ للحصول عليها.

وراح اليونانيون يشعرون خلسة باحترام لأهالي سكيثيا البدو المتنقلين: فهم مثلهم قد دحروا محاولة غزو فارسية. وكانوا بصورة عامة منيعين تماماً أمام التأثر بالطرق اليونانية، ولكن هيرودوتس يستذكر اثنين كانا يتذوقان الأشياء اليونانية وهما أناكارسيس (الذي أصبح حكيماً أسطورياً)، وسكايليس. وفي كلتا

(*) من حيث المبدأ من الممكن أن تكون حضارة استعمارية عظمى أخرى هي التي جلبت هذا الإنتاج المتميز من شرق الأبيض المتوسط، وتلك حضارة الفينيقيين. ولكن البلدان التي برزت (وظلت بارزة حتى يومنا هذا) في صنع النبيذ يتصادف أنها في منطقة النفوذ الإغريقي: وهي إيطاليا وبلاد الغال/ فرنسا، وليس شمال إفريقيا وإسبانيا.

الحالتين، فقد خضع الرجلان لجوانب الفتنة المحرّمة في الاحتفالات الدينية اليونانية فلم يكن الإغريق في ذلك الزمان منظوراً إليهم تحت ضوء عصرنا الحاضر باعتبارهم أكثر الناس عقلانية في العالم القديم.

ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب

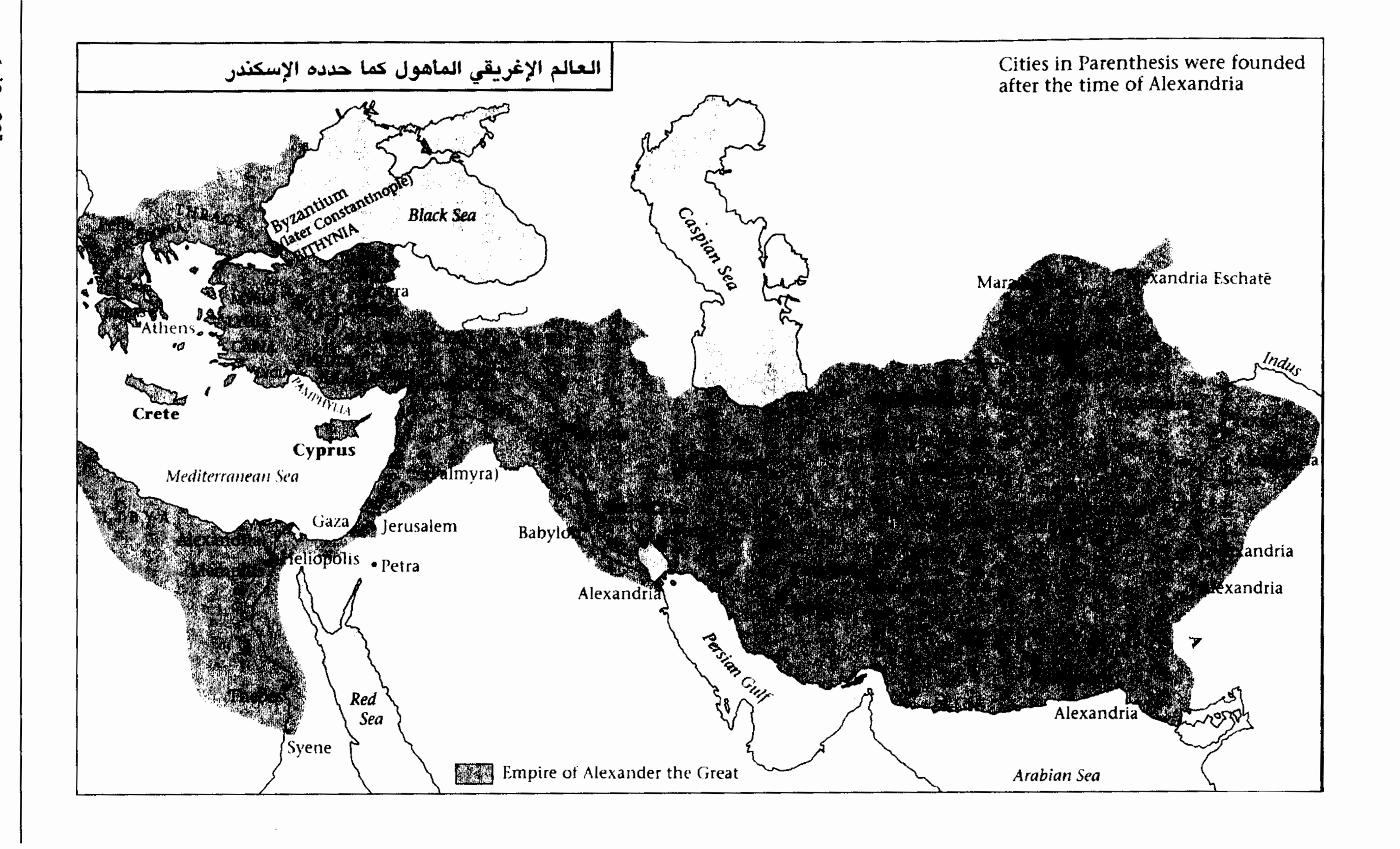
إن أجدادك الذين دخلوا مقدونيا وباقي اليونان ظلمونا دون سابق ظلم منّا لهم. ولكنني أنا، المنصَّب كقائد لليونانيين، والراغب في الانتقام من الفرس، قد عبرت إلى داخل آسيا، وهذا شيء أنتم الناس الذين بدأتموه ... وفي المستقبل، عندما تراسلني، راسلني باعتباري ملك آسيا، ولا تراسلني على قدم المساواة معي، بل باعتباري سيد كل ما هو لك، وأخبرني إن كنتَ محتاجاً إلى أي شيء..

الإسكندر إلى داريوس ملك فارس، 332 ق.م: آريان، 14:2

عند حوالي ربع المسافة الزمنية الممتدة ثلاثة آلاف وخمسمئة عام من تاريخ اللغة الإغريقية المدوّن جاء عقد واحد من الزمن غيّر كل شيء.

فعلى مدى السنوات العشر من 334 إلى 325 ق.م. قام جيش يوناني تحت إمرة الإسكندر الثالث، ملك مقدونيا، بإزالة الإمبراطورية الفارسية بصورة تامة تقريباً من المنطقة التي تشمل حالياً الدول الحديثة التالية: تركيا، سوريا، فلسطين، مصر، الأردن، العراق، الكويت، أرمينيا، إيران، أفغانستان، باكستان. وكان دافع الإسكندر المعلن هو الانتقام من العدوان الفارسي في الحروب الفارسية، التي كانت لا تزال حاضرة جداً في أذهان اليونانيين، رغم أنها كانت تجربة لأجداد أجدادهم قبل الإسكندر بقرن ونصف قرن، وكانت اليونان عندئذٍ على الأقل تحت إدارة مختلفة جداً. فحسب مثل هذا الميزان الزمني يتعين على بريطانيا الآن أن تكون منهمكة بالاستعداد لانتقام روسيا منها بشكل جدي لحرب شبه جزيرة القرم [1853 ـ 1856].

وكانت نتيجة هذا التقدم الصاعق بسرعة البرق، واستيلاء الإداريين العسكريين اليونانيين بالجملة على إمبراطورية متعددة الأعراق كانت قد عاشت


العالم الإغريقي المأهول كما حدده الإسكندر
Cities in Parenthesis were founded
after the time of Alexandria
Byzantium
(later Constantinople)
BITHYNIA
Black Sea
Caspian Sea
Athens
Crete
PAMPHYLIA
Cyprus
Mediterranean Sea
Gaza
Jerusalem
Petra
Alexandria
Persian Gulf
Red
Sea
Syene
Alexandria
Indus
Arabian Sea
Empire of Alexander the Great

قبل غزوهم أكثر من مئتي عام، هو الزيادة الفورية على ثلاثة أضعاف للمساحة التي تسمع فيها اللغة اليونانية وتعرف فيها وتُقَدَّر التقاليد الثقافية اليونانية. وعلى عكس التقدم الاستعماري حول البحرين المتوسط والأسود، فإن هذا التقدم لم يحتضن خط الساحل بل فرض سيطرة سائدة على كل المراكز الحضرية الراسخة الكبرى. ورغم أن السيطرة الأحادية لحاكم وحيد لهم لم تستمر (فقد مات الإسكندر بعد عامين من حملته الهائلة، وانقسمت إمبراطوريته إلى ممالك تحت حكم مارشالاته المختلفين)، فإن السيادة اليونانية بقيت فعلاً. فاستمرت قرناً في فارس الوسطى، إلى أن قامت قوة أخرى ناطقة بالفارسية، وهم البارثيون من جنوب شرقي بحر قزوين، بإعادة فرض السيطرة. ولكن الأمر استغرق ثلاثمئة عام قبل أن تتراخى القبضة الإغريقية عن مصر أو سوريا أو بابل. ورغم أن حق الإسكندر في الضفة الغربية لنهر الغانج قد ألغي على الفور تقريباً بتقدم الإمبراطور الهندي تشاندرا غوبتا، ذي الفخامة المعادلة لأبهة الإسكندر، والذي كان يحكم من باتنا، فإن ملوك الإغريق المستقرين في باكتيريا (بأفغانستان) ظلوا يسيطرون على ممتلكات مستقلة لفترة تعادل فترة سيطرة خلفاء الإسكندر على سوريا. فانتقلوا جنوباً إلى غاندارا (سوات)، والبنجاب (فيما هو الآن باكستان)، ورغم أنهم فقدوا باكتيريا نفسها، فإنهم وصلوا لفترة من الوقت في الشرق حتى باتنا على نهر الغانج(*). والواقع أن الممالك اليونانية دامت أطول مما دامت اليونان نفسها، إذ إن الملوك المقدونيين سلموا السيادة على اليونان لروما بعد الإسكندر بقرنين، في العام 146 ق.م.

إن عملية إضفاء الصبغة اليونانية الهيلينية على الممالك التي غزاها الإسكندر قد أوجدت الأرضية الداخلية لمجتمع واسع ناطق بالإغريقية قدر له أن يسيطر على

(*) إن هذه الحادثة (ومعها أدلة أخرى، إغريقية وهندية) قد خلدها مثالان لجملتين أوردهما العالم النحوي السنسكريتي باتانجالي في القرن الثاني قبل الميلاد (3 -2: 111). والجملتان هما: 'لقد حاصر اليونانيون ساكيتا' (وهي مدينة قريبة من فيزآباد على نهر غاغرا) و: 'لقد حاصر اليونانيون مادياميكا' (وهي مدينة قريبة من تشيتورغار، جنوبي صحراء راجستان). وفي كل واحدة من هاتين الحالتين، يجب أن تكون الجملة حقيقية صادقة غير وهمية، بدلالة زمن الفعل المستخدم فيها على أنها واقعة ذات أهمية عامة حدثت في الماضي القريب ولم يشهدها مؤلف الجملة. ونظراً لأن ساكيتا وحدها كانت على الطريق إلى باتنا من البنجاب، فالظاهر أن اليونانيين قد شنوا حملات على مبعدة إلى الجنوب والغرب في راجستان.

شرقي الأبيض المتوسط مدة زادت على ألف عام. وكان قد مضى عليه نصف هذه المدة عندما تم الاعتراف به رسمياً في العام 286 م، عند تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية. وبعد ذلك تحولت الإمبراطورية الشرقية بشكل تدريجي وعن وعي إلى إمبراطورية يونانية: بل لقد كان من المناسب أن الكلمة التي استخدمتها هذه الإمبراطورية لوصف نفسها، وهي كلمة "رومايوس"، أي 'رومانية' صارت كلمة شعبية معناها الآن 'يونانية'(*).

ورغم أن اليونانيين كانوا بارزين سياسياً لفترة طويلة - ولكن ليس كديمقراطيين على الإطلاق - في جميع أنحاء هذه الممتلكات الشاسعة، فإن الانتشار الفعلي للغتهم كان متفرقاً ومتقطعاً. فلمدة قرنين من الزمن كانت اللغة الآرامية، التي هي في الأصل اللغة المشتركة لبابل وكنعان، المقياس المناسب السائد في الإمبراطورية الفارسية كلها. وكما رأينا، فإن الأخذ بها لم يكن متجانساً. ولكن رعايا الإسكندر الجدد لا بد أنهم قد توقعوا لغة عامة ومنفصلة للإدارة الإمبراطورية. وإن الانتقال الفعال من لغة كهذه إلى لغة أخرى، إن كان قد حدث على الإطلاق فإنه لا يمكن أن يكون فورياً.

وعند مراجعة الأدلة من الشرق والغرب نستطيع أن نبدأ باللغة اليونانية المحكية في الهند. ففي منتصف القرن الثالث ق.م. عندما كان الإمبراطور آسوكا يعلن مراسيم تحثّ على أهمية 'الفضيلة' في جميع أنحاء الهند الشمالية والوسطى باللغة المحلية الدراجة، اختار قندهار ليكتب النص بالآرامية والإغريقية. وكانت قندهار معروفة عند اليونانيين باسم إسكندرية الأراكوسيانيين، أسسها الإسكندر في العام 329 ق.م. ولم يكن مرسوم آسوكا هو النقش الإغريقي الوحيد على الصخر الذي عثر عليه هناك[14]. فكان هذا، عند حافة ملكه، أو فيما وراءه. أما الأدلة من قطع العملة المسكوكة فهي وفيرة من الممالك اليونانية في الهند، وفي هذا زعم بوجود نوع من ثنائية اللغة، إذ إن قطع العملة عليها كتابة إغريقية على أحد جوانبها، وهندية براكريتية، مكتوبة بأبجدية خاروشتيةٍ (وهي

(*) وهي أيضاً أصل تسمية الولد الرومانسي الخيالي روميو.

اشتقاق آخر مستمد من الآرامية) على الجانب الآخر. وفي الحقيقة فقد استمر نقش الأساطير الإغريقية على قطع العملة لمدة قرن بعد وفاة آخر ملك وملكة يونانيين، هرمِيوس وكاليوبي اللذين لم يكونا يحكمان أكثر من بيشاور وممر خيبر، وقد ماتا في حوالي العام 30 ق.م. وبما أن الحكومة آنذاك في أيدي ساكا/السكيثيان، وبالافا/البارثيين، وكوشانا، الذين كانت لغاتهم (الفارسية) تنبع من شمال هندكوش، فإن هذا قد يكون حجة على استمرار وجود بعض عامة الناس الناطقين باليونانية، ولكن النقوش الهندية الكاروشتية على قطع العملة قد استمرت أيضاً، وهكذا فربما كانت هذه محاولة لوضع وزن التقاليد واستمراريتها وراء العملة، حتى عندما انتقلت السلطة الحقيقية إلى أيدي حكام أميّين.

وعلى وجه الإجمال، فإن الصورة العامة هي لحكومة ناطقة باليونانية ليس لها تأثير يذكر على سكان يصرّون على التكلم بلغات هندية. ورغم أن الجانبين كانا متعلمين يعرفان القراءة والكتابة، فليس هناك سجل لقواعد نحوية أو معاجم ثنائية اللغة، وليست هناك رواية عن ماهية اللغة التي استخدمت عندما قام الملك اليوناني الأشهر ميناندر (ميليندا عند الهنود) بالاشتباك مع الرجل الحكيم ناغاسينا في مجادلة حول البوذية مسجلة في كتاب "ميليندابانها". ولعل اليونانيين الناطقين بالبراكريتية لم يكونوا استثناءً كبيراً في ذلك الوقت. فبعد ذلك بزمن غير طويل، تم نصب عمود (في بسناغار في ماديا براديش الحديثة) على يد هليودورس سفير الملك أنتيالكيداس في تاكسيلا، والنقش عليه كله باللغة البراكريتية[15]. وبعد ذلك بمئة وخمسين عاماً، كان ميغاستينيز يخدم كسفير يوناني (أرسله الملك سلوقس) في بلاط تشاندراغوبتا في باتنا منذ العام 302 ق.م. وتبعه ديماخوس مرسلاً من الملك التالي (أنطيوخوس الأول)، وكذلك ديونيسوس الذي أرسلته المملكة الإغريقية المنافسة في مصر، وقد ألفوا كلهم كتباً عن تجاربهم صارت متداولة في الإسكندرية على النيل، التي كانت عندئذٍ مركزاً للثقافة اليونانية آخذاً في البروز بسرعة.

وبالعودة إلى مملكة خلفاء الإسكندر السلوقيين (في فارس، والهلال الخصيب، وبلاد الأناضول) فإن هناك أدلة على أن اللغة اليونانية صارت

منغرسة هناك بصورة أوسع وأعمق من انغراسها في الهند، رغم أن الصورة ليست متجانسة. فمثلاً، تراجعت قوة اللغة اليونانية في المنطقة الشرقية من فارس أمام قوة البارثيين المتصاعدة (من حوالي العام 230 ق.م.)، ورغم ذلك استمر الحكام الجدد في إصدار عملاتهم باللغة اليونانية (وبالآرامية أيضاً في بعض الأحيان)، فلم ينتقلوا منها إلى الأساطير البارثية (البهلوية) إلّا في القرنين الميلاديّين الأول والثاني، عندما أصبحت الأساطير اليونانية الباقية محرفة ومشوهة على نحو متزايد. وهناك وثائق رسمية مكتوبة بالإغريقية حتى القرن الرابع الميلادي[16]. ولكن على مبعدة إلى الجنوب، على الخليج العربي، كانت مملكة برسيس الصغيرة (التي ظلت موجودة من العام 280 ق.م. إلى العام 224 م.) تصدر قطع عملتها دائماً باللغة الآرامية.

وفي الهلال الخصيب، وبابل، ووادي الرافدين، وسوريا وفلسطين، وهي الأراضي الناطقة بالآرامية في قلب الإمبراطورية الآشورية، والتي أصبحت مركز الثقل الفعلي في الحكومة السلوقية الجديدة، كان تغلغل الإغريقية هاماً بالمثل، ولكن يبدو أنه قد أدى إلى وضع من ثنائية اللسان المستقرة أو شبه المستقرة، وأناس يستخدمون لغات مختلفة في مجتمعات مختلفة، ولأغراض مختلفة. فبابل، رغم أهميتها الاستراتيجية للسلوقيين، ربما لم يكن فيها أبداً أكثر من جالية يونانية صغيرة. وليس من المحتمل أن يكونوا هم ولغتهم قد ازدهروا بعد تسليم المدينة إلى بارثيا في العام 126م. أما إيديسا، وهي أورفا الحديثة، التي كانت على الحدود مع بارثيا فقد حافظت على تقليد أدبي آرامي (سريانيّ) طوال الفترتين اليونانية والرومانية.

غير أن سلوقس الأول قام بمحاولة جادة حول سوريا الشمالية لتأسيس مستعمرات إغريقية بقيت مستمرة حتى اليوم، وهي أنطاكية، وأفامية وحماة، وسلوقية (سليفكيه) ولاوديكيا (اللاذقية). وقدر لأنطاكية، على ساحل الأبيض المتوسط، مستقبل مجيد كعاصمة لسوريا الرومانية، فقد بدأت بنواة من 5,300 أثيني ومقدوني نقلوا من مستعمرة يونانية قريبة ووزعوا في هذه المدينة. ومع ذلك، فقد كان معهم دائماً مجموعة كبيرة من الناطقين بالآرامية وكذلك مجموعة

يهودية. ويبدو أن تدمر القريبة كانت مدينة بوجود الناطقين باليونانية فيها (و كذلك باسمها 'بالميرا') لمجيء السيطرة الرومانية (بين عامي 17 و19 م)، وهناك نص إغريقي ـ آرامي مشهور عن التعريفات عثر عليه هناك (وهو يعود إلى العام 137م) يُظْهِرُ أن كلا اللغتين كانت لها مكانة. ولكن بعد تسعمئة عام، عندما وضع الفتح العربي نهاية للسيطرة اليونانية، يظهر أن اللغة الإغريقية لم تعد تنتشر أبداً خارج تلك المدن القليلة(17).

وفي القدس، وقع اضطراب كبير بدأ في العام 168 ق.م. بقيادة جوداس مكابيوس(*)، وشمل مقاومة للإجراءات التي تصورتها الحكومة السلوقية لإضفاء الصبغة اليونانية الهلينية على اليهود، رغم أن الطقوس الدينية، وليس الناحية اللغوية، هي التي كانت في مقدمة الواجهة. فأدى ذلك الاضطراب إلى إقامة الحكومة الهاسمونائية التي حكمت يهودا من العام 142 إلى العام 63 ق.م.، مع تقليل التأثير اليوناني إلى أقصى حدّ. وبقيت الآرامية هي اللغة المسيطرة في فلسطين، مع حصر العبرانية في الاستعمال الطقوسي، بينما كان من المثير للاهتمام أن اللغة اليونانية قد أعطيت دوراً في الجانب الأكثر عالمية من الديانة اليهودية، بالإضافة إلى كسب غير متوقع، مثل معتنقي المسيحية. ولكن كما توضح رواية الإصحاح الثاني من أعمال الرسل، فإن كل لغة لا تزال محكية في الإمبراطورية الرومانية كان من الممكن سماعها في شوارع القدس وقت الاحتفال بعيد الفصح عند اليهود(**).

وفي الحقيقة فإن النصوص اليونانية للكتب العبرانية المقدسة كان الذي أمر بإعدادها هو بطليموس الثاني(***) ثاني ملك في السلالة اليونانية التي

(*) لقد كان سيكره المفارقة الساخرة لأنه معروف بهذه الصيغة اللاتينية لاسمه الإغريقي. فقد كان يعرف باسم جوداس المطرقة (يهودا مقبّة).

(**) لقد أمكن التمييز بوضوح لزوار من بارثيا، وميديا، وعيلام، وما بين النهرين، واليهودية، وكبدوكيا، وبنطس، وآسيا الصغرى، وفريجيا، وبمفيليا، ومصر، وليبيا حول القيروان، مع الرومان، واليهود الأجانب، والكريتيين والعرب (أعمال الرسل: الإصحاح الثاني: 9 - 10).

(***) المعروف باسم فيلادلفوس، أي 'عاشق أخته'. بل إنه تزوجها فعلاً، فكان ذلك تبنّياً إغريقياً مذهلاً لأحد التقاليد المصرية الفرعونية.

حكمت مصر بعد موت الإسكندر (وقد حكم من العام 308 إلى العام 246 ق.م.) والطريقة التي تحقق بها ذلك مفصلة، مع تراكمات أسطورية، في 'رسالة آريستياس' الإسكندرية. مهما كانت التفاصيل الحقيقية، فإن الترجمة السبعينية صارت هي النص الإغريقي المعتمد من التوراة. وصارت مستعملة على نطاق واسع من قبل اليهود خارج فلسطين. وكذلك من قبل الحركة المسيحية التي جاءت بعد ذلك (وقد أطلق عليها اسم السبعينية ـ باللغة اللاتينية ـ لأن المفروض أنه قد تم استدعاء اثنين وسبعين باحثاً من القدس للعمل على إنجازها). ولذا فقد أصبحت اللغة اليونانية أداة لثقافة كبرى خارج تقاليدها نفسها، متحررة من ارتباطاتها مع الفخامة الأثينية (أو ما كان عندئذٍ الفخامة المقدونية)، وبمعنى ما بالتالي فقد أصبحت بذلك لغة دنيوية علمانية. وعلى أسس عملية ذرائعية، ففي القرون المتأخرة التالية فيما بعد، عندما ظهرت حاجة إلى نصوص مسيحية جديدة لنشرها في العالم الأوسع، تمكنت اليونانية من كسب مكانة تعادل مكانة الآرامية، ثم تفوقت عليها.

وفي مصر بأسرها، رغم أن البطالسة كانوا، مثل جميع ورثة الإسكندر اليونانيين الهيلنيين، يعتمدون على جيوشهم لضمان سلطتهم، فقد أطلقوا مشروعاً ثقافياً كبيراً لإثبات صحة تلك السلطة فأقاموا متحفاً (وكلمة "موزيون" اليونانية تعني معبد الإلهات الشقيقات التسع الحاميات للغناء والشعر والعلوم والفنون) كمعهد للبحوث تموله الحكومة، وأقاموا معه المكتبة الشهيرة الخالدة، قرب القصر الملكي في الإسكندرية، المدينة العاصمة التي كانت حديثة التأسيس آنذاك. فاجتذبت هذه المكتبة وهذا المتحف الدارسين الناطقين باليونانية من جميع أنحاء العالم المأهولة. وتم إصدار قطع العملة مسكوكة باللغة اليونانية من دار وحيدة لسَكّ النقود، في الإسكندرية أيضاً. وتم إدخال اليونانية بالتدريج كلغة جديدة للإدارة في هذا البلد مع أطول تقليد للإدارة المركزية في العالم.

ويبدو أن اليونانية قد بقيت لغة للنخبة الحاكمة في مصر. ورغم أن الأدب الذي خرج من الإسكندرية (وهو وفير) قد طوّر أجناساً جديدة من التحدث بالنثر

والشعر عن ملامح فاتنة من الحياة اليومية، فإن هذه الحياة اليومية كان يبدو أنها في مكان آخر أقرب إلى كونه مكاناً تقليدياً يونانياً، مثل جزر بحر إيجه، أو ربما في سيراكيوز. ويقال إن آخر ملوك البطالسة، وهي كليوباطرة، التي حكمت من العام 51 إلى العام 30 ق.م. كانت أول ملكة منهم تتعلم اللغة المصرية(18). وإذن فقد كانت تلك اللغة لا تزال جديرة بالتعلم، فالمصرية كانت هي اللغة الشعبية حتى بعد ثلاثمئة عام من الحكم اليوناني لمصر.

إن توثيق المراسلات الفعلية القديمة هنا هو أكثر وفرة منه في أي مكان آخر من العالم القديم، بسبب شيوع الاستخدام العام لورق البردي، وقوة الحفظ في الأتربة الجافة، بعيداً عن وادي النيل. وبين الحين والآخر، تعطي هذه المراسلات لمحة عن كيفية تصور استخدام اللغة اليونانية من خارج الدائرة المسحورة من المهاجرين الهلينيين. وهكذا ففي منتصف القرن الثالث ق.م. بعد جيلين من الغزو اليوناني لمصر، نجد رسالة إلى زينون من مدير مزرعة في الفيّوم يشكو (باليونانية) من كونه محتقراً لأنه لا يستطيع التكلم باليونانية أو (حرفياً) بالهيلينية.

وبطريقة ما، كانت الأناضول أقل المناطق تغيراً على الفور بهذا الانتشار الجديد للغة اليونانية. ولكنّ أَخْذَ الأناضول بهذه اللغة قُدِّرَ له أن يكون الأدوم والأطول عمراً بين مناطق الإسكندر الجديدة. ونحن نعرف من النصوص المكتوبة والمسكوكات أن تغلغل الآرامية هنا كان متنوّعاً: فكان أقوى ما يكون في كيليكيا (المنطقة الجنوبية الشرقية المتاخمة لسوريا موطن الآرامية)، وأضعف ما يكون على السواحل الجنوبية الغربية، في ليديا وفريجيا، مع حضور بصورة ثنائية مع اليونانية على البحر الأسود (انظر الفصل الثالث: 'الآرامية ـ أغنية الصحراء: تداخل لغات آسيا الغربية'، ص 127). فقد كان للإغريق حضور مؤثر على المحيط لمدة ثلاثة آلاف عام على الأقل. وكانوا عندئذ مستقرين في المنطقة كلها، فيما يسميه د. موستي 'ملكية عسكرية'، ولكنهم كانوا يسمحون بعلاقة متميزة مع المدن، وباحترام للحرية والديمقراطية طنطنوا به كثيراً(19).

ورغم أنه لم يقيض لإدارة السلوقيين اليونانية أن تدوم أكثر من مئتي عام قبل أن تستسلم للرومان، فإن وضع اللغة كان أكثر تماسكاً. فعل امتداد الألف عام التالية توسعت اللغة اليونانية بشكل كبير مقتلعة اللغات المحلية على الساحل الجنوبي وفي المناطق الداخلية. ومن الأمثلة على ذلك أننا رغم استمرار عثورنا على نصوص مكتوبة باللهجة الفريجية حتى القرن الثالث الميلادي، فإن ألواح النذور التي كان يقدمها الفلاحون المحليون لزيوس (رب الأرباب عند الإغريق وهي متوفرة حتى للفقراء بسبب وجود بقايا قطع من الرخام من المقلع في دوكيميون) كلها مكتوبة باللغة اليونانية[20].

وكان هناك تناظر خفي في هذا الانتشار المفاجئ للغة اليونانية إلى الشرق، لأن الآرامية التي ظلت هي المنافس الرئيسي لليونانية في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية القديمة، كانت قريبة لصيقة للغة الفينيقية، أو البونية كما هو اسمها اللاتيني، المنافسة الرئيسية لليونانية في عالم الاستعمار على الشواطئ الغربية للأبيض المتوسط. بل إن هاتين اللغتين الساميتين الشقيقتين كانت المسافة بين أصولهما لا تزيد على مئة ميل بين مركزيهما في صور ودمشق، في غرب سوريا ووسطها. فكأنما كانت المنطقة بأكملها من قادس وراء أعمدة هرقل (فأسبانيا عبر مضيق جبل طارق الحالي) إلى ضفاف نهر الغانج مجالاً لمنافسة بسيطة بين طرفين هما اللغة اليونانية وتحالف اللغتين الساميتين الشقيقتين.

وكما يمكن أن يتوقع المرء من الإغريق المتمركزين على ذواتهم، فإنهم لم يلاحظوا ذلك على الإطلاق(*).

(*) إن ليبانيوس، اليوناني الذي كان يسكن في أنطاكية بسوريا في القرن الرابع الميلادي، كتب أربعة وستين خطاباً تتراوح مواضيعها بين قضايا بلدية، وتعليمية، وثقافية، كما ألف سيرة ذاتية عن حياته، وقصيدة مدح للمدينة. وفي هذا كله لا يذكر وجود الآرامية إلاّ مرة واحدة فقط، رغم أنها كانت محكية حوله في كل مكان (مانغو، 1980: الفصل الأول).

ترحيب روماني: انتشار الإغريقية عن طريق الثقافة

اليونان، عند الاستيلاء عليها، استولت على غازيها المتوحش، وغرست الفن في روما الجلفة...

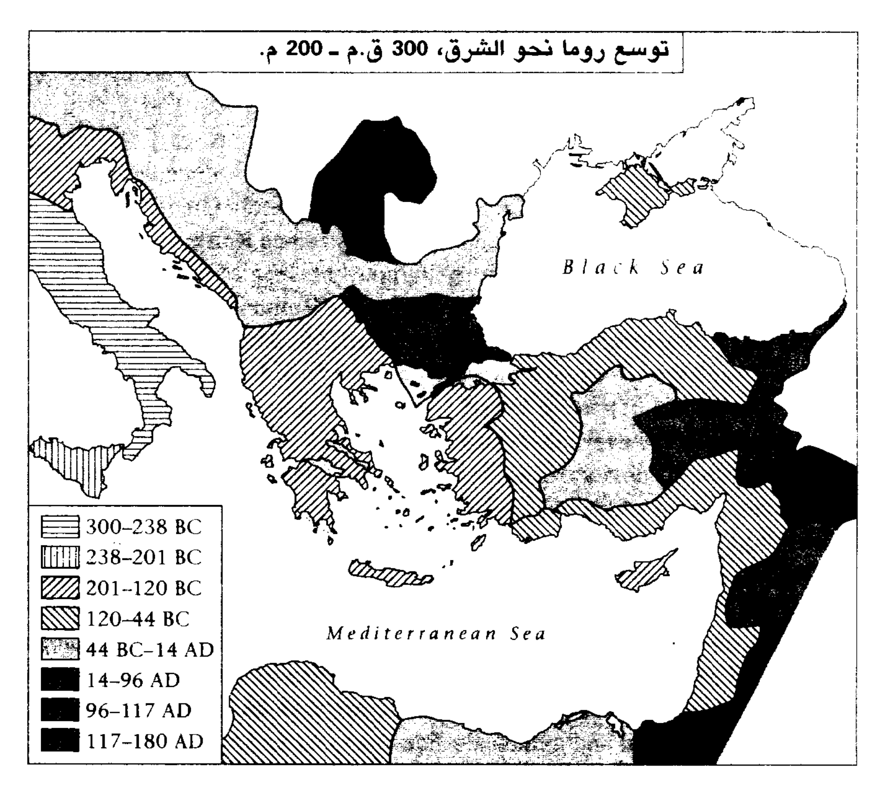
هوراس، الرسائل، 2 ـ 1: 156

في هذين الانتشارين الكبيرين للغة اليونانية عن طريق الهجرة والتغلغل، واستعمار سواحل الأبيض المتوسط، ونتائج غزو الإسكندر الصاعق للشرق، أدى نفوذ اللغة وثقافتها دوراً شديد الضآلة، إن كان لها أي دور أصلاً. فقد استكشف اليونانيون واستقروا، وقد غزوا واستوطنوا. ولكن السكان الجدد الذين سمعوا الإغريقية لأول مرة لم يكن لهم خيار في الأمر. فقد حدث بهذه الطريقة تمدد شاسع للعالم الذي تُحْكى فيه اللغة اليونانية، ولكن في خارج بلاد الأناضول وسوريا ومصر ليس هناك دليل يذكر على انتشار استعمالها اليومي خارج نطاق تجمع المهاجرين الإغريق.

غير أن اللغة اليونانية كانت مهيأة لموجة كبرى من التوسع عن طريق الانتشار. ففي جميع أنحاء حوض الأبيض المتوسط، وقبل كل شيء بين رجال النخبة في قوة روما الآخذة بالصعود، كانت الثقافة اليونانية على وشك أن تصبح مركز المنهج التعليمي.

لقد بدأ الإغريق بميزة ثقافية حتمية على سواحل الأبيض المتوسط، بعد أن جلبوا الأبجدية(*) ومعها عرض لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المتعلم الذي يعرف القراءة والكتابة، والأسلوب الإغريقي، ومعه التعليم الرسمي، ومنهج مبني على مجموعة كاملة من الأشعار الكلاسيكية (وخاصة هوميروس) ومهارات تدريبية فعالة في إلقاء الخطب العامة. ثم، في القرن الثالث قبل الميلاد، أدى عدد من الأحداث السياسية إلى جعل شرقي الأبيض المتوسط الناطق باليونانية يتصل اتصالاً فعالاً بالغرب. ففي العام 280 ق.م. حاول بيروس (قادماً من إيبروس، في اليونان الغربية) أن يغزو إيطاليا وصقلية: فكانت انتصاراته الأولية مضرب المثل

(*) [ملاحظة: لم "يجلبوها"، بل استعاروها من مخترعيها الفينيقيين ـ المترجم].



في ضخامة الخسائر التي تكبّدها. في غضون خمسة أعوام تم طرده على يد المقاومة الرومانية المتواصلة. ولكن تم وضع حاميات رومانية في جميع المدن اليونانية في إيطاليا الجنوبية. وفي العام 273 ق.م. عقد بطليموس الثاني ملك مصر معاهدة مع روما، فرسّخ مكانة الرومان الجديدة كقوة قادمة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وبدأ المؤلفون الثنائيو اللغة يقيمون جسوراً بين الأدب الإغريقي والروماني. وصارت المسرحيات اليونانية (مترجمة إلى اللاتينية) تمثل في روما من العام 240 ق.م. وحاول آخرون، مثل ليفيوس آندرونيكوس، أن يكيفوا الأعمال اليونانية الرئيسية، مثل "الأوديسة" للجمهور الروماني، ولكن مع استخدام أنماط الشعر واللغة الرومانية التقليدية. وفي وقت متأخر من القرن الثالث ق.م. جاءت الأيام المتوترة من الحرب مع هنيبعل: وبعد النصر جاء شيوع الثقافة الإغريقية (فقد كان القائد الروماني المنتصر، بوبليوس كورنيليوس شيبيو، متحمساً شهيراً

للأشياء اليونانية). وكان من الشخصيات القيادية الشاعر إينيوس، الذي ترعرع في إيطاليا الجنوبية وهو يتكلم اليونانية، ولكنه تعلم اللاتينية أثناء خدمته في الجيش: فأدخل الأعمال والقيم الأدبية الإغريقية إلى قلب التعليم اللاتيني، بدءاً من إعادة صياغة الأدب اللاتيني على غرار الطرق والأساليب اليونانية تماماً.

وقد عززت السياسة الخارجية الاهتمام بالثقافة. إذ إن روما قد تدخلت في اليونان بشكل حاسم في القرن التالي، فاستغلت بشكل رائع أحد التجمعات الرياضية لعموم اليونانيين. وفي العام 196ق.م. أعلن القائد الروماني في حشد غير مصدق لما يسمع كان قد تجمع لحضور دورة الألعاب البرزخية في كورينث، أن جميع المدن اليونانية حرة من ذلك الوقت فصاعداً، بفضل الشعب الروماني ومجلس شيوخه. وقد تبعت ذلك سلسلة معقدة من الحروب التي تورطت بها روما في الشؤون اليونانية بشكل أعمق فأعمق، وهي حروب أدت إلى سقوط خلفاء الإسكندر في اليونان كلها والأناضول الغربية تحت الحكم الروماني المباشر.

فكانت المحصّلة تغلغلاً كاملاً وكلياً للغة اليونانية في الثقافة الرومانية. وهكذا فعلى مدى القرون الخمسة التالية، وحتى انفصال الشرق اليوناني عن الغرب الروماني من الإمبراطورية، صار من الممكن الاعتماد على كون الرومان الجيدي الثقافة ثنائيّي اللغة وعارفين باليونانية. وصار تعليم الرومان يتم وفق نمط إغريقي بصورة أساسية، ولكن مع تركيز قوي على الشعر وممارسة الخطابة العامة. وتم إهمال الجوانب الموسيقية والرياضية الجمبازية، وكان المعلمون الخصوصيون ومدراء المدارس ثنائيي اللغة بشكل نموذجي، ومن أصول يونانية. وكان أحد التأثيرات هو الطلب الدائم ليونانيين مثقفين جذّابين ذوي مظهر حسن، قادرين على العثور على وظائف في جميع أنحاء الحوض الأبيض المتوسط. وعلى وجه العموم، كان الوضع يشبه الإمكانيات المتاحة لخريجي البلدان الناطقة بالإنكليزية في البلدان الغنية غير الناطقة بالإنكليزية اليوم. وكثيراً ما كان اليونانيون المثقفون يجدون أن لغتهم هي ثروتهم.

إن أحد الأمثلة على ذلك هي أن الناس الوجهاء في بلاد الغال في القرن

الأول للميلاد كانوا يرسلون أطفالهم ليتعلموا باللغة اليونانية في ماساليا (مرسيليا). ويقول سترابو: 'إن السوفسطائيين كانوا يستخدمون، بشكل خاص أو على حساب المدينة، تماماً مثل الأطباء'[21]. وفي تلك الأثناء، تعوّد نخبة الرومان من الأسر الغنية على إرسال شبابهم إلى أثينا أو رودس لإكمال تعليمهم. ولكن هذا لا يعني أن معرفة اللغة اليونانية كانت محصورة في الطبقات العليا فقط. وكان بلوتوس يكتب التمثيليات الهزلية في أوائل القرن الثاني ق.م. فكان يضع معظم كلماته اليونانية المستعارة والعامية المبتذلة في أفواه العبيد والمنتمين إلى الأنماط المتدنية ـ الصورة الكاملة للعبد الرقيق[22].

وكان بوليبيوس يكتب بعد ذلك بجيل، ولعله كان يريد إضفاء صورة على الأشياء، فاستطاع أن يعطي الملاحظة التالية: 'إن رجالنا العاملين في اليونان قد تخلصوا من ضغوط المطامح السياسية والعسكرية، وهكذا فلديهم فرص كثيرة لمتابعة استطلاعاتهم أو أبحاثهم'[23].

وبعد ذلك بقرن، فإن الاختصار الضمني المحكم عبّر عنه فرجيل بصراحة من وجهة النظر الرومانية[24]:

سيقوم الآخرون بطرق برونز يتنفس بطريقة ألطف
(لا أشك في ذلك)، وسيرسمون من المرمر وجوهاً حية،
وسيدافعون عن القضايا في المحاكم بطريقة أفضل، ويستخدمون عصاً
لقياس التحركات في السماء، وطلوع أبراج النجوم الثابتة،
أما أنت أيها الروماني، فاهتم بحكم الناس الذين تحت إمرتك
(فهذه الفنون ستكون ملكك)، وافرض طريق السلام،
وكف عن المغلوبين، وقاتل المتكبرين لإسقاطهم.

وكان عالم الفنون والعلوم مجال اختصاص يوناني بامتياز. ولكن عالم السلطة والنظام كان تابعاً لروما. فصارت حضارة عالم الأبيض المتوسط مزيجاً إغريقياً ـ رومانياً(*).

(*) من المثير للاهتمام من وجهة النظر الحديثة، بل أيضاً من وجهة نظر هندية كلاسيكية مهتمة بتمييز

ويستحق الأمر لحظةً للتأمل في الجاذبية الحقيقية للغة اليونانية والثقافة المرتبطة بها، وشخصيتها وروحها. ومن المؤكد أن الرومان لم يكونوا يعتقدون أن لديهم الكثير ليتعلموه عن الفضائل التقليدية كما تظهر في الحرب، والقانون، والسياسة من الثرثارين والمبتكرين الأجانب(*). فالفن اليوناني، الذي صار مألوفاً من خلال حملات الجيش في إيطاليا الجنوبية واليونان، كان جذاباً بحد ذاته، ولكن يبدو أن اليونانيين أيضاً كانت لهم ميزة في متابعة الملذات بصورة عامة أكثر: مثل الطعام المطبوخ الراقي، والنبيذ، والموسيقى، والمرح العابث مع أيٍ من الجنسين، فكان الإغريق سادة الترف والفخفخة. فلم يستغرق الأمر مزيداً من التمييز لطلب المزيد من هذه الأشياء. فالكلمة اللاتينية "بيرغرايكاري" *pergraecārī* معناها الالتزام، ليس بالتفكير العالي، بل بالتمتع العالي بالحياة، والاحتفال، والعربدة، وشرب الخمور[25].

وفي الوقت نفسه، فإن المعرفة المحضة لدى الإغريق كانت تثير إعجاب الرومان: فقد كان الإغريق يعرفون تاريخهم، وكذلك تاريخ جيرانهم، وكانوا قادرين على التنظير حول أي موضوع، وتقديم اقتباسات من أشعار عمرها مئات السنين. وقبل كل شيء، كانوا طليقين في الكلام وقادرين على الإقناع، فقد تدربوا على كيفية الإمساك بجمهور المستمعين، وجعل الناس يفعلون ما يرغبون به. وهذه المهارة الصريحة في الخطابة كانت مطلوبة كثيراً في الجمعيات المدنية الأهلية التي أوجدها الرومان، والتي كان الناس فيها يرشحون أنفسهم للمناصب على كل مستوى، من مجلس القرية إلى الجمهورية نفسها، وكانت الإجراءات تقدم شفوياً للجمعيات كي توافق عليها.

وقبل كل شيء، نستطيع أن نرى الرومان (وبالتالي عالم الأبيض المتوسط

الأدوار المتكاملة للباحث/البرهمي، والمحارب - الملك/كشاتريا، والفيسيا/التاجر - ومسألة من هم القادة في مجال الأعمال التجارية، هو أن هذه الأمور لم تخطر على بال الإغريق أو الرومان أبداً. ومن المؤكد أنه كان يتم تكديس ثروات، ولكن هذا كان يعتبر مناسبة لإشباع الرغبات وليس للمجد.

(*) كان هناك مجالان لم يستخدم فيهما الرومان اللغة اليونانية على الإطلاق، وهما المجال القانوني والمجال العسكري. وكان هذا صحيحاً حتى في قلب الأرض الداخلية للغة اليونانية في شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث لم تحرز اللاتينية أي تقدم يذكر كبديل.

كله) وقد اجتذبهم الإحساس بمعرفة العمل الذي تولده ثقافة واسعة النطاق، شديدة الإتقان، واثقة بنفسها إلى حد الأنانة (أي النظرية القائلة بأن لا وجود لشيء غير الأنا). وقدر لشيء مشابه جداً أن يحدث عندما وصلت السنسكريتية وعجائب الهند التقليدية الكلاسكية إلى شواطئ جنوب شرق آسيا (انظر الفصل الخامس: 'انتشار السنسكريتية'، ص 288)، أو عندما صارت الفرنسية لغة التهذيب والرقي في جميع أنحاء أوروبا، وخاصة في روسيا، بين القرنين السابع عشر والثامن عشر (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 563). ويمكن رؤية شيء مشابه من جاذبية الثقة بالنفس الوقحة المتهورة الواسعة النطاق اليوم وهي تعزز تذوق الأشياء الأمريكية، ومعها اللغة الإنكليزية، على نطاق عالمي. وكما تبين هذه الأمثلة، فإن الامتياز وراءها هو شيء غير الارتباط بجيش ناجح، أو باقتصاد ناجح.

أزمة منتصف العمر: محاولة بداية جديدة

> لم تقل أي من الكلاسيكيات "يوخارشتاين" (بمعنى 'شكراً')، ولكن "خارين إيديناي".
>
> فرينيكوس آرابيوس، المجلد 6 (القرن الثاني الميلادي)

> إني أشكر إلهي دائماً في أمركم على ما أوتيتم من نعمة الله في يسوع المسيح.
>
> رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، 1: 4 (القرن الأول الميلادي)

كان الناطقون باليونانية شديدي التمسك دائماً وعلى نحو خاص بتراثهم الأدبي، وكان هذا أحد الأسباب التي جعلت لغتهم تبقى مركزية ومتكاملة على مدى قرون عديدة، رغم انتشارها ذات مرة بهذا الشكل الواسع حول العالم. ولكنهم كانوا دائماً يفسرونها بشكل ضيق للغاية، ليس كتقليد حيّ بقدر ما هي مجموعة ثابتة لا تتغير (ولا تُدْرَك) من المؤلفين التقليديين الكلاسكيين، والكتاب الأثينيين الرئيسيين (بلهجة الأتيك Attic) في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد(*).

(*) كان المؤلفون في الحقيقة قليلين للغاية. وهم لا يزالون معترفاً بهم كجوهر التعليم التقليدي

إن هذا يقدم أساساً واضحاً للتعليم، ونموذجاً للكتابة والكلام الرسمي ولكنه يعني أن الأسلوب الجيد فعلاً هو شيء لا يمكن إدراكه (وهو غير مفهوم بشكل متزايد) عندما تبدأ اللغة بالتغير، وبالطبع فإنها تغيرت على الفور هكذا. فمن القرن الثالث قبل الميلاد، لم يعد الإلقاء الصحيح قابلاً للتمييز أبداً عن أسلوب التفاصح العتيق. وإلى حدّ ما يمكن اعتبار ذلك سياسة قائمة على إعطاء أكبر سلطة لأكثر الناس قدرة في لغة كانت تستخدم في جميع أنحاء الأبيض المتوسط والشرق الأدنى: فكان المتكلمون الأهليون ومتعلمو الإغريقية كلغة ثانية متساوين أكثر عندما لم يكن هناك أحد يتكلم بأفضل لغة يونانية بشكل طبيعي. ولكن الأهم هو أن هذا كان يعني أنه ليس هناك أحد يمكن اعتباره وقبوله كمثقف أبداً بدون أرضية خلفية واسعة مستفيضة في ميدان الأدب. وقد ظلت اللغة اليونانية دائماً تغذي ثقافة مثيرة للنزاع، كما ظلت الطائفة ذات النزعة 'الأتيكية' (Atticism) تتعرض للمساءلة، والانتقاد، والمحاكاة التهكمية، والشتائم طيلة الألفين والخمسمئة عام الماضية ـ ولكن بلا جدوى.

وكما رأينا، فإن ذلك لم يكن سببه عدم وجود قاعدة أخرى ذات طبيعة شعبية أكثر علاقة بالأمر الواقع. فاللهجة الأتيكية الإغريقية أدت بشكل فوري تقريباً إلى نشوء اللهجة الشعبية الأسهل وصولاً والقريبة من اللهجة الأتيكية في صياغاتها، والمحددة في استخدامها، والمفهومة حيثما كانت الإغريقية محكية. ولكن رغم كل فوائد استعمالها، فإنها لم تكن ذات منزلة رفيعة. وفي العالم ما قبل الحديث، حيث المنزلة مرتبطة بمعرفة القراءة والكتابة ـ وبدون التعليم العام الشامل كانت هذه المعرفة حكراً على القلة ـ فقد كان لذلك تأثير هام.

غير أن نوعاً من العجرفة المقلوبة كان يسود في بعض الأحايين. فاللغة الإغريقية في الإمبراطورية الرومانية كانت قد انتشرت إلى أناس آخرين غير

الكلاسيكي في أوروبا الغربية. وهم كتّاب المسرحيات الدرامية آسخيلوس، وصوفوكليس، ويوريبيديس وأرسطوفانيس، والمؤرخ ثيوسيديديس، والفيلسوف أفلاطون، وحفنة من الخطباء، يتوّجهم ديموستين، نددوا تنديداً شديداً بتهديدات فيليب المقدوني. وكانت المواقف التقليدية اليونانية التي يعود تاريخها إلى الإمبراطورية الرومانية لا تزال بشكل فعال تحدد المنهج المدرسي البريطاني الذي درسته في ستينيات القرن العشرين.

النخبة المثقفة. فالجماعة اليهودية في روما ظلت تتكلم اليونانية حتى القرن الرابع الميلادي[26]. وفي القرون الأولى من الألفية الميلادية الأولى، كان عدد من الأديان الغامضة ينتشر من الولايات الشرقية، من مصر، وسوريا، وآسيا، وأشهرها طقوس عبادة إيزيس، وميتراس، وعيسى المسيح، وقد أخذت كلها بالإغريقية كلغة لطقوسها[27]. وكانت تجتذب معتنقين بين الفقراء والمسحوقين في الإمبراطورية في أول الأمر. وبالنسبة لهم جميعاً، فإن سلطة الأعمال الإغريقية الكلاسيكية، في جبل الأولمب، لم تكن سلطة على الإطلاق.

ومع ذلك، فبالنسبة للمسيحية على الأقل، لم يكن معنى ذلك أن أتباعها كانوا يرفضون سلطة الأدب المكتوب. وبما أن أصول العقيدة المسيحية كانت في التقليد اليهودي، فإنها سرعان ما راحت تكتب نصوصها المقدسة الخاصة بها وتعترف بهذه النصوص، باللغة اليونانية بشكل رئيسي أول الأمر، ثم كانت هناك نصوص عامية دارجة كتبت فيما بعد بالآرامية في سوريا، وبالقبطية في مصر، وبالجعيزية في الحبشة، ـ وباللاتينية طبعاً. ويبدو من الناحية العالمية أن المسيحيين الأوائل كانوا يختارون اللغة بغرض زيادة الوصول إلى أقصى حد، وبدون تفكير في مكانة متميزة لأي مدونات بعينها. ولكن هذا كان يعني أن هناك بداية معيار جديد للأدب اليوناني، وهو معيار يقوم ـ لأول مرة في أربعة قرون ـ على الاستخدام الشعبي[*].

لقد أبدينا ملاحظات على ظاهرة 'درع الإيمان'، وهي الطريقة التي أسهمت بها الأديان ـ ولا سيّما التي أصلها من غرب آسيا ـ في الحفاظ على اللغات التي كانت أدواتها. فلم تكن الإغريقية بحاجة إلى أي مساعدة تذكر من المسيحية في تلك السنوات المبكرة، ولكن لا بد أن كثيرين قد أخذوا بالإغريقية كلغة ثانية

(*) وكان من الملامح الأخرى للكتابات إلى جانب أسلوبها أنها كانت تجديدية مبتكرة فكان المسيحيون مهتمين في ترويج شعبية التصميم الجديد للكتب، 'المخطوطات'، ذات الصفحات المليئة بالكتابة على جانبيها والموصولة بعمود فقري، على عكس الرقعة أو اللفيفة التقليدية. وقد ثبت هذا شكل القطع العام للكتاب طيلة الألفي عام التالية على الأقل. والتخمين هو أن ذلك قد جعل الوصول إلى الكتب أكثر سهولة عند صنعها وتجليدها، كما سهل اقتباس مقاطع هامّة منها (هاريس 1989: ص 296).

لكسب وصول أفضل لأدبها. وقد نفذت المسيحية فعلاً بعض الامتدادات إلى مجال الأدب اليوناني محولةً الخطابة إلى عظة دينية أو أخلاقية(*)، والفلسفة إلى لاهوت.

والواقع أن هذه الامتدادات كانت تميل إلى إبطال التحوّل إلى المعنى اللغوي الإغريقي الذي أحدثه الأدب الجديد غير الرسمي. وهنا كانت المسيحية ضحية نجاحها نفسه. ففي وقت نموها، كانت تزداد شيئاً فشيئاً صعوبة النضال للحفاظ على صرح الإمبراطورية الشاسع تحت إدارة واحدة لأوروبا الغربية والبحر الأبيض المتوسط ككل. وكان الحكام يبحثون عن وسيلة جديدة لتأمين الولاء على امتداد ممتلكات شاسعة. وكانت البصيرة المتعمقة النفاذ للإمبراطور قسطنطين تشير له بأن هذه الوسيلة يمكن أن توجد في المسيحية. وفي العام 330 م أعاد تنظيم الإمبراطورية الآخذة بالانقسام إلى أقاليم حول عاصمة جديدة في بيزنطة، التي راحت تعرف منذ ذلك الحين باسم القسطنطينية (كونستانتينوبوليس، أي مدينة قسطنطين)، وجعلها مؤسسة مسيحية.

وهذا ما جعل التاج يشرع في دفع المسيحية للتقدم الاجتماعي. وكانت قد بدأت تجتذب معتنقين من نوع جديد لمدة زادت على قرن من الزمن. وعلى سبيل المثال، فإن كليمنت الإسكندري (المولود في العام 150 م) استخدم ثقافته الكلاسيكية المستفيضة ليؤلف كرّاساً بعنوان "المشجع"، في محاولة لإقناع الإغريق بالحجة للخروج من وثنيتهم واعتناق المسيحية، ثم تابع عمله ليقيم نظاماً منطقياً فوق المبدأ المسيحي القائل بأن المسيح كلمة الله. وكان أوريجين (185 ـ 255) ناقداً لنصوص الإنجيل، وكان يوسيبيوس (260 ـ 339) أول مؤرخ للكنيسة. ومثل هؤلاء الأكاديميين الإغريق النموذجيين كانوا يتقنون جيداً الكتابة بالأسلوب الكلاسيكي الفصيح. ولكن الكنيسة عندئذ راحت تجتذب أيضاً الطبقات العامة من الناس الساعين لتحسين أحوالهم في العالم الدنيوي الزائل، أو الساعين ببساطة لتأكيد حقهم كأفراد أسر متميزة. فكانت النتيجة عودة كاملة مندفعة

(*) كانت كل من الكلمة الإغريقية "هوميليا" homilia والكلمة اللاتينية "سيرمو" sermō، تعني في الأصل محادثة غير رسمية، أي "دردشة" بلا كُلفَة.

للاتجاه القديم للأخذ باللهجة الأتيكية Attic. فأعيد ترسيخ اللغة الكنسية اليونانية بثبات في التقليد الكلاسيكي الفصيح، ولم تعد بعد ذلك تخضع لإغراء الانحراف عنه أبداً. كما أن ميل الإمبراطورية المتزايد لتحريم الوثنية، المحددة بأنها تشمل كل فلسفة ما قبل المسيحية، توّج بإغلاق جستنيان لمدرسة أثينا [المسماة أكاديمية أفلاطون] في العام 529 م. ولكن بقاء الأسلوب الأتيكي Attic لم يكن قط موضع شك.

إن اقتناع اليونانيين هذا بأن الطرق الشديدة القدم في الكتابة هي أفضل الطرق ثبت أنه عميق الجذور مثل الإمبراطورية نفسها. وعندما سقطت مدينة القسطنطنية بيد الأتراك بعد ذلك بألف سنة أو تزيد، في العام 1453، كان الناس مستمرين في محاولة الكتابة بصيغة مقبولة من صيغ اللهجة الأتيكية.

تلميحات عن التدهور

إن قصة اللغة اليونانية في الألف سنة التالية هي قصة حالات من التمترس قليلة التكرار، ولكنها مفاجئة وكثيفة، كما حدث للتمدد الشاسع الذي أقيم في أواخر الألف الأولى قبل الميلاد، عندما دُفِعَ إلى الوراء عند حافاته. ففي غربي الأبيض المتوسط حيث لم تكن إمبراطورية اللغة اليونانية أبداً دنيوية زمنية، فإن هذا الفقدان لأقسام من المجتمع اللغوي الإغريقي قد حدث ببساطة لأن بؤرة مركز الثقافة قد تحولت. فلم يعد التعليم باليونانية جزءاً من التعليم الأوروبي الغربي، وصارت الاتصالات مع الشرق أندر بكثير. ولكن هذه الانسحابات في أماكن أخرى قد نتجت بشكل مباشر من الاندحارات العسكرية.

ففي الإمبراطورية الرومانية الغربية، حيث كانت اللاتينية سائدة، فإن الهزائم العسكرية التي قلصت الإمبراطورية وسرعان ما قضت عليها سياسياً قُدّر لها أن تكون آثارها على اللغة محدودة جداً (انظر الفصل السابع 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 429)، ولكن في الشرق كانت نتيجة الهزائم

أبسط بكثير. فقد تولت الأمر قوات معادية، وبعد فترة انتقالية مقبولة ـ من عدة أجيال على الأغلب ـ لم تعد اللغة اليونانية مسموعة أو مرئية.

باكتريا، وفارس، ووادي الرافدين

كانت أول منطقة تفقدها اللغة اليونانية واقعة إلى أقصى الشرق: وتشمل فارس، وأفغانستان، نزولاً إلى وادي الإندوس. فالسيطرة السلوقية هنا لم تكن آمنة فترة طويلة. ولكن طيلة القرن الأول بعد وفاة الإسكندر (عام 323 ق.م.) جاءت المنافسة بصورة رئيسية من ملوك آخرين مقدونيين ويونانيين لم يعارضوا انتشار اللغة اليونانية. فعند حلول العام 260 ق.م. كان الإغريقيون ـ الهنود في باكتريا، بقيادة ديودوتوس أول الأمر، قد أعلنوا أنفسهم كمستقلين. وفي حوالي هذا الوقت نفسه (وربما بسبب هذا التمرد)، اندفع البارثيون الناطقون بالفارسية جنوباً من الشواطئ الشرقية لبحر الخزر إلى الهضبة الفارسية. وبعد ذلك بقرن، في العام 146 ق.م. أكمل ميثراداتا الأول ملك بارثيا هذه المهمة وطرد السلوقيين من باقي بلاد فارس، واستولى على وادي الرافدين بالإضافة إلى ذلك. وتصادف بعد ذلك بعشر سنوات أن غلبت ملوك باكتريا الإغريق ـ الهنود على أمرهم أمام غزو سكيثي (ساكا) من الشمال تبعه بعد وقت قصير غزو من جيوش كوشانا (المعروفين أيضاً باسم التوتشاريانيين أو اليوجيين) من الشمال الشرقي.

ولم يكن انطفاء اللغة اليونانية فوق هذه المنطقة الشاسعة فورياً. ففي الشرق، كانت هناك حقيقة أن الباكترية، اللغة الرسمية لإمبراطورية كوشانا، التي استمرت من منتصف القرن الأول الميلادي إلى نهاية القرن الثاني، كانت تكتب بالحروف اليونانية. وهذا شيء فريد بين اللغات الفارسية، وهو يظهر أن أهالي كوشانا قد أمضوا فترة غير قصيرة من التفاعل الثقافي مع الإغريق. ففي العام 44 م، بعد 190 عاماً من سقوط الملوك الإغريقيين ـ الهنود، يقال بأن الحكيم أبولونيوس، من تيانا لم يجد صعوبة في التفاهم باللغة اليونانية أثناء رحلة أخذته طيلة الطريق كلها عبر هندكوش إلى تاكسيلا، حيث استقبله وأضافه (باللغة اليونانية) ملك بارثي أسهب في الحديث عن ثقافته ذات الأسلوب الإغريقي[28].

ونحن نعرف من نصوص رسمية مكتوبة أن المجتمعات الناطقة باليونانية في المناطق الغربية استمرت ضمن الإمبراطورية البارثية عدة أجيال. وهناك مخطوطات إغريقية في سوسه، التي كانت هي العاصمة الإغريقية تحت اسم 'سلوقيا على اليولايوس'، وإحدى هذه المخطوطات من العام 21 م، وعلى مبعدة إلى الغرب، في وادي الرافدين، في مدينة سلوقيا على نهر دجلة هناك نص ثنائي اللغة بالبارثية واليونانية مؤرخ بوضوح في العام 151 م، يسجل نصراً بارثياً على ميسين (المفروض) بأنها ناطقة باليونانية، على الخليج العربي، قرب البصرة الحديثة. (ومما له دلالة أن هذا النص منقوش على خاصرتي تمثال لهرقل بلغة مختلفة على كل خاصرة)(29). وكانت ميسين أيضاً هي موطن إيزيدوروس من كاراكس، وهو يوناني معاصر للمسيح تقريباً، وقد ألف كتاباً بعنوان "المحطات البارثية"، يصف الطريق عبر بارثيا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي.

وكانت سياسة البارثيين اللغوية الخاصة بهم هي قلب التاريخ. فقد أعادوا تثبيت الآرامية كلغة مشتركة لإمبراطوريتهم، وتركوا عدة نصوص ونقوش مكتوبة بها، واستخدموا نظامها الكتابي في لغتهم (الفارسية). وإن إمكانية ذلك تثبت أن اليونانية لم تحل محل البارثية تماما أثناء قرنين من الحكم السلوقي.

ولكن البارثيين لم يكونوا متلهفين إلى إزالة تراث الحكم اليوناني في فارس. فمسكوكاتهم النقدية كلها تحمل نقوشاً من الأساطير الإغريقية:

> لملك الملوك، آرساكيس، الرحيم، العادل، البارز، المحبّ لليونانية.

ويروي بلوتارخ قصة الملك البارثي أوروديس عندما تلقى الدليل الرهيب على انحار القائد الروماني كراسوس في العام 53 ق.م. وهي رأس القائد المقطوع، وذلك عندما كان الملك يحضر تمثيل مسرحية يوريبيديس المعنونة "باخوس"(*).

(*) وكان مضيفه آرتافازديس ملك ارمينيا دارساً للغة اليونانية أيضاً على ما يبدو، إلى درجة أنه كتب بها مسرحيات من تأليفه (بلوتارخ، كراسوس).

وبما أن اليونانية ظلت لغة قوة عظمى مجاورة هي الإمبراطورية الرومانية، فربما كان ذلك سبب بقاء نفوذها في بارثيا زمناً طويلاً بعد أن تلاشى استخدامها هناك فعلياً. وقد دامت المملكة البارثية في بلاد فارس خمسة قرون. وفي العام 224 م. استسلم آخر ملوكها لأردشير، أول ملك من السلالة التالية، وهي سلالة آل ساسان، الذين كانوا يتكلمون الفارسية. ومع ذلك فعندما أراد ابنه سابور أن تنقش منجزاته على صخرة في نقشي - رستام، في مواجهة قبور ملوك الفرس في بيرسيبوليس [المدائن الحالية]، كتبها بثلاث لغات هي الفارسية، والبارثية، والإغريقية[30].

سوريا، وفلسطين، ومصر

لم تكن فارس أبداً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، التي لم تحتل سوى جزء صغير من وادي الرافدين(*). وهكذا فإن هذين البلدين لم يكن فيهما أبداً شعور بممتلكات يونانية دائمة كالتي ميزت سوريا، وفلسطين، ومصر، التي ضمت إلى إمبراطورية الإسكندر، ومن هنا تم إضفاء الصبغة الإغريقية الهيلينية عليها، في العام 332 ق.م. وفي العام 64 ق.م. ضم القائد الروماني بومبي سوريا وفلسطين كإقليم تحت حكم الإمبراطورية المباشر، وفي العام 30 ق.م. ضم إليها أغسطس مصر بعد أن أطاح بحكم كليوباطرة، آخر سلالة البطالسة. وكما رأينا فإن الغزوات الرومانية لم يكن لها أي تأثير لغوي، سوى إدخال استخدام شيء من اللغة اللاتينية في الجيش والمحاكم. ولكنها لم تؤكد الإحساس بأن هذا الجزء من العالم في أقصى جنوب شرق الأبيض المتوسط سيبقى دائماً، وبأكبر قدر ممكن من الاستقرار، تحت السيطرة الغربية. وظلت اليونانية محكية من قبل رجال النخبة الأجانب، وفي بعض المدن الخاصة مثل تدمر وغزة والإسكندرية من قبل آخرين كثيرين.

(*) على مدى السنوات الثلاث 114 - 117 م استولى الإمبراطور تراجان على المنطقة كلها ثم خسرها ما عدا الجزء الشمالي الغربي منها المسمى أوسروين، الذي تم ضمه لمدة قرنين بعد حملة رومانية في العام 164م.

ويقدم إيجيريا، الذي زار القدس في العام 400 م، شعوراً بالوضع اللغوي في مركز للحج الدولي في المنطقة:

> كان الناس في ذلك البلد يعرفون اللغتين اليونانية والسريانية، وفي جزء منه كانوا يعرفون اليونانية فقط، وفي جزء آخر يعرفون السريانية فقط. رغم أن الأسقف كان يعرف السريانية فإنه كان يتكلم باليونانية فقط ولا يتكلم بالسريانية أبداً، وكان إلى جانبه دائماً قسيس يترجم كلامه اليوناني إلى السريانية كي يفهم الجميع. وبالمثل بالنسبة للدروس المقروءة في الكنيسة، فكان من اللازم أن تقرأ باليونانية، وهناك دائماً شخص يترجمها إلى السريانية لفائدة الناس كي يتلقوا التعليمات. أما بالنسبة للاتين الموجودين هناك، والذين لا يتكلمون السريانية ولا اليونانية فتقدم لهم ترجمة أيضاً كي لا يثور سخطهم، لأنه كان هناك إخوة وأخوات يتقنون اللغتين اليونانية واللاتينية. فكانوا يقدمون شروحاً باللاتينية[31].

لقد نظرنا في سلسلة الحملات السريعة الصاعقة التي شنها المسلمون الجدد، والتي قلبت هذه الأوضاع، وخلقت الوضع اللغوي الذي استمر حتى يومنا هذا (انظر الفصل الثالث 'العربية ـ البلاغة والمساواة: انتصار "التسليم"، ص146). كان عقد واحد من السنوات بعد وفاة محمد في العام 632 م كافياً لوضع خط رفيع ولكنه لا يمحى تحت 950 سنة من السيطرة اليونانية واللغة اليونانية لإنهائهما، وقلب صفحة من السيطرة العربية على هذه الأراضي مضى عليها 1300 عام حتى الآن. فكان ذلك صدمة لجميع المعنيين، وخاصة لأنها جاءت بعد سنتين من قيام الإمبراطور هرقل بإعادة تثبيت دفاعات الإمبراطورية وحملاته التي استغرقت أربع سنوات لرد الغزو الساساني لهذه المناطق نفسها التي حرم منها الإغريق منذ مطلع القرن السابع الميلادي(*).

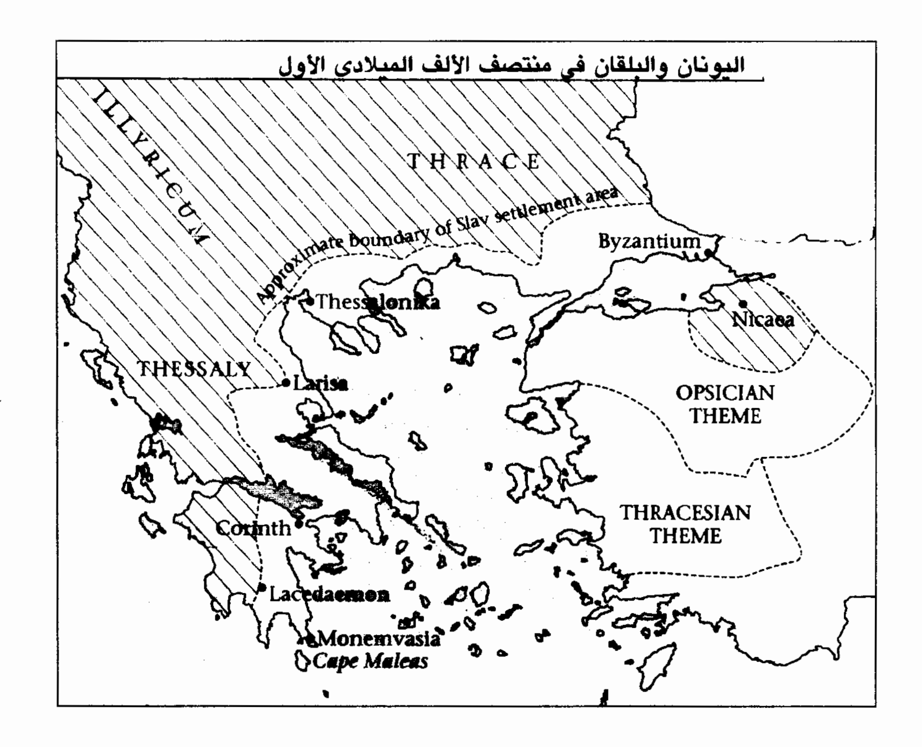
كانت تلك ضربة مدمّرة للإمبراطورية، سياسياً واقتصادياً، فقد شملت

(*) [ملاحظة: لماذا يعتبر المؤلف السيطرة العربية على بلاد الشام "صدمة لجميع المعنيين" ولا يعتبر السيطرة الرومانية "صدمة"؟ ومن هم هؤلاء "المعنيون؟" الجواب عند تعصبه الحاقد علينا ـ المترجم].

خسائرها مصر، التي كانت مورد الحبوب الأكبر للعاصمة الإمبراطورية طيلة 650 عاماً. وتشير أفضل التقديرات(*) إلى أن الفتوحات العربية قد حرمت الإمبراطورية من أكثر من نصف سكانها. ولكن الأمور كان من الممكن أن تكون أسوأ. فقد فشلت محاولات العرب المتكررة لأخذ القسطنطينية نفسها، كما فشلت في فصل الأناضول، رغم استمرار الغارات عليها كل عام طيلة القرنين التاليين(32). فقد أعاد هرقل تنظيم المنطقة، فدمج الإدارتين المدنية والعسكرية بشكل فعال وفرض الأحكام العرفية. إذ إن التصور الواضح لوجود العدو على الأبواب قد فرض هذا النظام وأبقى الإمبراطورية مستنفرة بصورة فعالة للدفاع.

إن هناك نمطاً مثيراً للاهتمام في الخسائر البيزنطية في منتصف القرن السابع الميلادي. فالأماكن التي صمدت بصلابة هي تلك التي كانت اليونانية فيها لغة الأغلبية، يتكلمها الناس عموماً، وليس النخب فقط. فكان لذلك تأثير على صورة الإمبراطورية الرومانية أمام نفسها (فقد كانوا ما يزالون يعتبرون أنفسهم من الرومان). وكانت اللاتينية آخذة بالسقوط من الاستعمال لبعض الوقت، حتى إنها فقدت حصنها في القانون: فمنذ زمن جستنيان، قبل ذلك بقرن كانت مسودات معظم التشريعات تصاغ باللغة اليونانية. وكان الآمر الثاني بعد الإمبراطور، الحاكم التابع للحرس الإمبراطوري، رجلاً لا يعرف اللاتينية في أغلب الأحيان. وقد ظلت الإمبراطورية محتفظة بجزء كبير من إيطاليا الجنوبية، بل وتمسكت بأجزاء منها لمدة أربعمئة عام أخرى حتى منتصف القرن الحادي عشر. ولكن لأول مرة في ذلك الوقت اعتبرت اليونانية، وليس اللاتينية، هي اللغة الموحدة للمجتمع كله. ومما يثير الحيرة والارتباك عند أهل العصر الحديث أنهم أطلقوا على اللغة اليونانية اسم "رومايكا"، أي 'الرومية' باعتبارها عكس "لاتينيكا" وبالنظر إلى الوراء من منتصف القرن العاشر، فإن الإمبراطور

(*) يقدر مانغو (1980: الفصل الأول) عدد سكان مقاطعات شرقي البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن السادس بثلاثين مليوناً، منهم ثمانية ملايين في مصر، وتسعة ملايين في سوريا - فلسطين - وادي الرافدين، وعشرة ملايين في الأناضول و3-4 ملايين في البلقان. ولاحظ أيضاً أن بلاد الأناضول كان فيها ضعف سكان اليونان والمقاطعات الأوروبية.



قسطنطين السابع بروفيروجنيتوس قد لاحظ أن الرومان كانوا في زمن هرقل قد 'اصطبغوا بالطابع اليوناني الهيليني ونبذوا لغة آبائهم، اللسان الروماني'،[33].

اليونان

رغم أن حركة المنفاخ المثيرة للاضطراب وعدم الاستقرار على الحدود الإمبراطورية لم تتوقف، فإن استنزاف المناطق الناطقة باليونانية توقف طيلة القرون الأربعة التالية. ولكن ذلك لم يكن واضحاً آنذاك، فبينما خسرت الإمبراطورية الرومانية المناطق الجنوبية في بلاد الشام، كانت المناطق الشمالية في حالة اضطراب أيضاً.

فكانت الأمور موشكة على انفجار يهدد بقاء اللغة اليونانية على أراضيها الداخلية نفسها. فبعد غزوات قبائل القوط الناطقة بالجرمانية في العام 378، وقبائل الهون الناطقة بالتركية في الأعوام 441 ـ 447، وقبائل الأوستروقوط الجرمانية في الأعوام 479 ـ 482، وقبائل البلغار الناطقة بالتركية في العام 493،

استمر الضرر في القرن السادس. وبعد خمسين عاماً من هذه الأزمة يروي المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس:

> إن إيليريكوم وثريس كلها، أي جميع الأراضي من الخليج الآيوني [الأدرياتيك] إلى ضواحي بيزنطة، بما فيها اليونان ومناطق تشيرسون كانت تجتاحها في كل عام تقريباً قبائل الهون، والسلاف، والأنتاي منذ أيام الإمبراطور جستنيان. وقد أحدثت هذه القبائل الغازية أضراراً لا تحصى بين سكان تلك الأجزاء. لأنني أعتقد أنه في كل غزو كان أكثر من مئتي ألف روماني يقتلون أو يؤسرون ...[34].

ثم في العام 581، كما يسجل جون من إيفيسوس، فإن 'شعباً ملعوناً يسمى السلافونيين اجتاح اليونان كلها، وبلاد ثيسالونيا، وكل منطقة ثريس، واستولوا على المدن، وأخذوا قلاعاً عديدة، ودمروا وأحرقوا، وحولوا الناس إلى عبيد، وجعلوا أنفسهم سادة على البلاد كلها، واستقروا فيها بالقوة المحصنة، وسكنوا فيها كأنها ملك لهم'[35].

ولم تكن هذه ظاهرة مؤقتة، وقد أدت إلى هجرة اليونانيين على نطاق واسع. وحسب مسرد مونيمفازيا التاريخي، فإنه عند حلول العام 587/588 لم يكن هناك أي جزء في اليونان فيه مناعة ضد الكارثة السلافية، التي جاءت هذه المرة من الآفار (وهم مجموعة أخرى ناطقة بالتركية): 'إن الجزء الشرقي وحده من شبه الجزيرة البيلوبونيسية، من كورنث إلى خليج ماليا‌س، هو الذي بقي ناجياً من السلافونيين، بسبب وعورة أراضيه وصعوبة الوصول إليها".

وربما كان من المتوقع أن يؤدي هذا إلى انتشار دائم للغات السلافية، كما حدث فعلاً في صربيا وبلغاريا على مبعدة إلى الشمال (انظر الفصل السابع: 'الفجر السلافوني في البلقان'، ص 435). ولكن تمت استعادة تغلب الناطقين باليونانية على الناطقين بالسلافية بطريقة ما في الجنوب. وفي القرون السابع والثامن والتاسع، نظمت الإمبراطورية سلسلة من برامج إعادة التوطين وحملات التبشير، فأزاحت السلاف إلى الأناضول الشمالية، وجلبت آخرين إلى اليونان الجنوبية. فنحن نسمع أن نقفور الأول قام في العام 805 'بإعادة بناء مدينة لاسيدايمون من جديد، وأسكن

فيها خليطاً من الناس هم الكفيريون، والثراسيون، والأرمن، وغيرهم تم جمعهم من أماكن ومدن مختلفة، وجعلها أسقفية'[36].

وبالمثل في ستينيات القرن التاسع الميلادي كان باسيل الأول منهمكاً في العمل الجدي لتنصير الصرب في الشمال: 'فبعد أن أضفى عليهم الطابع الإغريقي، أخضعهم لحكام حسب العادة الرومانية، وشرّفهم وأكرمهم بتعميدهم، وأنقذهم من ظلم حكامهم'[37].

إن من المستحيل توضيح التفاصيل إذا كان الهدف هو تفسير سبب تحول بعض المجتمعات إلى النطق باليونانية وإلى اعتناق المسيحية كذلك، فمن المؤكد أن الطقوس التي تعلموها كانت باللغة اليونانية. وفيما بعد فإن الخدمة في الجيش قد عملت على جلب كثير من السلاف إلى العالم الناطق باليونانية. ولكن النتيجة الصافية واضحة. فقد بقيت الإغريقية، أو أعيد ترسيخها باعتبارها اللغة المسيطرة في موطنها التقليدي.

الأناضول

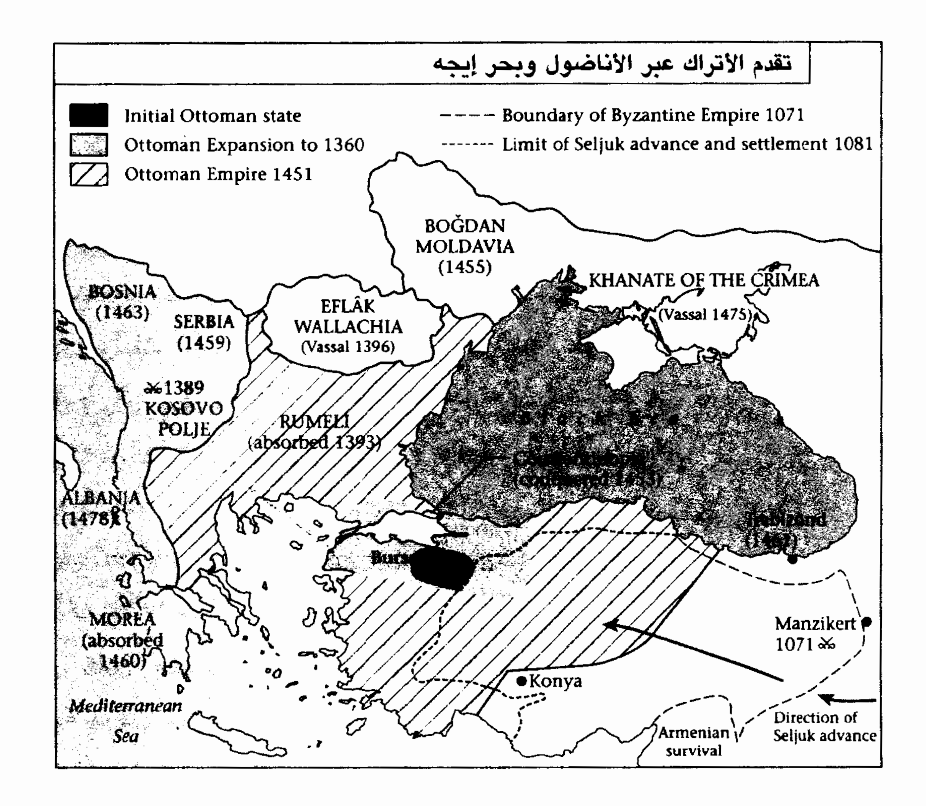
استمرت سيطرة اللغة الإغريقية في بلاد الأناضول حتى العام 1071م. ففي ذلك العام خسرت الإمبراطورية معركة منزيكرت (مالازغيرت الحديثة، شمال بحيرة فان) لقوة جديدة مسيطرة على العالم الإسلامي، هي سلطنة السلاجقة الأتراك[*]. ورغم ذلك، كان بوسعها أن تتجنب خسارة كل أرضها الداخلية التي نجمت عن ذلك: فالسلطان السلجوقي ألب أرسلان، الذي كانت أمامه حروب أخرى يخوضها، حاول أن يعيد تنصيب الإمبراطور المدحور رومانوس ديوجين وفق شروط كانت ستقيم تحالفاً بين القوتين، وتتيح للأتراك وصولاً إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق إيديسا وهيرابوليس وأنطاكية في سوريا الشمالية. ولكن رومانوس تم رفضه، ورفض الشروط المعروضة كذلك، فكانت عاقبة ذلك التقدم السلجوقي السريع خلال معظم

(*) كان مصير البيزنطيين قد أصبح معروفاً في ذلك العام (1071م). وقد وصلت أيضاً أخبار بأن النورمانديين قد استولوا على باري، وبذلك أنهوا 535 عاماً من إمبراطورية الرومان في إيطاليا.

بلاد الأناضول، وهي أرض سيطر عليها الناطقون بالتركية منذ ذلك الحين - مما يُذكّر على نحو غريب بأصول الإمبراطورية القديمة في إيطاليا - فصارت تركيا تعرف باسم سلطنة الروم.

وهذا الانتشار للجحافل التركية التي تحولت بسرعة إلى مستوطنين أتراك في غضون مئة عام أدى إلى حرمان المجتمع اللغوي اليوناني من قلب إقليمه الكبير. ولذلك فإن السكان الناطقين باليونانية على نطاق عالمي كانوا مهيئين للسقوط السريع، سواء عن طريق الهجرة، أم ببساطة عن طريق خسارة الجيل التالي من المتعلمين. بل إن بعض مجتمعات الناطقين باليونانية قد غادروا كلهم بالجملة، وترك أفراد كثيرون بيوتهم للعثور على أفضل منها في أماكن أخرى، كما إن أطفال بعض العائلات اليونانية قد امتصتهم واستوعبتهم البيئة الجديدة، فنشؤوا يتكلمون التركية.

كانت هذه ضربة لبقاء اليونانية كلغة كبرى. وبعدها بخمسة أجيال، تلقت ضربة مزقت نفوذها الباقي. ففي العام 1204، انحرفت الحملة الصليبية الرابعة، المكونة من فرسان أوروبا الغربية عن مهمتها المحددة، وهي مهاجمة القوى الإسلامية التي كانت تمسك بفلسطين، واحتلت تلك الحملة القسطنطينية، وكذلك أجزاء من اليونان والساحل الأناضولي. ثم تابعت تلك الحملة الصليبية الاحتفاظ بمكاسبها باعتبارها 'إمبراطورية لاتينية' يديرها البنادقة، وعاشت بلا هدف قرنين من الزمن قبل أن يمتصها الأتراك. فالحملة الصليبية الرابعة مسخت الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى مجموعة من خمس دويلات منفصلة، ورغم أن إحداها تدبرت فعلاً أمر إعادة الاستيلاء على القسطنطينية في العام 1261 وإعادة تركيب نفسها كبقية إمبراطورية فلم تعد أي دولة يونانية بعد ذلك أبداً أكثر من قيد ثانوي على قوة الأتراك المتنامية. وأخيراً أطفأ الأتراك الإمبراطورية في العام 1453 وأطفؤوا آخر دويلة إغريقية، وهي تريبيزوند، في العام 1471. وقد استغرق الأتراك أكثر بقليل من 380 سنة للتقدم من منزيكرت إلى القسطنطنية - وهي تعادل الفترة التي كان اليونانيون سيمضونها فيما بعد تحت حكم توركوكراتيا - كما سمَّوا السيطرة التركية.



لقد تحولت اليونانية من كونها إمبراطورية عالمية ذات تطلعات كونية شاملة إلى درجة أنها لم تكد تلاحظ إن كانت لغتها إغريقية هيلينية أم رومانية، فأصبحت لسان شعب مغلوب، هم المسيحيون الأرثوذكس، مجرد واحدة من "الملل" ('الأمم' - وفي الحقيقة: التجمعات الدينية) التي لها مكان في الإمبراطورية العالمية للأتراك العثمانيين. فبعد أن تم إذلال اليونانيين في آخر الأمر، بدؤوا يلاحظون ماهية اللغة التي يتكلمونها، فهي غير قابلة للانفصال عن عقيدتهم الأرثوذكسية، وصارت رمزاً لهويتهم في القرون الطويلة التي حرموا فيها من حريتهم.

وبما أن الأناضول في أواخر الألف الأول قبل الميلاد كانت تتكلم اليونانية بشكل لا يقل عن شبه جزيرة البلقان التي تتوجها بيلوبونيزيا، المكان الذي نعتقد الآن أنه أبعد امتداد طبيعي لليونان، فإنه يكاد يكون من باب المصادفة أن

ينتهي الأمر بالمجتمع الناطق باليونانية متركزاً في نفس المكان الذي انتشر منه قبل ألفين وخمسمئة عام. وعند النظر إلى الوراء نستطيع أن نرى أن ذلك إنما يعكس حقيقة أن القوى الإسلامية التي كانت تهدد من الشرق، أي العرب، وقبل كل شيء الأتراك، كانت أفضل تنظيماً وأكثر تماسكاً في المدى الطويل، من التهديدات التي جاءت من الشمال، أي من القوط، والآفار، والسلاف. فالسلاف كان من الممكن امتصاصهم؛ والأتراك لا يمكن امتصاصهم.

المؤاساة في الشيخوخة

أستيقظ فأرى فوراً فوقي
آثينا نفسها تنتظر بصراحة،
وبهذه الكلمات من الأعالي تخاطبني:
'إن شهرة اليونان القديمة
لا زمن سوف يطمسها أبداً:
لأن الحكمة لا تهلك'.

أندرياس مياريس (حوالي العام 1708)

لقد خُرِّبت اللغة اليونانية: فلم تعد لغة مجتمع له تطلعات عالمية. وعندما ترسخت النهضة في أوروبا، تمتعت هذه اللغة بانبعاث كمصدر حكمة للباحثين الدارسين. وهكذا فإن القدرة على قراءتها ومعرفة آثارها الكلاسيكية (المتركزة في القرنين الخامس والرابع ق.م. كما كانت دائماً ـ ولكن مع اهتمام أكثر بأرسطو آنذاك) صارت محكاً مفيداً لمعرفة مدى جدارة الباحثين بالثقة. ولكنها لم ترتفع قط إلى مستوى لغة مشتركة بينهم: فهذا الموقع كانت تحتله زميلتها القديمة، اللاتينية.

ولكن اللغة اليونانية نفسها، كلغة حية، كانت عندئذٍ (في عصر النهضة الأوروبية) ملكاً لعدد من التجمعات الصغيرة التي لم يكن لها حق أو سلطة لتؤثر على الآخرين تأثيراً فعالاً. كما أن شعورهم بالوحدة فيما بينهم قد قلصه انهيار أي علاقة مع التعليم الأدبي اليوناني التقليدي، وهذا تطور كان قد بدأ في القرن

الثالث عشر، قبل قرن ونصف قرن من الانتصار التركي، عندما سيطرت القوى اللاتينية على الكثير من ممتلكات الإمبراطورية القديمة.

وفي هذه المجموعات البيتية، لم تمت اللغة اليونانية. إذ كان نقلها محمياً بدورها في الطقوس الأرثوذكسية: ولكن الحقيقة أنها حتى باعتبارها لغة شعب خاضع، لم تكن مهددة. فلم يكن هناك أي ضغط على المسيحيين لاعتناق الإسلام. ورغم أن التقدم السلجوقي كان يفضل انتشار المستوطنين الناطقين بالتركية عبر الأناضول في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فإن التقدم السياسي للأتراك العثمانيين، الذي بدأ في أواخر القرن الثالث عشر كان غرضه الرئيسي عسكرياً، وهو إعادة تنظيم السكان الأتراك إلى مقاتلين مدمرين. ورغم أن الإمبراطورية العثمانية اجتاحت الشرقين الأدنى والأوسط بشكل عاصف بعد ذلك تبدو مسترخية كلياً - بل إنها لم تكن منظمة بشكل منهجي لأي غرض سوى الغزو العسكري - وقد أتاحت حكماً ذاتياً وفيراً للشعوب ("الملل") التي خضعت لها(*).

ومع ذلك، فإن اليونانية تتوقف بالفعل عن كونها لغة عالمية عند هذه النقطة. فرغم كل الاهتمام الممتع بتقاليدها في أوروبا الغربية، فإنها بعد أن لم تعد سيدة في بيتها نفسه، فإن المجتمع الناطق بها لم يعد يستطيع أن يرى نفسه كمركز ذاتي لعالمه الخاص به. وبدأ اليونانيون يرون أنفسهم كشعب صغير لا يقدر على التصرف إلا عن طريق التفاوض مع آخرين أقوى منه بكثير. فقد انتهت مشاعرهم بأنه لا يوجد أحد سواهم. وسوف لا نتتبع تاريخ هذه المشاعر أكثر، رغم أن هناك الكثير مما يمكن سرده. إن مركز الثقل الجديد في المجتمع اللغوي هو ريفي لأول مرة، وليس محملاً بواجب الحفاظ على ماضٍ قديم أو شعور أوسع بمكانة اليونان في العالم. وقد أدى ذلك إلى تأليف أغانٍ شعبية وقصص خيالية غير مثقلة بمعيقات كلاسيكية عتيقة. وكان هناك شعور

(*) بل إن بطريركية اليونانيين الأرثوذكس حصلت على مكاسب من الغزو التركي لأن السلطان محمداً الفاتح أعاد تنظيم رعاياه الأرثوذكس بعد فتح القسطنطينية، فضم البطريركية البلغارية والبطريركية الصربية إلى سلطة بطريركية القسطنطينية، ولكن البطريركيات ظلت منفصلة من الناحية اللغوية بالطبع.

باللغة اليونانية مبني على روح المتمرد الخارج على القانون الذي لا يقبل بالظلم الأجنبي. ولكن عندما قامت القوى الغربية، المتعاطفة مع الحركة الرومانسية، بضمان تحرر اليونان من العثمانيين في العام 1821، تجدد النقاش حول ماهية المقياس الحقيقي الذي يجب وضعه للغة اليونانية. ومرة أخرى أصدر رجال النخبة اليونانيون حكمهم لصالح سياسة العودة الواعية للتمسك بالألفاظ والأساليب القديمة المهجورة.

ومع ذلك، فللمرة الأولى في أكثر من ألفي عام فإن هذه السياسة لم تنجح. فقد كان هناك شيء قد تغير، ربما بسبب الانقطاع في السيطرة الحضرية للمدن، وبالتالي للتعليم التقليدي الكلاسيكي أثناء فترة الحكم التركي لليونان. وكان ذلك قد أدى إلى ترسيخ أسلوب شعبي في اللغة اليونانية المكتوبة له علاقة باللغة اليومية الدارجة، فصار من الممكن التأكيد على دوره في هذا الوقت. وقد شهد القرنان التاسع عشر والعشرون صراعات أخرى. ولكن منذ سقوط حكم العقداء العسكري (1967 ـ 1974)، وقانون التعليم الصادر في العام 1976، تم قبول مقياس كتابي موحد جديد مبني على شيء قريب من اللغة اليونانية المحكية العادية.

استعادة الماضي: دورة حياة شيء تقليدي

> عليك أن تكون الأفضل دائماً، وأن تتفوق على الآخرين،
> وأن لا تخجل من سلالة الآباء الذين كانوا هم الأفضل...
>
> هوميروس، الإلياذة، 4: 208 (نصيحة أبوية وداعية لبطل هوميري)

إن استعراض توسّع المجتمع اللغوي اليوناني وتقلصه على مدى ثلاثة آلاف عام إنما يجعل سؤالاً أساسياً أكثر إلحاحاً: ما هي الصفات التي جعلت الناطقين باليونانية جديرين بالثناء أكثر من معاصريهم الفينيقيين، والمصريين، والفرس، والإتروسكان، والغاليين، والقرطاجيين، وغيرهم؟ وما الذي جعل الإغريق يعتقدون أن مجموعتهم وطريقة حياتهم أكثر تحضراً من كل هؤلاء الآخرين، وما الذي

أقنع هؤلاء 'البرابرة' المختلفين عموماً بالأخذ بوجهة النظر اليونانية في هذه المسألة؟ ومع سير علاقات القوة خلال العالم القديم فإن السؤال الأهم هو: ما الذي جعل الرومان محبين للأشياء اليونانية بدلاً من أن يعجبوا بالطرق الاتروسكانية، أو البونية، أو المصرية؟

إن أوروبا الغربية تحب أن تعتبر نفسها وريثاً غير مباشر للإغريق، ولكن الروايات الحديثة التي لا تحصى عما كان عليه اليونانيون لا تطرح هذا السؤال، ولا تجيب عليه بالأحرى. بل إنها ببساطة تقوم بمتابعة عمليات إنتاج اليونانيين للمساهمات الطليعية الرائدة في الحضارة الغربية، في الأساطير، والسياسة، والأدب، والفنون، والهندسة المعمارية، والفلسفة والعلم. وهكذا فإن جزءاً من الجواب معطى بصورة ضمنية: وهو أنه ليس بين معاصري الإغريق من ترك سجلاً واسعاً من إنتاجه الثقافي كسجلهم - إلا إذا عدّ المرءُ الرومان الذين اختاروا أن يبنوا فوق العمل اليوناني بدلاً من أن يحلوا محله. ويمكن اعتبار معرفة القراءة والكتابة سلاح الإغريق السري.

ولكن هذا لا يمكن أن يكون هو الجواب الكامل. فبعد كل شيء، فإن معرفة القراءة والكتابة كانت هدية لهم من الفينيقيين، الذين كانوا هم ممثلي المبيعات المتنقلين في سلسلة واسعة من المجتمعات المتعلمة في الشرق الأوسط، من مصر في جانب إلى بابل وعيلام في الجانب الآخر. ولكن اليونانيين، بخلاف الفينيقيين، اختاروا أن يستخدموا معرفتهم بالقراءة والكتابة في تسجيل ثقافتهم: فالقدرة على قراءة اللغة اليونانية جلبت في أعقابها سلسلة واسعة من الأعمال الأصلية. فكانت النتيجة كسب اليونانيين الوصول إلى 'فنون الحضارة' بطريقة لا يمكن إلا أن تثير إعجاب الآخرين الذين اتصلوا بهم. فالحضارة، بعد كل شيء، قابلة لأن تكون جذابة عندما ترتبط مع أشياء سارة وممتعة مثل زيت الزيتون، والنبيذ.

ويمكن العودة بالسؤال مرحلةً إلى الوراء: لماذا استطاع الإغريق، الذين يعيشون على الأرض المتاخمة لبحر إيجه، على طرف البحر الأبيض المتوسط، أن يطوروا ويروجوا فنون الحضارة بهذه الطريقة. إن أي جواب على هذا السؤال

يصبح تكهنياً للغاية. ولكن من الملاحظ أن اليونانيين كانوا هم المجتمع اللغوي الوحيد حول البحر الأبيض المتوسط الذي كانت التجمعات فيه كبيرة إلى حد يلغي تكوين مدن. ولكن برغم كونهم متعلمين لم يكن لديهم ميل للتكتل في دول أكبر، وبالتالي للتوحد في إمبراطورية. وربما كان هذا نتيجة للبيئة الجبلية المرصعة بالجزر التي كانوا يعيشون فيها، مما جعل إطعام المجتمعات الصغيرة والدفاع عنها أسهل من حالة المجتمعات الأكبر، ولكن هذا لا يعني أن اليونان قد أصبحت ساحة تنافس شائعة للتطورات الثقافية التي يمكن أن تمتد إلى اليونانيين الآخرين إذا كانت ناجحة أو جذابة ... (كما في حالة الأدب الأتيكي Attic مثلاً)، ولكنها لا تميل إلى إزاحة بعضها بعضاً إلى الخارج. وبهذا المعنى يمكن اعتبار تاريخ اليونان المبكر شبيهاً بتاريخ أوروبا بعد النهضة - أي رؤيته كزواج خصب بين الاستقلال التنافسيّ وبين الاتصالات الجيدة.

وكثيراً ما يبرز - بطريقة خيالية نوعاً ما - زَعْمٌ بأن أعظم مساهمة لليونان في الحضارة اللاحقة هو الديمقراطية، أعلى آلية مخترعة لتحقيق 'الحرية'، وهي فضيلة يزعم اليونانيون دائماً أنهم يهتمون بها. وهذا زعم زائف بالتأكيد: زائف كنظرية عما أعجب الأجانب في اللغة اليونانية التي واجهتهم، وزائف كتفسير لما جعل اللغة اليونانية قادرة على الانتشار بعيداً عن موطنها إلى الشرق والغرب. وقد أشرنا من قبل إلى أن معظم المدن - الدول اليونانية لم تكن أي واحدة منها ديمقراطية أبداً، كما أن الدول الأكبر التي كانت اليونانية لغتها الرسمية والتي تأسست في جميع أنحاء مصر وكثير من أنحاء آسيا بعد غزوات الإسكندر كانت كلها ملكية بلا استثناء. وكانت دولاً بيروقراطية، ليست السيطرة ممكنة فيها للمواطنين المدنيين المعنيين، بل وليست هدفاً مثالياً. وكانت تلك الدول أكبر من أي مدينة - دولة. وعندما انتشرت اللغة اليونانية فإنها لم تحمل معها الخصائص المحتمل أنها حساسة الأهمية في خلق ثقافتها الأصلية المرافقة لها.

والحق أن الخاصية الكبرى للثقافة الإغريقية عبر تاريخها الطويل المستمر منذ القرن الثالث ق.م. كانت هي الرغبة في العودة إلى منتجاتها التقليدية الكلاسيكية، وتقليد شكلها اللغوي، وكذلك أسلوبها ومحتواها بقدر

المستطاع، ولكن ليس إثارة الابتكار والأصالة التي لا بد أنها صاَحَبَتْ كتابتها في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. إن أي شيء ثبت أنه دائم في التقليد اللغوي اليوناني كانت له علاقة بالنزعة المحافظة الجامدة أكثر بكثير من العلاقة بالانفتاح على الأفكار الجديدة المثيرة ـ هذا مع التخلي جانباً عن مسألة ما إذا كانت الأعمال الكلاسيكية هي فعلاً أفضل الأشياء التي كتبت على الإطلاق. إن تاريخ المجتمع اللغوي اليوناني إن لم يظهر شيئاً آخر، فإنه يظهر أن النزعة المحافظة يمكن أن تكون جذابة أيضاً إذا كان هناك شيء جذاب تتم المحافظة عليه.

ويمكننا أن نرى أن ما كان لدى اللغة اليونانية لتعطيه كان شديد الجاذبية في سياق العالم القديم. فحتى أولئك الذين كرسوا حياتهم العملية المهنية للحدّ من تأثير اللغة اليونانية وإنقاصه أخذوا منها بقدر ما استطاعوا: ومنهم ملوك كوشانا الأفغان، الذين ظلوا يستخدمون اللغة اليونانية على عملاتهم المسكوكة بعد أن أطاحوا بالملوك اليونانيين، والبلدان البارثية والأرمنية التي ظلت تمتع نفسها بالمسرحيات المأساوية الإغريقية، حتى عندما كانت جيوشها تتفوق على طلبة الإغريق من الرومان، والقادة القرطاجيون الذين كانوا يستخدمون اللغة اليونانية للتواصل مع قواتهم ومرتزقتهم. لقد كان اليونانيون بلا شك المتواصلين العظام في عالم البحر الأبيض المتوسط.

ولكن الوكلاء الذين نشروا هذه البضاعة التي لا شك في جاذبيتها في العالم المأهول لم يكونوا يونانيين بالفعل إلا نادراً. بل إن نشر اللغة اليونانية هو درس موضوعي في فعالية الحصول على توصيلة مجانية. فمقدونيا كانت خارج نطاق المجتمع اللغوي اليوناني، ومع ذلك فإن ملوكها زرعوا مستعمرات ناطقة باليونانية على طول الطريق حتى حدود الهند. وكانت الآرامية لغة أكبر عدو للإغريق، وهي الإمبراطورية الفارسية، ومع ذلك فإن استخدام اليونانية لمدة مئتي عام كلغة لأرشيف المحفوظات عبر تلك الإمبراطورية كان يعني أن هناك نموذجاً واضحاً لليونانيين كي يتبعوه في بذر بذور شبكة اتصالات قائمة على اللغة اليونانية حول ممتلكاتهم الجديدة التي حصلوا عليها. وبعد ذلك بمئتي عام كانت

روما، ومعها اللغة اللاتينية، تجتاح حافة الأبيض المتوسط بشكل عاصف، ومع ذلك فإن اليونانية، لغة المستعمرات في إيطاليا الجنوبية تم قبولها بنوع من المساواة مع اللاتينية، واستمرت لتصبح هي البيئة الثقافية الحقيقية للإمبراطورية الرومانية، بمعنى أنه لم يكن أحد من سكان الإمبراطورية قادراً على الاستغناء عنها. وبعد مئتي عام أخرى، كانت المكانس التي تمسح الإمبراطورية ديانات غامضة، وخصوصاً المسيحية، ومع ذلك فرغم أنه لم تنبع أي من هذه الديانات أصلاً من اليونان، فقد كانت لغتها المفضلة هي اليونانية. وهكذا أقامت اليونانية صلةً لا تنفصم مع أعظم حركة في أواخر الإمبراطورية الرومانية، وهي الكنيسة المسيحية. وبضربة حظ سعيد أخيرة فإن هذه الحركة، المتخصصة الآن كمسيحية أرثوذكسية، صارت مفتاح الحفاظ على اللغة اليونانية خلال أربعة قرون من السيطرة التركية، بعد انحلال الإمبراطورية الرومانية في الشرق. وهكذا فإن اللغة اليونانية مدينة بسيرة حياتها اللافتة للنظر إلى المساعدة من أصدقائها عند كل نقطة تحول حساسة طيلة الألفين وثلاثمئة عام الأخيرة.

ومع ذلك فإن من الغريب أنه برغم كل العلاقات الوثيقة مع القوى الثقافية الأخرى (في المجالات العسكرية والإدارية والروحية)، فإن اللغة اليونانية كانت شديدة المقاومة للتأثير من الآخرين الذين اتصلت بهم أو احتكت معهم. وقد رأينا أنه في أقصى التخوم الشرقية، كانت اليونانية مستعدة لأخذ كلمات مستعارة لمواد جديدة مثيرة للاهتمام من الهند(*)، ولكن تأثير الآرامية، شريكتها في الفراش، كان ضئيلاً إلى درجة أنه يمكن إهماله. وفي الغرب فإن مساكنتها للاتينية كلغة رئيسية للإمبراطورية الرومانية أدت إلى حصيلة من الاستعارات المخصصة للقضايا الرسمية والعسكرية، والأمور الإدارية والمالية (مثل أسماء الشهور، وقطع العملة، والتصانيف، والرتب العسكرية، والضرائب) ولكن لم تكن بينها كلمات من الحياة اليومية(**). وكثير من الكلمات التي يتوقع فيها المرء

(*) مثل: "زنجبري"، أي 'الزنجبيل'، و"سكارون"، أي 'السكّر' (انظر الفصل الخامس: 'شخصية اللغة السنسكريتية'، ص 276).

(**) يبدو أن الكلمات التالية قريبة من القائمة الكاملة: "سبيتي"، أي 'البيت' (من الكلمة اللاتينية

استعارات، مثل: "قنصل، سناتوس، أغسطس، إمبراطور" هي في الحقيقة مترجمة في العادة: "هوباتوس" (ومعناها الحرفي 'الأعلى')، "جيروسيا"، أي 'اجتماع كبار السن'، "سيباستوس"، أي 'المبجل' و"أوتوكراتور"، أي وبالمثل فإن الأخذ باللغة اليونانية في المسيحية وأديان الغموض الأخرى قد تركها سليمة بشكل مثير للدهشة، إذا استثنى المرء أسماء الناس والأماكن وكلمات التعجّب والانفعال التهليل، مثل "آمين" و"المجد لله"(*).

ولقد تغيرت الأشياء بعد أن قامت الحملة الصليبية الرابعة بنزع السلطة من اليونانيين. فقد دخلت إلى اللغة اليونانية عناصر لاتينية والتصقت بها، مثل "بانيو"، أي 'الحمّام'، و"باستارو"، أي "النغل ابن الحرام"، و"بيرا" أي 'الجعة'. وبعد ذلك، ضمن العالم الذي يديره الأتراك، أخذت اليونانية تتصرف بالفعل كلغة خاضعة للاستعمار، فامتصت حشداً كاملاً من الكلمات التركية، ليس فقط لمفاهيم جديدة، مثل "تزامي"، أي 'المسجد'، "حاتزيس"، أي 'الحاج إلى مكة'، 'أوتاليسسكي'، أي 'المحظية' (من الكلمة التركية أوضا - ليك أي المساكنة في الغرفة - مربوطة مع حرف تصغير يوناني)، ولكن أيضاً كلمات دنيوية ولا مبرر لها على ما يبدو، مثل "بويجي"، أي 'الدهان' و"تمبليز"، أي 'الكسول'، و"ياقة"، أي 'القبة'، و"بوليكوس"، أي 'الوفير' 'وزقاقي' أي 'الزقاق.' ومنذ ذلك الحين تم إسقاط كثير من أمثال هذه المفردات، أو قمعها بسياسات تخطيط لغوية منذ استقلال اليونان. ولكن التسامح الجديد مع الكلمات المستعارة منذ انهيار الإمبراطورية [البيزنطية الشرقية] هو بحد ذاته دليل على أننا كنا على حق في رؤية التغير في تصور اللغة اليونانية لنفسها في حوالي ذلك الوقت: فبعد

"هوسبيتيوم"، أي 'الخان')، سكامنيو، أي 'المقعد الطويل' (سكامنوم)، "بورتا"، أي 'الباب'، "كامارا"، أي 'الغرفة'، "فيرغا"، أي 'العصا' وربما "آسبروص"، أي 'الأبيض' (من اللاتينية "آسبر"، أي 'الخشن'). قارن مع قائمة الاستعارات الأطول بكثير التي أخذتها اللغة الويلزية (التي كانت على اتصال وثيق باللاتينية طيلة نصف الوقت) (انظر الفصل السابع: 'التشاور: الأساس المنطقي لسيادة اللغة الرومانية'، ص 427).

(*) لقد اقترح بأن الخيار المفضل للكلمة المسيحية المعبرة عن 'المحبة'، وهي كلمة "اغابي"، متأثر بكلمة "أحب" العبرانية (التي يتصادف أن فيها ظلالاً جنسية أكبر مما في الكلمة الإغريقية)، وأن الكلمة اليونانية "سكين"، أي 'الخيمة' متأثرة بالكلمة العبرية "سكين"، أي 'السَّكَن' (مول 1959، ص 186).

تخليصها من مسؤولياتها في الحفاظ على النظام في ممتلكاتها التاريخية، وفي الوقوف كحصن للمسيحية الأرثوذكسية، لم تعد اللغة محفوظة في عزلة واعية كهذه عن جيرانها.

وبعد أن تطورت اليونانية بشكل ذاتي مستقل كمنطقة ثقافية مرتبطة بشكل أساسي بلغة مشتركة، ومجموعة من الآلهة مشتركة، وشعور عام بالقرابة، فرض الامتداد العالمي عليها: فكانت هذه جائزتها على إثارتها لإعجاب القوى الإمبراطورية المقدونية والرومانية بمثل هذه القوة. فمع مرور القرون انحسرت هذه القوى وابتعدت، تاركةً في أعقابها وحدات سياسية واسعة النطاق، والناطقين باليونانية كحرّاس للأمر الواقع لحكم سياسي ليس من صنعهم. فكان رد فعلهم التمسك بجوهر تقاليدهم الخاصة بهم، التي تبين في التحليل الأخير أنها ليست سياسية، ولا حتى فكرية، بل لغوية. إذ إن نهجهم المدني المتميز في الحكومة قد تساقط عندما واجهته وحدات أكبر من المدن - الدول. فقد استسلمت فلسفاتهم العقلانية أو متعددة الآلهة للمسيحية، ولكنهم لم يفقدوا الإيمان أبداً بالقدرات الخطابية لليسياس أو ديموستين، ولا بشعر أسكيلوس أو يوريبيديس، ولا بنثر أفلاطون وكزينوفون. كان ذلك إيماناً غريباً واجهته إمبراطورية متعددة الجنسيات متعددة اللغات. ولكنه خدمهم بشكل مفيد.

وبالنتيجة فإن أنانة اللغة اليونانية وصلت إلى نهايتها مع سقوط إمبراطوريتها المرتبطة بها. فبعد ألفي عام من التركيز الثابت الصامد، فإنها لم تعد مقيّدة بالحفاظ على وحدتها بالتمسك بالاعتقاد بأن معيار الامتياز الثابت الذي لا يتغير في المجال اللغوي إن لم يكن في المجال الروحي هو لغة مدنية إغريقية واحدة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. ومن منظورنا في القرن الحادي والعشرين وخاصة في مجتمع لغة كالإنكليزية التي حررت نفسها من عبادة الكلاسيكيات القديمة، سواء أكانت بلغتها أم بأي لغة أخرى، فإن من الصعب رؤية قيمة حقيقية في هذه الأسطورة المركزية. ولكن الإنجاز الإغريقي يقف كنصب تذكاري مثير للاهتمام لإحدى طرق الإبقاء على تقليد لغوي، حتى ولو كان واسع الامتداد، وموحداً عن وعي بالذات. إن غياب أي انقسام خطير في

اللغة اليونانية مثير للدهشة تماماً حتى يومنا هذا. فاللغة اللاتينية خلفتها حفنة من التقاليد اللغوية الوطنية المنفصلة التي ابتعدت عن جذورها المشتركة في لاتينية روما، لنقل في القرن الثاني ق.م. ولكن اليونانية - حتى كما هي محكية على الشواطئ التركية للبحر الأسود أو في القرى النائية في جنوب إيطاليا - تعرف ما هو مركزها المشترك. فالتزلف للهجة الأتيكية Attic نجح فعلاً، في البرنامج الأكبر لضمان بقاء اليونانية لغة لمجتمع وحيد.